المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
فرع الأدب

٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٣٥٦٣

الإسراف
بين الخطاب القرآني، ورؤية الشاعر الجاهلي.
مناحيه الاجتماعية، وأساليبه البيانية.

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب

UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

إعداد:

الطالبة / مريم عبدالهادي محمد القحطاني.

إشراف:

الأستاذ الدكتور / حسن محمد باجودة.

١٤١٨هـ / ١٤١٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾[1]

الحمد لله الذي أنار قلوب عباده المتقين بنور كتابه المبين، وجعل القرآن شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء، وأشرف المرسلين، سيدنا محمد، النبي العربي الأمي، الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، ومن غياهب الجاهلية المنحرفة إلى محجة الشريعة الغراء المستقيمة، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد قدر الله لنا أن نكون من أهل هذا الزمان الذي ساد فيه الاضطراب والاختلال والإسراف، وشهدنا هذه الحضارة المعاصرة المسرفة في مجالات شتى، وبدا – جلياً – أن آفة الإسراف تنخر الكيان الإنساني الحضاري المعاصر، بصورة تنذر بانهيار مريع وشيك. والمفزع في الأمر أن هذه الآفة المهلكة بدأت تتفشى شيئاً فشيئاً في مجتمعنا المحلي، ورأيت أن لا نجاة لنا من مهاوي الإسراف إلا بالعودة الصادقة إلى القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، نتفيأ ظلال رحمة الله وهدايته في رحاب الآيات القرآنية النيرة، فتركز البحث من جهة على دراسة الإسراف في الخطاب القرآني، ومن جهة ثانية فإن موضوع الإسراف قد حظي بدراسات شرعية فقهية، وأخرى اقتصادية واجتماعية، مما سنبينه في موضعه من التمهيد – بإذن الله – ولكنه لم يبحث – حسب علمي – من الزاوية الأدبية، ومن البديهي أن الأدب الجاهلي يمثل قمة شامخة للأدب العربي، فانطلقت أحلق بين دواوين شعراء الجاهلية، أطالع من خلالها حالة القوم الذين نزل عليهم القرآن أول ما نزل، وفيم كان إسرافهم؟ وفيم كان توازنهم؟ وكيف عبروا

---

[1] سورة الزخرف – ٣

عن كل ذلك في أشعارهم؟ وكيف عالج القرآن الكريم ذلك الإسراف، وقوّمه، ووجهه وجهته الصحيحة، حتى ارتفعوا من وهدة الإسراف إلى علياء الاستقامة والقصد.

وهكذا يسر الله لي، بفضل منه وإنعام، الجمع بين دراسة القرآن الكريم، ودراسة الشعر الجاهلي، ولقد كنت استشعر في كافة مراحل هذا البحث مدى الصعوبة، وثقل المسئولية على من يتناول هذين المجالين، وطالما ارتجف القلم بين أناملي قبل أن يسطر فكرة ما انتهيت إليها، أو نظرة ما لمحتها في ثنايا هذا البحث. ويشهد الله أني قد حاولت – قدر استطاعتي – تحري الدقة والموضوعية في كل ما كتبت، والله المستعان أولاً وآخرا.

وقد قسمت هذ الدراسة إلى تمهيد، وأربعة أبواب، ثم خاتمة تتضمن أهم نتائج البحث.

وقد ركز التمهيد على توضيح دلالة كلمة (الإسراف) من الناحية اللغوية، والشرعية، والاجتماعية، مع الإشارة إلى الدراسات السابقة لهذا الموضوع.

أما الأبواب فجاءت على النحو التالي:

الباب الأول – المجتمع الجاهلي، وأثر البيئة في تشكيل تقاليده وإسرافه:

تم في هذا المبحث توضيح طبيعة بيئة جزيرة العرب، وما كان لها من تأثير واضح على قاطنيها، وشمل هذا التأثير النواحي التالية:

١– التأثير على المعتقدات الدينية:

حيث توقفت عند المعتقدات الدينية عند عرب الجاهلية، وما كان لطبيعة الصحراء الواسعة النيرة، ذات الهواء الطلق، والامتداد اللانهائي، من دور بارز في بقاء جذوة التوحيد دون انطفاء، والنأي بأهلها عن الوثنيات الموغلة في الإسراف، وقد

اتضح ذلك بجلاء في ضوء مقارنة وثنية عرب الجاهلية، بالوثنية اليونانية وما فيها من إسراف، بإدعاء تعدد الآلهة الخالقة للكون، تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا.

٢- التأثير على العلاقات الاجتماعية:

وجرى ذلك ضمن نطاقين:

أ - العلاقات الأسرية:

وكان أبرز ملامح الإسراف النابعة من تأثير البيئة في هذا النطاق ما عرف بظاهرة (الوأد)، حيث تظافرت عوامل الجدب والفقر مع طبيعة الحياة الحربية، مما أسهم في نشوء هذه التعامل المسرف مع أضعف فرد في الإسرة، ألا وهي (الابنة).

ب - العلاقات القبلية:

كانت حياتهم السياسية قائمة على النظام القبلي، وكانت حياتهم الاقتصادية قائمة على الثروة الحيوانية، وكلا الأمرين نابع من طبيعة بيئتهم، وبينهما تداخل عميق أثر في تشكيل تقاليد اجتماعية قوامها الإسراف في نواح عديدة، مثل: الحرب، الثأر، والعصبية القبلية، وبروز قيمة القوة، والدعوة للبدء بالظلم، وغيرها.

٣- التأثير على الأخلاق:

كانت صحراء جزيرة العرب كالأم التي تقسو شيئاً ما على أبنائها لتعودهم الصلابة، وقوة الاحتمال، ومشاركة الآخرين آلامهم ومعاناتهم، وبتأثير من أيامها الملتهبة بالحرارة، ولياليها الباردة الموحشة، عرف العربي معاني الشجاعة والكرم، وبتأثير من امتدادها واتساعها عرف معنى الحرية، وإباء الضيم، والأنفة.

الباب الثاني – أصداء الإسراف في الشعر الجاهلي:

وفيه عرض وتحليل للنماذج الشعرية التي تدل على ظاهرة الإسراف عند عرب الجاهلية، وقد جرى تصنيف تلك النماذج في ثلاثة مجالات:

ب – الإسراف في القيم المتعلقة بالعلاقة مع الله:

حيث بدا أن الأشعار الجاهلية تكاد تكون بعيدة – إلى حد ما – عن روح الوثنية المسرفة الغليظة، وأن قائليها ممن يعتقدون وحدانية الله الخالق للكون، ويكاد يقتصر الإسراف في هذه الناحية على بعض المعتقدات الفرعية، مثل: الاستعاذة بالجن، وعقد التمائم، وزجر الطير.

٣ – الإسراف في القيم المتعلقة بالعلاقة مع النفس:

وذلك من خلال تحليل أخلاقيات عرب الجاهلية في ضوء نصوصهم الشعرية، وأبرز تلك الأخلاقيات التي ترآى فيها ملمح الإسراف، ما يلي:

أ – **الكرم:** فالشعر الجاهلي حافل بذكر الكرم والإشادة بالكرماء، وما قد يبدو في تضاعيف ذلك من مغالاة في الكرم والبذل، حتى يصير إسرافاً في إنفاق المال، وإتلافاً له، وبإمعان النظر في تلك النصوص الشعرية أمكن ترشيح مجموعة من الدوافع التي تضيء لنا الإسراف في هذا الخلق، وهي:

النظرة إلى الموت، مفهوم القدر، مطالب البيئة، نظرة المجتمع.

ب – **الحرية والإباء:** ونصوصهم الشعرية تشير إلى إيمانهم بحرية مطلقة مسرفة، لا تقف عند حد، وتطبع الأفراد والقبائل بطابع الإفراط في حب هذه الحرية، والاستماتة في المحافظة عليها، وانعكس ذلك على حياتهم، فلم يخضعوا لسلطة موحدة عامة، ونظروا باحتقار للمهن التي تحد من حريتهم، وطبعت نفوسهم

بطابع الأنفة وإباء الضيم، وبالغوا في ذلك، حتى خرج بهم إلى الطيش، وسرعة الانفعال لأدنى الأسباب، هذه الصفات التي أسرفوا فيها كانت الوقود الدائم للحروب المشتعلة في ذلك العصر.

ج - **طلب الملذات:** وأبرزها (الخمر) التي أسرف عرب الجاهلية في شربها، وفي محاولة لفهم منشأ هذا الإسراف في شرب الخمر، أمكن تحديد النقاط الآتية:

١- الحاجة إلى بث الشجاعة في النفوس عند الحرب، وإثارة معاني الكرم والبذل.

٢- توقع الفجيعة.

٣- النصر والهزيمة.

٤- ما يرون أنها تبعثه من الأوهام الحالمة.

ومن الملذات التي ارتبطت بالخمر وأسرفوا فيها، ما يكون في مجالس الخمر من مجون وغناء، وقد صوروا كل ذلك في أشعارهم.

هـ - آداب الطعام والشراب واللباس:

وفي هذا المبحث تمت مناقشة الحكم الذي يصف أبناء العصر كله بأنهم يحيون حياة البادية البسيطة، التي تقوم على القليل من الزاد، ويرتدي أهلها البسيط من الثياب، حيث ظهر بوضوح من أشعار العصر الجاهلي وجود (بيئات مترفة) تتسم حياتها بطابع الإسراف في المأكل، والمشرب، واللباس، والزينة.

ثانياً: الإسراف في القيم المتعلقة بالعلاقة مع الآخرين:

وأبرز المظاهر التي تتسم بالإسراف في العلاقة مع الآخرين، هما:

الحرب - الطبقية في المجتمع الجاهلي.

ويبدو إسرافهم في الحرب في اشتعال نيران الحروب بشكل شبه متواصل بين القبائل العربية، واتخاذ أسلوب القتال والغارة نمط معيشة، كما يظهر هذا الإسراف حتى بعد انجلاء قتام المعركة، ويظهر ذلك الإسراف في الثأر، وفي الأسرى والسبايا، وفي التمثيل، وكشفت النصوص الشعرية الجاهلية أن (الإسراف في الحرب) كان أبرز مظهر للإسراف في العصر الجاهلي.

أما الطبقية التي ظهرت في أشعارهم فتخالف الفكرة الشائعة عن أهل الجاهلية، التي ترى أنهم كانوا مجتمعاً بدوياً لا يعرف الفروق الطبقية بين أفراده، وقد أثرت هذه النظرة الطبقية على العديد من الأعراف الجاهلية فيما يتعلق بالديات، والفداء، والتكافؤ في الزواج ونحوها.

الباب الثالث: النهي عن الإسراف في القرآن الكريم:

لقد نهى الله عز وجل عباده عن آفة الإسراف في مواطن شتى من كتابه الكريم، وكان ذلك بأساليب متنوعة، وقد أمكن تصنيف الآيات في هذا المبحث حسب موضوعاتها، فجاءت على النحو التالي:

١- الآيات المتعلقة بالإسراف مع الله:

وهذا القسم من الآيات يشكل حيزاً كبيراً من الآيات القرآنية التي تناولت الإسراف في أي مجال آخر، ويعود ذلك إلى سببين:

- الأهمية: فعلاقة العبد مع الله أهم العلاقات، واستقامته في هذا المجال تسهل الاستقامة فيما سواها.
- الشمول: فالإسراف في العلاقة مع الله يطبع حياة المرء بالإسراف في شتى مناحيها.

والإسراف في العلاقة مع الله يتمثل في الكفر بالله، وادعاء الألوهية من دونه، والإعراض عن ذكر الله، وعدم الإيمان برسله، وكتبه، وإنكار البعث.

٢- الآيات المتعلقة بالإسراف مع النفس:

وقد أمكن تصنيف آيات هذا المجال إلى قسمين كبيرين:

أ - القيم المرتبطة بالسلوك، مثل:

آداب الطعام والشراب، واللباس والزينة، والمشي والكلام، وحتى البناء.

ب - القيم المرتبطة بالمشاعر الإنسانية، مثل:

الفرح، والحزن، وحب المال، وحب الدنيا، والغفلة، والخوف، ونحو ذلك من المشاعر.

٣- الآيات المتعلقة بالإسراف مع الآخرين:

وآيات هذا المجال تشمل الجوانب الآتية:

أ - أحكام القتال، والقصاص، ورد الاعتداء: وذلك في آيات عديدة أبرزها قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾[3].

ب - الإنفاق:

أدب الإنفاق في الإسلام في صورته العامة لا يتعلق بالكثرة أو القلة، بل بالإنفاق في وجهته الصحيحة، وهذا يحدده الموقف، فبعض المواقف يستدعي الإنفاق الكثير دون أن يكون ذلك سرفاً، وبعضها يستدعي التوسط، والمرجع في ذلك كله

---

[1] سورة البقرة - ١٩٤

[2] سورة الإسراء - ٣٣

[3] سورة الشورى - ٤٠

للحال، هذا عند الصدقة، أما إنفاق الإنسان في معيشته اليومية فالوسط هو ما يحث عليه الشارع الحكيم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [1].

ومن أظهر ما ركزت عليه الآيات الكريمة في هذا المجال الارتقاء بدوافع الإنفاق، فقد عرف عن عرب الجاهلية كرمهم وبذلهم، فكانوا ينحرون إبلهم، ويتياسرون عليها للفخر والسمعة، ويذكرون ذلك في أشعارهم، فجاءت الآيات الكريمات للحث على جعل البذل والإنفاق في سبيل الله، دون سمعة ولا رياء، ولا مَنّ ولا أذى.

جـ – الجرائم الأخلاقية:

حرص الشارع الحكيم على طهارة المجتمع المسلم، وحفظه من الانحرافات الأخلاقية المدمرة للمجتمعات، وبرز التعبير عن هذه الانحرافات في القرآن بصيغة (الفاحشة)، سواء في مقام الحديث عن الزنا، أو عن اللواط، ونحو ذلك من الانحرافات، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾[3]، وقال عز من قائل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾[4].

٤– الآيات التي تناولت الإسراف في معناه الشامل:

والجامع بين هذه الآيات الدلالة على أن الإسراف غريزة مركبة في أصل النفس البشرية، ويأتي التعبير عن ذلك تارة بـ (الفجور) وتارة بـ (الطغيان) وثالثة بـ (البغي)، وحين يكتشف المؤمن هذا الضعف المركب فيه فهو – ولاشك – سيضاعف حذره

---

[1] سورة الفرقان – ٦٧

[2] سورة الإسراء – ٣٢

[3] سورة المؤمنون – ٧

[4] سورة الأعراف – ٨٠

ويقظته، حتى لا يحيد فيقع في الإسراف، قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾[1].

الباب الرابع – دراسة فنية بيانية:

وقد تناولت هذه الدراسة مجالي البحث، وهما: القرآن الكريم، والشعر الجاهلي. وفي الدراسة الفنية للشعر الجاهلي ظهر انعكاس إسرافهم في الحرب، وفي الملذات على أشعارهم، وبدا أن الحديث عن الحرب وأهوالها في الشعر قد خلا من مشاعر الإحساس بالألم أو الذنب، بل تجد الفخر بهذه القسوة، وتجد تلك الصور الدموية التي تكسوها ظلال التشفي والشماتة، لقد كانت فكرة الحرب في العصر الجاهلي خالية من الدنس والإثم؛ لأنها – حسب قول بعضهم – مفتاح الطهارة[2]، ولقد تقابل تطرفهم الحاد العنيف في الحرب، مع تطرف حاد عنيف في طلب الملذات، وأثر ذلك في أشعارهم، فتجد الشاعر ينتقل فجاءة من وصف اللذة والبهجة إلى وصف الموت والفناء، فيمزج في أبيات قليلة، بين الفرح والحزن، والبهجة والتشاؤم.

وفي الدراسة الفنية البيانية لآيات النهي عن الإسراف جرى تقسيم الآيات – أسلوبياً – إلى:

أ – آيات النهي الصريح عن الإسراف.

ب – آيات النهي الضمني عن الإسراف.

والنهي الصريح عن الإسراف، كان إما نهياً نحوياً عن الإسراف، باستخدام أدات النهي (لا).

وإما نهياً معجمياً عن الإسراف، باستخدام صيغ عديدة تشترك مع الإسراف في الدلالة على مجاوزة الحد.

وفي النهي الضمني عن الإسراف، برزت أساليب معينة لهذا النوع، مثل أسلوب الوعيد، وأسلوب عرض النماذج المسرفة، وقصص الأمم السالفة من المسرفين، وأسلوب الحث على التوازن.

---

[1] سورة الشمس – ٧،٨

[2] مصطفى ناصف – قراءة ثانية لشعرنا القديم – ص١١٠

وبعد إلقاء ضوء عام على هذه الأساليب، وجدنا أنها تأتي في القرآن الكريم بشكل متداخل، يكسب السياق تنوعاً، وتناسقاً، وتلويناً في الأسلوب.

الخاتمة – وتتضمن أهم نتائج البحث.

وكان زادي في هذه الرحلة العلمية الطويلة دعاء الله واستعانته في كل حال، ثم العديد من أمهات الكتب والمصادر، أبرزها ما يلي:

١- القرآن الكريم.

٢- كتب تفسير القرآن الكريم، وأبرز كتب التفسير التي كانت لها الفائدة الجليلة في هذا البحث:

الكشاف – للزمخشري.

مفاتيح الغيب – للفخر الرازي.

تفسير القرآن العظيم – ابن كثير.

روح المعاني – للألوسي.

نظم الدرر – للبقاعي.

الجامع لأحكام القرآن – القرطبي.

أحكام القرآن – ابن العربي.

في ظلال القرآن – سيد قطب.

تأملات في القرآن "سورة الفرقان"، "سورة محمد (القتال)" – د. حسن باجودة.

صفوة التفاسير – الصابوني.

ومن كتب الآيات المتشابهات كان أبرز ما اعتمدت عليه في ذلك: درة التنزيل وغرة التأويل – للخطيب الإسكافي.

والبرهان في توجيه متشابه القرآن (أسرار التكرار في القرآن) – محمود بن حمزة الكرماني.

٣- دواوين شعراء الجاهلية، إضافة إلى المجموعات الشعرية، والمختارات، والأمالي، مثل:

المفضليات، والأصمعيات، والحماسة، وأمالي القالي، وأمالي ابن الشجري.

٤- كتب الأدب، واللغة، والبلاغة، والمعاجم:

مثل: لسان العرب - لابن منظور.

معجم مقاييس اللغة - لابن فارس.

والفروق اللغوية - لأبي هلال العسكري.

والقاموس المحيط - للفيروز أبادي.

وأساس البلاغة - للزمخشري.

وفي البلاغة استفدت إيما فائدة من كتاب:

دلائل الإعجاز - للشيخ عبدالقاهر الجرجاني.

ومن الكتب الحديثة التي قدمت لي الكثير من العون:

البيان في روائع القرآن - د. تمام حسان.

عالم الدلالة - د. أحمد مختار عمر.

أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم - يوسف الأنصاري.

قراءة ثانية لشعرنا القديم - د. مصطفى ناصف.

الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه - د. محمد النويهي.

بالإضافة إلى كتب الطبقات والتراجم التي استفدت منها في التعريف بالأعلام.

٥- كتب التاريخ، القديمة منها والحديثة، مثل:

الكامل - لابن الأثير.

البداية والنهاية - لابن كثير.

المقدمة - لابن خلدون.

أيام العرب - لأبي عبيدة.

تاريخ التمدن الإسلامي - جورجي زيدان.

موسوعة تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي.

وفي النهاية تبقى كلمات يمتلىء بها القلب حمداً وشكراً لله الذي أكرمني بصحبة كتابه العزيز أياماً من عمري، هي أثمن ما فيه، أسأل الله أجرها وبركتها.

- طه

وشكر خاص إلى جامعتي العتيدة، جامعة أم القرى، وإلى كلية اللغة العربية.

وأرى من واجب المروءة والوفاء، أن أتوجه بالشكر والعرفان إلى سعادة المشرف السابق، الأستاذ الدكتور: محمود فياض، فقد كان له فضل إقرار الموضوع، ورسم منهجته وتبويبه، فجزاه ا لله عني خير الجزاء، وجعله في موازين حسناته عند اللقاء.

كما أتوجه بالشكر الجزيل والثناء الطيب إلى سعادة المشرف الحالي، الأستاذ الدكتور: حسن باجودة، أستاذ الدراسات القرآنية والبيانية وعميد كلية اللغة العربية، الذي خرج هذا البحث إلى النور على يديه، وتابع قراءة فصول الرسالة أولاً بأول، بجهد وصبر، ولم يبخل بتوجيهاته السديدة، وآرائه القيمة، التي كان لها أكبر الأثر في إضاءة جوانب هذا البحث، فله من ا لله جزيل الثواب، ومني الشكر والامتنان.

كما أقدم شكري إلى فضيلة المناقشين الكريمين، نفعني ا لله بحسن توجيهاتهما، والالتزام بصائب رأيهما.

وجزى ا لله كل من مد لي يد العون في إخراج هذا البحث خير الجزاء، وأخص بالشكر زوجي العزيز، الدكتور سعد البشري، الذي في ظل صحبته الكريمة يسر ا لله لي النهل من معين العلم الخالد.

وإلى والدتي، الأم الرؤوم، التي غرست في نفسي حب العلم منذ النشأة، فجزاها ا لله عني خير الجزاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين.

التمهيد :

أولاً : الإسراف ودلالته اللغوية :

١- في المعاجم .

٢- في القرآن الكريم .

ثانياً : الإسراف ودلالته الاجتماعية :

١- في التشريع .

٢- في التاريخ والحضارة .

٣- في التربية .

٤- في الناحية البدنية .

ثالثاً : الإنسان بين التوازن والإسراف .

الدراسات السابقة لموضوع : (الإسراف).

أولاً : الإسراف ودلالته اللغويّة :

١- في المعاجم :

((السرف والإسراف: مجاوزة القصد، وأسرف في ماله : عجل عن غير قصد ، والإسراف في النفقة : التبذير، وقوله تعالى :﴿ ولاتسرفوا﴾ الإسراف : أكل ما لا يحل أكله، وقيل: هو مجاوزة القصد في الأكل مما أحله الله، والسرف : ضد القصد، وأسرف في الكلام وفي القتل : أفرط، والسرف تجاوز ما حُد لك، والسرف : الخطأ، وأخطأ الشئ : وضعه في غير حقه، وقد تكرر ذكر الإسراف في الحديث ، والغالب على ذكره الإكثار من الذنوب والخطايا، واحتقاب الأوزار والآثام، والسرف : الخطأ، أسرف الرجل إذا أخطأ، والسرف الإغفال، أسرف الرجل إذا غفل، والسرف : الجهل، أسرف الرجل إذا جهل)) [١].

ويذكر صاحب أساس البلاغة الأصل اللغوي لمادة سرف :((عود مسروف: إذا أكلته السرفة، ويقال: يفعل السرف بالنشب ما يفعل السرف بالخشب، وسرفت المرأة ولدها : أفسدته بكثرة اللبن)) [٢].

((والسرف ضد القصد، والإغفال والخطأ سرفة، وذهب ماء الحوض سرفاً: فاض من نواحيه، و(مسرف) هو لقب مسلم بن عقبة المري صاحب وقعة الحرة؛ لأنه أسرف فيها)) [٣].

---

[١] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري ت (٧١١) هـ لسان العرب، مادة (سرف) دار صادر، بيروت ب ت – ط ١

[٢] الزمخشري، جار الله أبو القاسم بن عمر الزمخشري ت (٥٣٨هـ)– مادة (سرف) – دار الفكر للطباعة والنشر ،بيروت ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م .

[٣] الفيروز أبادي، مجد الدين، محمد بن يعقوب الفيروز أبادي (ت٨١٧هـ) – القاموس المحيط– مادة (سرف) دار الفكر، بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م

وذكر صاحب معجم مقاييس اللغة ((أن السين والراء والفاء أصل واحد يدل على تعدي الحد، ومجاوزة القدر فيه، تقول : في الأمر سرف أي : مجاوزة للقدر، ويدل على الإغفال للشئ أيضاً)) [1]

نخلص مما سبق إلى أن السرف ضد القصد، وأنه يدل على مجاوزه القدر والحد.

٣- في القرآن الكريم :

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وألفاظ القرآن يعرفها العرب حق المعرفة، منها ماجاء بالمعنى نفسه الذي عرف به سابقاً، ومنها ماجاء بمعان جديدة، ومن النوع الثاني كلمة (الصلاة)، قبل الإسلام كانت بمعنى (الدعاء) : " عليك مثلما صليت"، وعرفت في مجال سباق الخيل، فالمصلي من الخيل: الذي يجيء بعد السابق؛ لأن رأسه يلي صلا المتقدم، وهو تالي السابق، وهو مأخوذ من الصلوين، وهما مكتنفا ذنب الفرس [2]، وبعد الإسلام صار معناها :" أقوال وأفعال تفتح بالتكبير وتختم بالتسليم "[3]

ومن النوع الأول كلمة(سرف) فقد جاءت في القرآن بمعنى (مجاوزة الحد)، وهذه المجاوزة تكون بالزيادة أو بالنقصان ، والدليل على ذلك قوله تعالى:﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[4] فالإسراف هنا فيه رأيان :

---

[1] أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا، ت (٣٩٥) – مادة (سرف) ، تحقيق : شهاب الدين أبو عمر، دار الفكر ، بيروت ط ١ / ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

[2] لسان العرب – مادة (صلا).

[3] السيد سابق – فقة السنة– المجلد الأول/ ٨٧، مكتبة دار التراث، القاهرة، ب ط، ب ت .

[4] سورة الأنعام – آية ١٤١

تعطوه

الرأي الأول : (لا تسرفوا) أي لا تطعوا كله، وهذا نهي عن الإسراف في العطاء .

الرأي الثاني :(لا تسرفوا) قال سعيد بن المسيب :(لاتمنعوا الصدقة) أي نهي عن الإسراف في المنع والشح، وهذان القولان يشتركان في أن المراد من الإسراف (مجاوزة الحد) ، إلا أن الأول مجاوزة في الإعطاء، والثاني مجاوزة في المنع) [1].

فا لله سبحانه وتعالى نهى عباده عن الإسراف، وهو كل تجاوز للحد، وبيّن لهم أن الإسراف هو علة هلاك الأمم السابقة مثل عاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وقوم فرعون، وقوم لوط، قال تعالى:﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾[2] .

وقال عز وجل لبيان عاقبتهم في الآخرة:﴿ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[3].ونهى عن طاعتهم﴿ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝١٥٢﴾ (٤)

ويلاحظ أن النهي عن الإسراف شمل الجوانب الحياتية للإنسان، من ملبس ومأكل ومشرب، قال تعالى : ﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾[5] كذلك نهى عن الإسراف في الثأر :﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾[6] ونهى عن الإسراف في الانفاق، تقتيراً أو تبذيراً:﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ﴾[7].

---

[1] الفخر الرازي، أبو عبد الله، محمد بن عمر الحسين ت (٦٠٤هـ) – مفاتيح الغيب، المجلد ٧/ج١٣ ٢٢٦، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ،١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ب ط .

[2] سورة الأنبياء – آية ٩.

[3] سورة غافر – أية ٤٣.

[4] سورة الشعراء – آية ١٥١، ١٥٢.

[5] سورة الأعراف – آية ٣١.

[6] سورة الإسراء – آية ٣٣.

[7] سورة الأنعام – آية ١٤١.

وقد جاء التعبير عن الإسراف في القرآن بصيغتين :

١- الصيغة المباشرة : ونعني بها استخدام كلمة (إسراف) ومشتقاتها .

٢- الصيغة غير المباشرة : وذلك باستخدام صيغ أخرى متعددة تدل على مفهوم الإسراف، الذي هو مجاوزة الحد،وهي صيغ عديدة وكثيرة، ولتوضيح هذه الفكرة نقول:

القصد هو الصراط المستقيم الذي أمر الله عباده بلزومه والسير عليه، وكل انحراف عن هذا الصراط هو إسراف، وقد يأتي التعبير عن هذا التجاوز بصيغة مباشرة هي(سرف) ، وقد يأتي بصيغة غير مباشرة، مثل طغى، بغى، غلا، اعتدى، فجر، بذّر بطر ، أفرط، وغيرها مما سيجري بيانه في موضعه من البحث،بإذن الله وعونه سبحانه .

ثانياً - الإسراف ودلالته الاجتماعية :

لقد تنبه لخطورة الإسراف كثير من العلماء والكتاب والمفكرين والباحثين، فالإسراف انحراف خطير للفرد والأمة، وحين نبحث عن المجالات التي تناولت هذه الظاهرة، نجدها مجالات متعددة متشعبة، وسنتناول بعضاً من هذه المجالات فيما يلي :

١- في التشريع :

الإسلام هو دين الفطرة، والفطرة السوية هي تلك الفطرة المتوازنة المعتدلة، التي تسير على المنهج المستقيم في كل أحوالها، والانحراف عن هذه الفطرة منبوذ في ديننا الحنيف، وقد حذّر الله - سبحانه وتعالى - ورسوله الكريم المؤمنين من آفة الإسراف، فقال عز وجل :﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ [1] ، وقال سبحانه :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [2]، والمؤمن يخشى الوقوع في هذه الآفة، وحين يشعر

---

[1] سورة الأعراف - آية ٣١.

[2] سورة غافر - آية ٢٨ .

باقترافه هذا الإثم، فإنه يفزع بكل جوارحه إلى الله، يستغفره ويتضرع إليه:﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾[1]

والسنة المطهرة تحذر بشدة من هذه الآفة المهلكة، وينبه الرسول إلى البعد عنها، قال عليه الصلاة والسلام:((كلوا، واشربوا، والبسوا، وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة))[2] وقال عليه السلام: ((القصد القصد تبلغوا))[3] والأمر بالقصد وعدم الإسراف وتجاوز الحد شامل لكل الأفعال والأقوال في شتى المجالات، والمسلم مأمور بالاستقامة والتوازن، وقس على ذلك ما شئت من أمور حياة المسلم، تجد النهي عن الإسراف ينتظمها جميعاً. ومن الكتب التي ورد في تضاعيفها إشارات ناقشت خطورة هذه الظاهرة كتاب : إحياء علوم الدين، للغزالي، وذلك في جزء من كتابه أطلق عليه:(المهلكات) تحدث فيه عن الشهوات، وعواقب الإسراف فيها، وركز على شهوة البطن، وحذر من الإسراف في الانقياد لها، ومن ذلك قوله: ((فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن، فبها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار، والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات، ومنبت الأدواء والآفات)) [4] ويقول:((لو ذلل العبد نفسه بالجوع ، وضيق به مجاري الشيطان؛ لأذعنت لطاعة الله عز وجل، ولم تسلك سبيل البطر والطغيان))[5] ويقول في موضع آخر: ((الجوع وتقليل الطعام فيه صحة الأجسام من الأسقام، وصحة القلوب من سقم البطر والطغيان)) [6]

---

[1] سورة آل عمران – آية ١٤٧.

[2] فتح الباري – ٢٥٢/١٠، المخيلة : الكبر (اللسان – خيل).

[3] المصدر نفسه ٢٩٤/١١

[4] أبو حامد، محمد بن محمد الغزالي، ت (٥٠٥هـ) – إحياء علوم الدين– ٧٧/٣، دار إحياء الكتب العربية، ب ط ، ب ت .

[5] الغزالي – نفس الكتاب والجزء والصفحة .

[6] الغزالي – المصدر نفسه – ٨٥/٣ .

٣- في التاريخ والحضارة :

الحضارة المعاصرة حضارة مختلّة مضطربة مسرفة، بل إن الإسراف،((لم يتجسد في حضارة عبر التاريخ مثلما تجسد في حضارة العالم المعاصر ، وحضارة أوروبا هي التي تقود العصر بعلمها وسلوكياتها"[١] وهي حضارة ساقت الجميع إلى الإسراف، ((فهولاء الأوربيون ينظرون إلى الطبيعة نظرة التحدي والصراع، ومحاولة قهرها والسيطرة عليها وتوجيهها، وكلما زهاهم النصر في ناحية، فجعهم ما سببة اختلال التوازن في أخرى، إلى أن يخربوا تقدمهم بأيديهم، إنهم خضعوا للعقل وحده، وجافوا الحكمة، وإن الغلو في الإيمان بالعقل وحده- دون حكمة الله - قد يرديه وهو في ذروة الزهو بالنصر، ويفقده السيطرة على حيطته، فتنهار حضارته في برهة، فتكون ذروة النصر هي بعينها لحظة الانهيار)) [٢] وينبغي الإشارة إلى أن التزام المنهج المستقيم لا يتأتي بسهولة، بل يحتاج إلى حذر ويقظة دائمين ؛ لأن الإنسان متى ما وقع في الغفلة والنسيان، فإنه ينحرف، فيسرف ويهلك، قال سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[٣]

وفي تاريخ الحضارات، وقيامها، وانهيارها، يُلاحظ أن الإسراف هو أس البلاء وعلة الانهيار، وقد أشار لذلك المؤرخ (ابن خلدون) في مقدمته حيث يقول:((الحضارة هي التفنن في الترف واستجادة الأحوال، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه ، من الصنائع المهيئة للمطابخ، أو الملابس، أو المباني، أو الفرش، أو الآنية، وإذا بلغ التأنق في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات، فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة، لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها، فتعظم نفقات أهل

---

[١] محمود فياض - دراسات أدبية للبيان النبوي، محاضرات للسنة المنهجية ١٤١٠هـ - ص ٢٣.

[٢] محمود فياض - المرجع نفسه - ٢٢،٢٣ .

[٣] سورة الأنعام - الآيتان ٤٤،٤٥ .

الحضارة، وتخرج عن القصد إلى الإسراف، ولا يجدون وليجة عند ذلك؛ لما ملكهم من أثر العوائد وطاعتها، وتذهب مكاسبهم كلها في النفقات فيغلب عليهم الفقر، وتكسد الأسواق، ويفسد حال المدنية، وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والترف)) [1]

ويقول أيضاً :((غاية العمران هي الحضارة والترف، وإذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد، وأخذ في الهرم، بل أن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد))[2].

ويطلق صيحة التحذير من الإسراف :((على قدر ترفهم ونعيمهم يكون إشرافهم على الفناء)) ويوضح ذلك بقوله :((الترف مفسدة للخلق، بما يحصل في النفس من ألوان الشر والسفسفة، فتذهب منهم خلال الخير، ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر، فيكون علامة على الإدبار والانقراض)) [3].

٣- في التربية :

إن التربية الصالحة للنشء هي التي تصنع المجتمع الصالح النافع، وإن أي خلل في تلك التربية يهدر أثمن ثروة للوطن، وهي الثروة البشرية، والناظر في حياتنا المعاصرة تفجعه معاناة الأمة من أبنائها؛ نتيجة لإهمال تربيتهم تربية إسلامية سوية متوازنة، فما هو ياترى منشأ الانحراف في تلك التربية ؟

لقد حاول العديد من المربين مناقشة هذه الظواهر، وخلصوا إلى أن (الإسراف) حين يسيطر على أسلوب التربية يكون بداية النهاية، من ذلك قول أحد المربين:

((تعاني الإنسانية اليوم من ضياع الطفولة؛ إما بسبب المبالغة في الإباحة، والتدليل،وانعدام الضوابط في معاملة الأطفال، وإما بسبب الإفراط في الشهوات،

---

[1] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ت (٨٠٨هـ) – المقدمة –٤٦٥ ، دار الفكر، بيروت ، لبنان الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/١٩٨١ م .

[2] ابن خلدون – المصدر نفسه – ٤٦٨ .

[3] ابن خلدون – المصدر نفسه – ١٧٦ .

وانعدام ضوابط الغرائز، انعداما أضاع ملايين الأطفال غير الشرعيين، وإما بسبب الإفراط في ابتذال المرأة، إفراطاً جعلها تخالط الرجال في كل شئ، فتفقد أنوثتها ومكانتها الأولى في تربية الأطفال، ومن كل ذلك نشأ تفكك بنيان الأسرة، وضاعت الطفولة، كما ضاعت الأنوثة والرجولة جميعاً، وأصبحت الإنسانية تعيش في بؤس وتيه وشقاء)) [1] ويشخص تربوي آخر الحالة، ويوضح المخرج :(إن الشرط الأساسي لجعل معتقدنا ذا دور اجتماعي أن يكون حملته أسوياء، وبالتالي فالبعد عن السواء، بسبب ما يعترض الفرد منا في حياته اليومية، سيؤثر- بلاشك - على هذه الوظيفة الاجتماعية لديننا، إن إعادة الفرد إلى توازنه عملية في غاية الأهمية، وبدون هذا التوازن ستبقى العقيدة بلاثمرات)) [2].

ولو أمعنا النظر في بعض الحاجات النفسية للفرد لوجدنا أنها مبنية على التوازن، والقصد، وعدم الإسراف،والمثال على ذلك الحاجة إلى الحنو، والإشباع العاطفي :((هناك من الآباء من يبالغ ويسرف في تدليل الطفل، لدرجة تعيق نمو الاستقلالية عنده، وتسوف فطامه النفسي، واعتماده على ذاته، ومثل هذا الفرد يصطدم كثيراً مع الحياة الواقعية خارج نطاق الأسرة، وخاصة في المدرسة، حيث يصعب عليه مجاراة الآخرين، أو تحمل المسئوليات)) [3] وعلى النقيض من ذلك فإن القسوة والحرمان من الحنان يولد المشكلات:((فانحراف الأحداث يعود إلى مشاعر عميقة بنبذ الآخرين له، وافتقاد الحب والأمن)) [4].

---

[1] عبد الرحمن النحلاوي - أصول التربية الإسلامية وأساليبها -١١، دار الفكر، دمشق، ط ٣٢- ١٤هـ /١٩٨٣م .

[2] ميسرة طاهر وآخرون - مدخل إلى الإرشاد التربوي والنفسي -٧، دار الهدي للنشر والتوزيع الرياض، ط ١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢ م

[3] د . ميسرة طاهر وآخرون - المرجع السابق -ص ١٠٤ .

[4] المرجع السابق - ص ١٠٤ .

ومثال آخر، هو :الحاجة إلى التقدير الاجتماعي، يقول الباحث:((الإسراف في التقدير يمكن أن يؤدي إلى نتائج سلبية، كأن يشعر الطالب بالغرور، نتيجة لتكوين صورة غير صادقة عن ذاته، والتي قد تؤدي إلى شعوره بالفشل حين يكتشف زيف هذه الصورة، وكذلك الحرمان من التقدير، يدفعه إلى إشباع حاجته إلى التقدير عن طريق الجماعات المنحرفة)) [1]

٤- من الناحية البدنية :

لو ذهبنا نستقصى نتائج الإسراف على صحة الإنسان لاستغرق ذلك مجلدات، ولكن نكتفي بالقول بأن كل إخلال بالتوازن الطبيعي لبدن الإنسان يفضى به إلى المرض والوهن، يستوي في ذلك إن كان الإخلال بالزيادة أوالنقصان.

وعندما نتناول جانباً واحداً مثالاً على ما سبق ذكره تتضح لنا الحقيقة جلية، هذا الجانب هو: (الغذاء)، فعواقب الإسراف فيه وخيمة؛ لأن الغذاء الفقير، الذي لا تتوافر فيه الأطعمة المفيدة، يؤدي إلى الإصابة بفقر الدم، وكذلك فإتخام المعدة بأنواع الأطعمة يؤدي إلى أمراض عديدة متنوعة، يقول أحد الأطباء:((لنتنكب طريق الترف، وإتخام جهاز الهضم، متمثلين قول العرب :(البطنة تذهب الفطنة) [2] ويقول طبيب آخر:((كل الأدلة ترجح كفة الوجبة البسيطة القليلة التنوع؛ لما ثبت بالتجربة والاختبار من أنها المثلى للصحة؛ ولأن من شأنها أن تقلل من نسبة الأمراض التي تهدد حياة الإنسان)) [3] إلى أن يقول :((دعا علماء المعالجة بالطبيعة إلى القصد في تناول الأطعمة الغنية بالبروتين، وقالوا بأن هذا الإسراف الأخرق آفة تعم الدنيا، وأن هذا

---

[1] المرجع السابق ص ١٠٤ .

[2] صبري القباني – طبيبك معك –٤٤٨، دار العلم للملايين، بيروت ، لبنان، ط ١٤،١٩٧٩م .

[3] إميل خليل بيدس – صحة العائلة – ٥٣٤، دار الآفاق الجديدة، بيروت ، لبنان ط١ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ م.

الغلواء بمثابة دعوة ملحة للمرض أن يشرف)) [1] والملاحظ أن هذا الإسراف مرتبط بالحياة المعاصرة، التي سهلت للإنسان الحصول على ما يشاء من ألوان الغذاء الشهي المتنوع، وهنا مكمن الخطر، ولذلك يحذر أحد الأطباء بقوله :((حياة الترف والمدينة الصاخبة تستنزف عصارة أدمغتنا، وتجعلنا حساسين، وتجعل نفوسنا ميدان اصطراع وكبت، فيدفع الجسم ثمناً باهظاً من قوته،وصحته، في سبيل الاستمتاع بمباهج المدينة الجذابة، ولذاذاتها الخلابة)) [2].

ومن النواحي الأخرى التي يظهر فيها ضرر الإسراف (حركة الإنسان)، فالذي يسرف في العمل والحركة والنشاط الدائب المستمر، ولا يعطى الجسم حقه من الراحة، لابد أن ينهار في النهاية، وكذلك الذي يسرف في الكسل، ومداومة الاسترخاء، فإنه يترهل ويصاب بالسمنة، ويداهمه الاعياء متى ما قام بأبسط الأعمال. وهكذا لو نظرت في أي منحى من مناحي حياة الإنسان، في مأكله ومشربه، وحركته، وسكونه، ونومه ، ويقظته، فإنك واجد أن القصد هو سبيل الصحة والحيوية، وأن الإسراف –زيادة أو نقصاً – هو مدعاة المرض، وسبيل الوهن والهلاك .

المهم أننا لو ذهبنا نبحث عن الدراسات التي تناولت الإسراف لوجدنا ذلك مبثوثاً في ميادين شتى ، متنوعة المشارب والاتجاهات، والعرض السابق يعطينا إشارة واضحة عن ذلك .

فالإسراف نوقش تحريمه وضرره في الناحية التشريعية، ونوقش أثره على البدن لدى أهل الطب والصحة، ونوقش أثره على الحضارة الإنسانية والنظام الأخلاقي

جامعة أم القرى
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

[1] إميل خليل بيدس – المرجع نفسه – ٥٣٦.

[2] صبري القباني – المرجع السابق – ١٥٠.

والاجتماعي لدى علماء التاريخ والحضارة وعلم الاجتماع، ونوقش أثره على التربية لدى علماء التربية وعلم النفس وغير ذلك من المجالات والميادين .

ثالثاً : الإنسان بين التوازن والإسراف :

خلق ا لله الإنسان من نفحة من ورح ا لله، وقبضة من طين الأرض، وتعتمد سعادة الإنسان على مدى نجاحه في تحيق التوازن بين هذين العنصرين: العنصر المادي، والعنصر الروحي، ومتى ما طغى جانب من أحدهما على الآخر ، اختل توازن الإنسان؛ ووقع في الإسراف. فالتوازن بين هذين الجانبين لا يلغى أحدهما أو يهمشه، بل يعترف بكل منهما، ويعرف مجالاته وإمكاناته . [1]

ونعنى بالتوازن: ((ذلك الاعتدال المرتبط دائماً بالموقف، ولايرتبط بالوسطية الرياضية الذهنية، والمرجع في تبين المواقف وتقديرها هو (الشرع) ، ألا ترى أن الموقف في سبيل دفع كارثة يقتضينا إنفاق المال، ولا يعد ذلك تبذيراً، وفي غير الموقف يعد إنفاق جل المال تبذيراً، ومنافياً للتوازن)) [2] .

وللتوازن ملامح عديدة ، منها (العلم)، فالعلم ضروري لخشية ا لله وتقديره، وضروري لشكر ا لله، والتوازن لا يتحقق مع الجهل. ومن ملامحه (الإرادة)،وهي بمثابة الطاقة التي تدفع الإنسان وتعينه على العمل، وهذه الطاقة يجب أن تتوازن مع الموقف. يليها (العمل والحركة)، وهما النتيجة الطبيعية للإرادة، وهذا يشمل حركة الأعضاء، كما يشمل حركة القلب، والفكر، ومن ملامحه :(معايشة الموقف) ، أي: إعطاء كل موقف ما يستحقه دون زيادة أو نقصان. ومن ملامحه :(الحرية)، فالمسلم ليس جامداً في عبادته، ولا في سلوكه، بل يستجيب للمقام حسب طاقته. ومن ملامحه: (التوكل على ا لله)، والإيمان بقضاء ا لله وقدره. ومن ملامحه :(السكينة)، وهي ثمرة

---

[1] محمود فياض – دراسات أدبية للبيان النبوي – ٢٥ .

[2] غادة الحوطي – التوازن معيار جمالي، رسالة ماجستير غير مطبوعة ، ١٤١٤هـ /١٩٩٤ م ، ص ٢٦.

التوكل على الله، والإيمان بقضائه وقدره، فقد نأخذ بالأسباب، ونتوكل على الله في أعمالنا، ثم لا نجد النتائج مرهونة بمقدماتها، وتخفي علينا حكمة الله الجليل في هذا الموقف أو ذاك، إذ ذاك يصير الإيمان بقضاء الله وقدره نجاة من الاضطراب الذي يطرق النفس، وصمام أمان يحميها ويقيها، فلا تخرج من الاطمئنان إلى الله العليم الخبير فزعة إلى عتمة اليأس، أو متاهة التحرف[1] هذه الملامح السابقة كل متواثق التركيب، لا انفصام بينها ولايوجد بعضها دون بعض [2].

وفي نهاية هذا التمهيد نستعرض الدراسات التي تناولت موضوع الإسراف **بصورة رئيسية وهي على النحو التالي :**

١- الإسراف:

دراسة فقهية مقارنة بين المذاهب الأربعة/ عبد الله بن محمد بن أحمد الطريقي، الرياض، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢ م ب ط موضوع الدراسة هو الإسراف، والأحكام الشرعية المتعلقة به في المذاهب الأربعة. وقد ناقش ذلك ضمن عدة مجالات حددها لدراسة ظاهرة الإسراف، وهي: الإسراف في الطاعات ، الإسراف في المباحات، الإسراف في العقوبة ، الإسراف في المحرمات .

وتعد الدراسة دراسة فقهية مقارنة .

٢- رسالة إلى المسرفين / خالد الرشيد.

الرياض، دار الصميعي ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢

وهي دارسة دينية وعظية، ناقشت الإسراف ومجانبته للأخلاق الإسلامية .

٣- الاقتصاد الإسلامي هو البديل الصالح/ شوقي أحمد دينا .

---

[1] غادة الخوطي – المرجع السابق –من ٤٤ إلى ٥٥.

[2] غادة الخوطي – المرجع السابق – ٥٥

مكة المكرمة ، رابطة العالم الإسلامي ١٤١٠هـ، ١٩٩٠ م

ناقش الباحث مفهوم الاقتصاد الإسلامي وتلبيته لحاجات الإنسان، ثم عرض للنظم الاقتصادية وما فيها من ثغرات، وما ترتب على ذلك من مشكلات اقتصادية، مثل:الإسراف، ثم طرح تصوراته لعلاج المشكلات الاقتصادية، والدراسة بعامة تعالج موضوعات متعلقة بالاقتصاد الإسلامي .

٤- سلوك المستهلك في الاقتصاد الإسلامي/ زيد بن محمد بن دحيم الرماني

الرياض ، جامعة الإمام، كلية الشريعة ، ١٤١٣هـ

وهذه الدراسة كذلك من مباحث الاقتصاد الإسلامي، وتناول فيها سلوك المستهلك وما قد يقع فيه من تجاوزات تؤدي إلى مشاكل اقتصادية، مثل: الإسراف، والتبذير، والفقر، والرأسمالية ، والاشتراكية، ثم بين كيفية ترشيد الاستهلاك .

٥- الواقع الاستهلاكي للعالم الإسلامي/ زيد بن محمد بن دحيم الرماني .

مكة المكرمة ، رابطة العالم الإسلامي، ١٤١٥هـ

تحدث فيه عن شيوع الطابع الاستهلاكي في العالم الإسلامي، وبين أن من نتائج ذلك بروز ظاهرتين ، أولهما: الفقر المدقع ، والثانية : الإسراف والتبذير، ثم ناقش أسباب الإسراف وآثاره، وموقف الإسلام من سلوك المستهلك .

بعد استعراض هذه الدراسات السابقة لموضوع الإسراف ، وجدت أن الباحثين قد تناولوا هذه الظاهرة من زوايا محددة، أبرزها :

الزاوية الدينية، والزاوية الاقتصادية، ورأيت أنه من النافع والممتع - في آن واحد - أن نتناول هذه الظاهرة من الزاوية الأدبية، دون إغفال للناحية الدينية، ومن المعروف أن العصر الجاهلي يعد منبع الأدب العربي، ورمز خلوده. ودراسة مناحي الإسراف

عند عرب الجاهلية من خلال أشعارهم سيضيف الجديد – بإذن الله – لمن يبحث هذه الحقبة الرائعة من عمر أدبنا العربي، ويلحق ذلك دراسة قرآنية بيانية من خلال الآيات القرآنية الكريمة التي تناولت ظاهرة الإسراف ، لنكتشف الكيفية التي ارتفع بها عرب الجاهلية من وهدة الإسراف إلى علياء الاستقامة والقصد، ونختم البحث بدراسة فنية خاصة تلقي المزيد من الضوء على ما سبق دراسته في المبحث الخاص بالشعر، والمبحث الخاص بالقرآن .

والله نسأل أن يلهمنا الصواب، ويرشدنا إلى السداد، إنه على كل شئ قدير .

الباب الأول :

المجتمع الجاهلي، وأثر البيئة في تشكيل تقاليده وإسرافه .

كان عرب الجاهلية يسكنون رقعة واسعة من الأرض، تسمى :(جزيرة العرب)، تمتد من بحر العرب في أقصى الجنوب، إلى بادية سيناء، والشام، وجزء من العراق في أقصى الشمال، ومن الخليج، ونهري دجلة والفرات في الشرق، إلى البحر الأحمر في الغرب. وقد تعارف جغرافيو العرب على تقسيم الجزيرة إلى خمسة أقسام هي : تهامة، والحجاز، ونجد ، والعروض – ويشمل اليمامة والبحرين – واليمن. [1]

ومن المعروف لدى العلماء والباحثين أن الإنسان هو ابن بيئته، تطبعه بطابعها،وتؤثر في تكوينه الجسدي، والعقلي، والانفعالي، يقول أحمد أمين:((يعمل في تكوين عقلية الشعوب عاملان قويان : البيئة الطبيعية، ونعني بها مايحيط بالشعب طبيعياً من جبال،وأنهار،وصحراء،ونحو ذلك، والبيئة الاجتماعية، ونعني بها ما يحيط بالأمة من نظم اجتماعية، كنظام حكومة، ودين، وأسرة ونحو ذلك)) [2]

وهذه البيئة لها طابع عام مميز هو :(الطابع الصحراوي) ، وليس معنى ذلك عدم تنوع أقاليمها، بل يجب ملاحظة التنوع والتمايز فيها، فهناك الأقاليم الجنوبية الغربية المعتدلة، وهناك الواحات الخصبة، وهناك الأغوار والأنجاد، والسهول ، والمرتفعات، والصحاري وسواحل البحار، وهي مع ذلك كله وطن واحد متماسك، له طابعه العام المميز، ذلك هو الطابع الصحراوي، وللصحراء صفات قاسية توثر على قاطنيها، فهناك ندرة الماء، وندرة النبات ، وهناك المناخ القاري الشديد في حرارته والشديد في برودته، وهناك السعة والامتداد اللانهائي، وهناك الهواء الطلق، وعلاوة على كل ذلك هناك النور الغامر في النهار ، الذي يكشف كل شئ، ويوضح كل شئ،

---

[1] الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، ت – تقريباً – ٣٤٥ هـ – صفة جزيرة العرب، ص ٥٥٨ ، تحقيق : محمد بن علي الأكوع، دار اليمامة ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧م ب ط، وانظر: ناصر الدين الأسد – مصادر الشعر الجاهلي– ٢،١ دار المعارف / القاهرة ، ط ١٩٧٨/٥ م .

[2] أحمد أمين – فجر الإسلام –٤٤– دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان – ط ١٩٦٩/١٠ م .

وفي الليل يتلألأ القمر والنجوم في سماء صافية لا تلبدها الغيوم، هـذه الصفـات طبعت العرب بطابعها ، فندرة الماء معناها (الظمـأ) .((لقـد كـان الظمـأ هـو عنصـر البحـث الدائم عن الحقيقة والحق، وعن التعرف علـى مصـدره في السـماء، وآثـاره في الأرض، لقـد تعلمـوا مـن الظمـأ أن يرفعـوا رؤوسـهم دائمـاً إلى السـماء، وينتظـرون رسـالتها بالغيث، الذي منه الحياة، ولقد عرفوا أن ا لله هو واهب الغيث ومنزله، لقد تعلموا من الظمأ أن ينتظروا رسـالة السـماء)) [1] ، وهنـاك نـدرة النبـات، وهـذا يعـني الجـوع، والجائع لا بد له من الصبر والكفـاح في سـبيل الحصـول علـى مـا يسـد رمقـه ، فكـان طعامهم قليلاً في تنوعه، لكنه عظيم في نفعه، عماده التمـر، واللـبن، والحـب ، والقليـل من اللحم، هذا الغـذاء القليـل في كميتـه، المفيـد في نوعيتـه، أكسـبهم صحـة الأبـدان وسلامتها، والبعد عـن تخليـط أهـل الحضـارات، يقـول ابـن خلـدون :((نجـد الفـاقدين للحبوب والأدم من أهل القفار أحسن أحوالاً في أجسامهم وأخلاقهم من أهـل التلـول المنغمسـين في العيـش، فـألوانهم أصفـى، وأبدانهـم أنقـى، وأشـكالهم أتم وأحسـن، وأخلاقهم أبعد من الانحراف، وأذهانهم أثقـب في المعـارف والإدراكـات، والسـبب في ذلك – وا لله أعلم – أن كثرة الأغذيـة، وكـثرة الأخـلاط الفاسـدة العفنـة ورطوباتهـا تولّـد في الجسـم فضـلات رديئـة تنشـأ عنهـا، ويتبـع ذلـك انكسـاف الألـوان، وقبـح الأشكال، من كثرة اللحم، وتغطي الرطوبات علـى الأذهـان والأفكـار، بمـا يصعـد إلى الدماغ من أبخرتها الرديئة، فتجيء البلادة، والغفلة ، والانحراف عن الاعتدال بالجملة، وأعلم أن أثر هذا الخصب في البدن وأحواله يظهر حتى في حال الدين والعبادة، فنجـد المتقشفين من أهل البادية أو الحـاضرة، ممـن يـأخذ نفسـه بـالجوع والتجـافي عـن الملاذ

---

[1] أحمد موسى سالم – لمـاذا ظهـر الإسـلام في جزيـرة العـرب ، دار الجيـل ، بـيروت ،لبنـان ط ٣ ١٤١١هـ ، ١٩٩١م / ١٧٢.

أحسن ديناً وإقبالاً على العبادة من أهل الترف والخصب ؛لما يعم المدن والأمصار من القسوة والغفلة المتصلة بالإكثار من اللحمان والأدم ولباب البر)) [1].

ومن جهة أخرى فإن ندرة الماء، والنبات، والطبيعة القاسية معناه (الحرمان)، وربما يفسر هذا لنا روعة الأشعار التي قيلت في (نجد)، والتي أثارت – وماتزال– الإعجاب والتعجب، فيقول قائلهم :((كيف أوحت هذه التلال المقفرة ، وهذه الرمال المتسعرة بما لم توح بمثله جنات الشام، وأودية لبنان، حيث الظل والماء، والأيكة الغناء، والسواقي تتحدر من القمم المعتمة بالثلج، تتكسر تحت عين الشمس، كأن في كل ساقية مائة ألف حجر من غالي الألماس، ثم تخطر على السفوح الكاسية بأثواب الزهر، العابقة بريا العطر ؟ كيف كسوا تلك الصحاري، وقالوا فيها مالم نقل مثله، وعندنا هذي الجنات؟ ألأن القوم أمة بيان، كانت لهم قلوب تتبع الحسن، وقلوب تهيم بالجمال، وألسنة تصف ما ترى العيون، وتحس القلوب ؟)) [2] ولتوضيح السر في ذلك نمثل للأمر برجلين : أحدهما يحيا حياة رغد ورفاه ونعيم ، ويجد دوماً بين يديه كل ما تحب نفسه، ويهوى قلبه من المأكل والمشرب، وأما الآخر فمحروم، يعاني شظف العيش، ويحيا على الكفاف من القوت، ترى لو قدم لكل منهما طبق من أشهى الأطعمة وألذها، ماذا سيفعلان ؟ أظن أن الأول سيصيب منه شيئاً يسيراً ثم يتركه دون مبالاة ، أما الآخر فسيلتهم ما أمامه سريعاً، ويظل بعد أكله يتذكر الطعم والنكهة وطيب المذاق دهراً طويلاً، والعربي الجاهلي كان كذلك، حرمانه من الطبيعه الجميلة خلق في نفسه تقديراً كبيراً للجمال مهما يكن بسيطاً ، فصار اهتزاز فنن غض رطب ينطقه بأرق الأشعار، وتفتح بضع زهرات من الخزامى يفعل في نفسه فعل السحر، وأما الذي يجعله طيراً صادحاً بأعذب الألحان، فهو (المطر) وما يرتبط به من غيم، وبرق،

---

[1] المقدمة – ١١٠ – ١١١.

[2] علي الطنطاوي – صور وخواطر– دار المنارة ، جدة ، المملكة العربية السعودية ط ٢ ١٤١٢هـ /١٩٩١ م –٢٤١ .

ورعد، وريح صبا، وقطر ندى، وسيول، وغدران، وجداول، فالحرمان ولّد لديهم قدرة عالية على استشعار الجمال في كل شئ ،وفي أي شئ مهما تكن تلك اللمحة بسيطة أو ضئيلة .

ومن صفات الصحراء السعة ، والامتداد، والانبساط أمام العين، أي :(اتساع المجال)، وما يتبع ذلك من التعرض الدائم للهواء الطلق ، ((فأفادهم اتساع المجال قوة في حواسهم؛ لأن سعة المجال أمام البصر والسمع والشم والذوق واللمس ضرورية لتربية هذه الحواس الأساسية في إقامة بدن الإنسان، وتقويم عقله)) [1] كذلك فإن اتساع الصحراء وانبساطها أمامهم غرس في نفوسهم عشق الحرية ((فالعربي مرتبط بالصحراء ، فلا زراعة تحد من حركته، ولا إقامة إلا انتفاعاً بما جادبه السيل، وهذا الارتحال الاضطراري خلق في العربي نوعاً من الحرية ، وصار هذا السلوك خلقاً ثابتاً))[2] وفي سبيل المحافظة على هذه الحرية صار العربي يأبى الضيم؛ لأن الضيم نوع من المصادرة والضغط، وصار مستعداً للتضحية بنفسه حرصاً على حريته الثمينة، هذا الشغف العارم بالحرية جنح بهم إلى المغالاة والإسراف؛ "((لأنهم فهموها حرية مطلقة من القيود، وكان لهذا الفهم آثاره السيئة بجانب آثاره الحسنة، فلم يكد العرب يخضعون لقانون عام منظم للعلاقات الدينية والاجتماعية والاقتصادية إلا لينفلتوا منه))[3] وكانت طبيعة الصحراء بما فيها من جدب وفقر ، وحرارة، وانطلاق، خيرمعين لحفظ تلك الحرية ؛ فسلموا من سيطرة الغزاة القادمين من خارج جزيرتهم:((فجزيرة

---

[1] أحمد موسى سالم – لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب – ١٦٤ .

[2] عباس بيومي – الهجاء الجاهلي صوره وأساليبه الفنية – ٦١١٦١، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ، ت ط ، ١٩٨٥ م.

[3] أحمد محمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي – دار القلم ، بيروت ، لبنان، ط ٤ /١٣٨٢ هـ /١٩٦٢ – ص ٣٥٧ .

العرب نجت من غزو الأجنبي ، وإن عظماء الفاتحين، من مصريين ، وأغارقة ، ورومان، وفرس، وغيرهم ممن انتهبوا العالم، لم ينالوا شيئاً من جزيرة العرب، التي أوصدت دونهم أبوابها)) [1] .

ومن صفات الصحراء: مناخها القاري، بماله من حر شديد، وبرد شديد،وهذا من شأنه تعويد أبناء الصحراء على الصبر، والكفاح، وقوة الاحتمال، ((فتجدهم أكثراً احتمالاًلما لا يطاق من الشدائد والمشقات،وهذا الصبر الذي استثمر العربي نباته الطيب في حياته، يجعله – من حيث الطاقة البشرية – عدلاً للكثير من غيره ، ممن يقتلهم ظمأ ساعة، أو جوع يوم ، أو ركض بضعة فراسخ، أو ضربة شمس تصيبهم بالهلاك المفاجيء)) [2].

ومن صفات الصحراء : النور ، الذي يغمر كل شئ بسناه، فيبدو واضحاً دون غموض ، بخلاف مالدى الأمم الأخرى، التي تلف بيئاتها غلالة شبة دائمة من الضباب، وتجلل سماؤهم بالغيوم الرمادية أغلب العام، وهنا وهناك تلمح الغابات والآكام وكأنها تخفي الأشباح ؛مما يعين على سيطرة الأوهام على أذهانهم عما حولهم من مظاهر الطبيعة. أما العرب فليسوا كذلك ؛((لأن العرب لا يصح قياسهم في أحوالهم وأنسابهم بأصحاب الطوتم من الأمم المتوحشة، من هنود أستراليا، وأمريكا، وزنوج أفريقيا؛ لأن العرب من أرقى الأمم عقلاً ونفساً، وهم أهل تمدن قديم ، مثل تمدن أرقى الشعوب القديمة، وارتقاء لغتهم في تركيبها وألفاظها يشهد بارتقاء عقول أصحابها من أقدم أزمنة التاريخ)) [3].

---

[1] جوستاف لوبون – حضارة العرب – ٩٣، ترجمة : عادل زعيتر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة /١٩٦٩م د ط .

[2] أحمد موسى سالم – المرجع السابق –١٦٧ .

[3] جورجي زيدان– تاريخ التمدن الإسلامي – ٢٥٣/٣ دار الهلال ، د ط ، دت .

وهكذا يتضح أن بيئة العرب كانت مذكية لشاعريتهم ((فهي تكاد تكون خالية من الغابات والكهوف والمغارات وما يشبهها من المرئيات ، التي توحي بالفزع، وإضطراب الخواطر، وانبهام الأحلام، فتذهب بالشاعرية أو تضعها ، وقد لا حظت الباحثة سمبل Semple أن جبال الألب الشاهقة وما حولها من مرتفعات، ومنها سويسرا، فقيرة في الإبداع الفني والشعري ، وعللت هذا الفقر بعنف الطبيعة ؛ لأن عنفها يقلل المواهب الفنية)) [1].

ولا نود أن نسترسل أكثر من ذلك؛ لأننا نرى أن البيئة أثرت في الإنسان العربي عامة، ولتوضيح ذلك سنعرض – بشكل موجز– لتأثيرها عليه في الجوانب التالية :

١– أثر البيئة على معتقداته الدينية .

٢– أثر البيئة على أخلاقه .

٣–أثر البيئة على علاقاته الاجتماعية .

١– أثر البيئة على الفكر الديني لدى عرب الجاهلية :

عندما ترك إبراهيم – عليه السلام – ابنه البكر إسماعيل – عليه السلام – مع أمه في ذلك الوادي المقفر الجاف بأرض الحجاز، كان ذلك بأمر من الله سبحانه وتعالى، الذي اختار هذه البقعة بالذات لينشأ فيها إسماعيل – عليه السلام– في تلك البلاد التي كفلت لها قسوتها، وجفافها، وفقرها، أن تكون بمنأى عن طمع الطامعين، ولم يكن لأهلها من الحضارة ما يفتنهم ويضلهم من المذاهب، والأفكار، والفلسفات، والأساطير، هناك ألقى إبراهيم – عليه السلام– بذرة الإيمان، والتي صارت دوحة نتفيأ

---

[1] أحمد الحوفي – شاعرية العرب ، وأثر البيئة فيها، بحث منشور في مجلة الدارة – ص ٢٠٣ العدد الرابع، محرم ١٣٩٩ هـ/١٩٧٨ الرياض ، المملكة العربية السعودية .

ظلالها الوارفة حتى يومنا هذا، وعندما شب إسماعيل بين أفراد قبيلة جرهم العربية كان بدوره نبياً يعلم التوحيد [1].

ويرحل عنهم إسماعيل، ويكثر أولاده في الأرض ، ومع مرور السنوات ، وكر الأعوام يبدأ التحرف يتسرب إلى النفوس، ويبعدها عن النهج المستقيم الذي كانت عليه، ورغم كل الغشاوات التي أسدلت على القلوب في شبه جزيرة العرب، إلا أنه مازال تحت الرماد جذوة من إيمان، نأت بهم عما تردى فيه سواهم من الأمم، من لجوج في الكفر والوثنية، وللدلالة على ذلك يمكن أن نقارن معتقدات العرب الدينية في الجاهلية بمعتقدات اليونان مثلاً ، فنجد أن اليونان جعلوا لكل مظهر من مظاهر الطبيعة حولهم إلهاً ، فإله للموت، وإله للحياة، وإله للخصب، وإله للحرب ، إلى ما لا نهاية. بينما عرف العرب المشركون الله الواحد الخالق الرازق، والثبات على الاعتقاد بوحدانية الله سبحانه وتعالى يدل على النضج العقلي لديهم، وكان هذا هو مبعث الاطمئنان لديهم((فإيمان العرب هو أصل الاطمئنان؛ ذلك أنه يلغي كل الأسئلة الفلسفية الوهمية التي يوسوس بها الضعف،ويوحي بها الخوف ، والإنسان في غيبة الإيمان يغزوه الشك ، ومن الشك تنشأ الفلسفة ، ومن الفلسفة تنشأ الظنون التي تسوقه إلى حب الحياة، فيخاف أن يفقدها ،ولايموت في سبيل تكريمها)) [2].

ومن العجيب أن نجد لدى العديد من المستشرقين والباحثين ميلاً كبيراً للاعتقاد بأن (عدم الإغراق في الوثنية) مأخذ على عرب الجاهلية، فهذا أحدهم ينفي الشعر

---

[1] للوقوف بالتفصيل على ذلك ينظر: ابن كثير – البداية والنهاية – مكتبه المعارف ، بيروت ، لبنان ط٢، ١٩٧٤-١٥٤/٢ .

[2] أحمد موسى سالم – لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب – ٢٤٢- ٢٤٣ .

الجاهلي معتمداً على أوهام منها : أن الشعر الجاهلي لم يحفل بذكر الوثنية والأوثان، [1] وآخر يعتبر ذلك قصوراً في العقل العربي؛ لأنه لم يؤلف أساطير مثل اليونان، وأن ليس لدى العرب ميثولوجيا مثل اليونان، وهم لو تأملوا في الأمر قليلاً لعرفوا ((أن الأمة التي لها خرافات دينية هي أمة مرعوبة، يمتلئ خيالها بشتى الأوهام ، وهو خيال ساذج كخيال الأطفال ، يجسم كل شيء ، فيجعل هزيم الرعد وحوشاً، وهبوب العواصف آلهة، أما العرب فقد قطعوا شوطاً غير قليل في النضج العقلي ، ولم تعد أوهام الطفولة تروق لهم، وخاصة أن الصحراء لا تكتم سراً ولا تختزن أمراً ؛ لذلك نظروا إلى الوجود نظرة بعيدة عن الخرافات ، وعرفوا خالق الكون، وآمنوا به ،وحين حاولوا أن يصلوا إليه بالأوثان والأصنام فلأنهم لم يصلوا لمرحلة النضج العقلي الكامل ، فهذه الأصنام (شفعاء) تقربهم إلى ا لله زلفى ، وليس معنى هذا أنه لم تكن لهم خرافات، مثل معتقداتهم حول الجن وزجر الطير ونحوها ، ولكنها لم تشكل نظام حياتهم.[2]وفريق آخر يعيب على العرب افتقارهم للملاحم الشعرية، ولو تمعنوا في الأمر ملياً لوجدوا أن الشعر الملحمي يعتمد على الإغراق في الوثنية والإسراف فيها، وهذا لايوجد في العرب؛ ((لأن للألهة دوراً كبيراً في الملاحم، ففي الملحمة يتحدث الشاعر عن آلهة متعددة لها الكثير من الصفات والأعمال والمشاعر، والجاهليون رغم عبادتهم لأصنام متعددة إلا أنهم لم يتحدثوا عن أعمالها وصفاتها على النحو الذي نراه في شعر الملاحم، بل آمنوا با لله – سبحانه وتعالى – واعتبروه خالق الكون ومدبره ، وأما أصنامهم فهي تقربهم إلى ا لله زلفى)) [3] والباحثون في علم تاريخ الأديان ومقارنة الأديان

---

[1] انظر : طه حسين – في الأدب الجاهلي – ٧٣، دار المعارف القاهرة ، ط ١٩٨٩/١٦ م، وانظر كذلك مقالة ديفيد صمويل مرجليوث :(أصول الشعر العربي) ص ٧١ ومابعدها ، ترجمة : يحيى الجبوري ، مؤسسة الرسالة بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م ..

[2] عمر الدسوقي – النابغة – ٧٠.

[3] علي الجندي – شعر الحرب في العصر الجاهلي – ٤١١،٤١٢، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، لبنان ، ط ١٩٦٦/٣ م .

يلاحظون ذلك، يقول أحدهم عن عقول البشر واكتشاف التوحيد :((العقول في ذلك ليست على درجة واحدة، فهناك العقل القانع المتعجل الذي يقف عند أدنى مباديء الغيب، وأقرب غاياته، مكتفياً في كل فصيلة من الظواهر الكونية المتشابهة بأن يلمح من ورائها مبدأ يدفعها وينظمها، وهكذا تتعدد في نظره القوى المدبرة أو الآلهة القادرة، فللريح إله، وللخصب إله، وللحياة إله، وللموت إله، وللشعر إله، أما العقول الواعية الطليقة المتسامية، التي تسعى إلى هدفها على بصيرة فيما تطلب، غير متعرجة في السير فإنها من جهة ترى أن مطلبها أسمى من أن تحده حدود المكان، أو تقيده قيود الزمان، وتشرئب دائماً من وراء الحقائق الجزئية الزائلة إلى حقيقة كلية أزلية أبدية، تلك هي الحقيقة التي تفردها الأديان العليا بالتقديس)) [1]، وهكذا ظلت جذوة التوحيد في نفوس عرب الجاهلية، كامنة تحت رماد الوثنية والشرك، تؤثر فيهم من حيث لا يشعرون؛ لأن العرب هم أهل توحيد في فطرتهم، وحين حدث ذلك الانحراف عن المفهوم الصحيح للتوحيد فإنه يغلب أن يكون بسبب دخيل طارئ عليهم، وهذا شيء متوقع؛ لوجودهم بين الأمم الوثنية القديمة، مثل: الفراعنة في مصر، والأشوريين في العراق ، وغيرهم، ومما يرجح صحة هذا الرأي ما ذكره ابن هشام في حديثه عن عبادة العرب للأصنام، وذلك بقوله:((إن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم مآب من أرض البلقاء- وبها يومئذ العماليق...رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم : ماهذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال : أفلا تعطوني منها صنماً، فأسير به إلى أرض العرب، فيعبدوه ؟ فأعطوه صنما يقال له : هبل، فقدم به مكة ، فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه)) [2] ((وكان أول أمر عمرو هذا أنه حين كانت

---

[1] د . محمد عبد الله دراز – بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان- دار القلم، الكويت ط ٢، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م / ٩٦-٩٧ .

[2] ابن هشام- السيرة النبوية – دار المعرفة، بيروت، لبنان، د ط / دت- ٧٧/١.

خزاعة على البيت، ونفت جرهم عن مكة، جعلته العرب رباً لا يبتدع بدعة إلا اتخذوها شرعة؛ لأنه كان يطعم الناس، ويكسوهم في الموسم، فربما نحر في الموسم عشرة الآف بدنة، وكسا عشرة الآف حلة)) [1] ((ويفهم من هذا الكلام أن التغيير لدين إسماعيل كان أمراً شبه رسمي أدخل فيه العرب أفواجاً، ومنهم أهل مكة، بالنظر إلى مكانة من تولى أمر هذا التغيير، وهو عمرو بن لحي حاجب الكعبة آنذاك، على أن مبادئ الشرك كانت موجودة قبله كما يتضح من أنه :((كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للكعبة ..)) [2] وفي أواخر العصر الجاهلي، وقبيل بزوغ فجر الإسلام كان العرب في قمة نضجهم اللغوي، الذي يدل على رقي عقول أهلها كما ذكر العديد من الباحثين، مثل جورجي زيدان:((ارتقاء لغتهم يشهد بارتقاء عقول أصحابها)) [3] وكذلك قول أحمد أمين :((العربي ذكي، يظهر ذكاؤه في لغته))[4] في ذلك العهد كانت هناك إرهاصات بنضج هذه الأمة، فبدأت تظهر هنا وهناك أصوات تستنكر عبادة الأحجار التي لا تضر ولا تنفع، ويستهجن أصحاب هذا الرأي كثيراً من المعتقدات الباطلة التي كانت شائعة آنذاك، مما يدل على أن ((العرب في آواخر العصر الجاهلي كانوا على أبواب يقظة عقلية وروحية، وفي ريعان نهضة أدبية، كل هذا من شأنه أن يهز أركان الوثنية، ويستنتج نيكلسون من ظهور شعر يدعو إلى التأمل في الموت، أنه في خلال القرن السادس الميلادي كان الدين والمدنية يمتدان بشكل ظاهر في أنحاء الجزيرة العربية، ويغيران من أفكار العرب الوثنيين، ويمهدان الطريق للإسلام)) [5]

---

[1] ابن هشام – السيرة النبوية ، الحاشية – ٧٧/١.

[2] عبد القدوس الأنصاري – الكعبة قبل الإسلام – بحث منشور في مجلة : دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني، ط ١ ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ، ص ١٣٠ .

[3] تاريخ التمدن الإسلامي – ٢٥٣/٣ .

[4] فجر الإسلام – ٣٧ .

[5] أحمد الحوفي– الحياة العربية من الشعر الجاهلي – ٣٧٩ .

((لقد صارت عبادة الأوثان في آواخر العصر الجاهلي أقرب إلى العادة منها إلى العقيدة، يدل على ذلك حديث أبي رجاء العطاردي، حيث يقول:((كنا نعبد الحجر في الجاهلية، فإذا وجدنا حجراً أحسن منه نلقي ذلك ونأخذه، فإن لم نجد حجراً جمعنا حفنة من تراب، ثم حلبنا عليه، ثم طفنا به)) [1].

وقد ذهب جوستاف لوبون إلى مثل هذا الرأي، حيث يقول عن حالة الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام:((في جزيرة العرب ضعفت المعتقدات القديمة، وفقدت الأصنام نفوذها، ودب الهرم في آلهتها)) [2]، ومن الدلائل التي تدعم هذا الرأي: وجود طائفة الحنفاء: ((وهم جماعة من العرب لم تعبد الأصنام، ولم تكن من اليهود ولا النصارى، وإنما اعتقدت بوجود إله واحد عبدته على دين إبراهيم)) [3].

ويذكر كارل بروكلمان:((أن العرب قبيل الإسلام لم يعد الدين الوثني يرضي ضميرهم الديني كما كان من قبل، وأنه كلما تدهورت أهمية الدين الوثني زادت قيمة المزاج الديني العام المرتبط با لله، والحنفاء يمثلون هذا التطور في صورته المثلى منفصلاً عن الوثنية)) [4] .

موجز عن المفاهيم الدينية لدى عرب الجاهلية :

يعد القرآن الكريم المصدر الأساسي لمعرفة الفكر الديني لديهم ، يقول د. جواد علي :((وأما أديان العرب قبيل الإسلام وعند ظهوره، فالقرآن الكريم هو مرجعنا في هذا الباب، ففيه ذكر لما كان عليه الناس من عبادات وآراء، وفيه أسماء

---

[1] أحمد الحوفي – المرجع السابق – ٣٨٠.

[2] حضارة العرب– ١٠٠، وسنعرض الشواهد الشعرية الدالة على ذلك في موضعه إن شاء ا لله .

[3] جواد علي– تاريخ العرب قبل الإسلام – دار العلم للملايين، بيوت، لبنان، ط ٣ ١٩٨٠ م – ٤٤٩/٦ .

[4] محمد علي مختار – الحنيفية والحنفاء– بحث منشور في مجلة – دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني (الجزيرة العربية قبل الإسلام) ط ١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ، ص ١٦٧ .

لبعض الأصنام الكبرى التي كانت تتعبد لها القبائل)) [1] وقد كان العرب على دين إبراهيم وإسماعيل ماشاء الله لهم أن يكونوا، ثم تسرب إليهم التحرف والميل عن الدين الصحيح، وكانت البدايات الأولى – كما سبق أن ذكرنا– بسبب الإسراف في الحب والتقديس للحرم:((كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم)) [2] أضف إلى ذلك الإسراف في الطاعة لعمرو بن لحي الخزاعي، والإعجاب به، وذلك حين أطاعوه في عبادة الأوثان ، وكذلك الشأن في عبادتهم للأصنام المسماة:(ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر) ويذكر ابن الكلبي أن هذه الأصنام التي عبدها قوم نوح في الماضي طمرت بعد الطوفان على شط جدة، وبقيت مطمورة هناك أمداً، حتي جاء (رئي) عمرو بن لحي، فدله على مكانها، فاستخرجها، وحملها، حتى ورد تهامة، وحضر الحج، فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة، فأجابوه إلى ذلك، فدفع لكل سيد منهم صنماً، فأشاعوا عبادتها بين العرب. [3]

ومنذ القدم ذكر المفسرون أن وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين من بني آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا، وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانو يعبدونهم، وبهم يسقون المطر؛ فعبدوهم . [4] وهكذا نلاحظ أن الإسراف في التقديس لشخص ما أو شئ ما أو فكرة ما يفضى إلى مالا تحمد عقباه من عبادة له من دون الله، وقد ذكر ذلك أحد

---

[1] جواد علي – المرجع السابق – ٦/١١ .

[2] المراد بالحرم هنا : حرم مكة الذي لا يحل صيده، ولايقطع شجره، وليس المراد فقط البيت الحرام، انظر:(اللسان– مادة حرم) .

[3] ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤هـ) – الأصنام– ٦٦، تحقيق : محمد بن عبد القادر أحمد، أحمد محمد عبيد ، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – ، د ط ، د ت .

[4] ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤هـ) تفسير القرآن العظيم– ٤/٦٦٧، وانظر : الزمخشري جار الله محمود بن عمر الزمخشري(ت ٥٣٨هـ) – الكشاف– ٤/١٦٤، دار الفكر، ط ١ ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧م.

الباحثين فقال:((هذا هو ما أراه سر الوثنية، أعني إفراط العجب والاندهاش من الشيء حتى يصير تقديساً وعبادة))[1].

ورغم عبادتهم للأصنام إلا أنهم كانوا يعتقدون بإله واحد خالق للكون((فـا لله عندهم هو رب الأرباب، وإله الآلهة، يسـمو فـوق آلهـة القبـائل؛ ولهـذا ذكـر في شـعر شعراء مختلف القبائل، ولم يجعلوا له زوجة، فهو في نظرهم إله واحد متفـرد، لايشـاركه مشارك))[2]، وجاء في اعترافهم بتوحيد الربوبية قوله تعالى:﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[3]، ومما يدل على ذلك أيضاً قوله عز وجل :﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[4]

وعن عبادتهم للأصنام يقول سبحانه وتعالى :﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾[5].

من كل مـا سـبق نخلـص إلى أن عـرب الجاهليـة رغـم عبـادتهم للأوثـان بدافـع الإسـراف في التقديـس والحـب والإعجـاب، إلا أنهـم ظلـوا علـى إقرارهـم بتوحيـد الربوبية، وعلى يقينهم الراسخ بأن ا لله هو الخالق لهذا الكون، المدبر له، المتصرف فيـه، فهـم أسـرفوا علـى أنفسـهم، ولكنهـم لم يغرقـوا في هـذا الإسـراف شـأن بعـض الأمـم السابقة، مثل قوم فرعون، وعاد، وثمود، وغيرهم، ومن خلال تتبعـي لصيـغ الإسـراف المباشر في القرآن لاحظـت أن القـرآن الكريـم في خطابـه لعـرب الجاهليـة المشـركين لم يصفهم بالإسراف من الناحية الدينية، بينما يكثر وصف أقوام آخريـن بهـذه الصفـة في

---

(1) توماس كارليل– الأبطال– ص ٢٣، دار الكاتب العربي، بيروت، لبنان ، د ط، د ت .

(2) جواد علي – المرجع السابق– ٦ /١١٩ .

(3) سورة العنكبوت – ٦١ .

(4) سورة العنكبوت – ٦٣.

(5) سورة الزمر – آية ٣.

عدة مواضع، ونأخذ على سبيل المثال: (فرعون) ، ونقارن معتقده، بمعتقد العربي الجاهلي نجد أن فرعون مسرف في كفره؛ لأنه يدعي الألوهية لنفسه من دون الله، ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[1]

وقوله سبحانه وتعالى :﴿ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[2]

وادعاء الربوبية من دون الله : ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾[3] وفي قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾[4] وربما – والله أعلم – كان هذا من الأسباب التي جعلت الحق عز وجل يختص العرب بإرسال خاتم الإنبياء فيهم وبلسانهم؛ لأن ((العرب أسرع الناس قبولاً للحق والهدى؛ لسلامة طباعهم من عوج الملكات، وبراءتها من ذميم الأخلاق)) [5].

وفي مقابل ذلك نجد لدى عرب الجاهلية إسرافاً شديداً في صفات عديدة، مثل الحرب والكرم، وربما كان الدين الجديد يحتاج إلى أمة تتصف بصفات معينة تمثلت في هذه النواحي التي كان الجاهليون يسرفون فيها ، فعندما جاء القرآن والهدى من الله، توجهت هذه الصفات وجهتها السليمة لخدمة الدين، من جهاد، وإنفاق، ونحو ذلك، فكأنما كان عدم إغراقهم في الوثنية من جهة، وإسرافهم الشديد في الحرب والكرم من ناحية أخرى من الأسباب التي رشحتهم لحمل رسالة الإسلام؛ لأن تلك الوثنية التي كانت شائعة فيهم سرعان ما تلاشت واضمحلت أمام نور الإسلام وكأنها لم تكن، بخلاف ما نرى لدى أمم أخرى أصرت على كفرها حتى نزل بها العذاب، وأمم أرسل لهم الله الكثير من الأنبياء ليهدوهم سبيل الرشاد دون جدوى مثل: (بني إسرائيل)

---

[1] سورة يونس – آية ٨٣ .

[2] سورة الدخان – آية ٣١ .

[3] سورة النازعات – أية ٢٤.

[4] سورة القصص – آية ٤ .

[5] أحمد موسى سالم – لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب –١٢٥.

فكثرة الأطباء تدل على استعصاء الداء على الشفاء، بينما كان قبول العرب للحق أسرع وأقوى من سواهم ، وا لله أعلم .

٣- أثر البيئة على العلاقات الاجتماعية بين عرب الجاهلية :

نستطيع أن نصنف هذه العلاقات إلى صنفين :

١- العلاقات الأسرية .

٢- العلاقات القبلية .

١- العلاقات الأسرية :

كان لبيئة العرب الصحراوية القاحلة تأثيرها الكبير على قاطنيها، فندرة الموارد أدت إلى انتشار الفقر والجوع والمجاعات، وخاصة في فترات انقطاع المطر، وكذلك فإن كثرة الحروب والغارات غرست في نفس العربي توقعاً دائماً للمكروه، ومن أبشع ذلك المكروه وقوع محارمه في الأسر، وهذا من أشد الأمور إيلاماً للعربي؛ لأنه ثلم لشرفه وكرامته. ونتيجة لما سبق ظهرت لديهم تلك العادة البغيضة المعروفة بـ(الوأد) .

وتركيزنا على الوأد؛ لأنه من أبرز المظاهر الدالة على إسراف العربي على فرد من أفراد أسرته، وهم :(الأبناء) بنات وأولاداً كما سنرى، ورغم وقوع العديد من التجاوزات في العلاقه مع الزوجة، مثل العضل [١]، والزواج بالميراث[٢]

---

[١] العضل إما عضل الورثة، أو عضل الزوج، فعضل الورثة : أن يمنع الورثة المرأة المتوفى عنها زوجها عن التزوج، إلا أن تفتدي نفسها بما ورثته عن زوجها .

عضل الزوج : أن يمسك الزوج زوجه من غير حاجة ، ويضيق عليها، ويضارها؛ ليسترد ما أتاها. للتوسع عن ذلك ينظر : أحمد الحوفي- المرأة في الشعر الجاهلي - ٢٥٦ .

وغير ذلك، إلا أن هذا يتضاءل بجوار قسوة ظاهرة(الوأد) وعنفها، وتعود أسباب هذه الظاهرة إلى مايلي :

١- سبب اقتصادي : هو (الفقر) ، ويعتبر العامل الرئيسي في الوأد .

٢- سبب اجتماعي : وهو المغالاة المسرفة في المحافظة على الشرف، وخوف العار. وقد ركز القرآن على العامل الأول، باعتباره السبب الأساسي للوأد، ويضيف البعض سبباً ثالثاً هو :

٣- السبب الديني: ويمثلون لذلك بحادثة عبد ا لله بن عبد المطلب [١]، ولكنا نستبعد هذا السبب؛ لأن هذه الحادثة فردية، ولم أجد في المصادر- حسب علمي - سواها، إضافة إلى أن نص هذه الحادثة يشير إلى معارضة قريش وبقية أبناء عبد المطلب لذبح عبد ا لله؛ حتى لا تكون سنة تتبع .

يقول النص: ((كان عبد المطلب قد نذر حين لقي من قريش العنت في حفر بئر زمزم، لئن ولد له عشرة نفر، وبلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرن أحدهم عند الكعبة لله تعالى، وبعد أن بلغوا عشرة أراد أن يفي بنذره، فقالت له قريش: ((وا لله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه، لئن فعلت هذا لايزال الرجل منا يأتي بابنه حتى يذبحه)) [٢] .

ومما يضعف الرأي القائل بأن الوأد لون من تقديم القرابين للألهة أن الشعائر الدينية الشائعة في تقديم القرابين للآلهة تكون بالذبح؛ كي يسيل الدم من الضحية، ولانجد ذلك في الدفن، وقد لمح هذا الفارق د. جواد علي، فقال :((والغريب في

---

[٢] الزواج بالميراث: أن الرجل إذا مات، وترك زوجة ، ألقى عليها ابنه أو قريبه ثوبه فمنعها الناس، فإن أعجبته تزوجها، وإلا حبسها حتى تموت، أو ترد عليها مهرها، ينظر عن ذلك : أحمد الحوفي - المرأة في الشعر الجاهلي -٢٥٧ .

[١] انظر - ابن الأثير، علي بن محمد الشيباني(٦٣٠هـ) الكامل في التاريخ ٣/٢، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان، ط ٢، ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠م .

[٢] ابن الأثير - الكامل - ٣/٢.

الؤاد أن يكون بالدفن، بينما العادة في الضحايا التي تقدم للآلهة أن تكون بالذبح)) [1]، وإن كان هناك سبب ديني للوأد، فربما يعود ذلك إلى أمرين :

١- العقيدة التي لدى بعض عرب الجاهلية القائلة بأن الملائكة بنات الله – تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً – فكانوا يقولون :(الحقوا البنات بالبنات) وقد أشار القرطبي إلى أن قوله تعالى :﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [2] نزلت في خزاعة وكنانة، فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله، فكانوا يقولون:(الحقوا البنات بالبنات)[3].

٢- عقيدة التشاؤم من الوليدة الأنثى التي تكون شيماء، أو برشاء، أو كسحاء، فيئدون من تولد على هذه الصفة تشاؤماً منها [4] .

ورغم كل ما سبق، فإنه يحسن بنا أن نشير إلى أن ظاهرة الوأد لم تكن شائعة عند كل القبائل العربية ، بل عُرفت عند قبائل معينة، مثل ربيعة ، ومضر [5] ، ومنهم : بنو تميم ، وقد وفد قيس بن عاصم التميمي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر له أنه وأد ثماني بنات كن له في الجاهلية، فأمره الرسول الكريم بأن يعتق عن

---

[1] تاريخ العرب قبل الإسلام – ٩٧/٥ .

[2] سورة النحل – ٥٧.

[3] الجامع لأحكام القرآن – المجلد ٥/ح ١٠٤/١٠ .

[4] السيد محمود شكري الألوسي – بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب – ٤٢/٣، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، د ت . الشيماء : السوداء ، البرشاء :من في جسدها بياض كالبرص ، الكسحاء : العرجاء.

[5] القرطبي – الجامع – ٨٨/٧/٤ .

كل واحدة منهن رقبة [1] ويصور القرآن الكريم هـذه الظاهرة، وينهى عنها، ويفند أسبابها قال تعالى :﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾[2]

وقال سبحانه وتعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾[3]

في الأية الأولى نجد أن سبب قتل الأبناء هو الخوف من الفقر، أي أن أهلهم أغنياء يخافون أن يحل بهم الفقر، فقدم رزق الآباء على الأبناء في مقام توقع الفقر، أما في الآية الثانية فهم فقراء فعلاً، وعاجزون عن الإنفاق عليهم، فقدم رزق الأبناء على الآباء في مقام الفقر الواقع [4] ، إذن خوف الفقر المتوقع أو الحادث هو سبب قتل الأبناء؛ لأن البيئة فقيرة مجدبة نادرة الأمطار، تجتاحها المجاعات حيناً بعد آخر، مما سبب هذه الظاهرة .

السبب الثاني : الخوف من العار، فالحروب والغارات لاتكاد تخبو نارها، والسبي من آثارها، والعرب معروفون بالغيرة الشديدة على محارمهم، ولذا فخير الأصهار هو ... القبر !

قال الشاعر :

سَمَّيْتُهَا إذْ وُلِدَتْ : تَمُوتُ وَالقَبْرُ صِهْرٌ ضَامِنٌ زَمِيتُ[5]

كل هذا بسبب الإسراف في المحافظة على الشرف، أو كما قال نيكلسون:((التغالي الشاذ في المحافظة على الشرف)) [6] ، ولعل أوضح ما يصور نظرة

---

[1] ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) الإصابة في تمييز الصحابة ٢٤٢/٣، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، وانظر : القرطبي، الجامع – ٢٠٠/١٩/١٠ .

[2] سورة الإسراء – ٣١ .

[3] سورة الأنعام – ١٥١.

[4] انظر : ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ٣٠٢/٢ الإسكافي – درة التنزيل – ١٣٦ الألوسي – روح المعاني – المجلد ٤/ج ٥٤/٧

[5] القرطبي – الجامع لأحكام القرآن – المجلد ١٠/ج ٢٠٠/١٩ والزميت : الوقور .

العربي إلى البنات تلك الآيات القرآنية التي تقدم لنا تحليلاً نفسياً عميقاً لمشاعر الأب وهو يتلقى نبأ ولادة ابنة له، قال عز وجل :

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾[1] بل لقد بلغ بهم الإسراف في الغيرة على بناتهم أن دخلتهم الحمية من أن يتزوجن!! ومما يدل على ذلك ماروي أن رجلاً من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كان لايزال مغتماً بين يدي الرسول، فقال له الرسول : مالك تكون محزونا؟ فقال : يارسول الله إني أذنبت ذنباً فأخاف ألا يغفره لله لي ، وإن أسلمت، فقال له : أخبرني عن ذنبك ، فقال له : فقال : يارسول الله ! إني كنت من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لي بنت، فتشفعت إلى أمرأتي أن أتركها، فتركتها ، حتي كبرت، وأدركت، وصارت من أجمل النساء فخطبوها، فدخلتني الحمية ، ولم يحتمل قلبي أن أزوجها، أو أتركها في البيت بغير زوج ، فقلت للمرأة: إني أريد أن أذهب لزيارة أقربائي، فابعثيها معي، فسرت بذلك، وزينتها بالحلي والثياب، وأخذت عليَّ المواثيق بألا أخونها، فذهبت بها إلى رأس بئر، فنظرت في البئر، ففطنت الجارية بأني أريد أن ألقيها من البئر، فالتزمتني، وجعلت تبكي، وتقول : ياأبت ! ماذا تريد أن تفعل بي، فرحمتها، ثم نظرت في البئر، فدخلت عليَّ الحمية، فالتزمتني وجعلت تقول: يا أبت لا تضيع أمانة أمي، فجعلت مرة أنظر في البئر، ومرة أنظر إليها فأرحمها، حتى غلبني الشيطان، فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة، وهي تنادي في البئر: يا أبت ! قتلتني، فمكثت حتى انقطع صوتها، فرجعت، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقال : "لو أمرت أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك"[2].

كل ما سبق يدل على أن (الوأد) هو أبرز ملامح الإسراف في نطاق العلاقات الأسرية في المجتمع الجاهلي .

---

(٦) أحمد الحوفي – الحياة العربية في الشعر الجاهلي – ٢٢٦ .

(١) سورة النحل – ٥٨–٥٩.

(٢) القرطبي – المصدر السابق– المجلد ٤/ج٧/٨٨ .

٢- العلاقات القبلية :

ينقسم العرب إلى : أهل مدر، وأهل وبر، وأهل المدرهم سكان القرى والمدن؛ لأن أبنيتهم من المدر، وهو قطع الطين اليابس المتماسك، وأهل الوبر هم أهل البادية؛ لأن بيوتهم من الوبر وهو صوف الإبل [١].

كان أهل المدر مستقرين، حيث توجد لديهم - إلى حد ما - أسباب الرزق، من خلال ما تنتجه بيئتهم التي يقيمون فيها، ويشتغلون إما بالزراعة أو التجارة ونحو ذلك، أما أهل الوبر فهم الذين كانوا يعيشون متفرقين في أنحاء الصحراء، ويمكن أن ننظر إلى حياة العرب من زاويتين : حياتهم السياسية، وحياتهم الاقتصادية، ويلاحظ أن حياتهم السياسية قائمة على النظام القبلي، أما حياتهم الاقتصادية فقائمة على الثروة الحيوانية، وكلا الأمرين نابع من طبيعة بيئتهم، وبينهما تداخل عميق .

فمن حيث حياتهم الاقتصادية واعتمادهم على الثروة الحيوانية فأمر واضح، فهم يأكلون لحومها، ويشربون ألبانها، ويتخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها ملابسهم وخيامهم وأثاثهم، وهي وسيلتهم للانتقال في الصحراء الواسعة ، كما أنها عدتهم الأولى في القتال، يقول الأعشى [٢]:

جَعَلَ الإِلَهُ طَعَامَنَا فِي مَالِنَا ... رِزْقاً تَضَمَّنَهُ لَنَا لَنْ يَنْفَدَا

مِثْلَ الهِضَابِ جَزَارَةً لِسُيُوفِنَا ... فَإِذَا تُرَاعُ فَإِنَّهَا لَنْ تُطْرَدَا [٣]

---

[١] اللسان - مادة (وبر)، مادة (مدر).

[٢] الأعشى : هو ميمون بن قيس بن جندل، من بكر بن وائل، لقب بالأعشى لضعف بصره، ولقب كذلك بـ(صناجة العرب) لأنه كان يغني في شعره، من أشهر شعراء الجاهلية وأبرعهم في قول الشعر، وقد عرف عنه قيامه برحلات عديدة إلى الأمراء والأغنياء ؛ ليمدحهم، فينال العطايا الجزيلة، ولم تصرفه تلك الرحلات عن المشاركة في شؤون قبيلته، فسجل انتصاراتهم وندد بخصومهم ، وخاصة شعره عن يوم (ذي قار) وقد اقترن ذكره عند القدماء بشعر الخمر، التي أجاد في وصفها ووصف مجالسها، وقد وضعه ابن سلام في الطبقة الأولى ، بعد امرئ القيس، والنابغة، وزهير، أراد أن يفد على الرسول ويسلم، فردته قريش، ثم مات . انظر : الأصفهاني، أبو الفرج، علي بن الحسين (ت٣٥٦هـ) - الأغاني - ١٢/٩، شرح . عبد الله مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت ط ١، ١٤٠٧ هـ/١٩٨٦ م، وانظر: المرزباني، محمد بن عمران(ت ٣٨٤هـ) - = معجم الشعراء - ٢٩١، دار الجبل ، بيروت، ط ١/ ١٤١١هـ /١٩٩١م وكذلك : ابن سلام، محمد بن سلام الجمحي (٢٣٢هـ) - ص ٢٥، دار الباز، بيروت، لبنان ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠ م، د ط .

[٣] مالنا : الإبل، الهضاب: القطعة من الجبل، جزارة : كل ماكان مباح للذبح. أي:جعل الله طعامنا في الإبل رزقاً لا ينفد، وهي ضخمة كالهضاب. انظر : الديوان - ١٠٨ ، تحقيق : حنا نصر الحتي .

لذلك كان من الطبيعي أن يكون هَمّ البدوي البحث عن طعام لما شيته، فما أن تخضر الأرض بالعشب حتي يبدأ التسابق على منابت الكلأ، ومحاولة الاستيلاء على أوفر نصيب من المراعي والمياه، وعندئذ يحدث التصادم لا محالة، إضافة إلى الاعتماد على الثروة الحيوانية، وبخاصة الإبل، وهذا نابع من طبيعة الصحراء، التي لم تساعد على مزاولة مهنة مثل: الزراعة التي تعتمد على وجود أراض خصبة، ومصادر وفيرة للمياه .

ورغم وجود بعض البيئات الزراعية المتناثرة هنا وهناك، مثل : اليمن، ويثرب التي عرفت بكثرة تمورها، واليمامة التي كانت تمون مكة بالحبوب، والطائف التي اشتهرت بكروم العنب وبساتين الرمان، إلا أنها تظل محدودة، اَضف إلى ذلك أن العربي ، نتيجة لإسرافه الشديد في حب الحرية صار يأنف من مزاولة الزراعة التي تشده إلى مكان معين، يقول الأعشى محتقراً قبيلة إياد واشتغالهم بالزراعة ويشبههم بالنبط [1]:

خُرِبَتْ بُيُوتُ نَبِيْطَةٍ فَكَأَنَّمَا ... لَمْ تَلْقَ بَعْدَكَ عَامِراً مُتَعَهِّدَا
لَسْنَا كَمَنْ جَعَلَتْ إِيَادٌ دَارَهَا ... تَكْرِيْتَ تَنْظُرُ حَبَّهَا أَنْ يُحْصَدَا
قَوْماً يُعَالِجُ قُمَّلاً أَبْنَاؤُهُمْ ... وَسَلَاسِلاً أُجُداً وَبَاباً مُؤْصَدَا

ويقول :

قُلْنَا: الصِّلَاحَ، فَقَالُوا : لَا نُصَالِحُكُمْ ... أَهْلُ النُّبُوْكِ، وَعِيْرٌ فَوْقَهَا الخَصَفُ
لَسْنَا بِعِيْرٍ وَبَيْتِ اللهِ مَائِرَةٍ ... إِلَّا عَلَيْهَا دُرُوْعُ القَوْمِ والزَّغَفُ[2]

---

[1] الأعشى – الديوان– ١٠٧–١٠٨، نبيطة : جماعة من المتشغلين بالزراعة في العراق، تكريت : في شمال العراق، أجد : محكمة الربط، والمراد : يهجو الشاعر قبيلة إياد، فيشبههم بالأنباط؛ لاعتمادهم على الزراعة، فيدعو على ديارهم بالخراب ويقول : أظننتنا مثل (إياد) حراثين إذلاء، قد اتخذوا تكريت دارهم، ينتظرون الحصاد، يمضون الوقت في معالجة القمل المنتشر في إبدانهم وقد أوثقوا بالسلاسل، وغلقت دونهم الأبواب.

[2] النبوك: موضع كثير النخل بالبحرين، الخصف: القفة التي تصنع من جريد النخل، الزغف: الدرع الواسعة، يقول: عرضنا عليهم المهادنة، فأبوا ذلك، وقالوا: هل أنتم إلا أهل نخيل وحمالوتمر فوق العير، وإني أقسم ببيت الله ماكانت أبلنا منهوكة إلا لحملها الدروع والأسلحة، الأعشى– الديوان– ص٢٠٩.

وكذلك وبدرجة أشد من الاحتقار والازدراء، نظر العربي الجاهلي إلى مهنة (الصناعة) من حدادة، وصياغة، ودباغة، وحياكة، ونحو ذلك، وكان أغلب الممارسين لها من غير العرب، مثل : اليهود، أو من العبيد الأرقاء، أما الحر فلم يخلق لمثل هذه الأعمال – حسب رأيهم [1].

وقد استغل اليهود أنفة العرب من الاشتغال بالحدادة والصياغة، فاحتكروها، وربحوا منها أرباحاً مجزية ، وقد اتخذ عمرو بن كلثوم [2] ذلك مطعناً في النعمان بن المنذر [3] ؛ لأن خال النعمان كان يهودياً يمارس مهنة الصياغة، حيث قال :

لَحَا اللهُ أَدْنَانَا إِلَى اللُّؤْمِ زُلْفَةً ... وَأَلْأَمَنَا خَالاً، وَأَعْجَزَنَا أَبَا

وَأَجْدَرَنَا أَنْ يَنْفُخَ الكِيْرَ خَالُهُ ... يَصُوْغُ القَرُوطَ وَالشُّنُوفَ بِيَثْرِبَا[4]

وقال يهجو أم النعمان، ويعرض بأهلها الذين يمارسون الحدادة والصياغة والنسيج :

إِذْ لَا تُرَجِّي سُلَيْمَى أَنْ يَكُونَ لَهَا ... مَنْ بِالخَوَرْنَقِ مِنْ قَيْنٍ وَنَسَّاجِ[5]

---

[1] جواد علي– المرجع السابق – ٥٤٣/٧.

[2] عمرو بن كلثوم: هو أبو الأسود، عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب، من قبيلة تغلب، نشأ في بيت من أسياد تغلب فكان معجباً بنفسه، فخوراً بأهله وقومه، ساد قومه في سن مبكرة، واشتهر بحادثة قتله لعمروا بن هند، وبمعلقته الشهيرة التي يعدد فيها مفاخر قومه ومآثرهم، وقد جعله ابن سلام من شعراء الطبقة السادسة، مع الحارث بن حلزة، وعنترة بن شداد، انظر : الأصفهاني– الأغاني – ٥٤/١١، ابن سلام – طبقات فحول الشعراء– ٥٦، المرزباني – معجم الشعراء – ١٢

[3] النعمان بن المنذر: أبو قابوس، النعمان (الثالث) بن المنذر بن المنذر بن امرئ القيس اللخمي، من أشهر ملوك الحيرة اتصل به النابغة الذبياني، وحسان بن ثابت، وغيرهما من الشعراء، حكم الحيرة منذ سنة ٥٨١م إلى أن نقم عليه كسرى، فاستدعاه وقتله، انظر : ابن الأثير – الكامل – ٢٨٥/١، جواد علي – تاريخ العرب قبل الإسلام – ٢٦١/٣.

[4] عمرو بن كلثوم – الديوان– ص ٢٥، تحقيق: أميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت ط ١،١٤١١هـ/١٩٩١م لحا الله : قبح ولعن، زلفة : منزلة ودرجة ، الكير: جلد ينفخ به الحداد، القروط :جمع قرط، حلية تعلق في شحمة الأذن (اللسان– قرط) الشنوف : حلية تعلق في أعلى الأذن (اللسان – شنف)المراد: تعريض الشاعر بخال النعمان،لأنه كان حداداً بيثرب، وعرب الجاهلية كانوا يعيرون أصحاب المهن .

[5] عمرو بن كلثوم – المصدر نفسه – ٣٠، الخورنق : قصر بظهر الحيرة، القين : الصانع الذي يعمل بالحديد(اللسان– قين) سليمي : سلمى بنت عطية الصائغ، أم النعمان ملك الحيرة، بنت صائغ من فدك، ولعلها من أصل يهودي، انظر : جواد علي – تاريخ العرب قبل الإسلام – ٢٦١/٣

وهكذا صار أخوال النعمان، الذين يمارسون بعض المهن، منفذاً للشعراء للقدح في النعمان بن المنذر، فكما سبق أن رأينا عمرو بن كلثوم يقدح في خال النعمان نجد أن سواه من الشعراء قد قدحوا في جده لأمه، فقد قال النابغة الذبياني[1] معيراً النعمان بجده لأمه، وكان صائغاً في فدك :

لَعَنَ اللهُ، ثُمَّ ثَنَّى بِلَعْنٍ ... رِبْذَةَ الصَّائِغِ الجَبَانَ الجَهُوْلَا

فهو يشبه النعمان بتلك الخرقة التي يستعملها الصائغ، والتي هي مجمع للصدأ، إيماء إلى جده الصائغ. وممن مارس هذه المهنة أيضاً : العبيد، عرباً وغير عرب، فقد كان الأزرق بن عقبة [2] مولى وحداداً رومياً لأحد أعيان ثقيف، وكان خباب بن الأرت[3] التميمي ممن سُبي في الجاهلية، وبيع بمكة، فكان يعمل السيوف في الجاهلية، وقد وردت في أشعارهم إشارات لعبيدهم الذين كانوا يمارسون مهنة الحدادة، من ذلك قول الأعشى :[4]

---

[1] ١- النابغة الذبياني: أبو أمامة ، زياد بن معاوية الذبياني الغطفاني، من شعراء الطبقة الأولى، كانت تضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها، فيحكم بينهم، كان متصلاً بالنعمان بن المنذر، ثم حصلت جفوة بينهما ففر النابغة إثر ذلك إلى الغساسنة بالشام، وبعد أمد قال في النعمان إعتذارياته الرائعة، وكان من أحسن شعراء العرب ديباجة، انظر : الأصفهاني – الأغاني – ٥/١١ ، ابن سلام– طبقات فحول الشعراء – ٢٥ ، الألوسي – نهاية الأرب– ١٠١/٣ .

٢ – النابغة الذبياني– الديوان – ٢٠٨، وورد البيت نفسه في اللسان منسوباً إلى النابغة (اللسان –ربذ) الربذة: الخرقة التي يمسح بها الصائغ الحلي ليجلوها، تقال للرجل الذي لا خير فيه (اللسان– ربذ) وفي الأغاني جاء في الشطر الأخير :((وارث الصائغ الجبان الجهولا)) قال الأصفهاني :(يعني بوارث الصائغ النعمان ، وكان جده لأمه بفدك، وهي قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، يقال له : عطية) ١٦/١١ .

[2] هو الأزرق بن عقبة مولى الحارث بن كلدة الثقفي، كان حداداً رومياً، أسلم أيام حصار الطائف، وأعتقه الرسول عليه السلام، انظر : ابن حجر– الإصابة– ٤٤/١ .

[3] خباب بن الأرت بن جندلة التميمي سُبي في الجاهلية، وبيع بمكة، من السابقين الأولين إلى الإسلام، وعُذب لأجل ذلك تعذيباً شديداً شهد المشاهد كلها، ونزل بالكوفة ومات بها سنة ٣٧هـ، وقد كان يعمل السيوف في الجاهلية، قال خباب رضى الله عنه: (كنت قيناً في الجاهلية) أي : صانعاً، انظر، ابن حجر – الإصابة–٤١٦، اللسان – مادة (قين).

[4] ديوانه – ٣٧٠، ذو شطب : السيف، الجران : مقدم العنق، مصقلتيه : ما يجلو به السيف.

فَـلَاوَ أَبِيـكَ لَا نُعْطِيـكَ مِنْهَـا ... طِـوَالَ حَيَاتِنَـا إِلَّا سِـنَانَا

وَإِلَّا كُـلَّ ذِي شُـطَبٍ صَقِيـلٍ ... يَقُـدُّ إِذَا عَـلَا الْعُنُـقَ الْجِرَانَـا

أَكَـبَّ عَلَيْـهِ مِصْقَلَتَيْـهِ يَوْمَـاً ... أَبُـو عَجْـلَانَ يَشْـحَذُهُ فَتَانَـا

فالشاعر يتوعد خصومه قائلاً: إنكم لن تنالوا منا ماحيينا إلا الطعان بأسنة الرماح، وإلا كل سيف براق بتار للأعناق، قد أكب عليه فتانا أبو عجلان يوماً كاملاً يصقله بمصقلتيه بكل نشاط وقوة.

وهكذا يتضح أن أعمال الحدادة، وما قد يتبع ذلك مثل :شحذ السيوف، هو من عمل عبيدهم وفتيانهم .

ونظروا إلى الحياكة والنسج بازدراء أيضاً، فكان الغزل من شأن النساء، وخاصة الإماء منهن، قال امرؤ القيس [1]:

أَحَنْظَـلُ إِذْ لَمْ تَشْـكُرُوا وَغَـدَرْتُمُ ... فَكُونُـوا إِمَـاءً يَنْتَسِـجْنَ الْمَعَـاصِرَا[2]

((وعرف اليمن بالغزل والنسج، فنسبت إليه أجود الثياب، مثل البرود اليمانية، والمراجل اليمانية، وكان الجاهليون يستوردون الأردية والأقمشة والأقمصة من العراق، والشام، ومن مصر يستوردون القباطي)) [3]

---

[1] امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، الملك الضليل، أشهر شعراء الجاهلية، وأول شعراء الطبقة الأولى، تميز شعره بالأخيلة المبتكرة، واللفظ الجزيل، وتفتيق المعاني، ويمثل مقتل والده حُجر على يد بني أسد نقطة تحول في حياته، حيث صار همه إدراك ثأره منهم، وقد عاني الشاعر طويلاً من مطاردة المنذر اللخمي له، فا ضطر إلى التنقل بين عدة قبائل هرباً من بطشه، وفي النهاية قصد قيصر الروم ليساعده في استعادة ملكه وملك آبائه الكنديين،وفي طريق عودته من بلاد الروم، ظهرت عليه قروح، قيل إنها بسبب حلة مسمومة أهداها له القيصر، توفي في أنقرة، انظر : الأصفهاني – الأغاني –٩٣/٩ ، ابن سلام – طبقات فحول الشعراء –٢٥ الألوسي– نهاية الأرب – ٩٣/٣ .

[2] أبو عبيدة، معمر بن المثنى(٢٠٩هـ) أيام العرب قبل الإسلام – ٦/٢، تحقيق: عادل جاسم البياتي، عالم الكتب، بيروت، ط ١ ١٤٠٧هـ/١٩٨٧ . أحنظل : يابني حنظلة، وهو القوم الذين خذلوا شرحبيل، عم الشاعر، حتي قتل في حربه مع أخيه سلمة (أبو عبيدة– أيام العرب – ٦١/٢) المعاصر: برود تلبسها الأعاريب، والقصيدة التي منها هذا البيت موجودة في ديوان الشاعر ص ٥٦، ولكن البيت لم يرد فيها .

[3] جواد علي – تاريخ العرب قبل الإسلام – ٥٩٤/٧ .

والتاجر اليمنى المحمل بالثياب الجميلة الملونة صورة وردت في الشعر الجاهلي، فامرؤ القيس عندما أراد أن ينقل لنا صورة صحراء الغبيط المكتسية بألوان الزهر بعد السيل، لم يجد أجمل من صورة الثياب الملونة التي يبسطها التاجر اليماني وينشرها أمام الناظرين، فشبه نزول المطر بنزول هذا التاجر، وشبه ما اكتست به صحراء الغبيط من ألوان الزهر والنبات بألوان الثياب التي ينشرها التاجر اليماني، حيث قال :

وَأَلْقَى بِصَحْرَاءِ الغَبِيْطِ بَعاعَهُ نُزُولَ اليَمَانِي ذِي العِيَابِ المُحَمَّلِ[1]

ومن خلال التأمل في أنواع المنسوجات والملابس في العصر الجاهلي، نجد أن أغلبها تعود صناعتها لليمن، مثل الجيشانية [2] والشرعبية[3]، والسحولية[4] ، والحبرة[5]، والخال[6]، والخمس[7]، والعصب[8]، والفوف[9]، والمعاجر[10] ، والمعافرية [11]، والممرجل[12]، والوصائل [13]، وبقية أنواع المنسوجات من مناطق متنوعة مثل : القبطية [14] من مصر ، والحيرية من الحيرة، والديباج من بلاد فارس [15] وكان أهل مكة يشترون من اليمن الألبسة الجيدة، ويبيعونها في الأسواق، ومنها أسواق الشام،

---

[1] امرؤ القيس – الديوان– ١١٩– تحقيق عمر فاروق الطباع، دار القلم، بيروت، لبنان، د ط، د ت الغبيط: أكمة قد انخفض وسطها وارتفع طرفاها، بعاع : الثقل .

[2] الجيشانية : برود يمنية موشاة، منسوبة إلى جيشان، مخلاف باليمن، يحيى الجبوري– الملابس العربية في الشعر الجاهلي – ٣٧ .

[3] الشرعبية : ثياب يمنية نفيسة، منسوبة إلىشرعب، مخلاف باليمن(يحيى الجبوري– الملابس العربية–المرجع نفسه –٤٨) .

[4] السحولية : ثياب بيض، رقاق من القطن، منسوبة إلى سحول، قرية باليمن (الجبوري– المرجع نفسه – ٤١)

[5] الحبرة : نوع من برود اليمن موشاة مخططة، من أثمن البرود اليمانية،(الجبوري – المرجع نفسه – ٣٧).

[6] الخال : نوع من البرود، أرضه حمراء فيها خطوط سوداء، من برود اليمن (الجبوري – المرجع نفسه –٣٩).

[7] الخمس : من برود اليمن، نسبة إلى أحد ملوكهم يقال له (الخمس) : الجبوري – المرجع نفسه – ٣٩) .

[8] العصب : برود يمنية، يعصب غزلها، أي يجمع ويشد ثم يصبغ وينسج:(الجبوري – المرجع نفسه – ٤٤).

[9] الفوف : برود يمنية، وهي ثياب رقاق موشاة فيها خطوط بيضاء : (الجبوري –٤٥) .

[10] المعاجر: ثوب يمني، يلتحف به ويرتدى :(الجبوري – المرجع نفسه – ٤٦) .

[11] المعافرية : ثياب يمنية منسوبة إلى قبيلة معافر وهي من همدان(الجبوري– ٤٦).

[12] الوصائل : برود يمانية حمر، فيها خطوط خضر : (الجبوري– ٥١).

[13] الممرجل : برود يمنية فيها صور المراجل (الجبوري– ٤٩) .

[14] القباطي : نسبة للأقباط .

[15] يحيى الجبوري – الملابس العربية في الشعر الجاهلي – ٥٨–٥٩، دار الغرب الإسلامي بيروت ، لبنان، ١٩٨٩ م ،د ط .

وقد جعل البعض اشتغال أهل اليمن بالحياكة والنسج مطعناً عليهم، فقيل إنهم بين حائك برد، وسائس قرد [1] .

أما بالنسبة لمهنة الصيد، فقد مارستها طبقتان في المجتمع:

١- طبقة الأغنياء: وذلك بقصد التسلية والترفيه، وإظهار البراعة والمقدرة، كما نجد ذلك في معلقة امرئ القيس :

فَعَنَّ لَنَا سِرْبٌ كَأَنَّ نِعَاجَهُ ... عَذَارَى دَوارٍ فِي مُلَاءٍ مُذَيَّلِ [2]

٢- طبقة الفقراء: فكثيراً ما تأتي صورة الصياد في الشعر الجاهلي وهو يرتدي الأسمال البالية، ويقتات هو وآله من هذا الصيد، وعيَّر الشعراء الجاهليون من جعل الصيد طريقته لكسب القوت :

إِذَا ابْتَدَرَ النَّاسُ المَعَالِي رَأَيْتَهُمْ ... وُقُوفاً بِأَيْدِيهِمْ مُسُوكُ الأَرَانِبِ [3]

وقال آخر يصف ثوراً فاجأه الصياد مع الفجر : [4]

حَتَّى إِذَا ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ أَوْ كَرَبَتْ ... أَحَسَّ مِنْ ثُعَلٍ [5] بِالفَجْرِ كَلَّابَا [6]

يُشْلِي [7] عِطَافاً وَمَجْدُولاً وَسَلْهَبَةً ... وَذَا القِلَادَةِ مَحْصُوفاً وَكَسَّابَا [8]

ذُو صِبْيَةٍ كَسْبُ تِلْكَ الضَّارِيَاتِ لَهُمْ ... قَدْ حَالَفُوا الفَقْرَ وَاللَّأْوَاءَ [9] أَحْقَابَا

---

[1] جواد علي – المرجع السابق – ٥٢٨/٧ .

[2] الديوان– ١١٥ – (عَنَّ : عرض وظهر) سرب: قطيع من بقر الوحشي، دوار: حجر كان أهل الجاهلية ينصبونه ويطوفون به، ملاء مذيل: ملاء أطيل ذيلها وأرخي) يقول : عرض لنا قطيع من بقر الوحش كأنه عذاري يطفن حول حجر منصوب في ملاء طويل ذيولها ، فشبه المها بالعذارى في البياض والحسن، وشبه طويل أذيالها وسبوغ شعورها بالملاء المذيل.

[3] الجاحظ : أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) الحيوان– ٥٩٦/٥، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل ، بيروت، ط٢/١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م . المسوك : جمع مسك، وهي الجلود (اللسان – مادة مسك) هجاهم بأنهم إنما يعيشون من صيد الأرانب.

[4] الأعشى– الديوان – ٥١ .

[5] ثعل : حي من طيء .

[6] الكلاب : الذي يستخدم الكلاب في الصيد .

[7] يشلي : يغري ويحث .

[8] عطاف .. كلاب : أسماء كلاب الصيد .

[9] الشدة والمحنة . ويقول : فلما بدأت الشمس في الشروق أو كادت، أحس في ضوء الفجر الخافت بصياد من بني ثعل، وهذا الصياد يغري كلابه الخمسة بالثور، وقد ترك من ورائه صبية صغاراً حالفوا الفقر والشدة والجهد زمناً طويلاً، وهم ينتظرون ما يعود به والدهم من صيد.

وأثر الفقر يبدو على وجهه الهزيل :

سَاهِمُ الوَجْهِ مِنْ جَدِيْلَةَ أَوْ لِحْـ ـيَانَ أَفْنَى ضِرَاءَهُ الإِطْلَاقُ [1]

وقوله :

أَطْلَسَ طَلَّاعَ النِّجَادِ عَلَى الْـ ـوَحْشِ غَبَاً مِثْلَ القَنَاةِ أَزَلْ
فِي إِثْرِهِ غُضْفٌ مُقَلَّدَةٌ يَسْعَى بِهَا مُغَاوِرٌ أَطْحَلْ [2]

وقال النابغة الذبياني يصف ثوراً أصاخ بسمعه لحس صائد بقر يركب جواداً، تسعى تحت كلابه، ويصف ثيابه المتسخة [3] :

أَصَاخَ مِنْ نَبْأَةٍ أَصْغَى لَهَا أُذُنَاً صِمَاخُهَا بِدَخِيْسِ الرَّوْقِ مَسْتُورُ
مِنْ حِسِّ أَطْلَسَ تَسْعَى تَحْتَهُ شِرَعٌ كَأَنَّ أَحْنَاكَهَا السُّفْلَى مَآشِيْرُ
يَقُولُ رَاكِبُهَا الجِنِّيُّ مُرْتَفِقَاً: هَذَا لَكُنَّ، وَلَحْمُ الشَّاةِ مَحْجُوْرُ

ووصف الحطيئة [4] للصياد من أوضح ما يصور ذلك، حيث قال [5] :

---

[1] الأعشى– الديوان– ٢٢٦ (ساهم الوجه: ضامر الوجه، متغير اللون، ذابل الشفتين، عابس الوجه من شدة الهم (اللسان– مادة سهم)، جديلة ولحيان : حيان من العرب ، الضراء: كلاب الصيد).يقول : لاح صياد من جديلة أو لحيان ساهم الوجه، قد أنهك كلابه الضارية من طول أوقات الصيد .

[2] المصدر نفسه – ٢٥٤(أطلس : الذي تغير لونه ومال إلى السواد، النجاد: المرتفع من الأرض، أزل : الهزيل الضعيف لحم الفخذين، غضف: الكلاب المسترخية الآذان . أطحل : أغبر في مثل لون الرماد) يقول :(هذا الصياد أغبر نحيل، خبير بمهاجمة الوحوش في معاقلها، تتبعه كلابه مسترخية الآذان، خلف هذا الصياد المغاور.

[3] النابغة – الديوان – ١٣٩ (أصاخ: استمع بعناية، الصماخ: ثقب الأذن الماضي إلى داخل الرأس، الدخيس: العظيم الصلب، الروق : القرن، مآ شير : جمع منشار .

[4] الحطيئة: جرول بن أوس، يكنى أبا مُليكة، شاعر مخضرم، متين الشعر، شرود القافية، كان راوية لزهير بن أبي سُلمى، وسار على نهجه في تهذيب الشعر وصقله، وقد عده الأصمعي من عبيد الشعر، أدرك الإسلام، وأسلم، وكانت براعته تظهر في فن المدح وفن الهجاء، وخشي الناس هجاءه، وقد وقع في الزبرقان بن بدر الذي اشتكاه إلى عمر فحبسه، وبعد استعطاف الحطيئة له أطلقه وشرى منه أعراض الناس ببعض المال، توفى في ٤٥ هـ ، انظر: الأصفهاني – الأغاني – ١٤٩/٢، ابن سلام – طبقات الشعراء ٣٤، الألوسي– نهاية الأرب– ١٣٨/٣ .

[5] الحطيئة – الديوان– ٢٠٤، ٢٠٥، شرح: يوسف عيد، دار الجيل، بيروت، ط ١٤١٣/١٩٩٢م، طاوي: جائع، مرمل: نفد زاده ، خبز ملة : هو الخبز الذي يدفن في الرماد الحار حتى ينضج (اللسان– ملل) بهم: ولد الضأن .

وَطَاوِي ثَلَاثٍ عَاصِبِ البَطْنِ مُرْمِلٍ ... بِتِيهَاءَ لَمْ يَعْرِفْ بِهَا سَاكِنٌ رَسْمَا
أَخِي جَفْوَةٍ فِيهِ مِنَ الإِنْسِ وحشةٌ ... يَرَى البُؤْسَ فِيهَا مِنْ شَرَاسَتِهِ نُعْمَى
وَأَفْرَدَ فِي شِعْبٍ عَجُوزاً إِزَاءَهَا ... ثَلَاثَةُ أَشْبَاحٍ تَخَالُهُمُ بَهْمَا
حُفَاةٌ عُرَاةٌ مَا اغْتَذَوا خُبْزَ مَلَّةٍ ... وَلَا عَرَفُوا لِلْبُرِّ مُذْ خُلِقُوا طَعْمَا

وقال أوس بن حجر [1] يصف صياداً :[2]

صَدٍ، غَائِرُ العَيْنَيْنِ، شَقَّقَ لَحْمَهُ ... سَمَائِمُ قَيْظٍ، فَهْوَ أَسْوَدُ شَاسِفُ
أَزَبُّ ظُهُورِ السَّاعِدَيْنِ، عِظَامُهُ ... عَلَى قَدَرٍ شَثْنُ البَنَانِ جُنَادِفُ
أَخُو قُتُرَاتٍ قَدْ تَيَقَّنَ أَنَّهُ ... إِذَا لَمْ يُصِبْ لَحْماً مِنَ الوَحْشِ خَاسِفُ

هذا الارتباط بين امتهان الصيد وبين الفقر والجوع والحاجة والعوز وضعف الحال؛ جعل العربي الجاهلي ينفر من الاعتماد على هذه المهنة مورداً أساسياً لرزقه، واحتقر من فعل ذلك، قال عمرو بن معد يكرب [3] هاجياً [4] :

---

[1] أوس بن حجر بن مالك التميمي، وهو زوج أم زهير بن أبي سلمى، من شعراء الجاهلية وفحولها، كان أبرز شعراء مضر، حتى برز زهير والنابغة فأخملاه، وله في الرثاء قصائد جياد مشهورة، وخاصة في فضالة بن كلدة الذي أحسن للشاعر، فرثاه بعد موته بأشعار رقيقة، انظر : الأصفهاني – الأغاني – ١١/ ٧٣، الألوسي– نهاية الأرب– ٣/١٠٤ .

[2] الديوان – ٧٠، أزب : كثير شعر الذراعين (اللسان– زبب) صد: عطشان، شقق لحمه : مزق لحمه سموم القيظ ، جنادف: قصير غليظ متجمع، شثن البنان: غليظة، قترات: بيت الصائد، خاسف : جائع مهزول. المراد: وصف ذلك الصائد، الغائر العينين، المتشقق الجلد من لفح سموم القيظ، المعتاد التربص للوحش ؛لأنها مصدر رزقه ، وإن لم ينلها فإن الجوع والهزال هما ما ينتظرانه.

[3] عمرو بن معدي كرب الزبيدي، فارس اليمن، وفد على الرسول عليه السلام سنة ٩ هـ في وفد زبيد وأسلم، وشهد فتح القادسية واليرموك ونهاوند، وأبلى فيها البلاء الحسن، وقد أشاد به سعد بن أبي وقاص بعد يوم القادسية، له قصائد من عيون الشعر العربي، توفي – على الأرجح– بعد فتح نهاوند سنة ٢١هـ ، انظر: الأصفهاني – الأغاني– ١٥/٢٠٠ المرزباني – معجم الشعراء – ١٩ ، الألوسي – نهاية الأرب – ٣/١٤٦ .

[4] عمرو بن معدي كرب – الديوان – ٤٩، تحقيق، مطاع الطرابيشي، مجمع اللغة العربية، دمشق ١٣٩٤/١٩٧٤م مربق : الربقة الحلقة تشد بها صغار الغنم لئلا ترضع، الخميس :الجيش، القهر : موضع باليمن، وهو جبل في ديار الحارث بن كعب ، فرع من قبيلة مذحج اليمنية ، مكلب : الصائد بالكلاب ، حيد : جمع حيود، من حاد إذا مال عن الشيء ، وفضة : جعبة للسهام من جلد، والأبيات تصور فخر الشاعر بقومه وأصلهم الكريم وهجاء لأعدائه المشغولين بصيد الوعول في جبل القهر،وهم في ذلك يتبعون سنة أبيهم الحائد عن المعروف، المشتغل بصيد الوعول بواسطة الكلاب،و جعبة السهام.

أَبَـنِي زِيَـادٍ أَنْتُـمُ فِي قَوْمِكُـمْ ذَنَـبٌ، وَنَحْـنُ فُـرُوعُ أَصْـلٍ طَيِّـبِ
نَصِـلُ الخَمِيْـسَ إِلَى الخَمِيْـسِ وَأَنْتُـمُ بِـالقَهْرِ بَـيْنَ مُرَبِّـقٍ وَمُكَلِّـبِ
حُيِـدٌ عَـنِ المَعْـرُوفِ سَـعْيُ أَبِيهِـمُ طَلَـبُ الوُعُـوْلِ بِوَفْضَـةٍ وَبِـأَكْلُبِ

أما التجارة فيرى البعض أنها المهنة الوحيدة التي لم يحتقرها العربي في الجاهلية، بل اعتبرها من أشرف الحرف قدراً ومنزلة [1]، ويرى البعض الآخر أن العرب لا يرون حرفة التجارة شرفاً مؤثلاً، ويستدلون بأقوال وردت في بعض كتب التاريخ تعبر عن ذلك، ومنه قول زيد بن صوحان [2] لمعاوية رضى ا لله عنه : :((كم تكثر علينا بالإمرة بقريش ، فمازالت العرب تأكل من قوائم سيوفها، وقريش تجار)) وقول النعمان بن قبيصة الطائي [3] عندما سأل عن سعد بن أبي وقاص [4] فقيل :((رجل من قريش)) فقال :((أما إذا كان قريشاً فليس بشئ ، وا لله لأجاهد نه القتال، إنما قريش عبيد من غلب، وا لله ما يمنعون خفيراً، ولا يخرجون من بلادهم إلا بخفير)) [5] ويروى أنهم وجدوا على باب الندوة مكتوباً :

أَلْهَـى قُصَيّاً عَـنِ المَجْـدِ الأَسَـاطِيْرُ وَرِشْـوَةٌ مِثْلَمَـا تُرْشَـى السَّفَاسِـيْرُ

---

[1] جواد علي – المرجع السابق – ٢٢٧/٧.

[2] زيد بن صوحان العبدي من ربيعة، أحد الشجعان الرؤساء، شهد وقائع الفتح، وقاتل مع علي يوم الجمل وقتل سنة ٣٦هـ، انظر : الزركلي – الأعلام – ٥٩/٣.

[3] النعمان بن قبيصة الطائي ، ابن حية الطائي، وهو ابن عم إياس بن قبيصة الطائي صاحب الحيرة، كان على مرابطة كسرى في قصر بني مقاتل، وقال كلمته السابقة عندما سمع بسعد بن أبي وقاص، وقد غضب لذلك أحد من كان في مجلسه وهو عبد ا لله بن سنان الأسدي، فأمهله حتى نام، ثم وضع الرمح بين كتفيه فقتله، ولحق بالمسلمين، فأسلم.انظر : الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) – تاريخ الأمم والملوك– ٥٧٢/٣، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم .

[4] سعد بن أبي وقاص، هو سعد بن مالك بن وهيب بن عبد مناف، صحابي جليل، خال رسول ا لله صلى عليه وسلم ، من السابقين الأولين إلى الإسلام أول من رمى بسهم في سبيل ا لله، وهو أحد الستة أهل الشورى، كان على رأس الجيش الفاتح للعراق في القادسية مات – رضى ا لله عنه – على الأرجح سنة ٥٥هـ، الإصابة – ٣١/٢ .

[5] ناصر سعد الرشيد– تعامل العرب التجاري،وكيفيته في العصر الجاهلي– بحث منشور في مجلة دراسات في تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثاني (الجزيرة العربية قبل الإسلام)–٢٢٠ .

وَأَكْلُهَا اللَّحْمَ صِرْفاً لَا خَلِيطَ لَهُ وَقَوْلُهُمْ : رَحَلَتْ عِيْرٌ أَتَتْ عِيْرُ

ومن أغرب ما وجدت وأنا أبحث في المصادر تلك الإشارات التي تومض هنا وهناك بالاحتقار لمهنة الرعي، وهذا ما لا أستطيع الجزم به، وإنما أطرح تلك الومضات للرأي والمناقشة، ففي حديث أكثم بن صيفي[1] لقومه، عندما طلبوا مشورته في شأن هجوم مذحج عليهم [2] ، وطمعها فيهم، لما كان حل بهم يوم الصفقة [3] من ذهاب أموالهم وعبيدهم وكثرة القتل فيهم حيث قال :((..... وإنما كان قوامكم أسيفاً وعسيفاً – يريد العبد والأجير – وصرتم اليوم إنما ترعي لكم بناتكم)) [4] وحتى رعي المرأة، لم يكن يمارسه منهن إلا الفقيرات، والأغلب أن يكن من الإماء، قال الدكتور أحمد الحوفي عن ذلك: ((يظهر أن الرعي كان من أعمال العبيد والإماء، فلم يمارسه من الحرائر إلا الفقيرات)) [5] ومما يدعم هذا الرأي قول السُّليك بن السَّلكة [6] منادياً أصحابه كي يغيروا على بعض الأنعام الراتعة[7]:

---

[1] أكثم بن صيفي بن رباح التميمي، الحكيم المشهور، وأحد المعمرين، أدرك الإسلام، وبلغه ما يأمر به الدين من مكارم الأخلاق، فخرج في جماعة من قومه، يريدون الإسلام، حتى إذا كانوا دون المدينة بأربع ليال أدرك الموت أكثم، فنزل فيه قوله تعالى:﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ سورة النساء، آية ١٠٠ يقال أنه عاش مائة وتسعين سنة، انظر : ابن حجر – الإصابة – ١١٨/١ .

[2] مذحج : قبيلة يمنية، نسبة إلى مالك بن أدد، ومذحج لقب له، انظر : ابن الكلبي، هشام بن محمد الكلبي (ت٢٠٤) – نسب معد واليمن الكبير – ٢٦٧/١ تحقيق :د. ناجي حسن، عالم الكتب، بيروت، ط١ ، د ت.

[3] يوم الصفقة : هو اليوم الذي أوقع فيه الأساورة ببني تميم، في حصن المشقر بهجر، بسبب نهبهم للعير الخاصة بكسرى، وقد تم لهم ذلك بعد أن خدعوهم، حيث أدعوا أن كسرى يدعوهم للميرة، ولكن عليهم الدخول دون سلاح، فأدخلوا رجلاً رجلاً، وصاروا يقتلون، وبدأ الباقون يشكون في الأمر، حيث قال أحدهم يابني تميم ما بعد السلب إلا القتل، وضرب بالسيف سلسلة الباب فإذا الناس يقتلون، فثارت بنو تميم . انظر : أبو عبيدة– أيام العرب – ٦٦/٢، ٧٠ .

[4] أبو عبيدة – المصدر نفسه – ٧٣ الأسيف : العبد (اللسان – مادة أسف) العسيف : الأجير المستهان به، قال نبيه بن حجاج : أطعت النفس في الشهوات حتى أصارتني عسيفاً عبد عبد (اللسان – مادة عسف).

[5] المرأة في الشعر الجاهلي – ٤٠٣ .

[6] السليك بن السلكة : هو السليك بن عمرو، من بني مقاعس من تميم ، أحد صعاليك العرب العدائين، والسلكة أمه، وهي أمة سوداء، كان من أغربة العرب، كان أعرف الناس بمسالك الأرض، كثير الغزو للنهب والسرقة، قتل على يد أنس بن مدرك الخثعمي رضي الله عنه، وذلك قبل إسلامه، انظر : الأصفهاني – الأغاني – ٣٨٩/٢٠.

[7] السليك بن السلكة – الديوان – ٦٨، شرح: سعدي الصناوي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط ١/ ١٤١٥/١٩٩٤م وقد ورد البيتان في الأغاني – ٣٩١/٢٠ .

يَاصَاحِبَيَّ أَلَا لَا حَيَّ بِالْوَادِي سِوَى عَبِيدٍ وآمٍ بَيْنَ أَذْوَادِ
أَتَنْظُرَانِ قَرِيبَاً رَيْثَ غَفْلَتِهِمْ أَمْ تَغْدوانِ فَإِنَّ الرِّيحَ للغَادِي

فيظهر من خلال هذا الشعر أن رعي تلك الأذواد– وهي القطيع من الأبل من ثلاث إلى تسع – كان عمل العبيد والإماء .وفي الحديث عن يوم النفراوات [1] تصف الراوية ظلم زهير بن جذيمة[2] لقبيلة هوازن [3] ، وما كانت عليه هوازن في ذلك العهد من الضعف، وإنما هم رعاء الشاء في الجبال [4] ، وحين أدرك عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – أبا جهل، وهو في الرمق الأخير يوم بدر، جعل قدمه على عنق أبي جهل، فقال أبو جهل:((لقد ارتقيت مرتقاً صعباً يارويعي الغنم !)) [5] .

وقد ورد في كتاب (الحيوان) نص يوضح العقد الشفهي الذي يتم بين الراعي والمسترعي، ويدل على تدني منزل الراعي، ونص العقد هو الآتي:(ليس لك أن تذكر أمي بخير ولا شر، ولك حذفة بالعصا عند غضبك، أخطأت أو أصابت، ولي مقعدي من النار، وموضع يدي من الحار والقار) [6] .

---

[1] يوم النفراوات : هو اليوم الذي قتل فيه خالدٌ بن جعفر زهيرَ بن جذيمة، وذلك لما كان من ظلم زهير لهوازن، وقد كان يأخذ منهم الإتاوة ، وبغى واشتط عليهم ، فنذروا به، وحين سمعوا بنزوله في النفراوات ، هاجموه ومن معه ، وقتل يوم ذاك . انظر : أبو عبيدة – أيام العرب – ١٠٥/٢ الأصفهاني – الأغاني – ٨٧/١١ .

[2] زهير بن جذيمة : هو زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي، أمير عبس، وأحد سادات العرب المعدودين في الجاهلية، كانت هوازن تهابه، تحمل إليه الإتاوة كل عام، سمنا وأقطاً وغنماً تأتيه بها في عكاظ، قتله خالد بن جعفر العامري. انظر : الزركلي – الأعلام – ٥١/٣ ..

[3] هوزان : هوزان بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان من العدنانية، وهم الذين أغار عليهم النبي عليه السلام وغزاهم، انظر : القلقشندي، أحمد بن علي بن عبد الله (ت٨٢١هـ) – نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب– ص ٣٩١ دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، د ط / د ت .

[4] أبو عبيدة – أيام العرب – ١٠٥/٢ .

[5] ابن هشام– السيرة النبوية – ٦٣٦/٢.

[6] الجاحظ– ١٠٨/٥ .

ومن مناقب الرجال – في نظرهم – عدم امتهان الرعي، حيث يقضي بياض نهاره في الرعي، وما بقي منه يقضيه مضطجعاً في البيت، من ذلك قول رجل من جرهم[1] يرثى فارساً من فرسان الجاهلية، هو الحارث بن ظالم: [2]

يَاحَارِ حِنِّيتَا ... حُرّاً قُطَامِيتَا
مَا كُنْتَ تِرْعِيتَا ... فِي البَيْتِ ضِجْعِيتَا
أَدْعَى لِبَاخِيتَا ... مُمَلَّأً عِيتَا[3]

وهكذا حين نتجه إلى الشعر، نجد العديد من الإشارات، من ذلك قول ذي الأصبع العدواني: [4].

عَنِّي إِلَيْكَ فَمَا أُمِّي بِرَاعِيَةٍ ... تَرْعَى المَخَاضَ وَمَا رَأْيِي بِمَغْبُونِ[5]

---

[1] جرهم: حي من اليمن، وهو بنو جرهم بن قحطان، نزلوا مكة ، وتزوج منهم إسماعيل عليه السلام، انظر: القلقشندي – نهاية الأرب–١٩٦.

[2] الحارث بن ظالم المري، أشهر فتاك العرب في الجاهلية، وأوفيائهم، قتل أبوه وهو صغير، على يد خالد بن جعفر، وقد آلت سيادة غطفان إلى الحارث بعد مقتل زهير بن جذيمة، التقى بقاتل أبيه عند النعمان في الحيرة، فتنازعا بين يديه، فلما كان الليل قتل الحارث خالداً، وعلمت بذلك بنو عامر فطلبت الحارث، وقتل كذلك ابناً للنعمان لعدوان النعمان على جارات له، فصار النعمان يطارده، فتنقل بين أحياء العرب، ونشبت لأجله معارك كثيرة، وانتهى به المطاف إلى الغساسنة فقتل ناقة محمية للملك في سنة مجدبة، وقتل الكاهن الذى دل عليه، فقتله ابن الخمس التغلبي الكاهن، وبعد مدة قدم ابن الكاهن إلى سوق عكاظ، فرآه قيس بن زهير بن جذيمة، فقتله ثأراً للحارث بن ظالم، لأنه نال من قاتل أبيه خالد الكلابي . انظر : أيام العرب – ١٦٢/٢، ١٦٣، الأغاني ١٢٥/١١ الألوسي – نهاية الأرب– ١٣٣/١.

[3] أبو عبيدة – المصدر السابق– ١٦٢/٢ الأصفهاني – الأغاني – ١٢٥/١١ ياحار : ترخيم للحارث، قطامي : الصقر ، ترعي : المجيد للرعي، ضجعياً : ملازم للبيت لا يكاد يبرحه ، اللباخي : الكثير اللحم .

[4] ذو الأصبع العدواني: هو حُرْثان – بضم فسكون – بن الحارث العدواني، شاعر فارس حكيم جاهلي، سمي(ذا الإصبع) لأن حية نهشت أبهام قدمه فقطمتها، وقيل : لأنه كان في رجله أصبع زائدة، له غارات ووقائع مشهورة، عمر دهراً طويلاً وحين حضرته الوفاة، أوصى بنيه وصية بليغة وردت في الأغاني، انظر: الأغاني –٨٦/٣.

[5] المفضل بن محمد الضبي(ت) المفضليات –١٦٠، تحقيق: أحمد شاكر، عبد السلام هارون المفضليات – الحاشية –١٥٣دار المعارف، ط ١٠/١٩٩٢م، والمراد: لست ابن أمة؛ لأن الرعي عمل الإماء، المخاض: النوق الحوامل(اللسان – مخض).

وقال آخر – هو رشيد بن رميض مفتخراً بنفسه: [1]

بَـــاتُوا نِيَامَـــاً وَابْـــنُ هِنْـــدٍ لَمْ يَنَـــمْ
خَـــدَلَّجُ السَّـــاقَينِ خَفَّـــاقُ القَـــدَمْ
لَيْـــسَ بِرَاعِـــي إِبِـــلٍ وَلَا غَنَـــمْ

وقول تأبط شراً :[2]

وَلَسْتُ بِـــرَعْيِ طَوِيْـــلٍ عَشَـــاؤُهُ ... يُؤَنِّفُهَـــا مُسْتَأْنَفَ النَّبْـــتِ مُبْهِـــلِ [3]

ويقول أيضاً : [4]

وَلَسْـــتُ بِرَاعِـــي ثَلَّـــةٍ قَـــامَ وَسْـــطَهَا ... طَوِيْلَ العَصَا غُرْنَيْقُ ضَحْلٍ مُرَسِّـــلِ

وقال امرؤ القيس [5] :

فَإِنَّنَـــا لَمْ نَعْـــدُ سِـــلْماً وَلَا ... نَصْحَـــبُ أَهْـــلَ الشَّـــاءِ وَالجَـــامِلِ

---

[1] أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي(٢٣١هـ) شرح ديوان الحماسة المنسوب لأبي العلاء المعري– ٢٥٥/١، تحقيق:حسين محمد نقشة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ/١٩٩١ م، د ط و الأبيات تنسب لرشيد بن رميض، وهو مخضرم، انظر : الإصابة – ٥١١/١(اللسان– حطم) ، خدلج الساقين: عظيم الساقين، خفاف القدم : سريع الخطو، ضراب بها الأرض، حتي يسمع لها خفقان .

[2] تأبط شراً: ثابت بن جابر الفهمي، أحد صعاليك العرب ، وعدائيهم، كان إذا جاع لم تقم له قائمة، فيطارد الضباء على رجليه، حتي يصطادها، له في المفضليات أول مقطوعة ، قتل في أحدى غزاوته على هذيل . انظر:الزركلي – الأعلام –٩٧/٢، الأغاني – ٢١ /١٣٨ .

[3] تابط شراً – الديوان – ١٧٦، تحقيق : على ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، ط ١،١٤٠٤هـ /١٩٨٤ م والبيت في اللسان –(مادة رسل) الترعي: من يجيد رعي الماشية ويحسن ارتياد الكلأها (اللسان– مادة رعي) طويل عشاؤه : أن يرسل الإبل والغنم للرعي بعد غروب الشمس(اللسان – مادة عشا) مستأنف النبت : أي المرعى الذي لم يرعه أحد، والذي يقال له :(كلأ أنف) (اللسان – مادة أنف) ، مبهل: التي حُل صرارها وترك ولدها يرضعها، والمعنى أنه ليس من الرعاة المشتغلين برعي الأنعام وارتياد أحسن الكلأها، بل إن همته أعلى من ذلك وأرفع .

[4] تأبط شراً – المصدر نفسه – ١٧٣(ثلة : جماعة من الغنم، غرنيق: الشاب الناعم، مرسل : كثير الرسل،وهو اللبن .

[5] امرؤ القيس – الديوان – ٤٧٥ – تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم .

وقول امرئ القيس مصوراً مجادلة بينه وبين زوجة أحد الرعاة: [1]

فَتَقُولُ : قَوَّادُ الجِيَادِ إِلَى ... أَرْضِ العَدُوِّ وَبَلْدَةِ البَأْسِ
فَأَقُولُ : بَلْ سَوَّاقُ أَفْصِلَةٍ ... تَرْعَى لِصَعَائِدِ قِعْسِ

وقال آخر :

لَسْتُ بِذِي ثَلَّةٍ مُؤَنَّفَةٍ ... آقِطُ أَلْبَانَهَا وَأَسْلُؤُهَا[2]

ومن أشهر العبيد الذين اشتغلوا بالرعي، ثم سودتهم فروسيتهم: عنترة بن شداد [3] ، الذي قال لأبيه حين استصرخه:«العبد لا يحسن الكر، وإنما يحسن الحلاب والصر»[4]

وهو القائل:

أَنَا العَبْدُ الذِي خُبِّرْتِ عَنْهُ ... رَعَيْتُ جِمَالَ قَوْمِي مِنْ فِطَامِي
أَرُوحُ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى مَغِيبٍ ... وَأَرْقُدُ بَيْنَ أَطْنَابِ الخِيَامِ

ويبقى أن نشير بعد هذا العرض إلى الملحوظات الآتية :

١- إن ما سبق عرضه من احتقار للمهن يمثل وجهة نظر الجاهليين،وهي نظرة خاطئة ومجافية للحق والصواب، ولا تقدح تلك النظرة الجاهلة في مكانة تلك المهن،

---

[1] ديوانه – ٢٤٥ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم (ترعية : صاحب رعي ، صعائد : جمع صعود، وهي الناقة التي تعطف على ولد غيرها حتي يدر لبنها) قعس:طوال.

[2] اللسان – مادة (أنف) الثلة : جماعة الغنم، آقط ألبانها: يصنع من ألبانها الأقط، وهو الذي يتخذ من اللبن المخيض، ثم يترك حتي يمصل (اللسان – أقط) أسلؤها : استخرج السلاء،وهو السمن (اللسان– سلأ) والمراد: لست براعي غنم مشغول بعمل الأقط، واستخراج الدهن من ألبانها .

[3] عنترة بن شداد بن معاوية العبسي، كان يلقب بعنترة الفلحاء؛ لتشقق شفتيه، أمه أمة حبشية يقال لها زبيبة، ولذلك استعبده أبوه ولم يلحقه به، حتى برزت فروسيته وشجاعته، فصار فارس عبس، امتاز شعره بما فيه من تصوير للحروب، وبما يشيع فيه من قيم ومثل تنم عن روح كريمة، وضعه ابن سلام في شعراء الطبقة السادسة انظر : الأصفهاني – الأغاني – ٢٤٤/٨ ابن سلام – طبقات فحول الشعرا ء–٥٦.

[4] عنترة بن شداد– الديوان بشرح الخطيب التبريزي – ١٨٨، قدم له : مجيد طراد ، دار الكتب العربي، بيروت ، لبنان، ط١ / ١٤١٢هـ /١٩٩٢م، أطناب : جمع طنب، وهو الحبل الذي تشد به الخيمة إلى الوتد .

فالأنبياء – عليهم السلام – قد مارسوا مهناً متعددة، وخاصة مهنة الرعي ، مثل سيدنا موسى، وسيدنا محمد – عليهما السلام– والأنبياء يأتون دوماً لتنقية المجتمع من تلك الأفكار الخاطئة المركوزة في نفوس أقوامهم .

٢– احتقار فئات من المجتمع الجاهلي لهذه المهن، يدل على أنها موجودة وتمارس من قبل فئات أخرى .

٣– الاحتقار العنيف للمهن كان بارزاً بوضوح عند الأعراب، وهم البدو الموغلون في الصحراء[١] أما سواهم من سكان الحواضر والقرى، فلم يكن الأمر بالحدة نفسها، فأهل مكة يمارسون التجارة، وأهل يثرب يمارسون الزراعة، والطائف تشتهر بدباغة الجلود، وفي اليمن تزدهر مهن عديدة من حدادة،وحياكة،ونسيج، [٢] وغيرها .

٤– النظرة إلى تلك المهن ليست على درجة واحدة من الازدراء، بل تتفاوت، فأرجح أن مهنة الصناعة هي التي نالت أكبر قدر من الاحتقار، وأما الزراعة،والرعي فبدرجة متوسطة، وأعلى منهما التجارة .

٥– يلاحظ كذلك أن كل فئة كان تمتدح كسبها الذي تقتات منه ، فزارع النخل يمدح نخله، وراعي الغنم يمدح تيسه [٣]وهلم جرا .

---

[١] لمعرفة الفرق بين العرب والأعراب، انظر : يحي الجبوري– الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه – ٣٠،٣٧ مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ٦ ،١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .

[٢] جواد علي – تاريخ العرب قبل الإسلام – ٧/٢٥،٢٦،٢٨٥،٥٢٤،٥٣٨، وينبغي ملاحظة أن العديد من السادة المهتمين بالزراعة أو الدباغة لم يكونوا يباشرون العمل بأنفسهم ، بل يقوم عبيدهم بتلك الأعمال، جواد علي ٧/٢٧ .

[٣] قال مخارق بن شهاب المازني يصف تيس غنمه:

وراحت أصيلاناً كأن ضروعها ... دلاء وفيها واتد القرن لبلب

ترى ضيفها فيها يبيت بغبطة ... وضيف ابن قيس جائع يتحوب

فوفد ابن قيس على النعمان فقال : كيف المخارق فيكم؟ قال :(سيد شريف، يمدح تيسه ويهجو ابن عمه) الحيوان – ٥/٤٩٠

في بيئة مثل هذه، تبرق هنا وهناك ومضات الاحتقار للمهن من صناعة، وزراعة، وتجارة، ماذا يمكن للعربي الجاهلي أن يمتهن ؟ لقد امتهن(الغزو) وصار يعد باباً للرزق، فخير الرزق ما ناله بأسنة الرماح، ورغماً عن الأعداء، ومن الإشارات التي توضح مدى اعتمادهم على الغزو، موقفهم من الأشهر الحرم ، حيث كانوا يكرهون أن يتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم لا يغيرون فيها؛ لأن معاشهم كان من الغارة، فيؤخرون حرمة المحرم، ويجعلونها في صفر، ومنه قول الشاعر :

أَلَسْنَا النَّاسِئِينَ عَلَى مَعَدٍّ ... شُهُورَ الحِلِّ نَجْعَلُهَا حَرَامَا[1]

وقد حرم الله تعالى ذلك في قوله سبحانه :﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ ﴾[2] فالغزو مهنة عندهم، بل يكاد يكون أشرف المهن، فالجاهلي ينفق بكرم وبذخ ، فإذا أفلس غزا، قال عمرو بن كلثوم :[3]

يُخْلِفُ المَالَ فَلَا تَسْتَيْئِسِي ... كَرِّيَ المُهْرَ عَلَى الحَيِّ الحِلَالِ

وصار الغزو ديدن حياتهم :

وَيَوْمَاً عَلَى أَهْلِ المَوَاشِي،وَتَارَةً ... لِأَهْلِ رَكِيبٍ مِنْ ثُمَيْلٍ وَسُنْبُلِ[4]

وقال الأعشى يمدح من يكسب رزقه بالغزو :

وَأَبْيَضَ كَالسَّيْفِ يُعْطِي الجَزِيلَ ... يَجُودُ، وَيَغْزُو إِذَا مَا عَدِمْ[5]

ويقول عنترة بعد أن ترك مهنة الرعي وصار فارساً هماماً[6] :

وَفِي الغَزْوِ أَلْقَى أَرْغَدَ العَيْشِ لَذَّةً ... وَفِي المَجْدِ لَا فِي مَشْرَبٍ وَطَعَامِ

---

[1] القالي، أبو علي، إسماعيل بن القاسم البغدادي(ت ٣٥٦) – الأمالي – ٤/١، دار الكتاب العربي ، بيروت، لبنان، دط، دت والبيت أعلاه نسب لعمير بن قيس أحد بني فراس بن غنم من كنانة ، انظر :الألوسي، نهاية الأرب ٧٣/٣.

[2] سورة التوبة – آية ٣٧ .

[3] ديوانه – ٥٧ .

[4] تأبط شرا – الديوان – ١٧٧ لأهل ركيب: الركيب هو المزرعة، وأهل الركيب هم الحضر (اللسان– ركب) الثميل : الحب (اللسان– ثمل) سنبل : سنابل الزرع من بر،وشعير،وذرة (اللسان – سنبل).

[5] ديوانه – ٣١٣، أي : الممدوح رجل كريم شريف كالسيف الصقيل ، يجود عن سعة، وإذا أعوزه المال غزا .

[6] ديوانه – ١٩١ .

قوم مثل هؤلاء، لماذا اختارهم الله لحمل أعظم الرسالات وآخرها؟ إن الدين الجديد دين جهاد ومجاهدة لأهل الكفر والطغيان. ويحتاج إلى من تمرس بالحروب والغارات. وتشربت نفسه الشجاعة والإقدام. إلى هذا أشار جو ستاف لوبون: "أصبح أعراب الجزيرة بما كان عندهم من غرائز النهب والقتال محاربين أشداء أيام خلفاء محمد ﷺ، فدوخوا العالم بسرعة، ولم تتغير غرائزهم بتغير مالاقوا من الأحوال الجديدة، بل تجلت على صور أخرى ما كان الثبات من الغرائز. فأصبح حبهم للنهب حباً للفتح، وتحول كرمهم إلى ما أخذته أوربة عنهم مؤخراً من طبائع الفروسية"[1]. لقد حدثت المعجزة، وصار الغزو في سبيل المال والسيادة، جهاداً في سبيل الله والدين. وتحول ذلك التيار الهادر المتدفق الذي كان يَحْطِّم كل ما أمامه إلى مساره الصحيح، فأحيا الأرض، ونشر الخير، بما تأصل فيهم من القوة والاندفاع والحيوية، التي ما إن وجهت الوجهة الصحيحة حتى عم نفعها بقاع الأرض.

أما بالنسبة لحياتهم السياسية، فقد كانت قائمة على النظام القبلي، ((فالقبيلة هي أصل الدولة، وتقوم على رابطة الدم بين أفرادها، يستوي في ذلك أهل المدر، وأهل الوبر"[2]. هذا النظام القبلي جعل كل قبيلة أمة بذاتها لا تدين بالطاعة إلا لشيخ قبيلتها فقط، والقبائل متعددة، وكل قبيلة تريد أن تكون الأقوى والأثرى والأشرف، وترى أنه لا حد لحريتها، مادامت تملك القوة التي تفرض من خلالها ما تريد على الآخرين، ومن هنا يقع النزاع، وتشتعل الحرب، ومن جهة ثانية فإن ارتباط أبناء القبيلة برباط (الدم) جعل العربي يعتز بقبيلته، ويسرف ويشتط في هذا الاعتزاز في الشكل المسمى بـ (العصبية القبلية)، وهي من نتاج بيئة الصحراء؛ لأن "العصبية ضرورية لأهل البادية؛ حتى تشتد بها شوكتهم ويخشى جانبهم"[3]، وكل يتعصب لقبيلته، ويثور

---

[1] حضارة العرب – ٧٤.

[2] جواد علي – تاريخ العرب قبل الاسلام ١٨٠/٥.

[3] جورجي زيدان – تاريخ التمدن الإسلامي – ١٦/٤.

بعنف إن تجاوز أحد ما حدود الأدب واللياقة مع هذه القبيلة، وهكذا تقع الحروب، التي لابد أن تنجلي عن الكثير من القتلى، وهنا نجد العربي يلتزم بـ (الثأر ورفض الدية) في الأغلب الأعم؛ وربما نشأ ذلك خوفاً على هيبة القبيلة أن تسقط، فتجترىء عليها القبائل الأخرى، أي أنه نظام لحماية القبيلة، ولكنهم تشددوا فيه وأسرفوا، حتى إنهم قد يقتلون بفرد واحد عشرات من قبيلة القاتل، بل قد يتركون القاتل إذا كان في منزلة اجتماعية لا يرضونها،ويعمدون إلى أشراف قبيلة القاتل فيثأرون منهم، والتاريخ الجاهلي يزخر بالقصص التي تصور ذلك. هذا الإسراف في الثأر قادهم إلى حروب أوسع وضحايا أكثر. ومما زاد الأمر سوءاً عدم وجود سلطة مركزية عامة يخضع لها العرب جميعا. وهذا من الطبائع المركوزة في العرب، فهم لا يدينون لأحد بالطاعة؛ لأن كلا منهم يرى أنه الأحق بالتقدم والرئاسة، ولا يجمعهم إلا الدين، وقد نبه إلى ذلك ابن خلدون، حيث قال: "إنهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة، وبعد الهمة، والمنافسة في الرئاسة، فقلما تجتمع أهواؤهم، فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية منهم، سهل انقيادهم واجتماعهم، وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى؛ لسلامة طباعهم من عوج الملكات، وبراءتها من ذميم الأخلاق"[1]، وقد كان لهذه العصبية محاسنها من نواح أخرى؛ "وذلك لأن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم، وفي الحديث الصحيح: (ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه) وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد، فما ظنك بغيرهم أن لا تخرق له العادة بغير عصبية، وهكذا كان حال الأنبياء – عليهم السلام – في دعوتهم إلى الله بالعشائر والعصائب، وهم المؤيدون بالكون كله لو شاء الله، لكنه أجرى الأمور على مستقر العادة، والله حكيم عليم"[2]. والرسول صلى الله عليه وسلم خير مثال على ذلك، فقد استفاد من قيم الجاهلية مثل: (العصبية) في تبليغ الدين الجديد، مادامت لا تمس

الحمية

---

[1] المقدمة – ١٨٩.

[2] المصدر نفسه – ١٩٩، ٢٠٠.

حرية الدعوة ومبادئها. وهكذا فإن حالة عرب الجاهلية على النحو السابق نشرت الغارات وعدم الاستقرار، وفي مثل هذه البيئة يكون البقاء للأقوى، لذلك سعى العربي بكل جهده لتقوية نفسه، ففي سبيل القوة الحربية جمع العربي الأسلحة والعتاد، واعتنى بخيله وأكرمها، وحرص على أن يكون الأكثر عدداً، فحافظ على أبناء القبيلة وبطونها بالإعلاء من شأن القرابة الدموية، وتقديس العصبية، والأخذ بالثأر، إضافة إلى عقد الأحلاف والمعاهدات. مع ملاحظة أن هناك قبائل عربية استغنت بقوتها عن غيرها، وهو ما يعرف بـ (جمرات العرب)، والجمرة: هم كل قوم يصبرون لقتال من قاتلهم، لا يحالفون أحداً، ولا ينضمون لأحد[1]. وقد أسرفوا في الحرص على القوة والبرهنة عليها باعتبار أن أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم، فكانوا يبدأون بالظلم من لم يبدأهم؛ لكي يعرف الجميع أنهم لا جبناء ولا أهل خور. ونتيجة لما سبق برزت قيمة (القوة) قانوناً أساسياً في هذه البيئة، ورغم تعدد دوافع الحرب عندهم، مثل البحث عن الرزق له ولماشيته، والأخذ بالثأر، والدفاع عن الحمى والشرف، أو الطمع في الآخرين، فإن هناك جامعاً خفياً يربطها وهو: (الظلم) فهو السبب الرئيسي في الحروب العربية، وإلى ذلك أشار د. جواد علي بقوله: "وأكثر أسباب الأيام هو عسف حكام القبائل القوية في القبائل الضعيفة الخاضعة لهم، بسبب الإتاوة التي كانوا يلحون في جبايتها، غير مفكرين في الظروف والأوقات"[2]. ولو تأملنا الأسباب السابقة للاحظنا ذلك، فبحثه عن الرزق له ولماشيته يجعله يستسيغ أن يقيم بأرض قبيلة أخرى، مادام قادراً على قهرها واستباحة حماها، وهذا ظلم للآخرين، واستباحة لحقوقهم. وقانونهم:

---

[1] اللسان – مادة جمر. وانظر أمالي الشجري ٢/٤٥٦. وجمرات العرب هم: بنوضبة بن أد، بنو الحارث بن كعب، بنو نمير بن عامر، بنو عبس بن بغيض، بنو يربوع بن حنظلة.

[2] جواد علي – تاريخ العرب قبل الإسلام – ٥/٣٤٣.

وَنَحْنُ أُنَاسٌ لَا حِجَازَ بِأَرْضِنَا مَعَ الغَيْثِ مَا نُلْقَى وَمَنْ هُوَ غَالِبُ
أَرَى كُلَّ قَوْمٍ قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ وَنَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فَهْوَ سَارِبُ[1]

والدفاع عن الحمى والشرف حاصل لدفع ظلم الآخرين وعدوانهم، وكذلك فالطمع في الآخرين ظلم لهم واغتصاب لحقوقهم، والأخذ بالثأر والإسراف فيه بظلم غير القاتل ولّد سلسلة من الحروب التي قد تستمر سنوات طويلة، والإتاوة الجائرة التي يفرضها شيوخ القبائل القوية على القبائل الضعيفة ظلم كبير، أدى إلى تمرد القبائل الضعيفة على ظالميها وفتكها بهم، ولو بعد حين[2].

وقد برز في العرب العديد من الظلمة والطغاة، الذين أذاقوا العرب الأَمَرّيْن من جراء تعسفهم وبغيهم، من أمثال: كُليب وائل [3]، وأخيه المهلهل[4]، وحُجر بن

---

[1] القالي – الأمالي – ٢/٢٤٣، ووردت كذلك في المفضليات – ٢٠٦، والقائل هو: الأخنس بن شهاب التغلبي، شاعر جاهلي قديم، قبل الإسلام بدهر، وهو فارس العصا، و(العصا) فرسه، انظر: حاشية المفضليات ٢٠٣، وفحل الإبل: هو الكريم المنجب من الابل (اللسان – فحل) وفسره الأصمعي: بأن الناس أقاموا في موضع واحد لا يجترئون على النقلة إلى غيره، وحبسوا فحلهم عن أن يتقدم، فتتبعه إبلهم؛ خوفاً أن يغار عليها، أما نحن فنذهب حيث نشاء، قد خلعنا قيد فحلنا ليذهب حيث يشاء، فحيثما نزع إلى غيث تبعناه "اللسان – مادة (سرب).

[2] مثل تمرد بني أسد على حُجر والد امريء القيس بعد طول ظلمه لهم، وتمرد هوازن على زهير بن جذيمة، انظر: أيام العرب ٢–١٠٥.

[3] كليب وائل: هو وائل بن ربيعة بن الحارث التغلبي، وكليب لقب له، يقال إنه كان قائد يوم خزاز، وبعد النصر جعلت له معد قسم الملك وتاجه وطاعته، فدخله زهو شديد، وبغى على قومه، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمي مواقع السحاب، فلا يرعى حماه، وكان يقول: "وحش كذا في جواري" فلا يصاد، ولا يورد أحداً مع إبله، ولا يوقد ناراً مع ناره، ولا يمر أحد بين بيوته، ولا يحتبي في مجلسه، قتل على يد جساس بن مرة البكري، انظر ابن الأثير – الكامل – ١/٣١٢، ٣١٣.

[4] المهلهل: هو عدي بن ربيعة التغلبي، وقيل إن اسمه (امرؤ القيس) وفي شعره ما يدل على صحة الاسم الأول، والمهلهل لقب له، قيل: لأنه أول من هلهل الشعر، وقصد القصائد، كان مشغولاً باللهو قبل مقتل أخيه، فلما قتل هجر حياته السابقة. ونذر نفسه للأخذ بالثأر، فدخلت بكر وتغلب في سلسلة من الحروب الطويلة المعروفة بـ (حرب البسوس)، وحتى بعد قتل جساس لم يكف المهلهل عن الحرب، بل أبى ولج في العداوة والحرب، فاستمرت أربعين سنة، ابن الأثير – الكامل –١/٣١٧.

الحَارِث الكندي[1]، والدامريء القيس الشاعر، وزُهَيْر بن جَنَاب الكلبي[2]، وزُهَيْر بن جُذَيمة العبسي[3]، ومن الملوك: (عَمْرو ابن هِنْد) [4] الذي حاز على لقب (مُحَرِّق)؛ لإحراقه الأسرى، وكذلك (المُنْذِر بن مَاء السَّمَاء) [5] وغيرهم، ممن تحفل كتب التاريخ والأدب بأخبار ظلمهم وبغيهم. ورغم قتامة هذه الصورة، إلا أن لله حكمته الخفية اللطيفة، فالحرب شريعتهم، والظلم بارز فيها، والإسراف في الحرب يحكم جل الحياة الجاهلية، فلماذا اختار الله هذه الأمة المحاربة الحربية لحمل لواء دينه؟ لأن مما يحتاج إليه الدين الجديد الجهاد والحرب والقوة والبأس، وأما صفة الظلم فقد جاء من التوجيهات الإلهية ما يردع عنها، ورب قائل يقول: ألم تكن هناك أمم أكثر

---

[1] حُجر بن الحارث الكندي، كان ملكاً على أَسَد وغَطَفَان، وله عليهم إتاوة كل عام، فبقي كذلك دهرا، ثم بعث إليهم من يجبي ذلك منهم، فطردوا رسله وضربوهم، فسار إليهم بجنده، وأخذ سراتهم، وجعل يقتلهم بالعصا حتى سموا: عبيد العصا، ويحرق بعضهم، وأباح الأموال، وسيرهم إلى تهامة، ثم عفا عنهم وأرسل من يردهم، فلما جاءوه ثاروا عليه، وقتلوه، وهدموا قبته، ونهبوها، انظر: ابن الأثير – الكامل – ٣٠٦/١ الأصفهاني – الأغاني – ١٠٠/٩.

[2] زهير بن جناب الكلبي، هو من أهل اليمن، وكان سيداً على بكر وتغلب، يأخذ منهم إتاوة، فأصابتهم سنة مجدبة، واشتد عليهم ما يطلبه منهم، فأقام زهير على حربهم حتى يؤدوا ما فرضه عليهم، ومنعهم النجعة حتى كادت مواشيهم تهلك، فحاول أحدهم أن يقتله ولكنه لم ينجح، وعاد زهير لحربهم بجموع أعظم، حتى أكثر فيهم القتل، عمر طويلا، انظر: ابن الأثير – الكامل – ٢٩٩/١.

[3] سبق التعريف به.

[4] عمرو ابن هند: هو عمرو بن المنذر اللخمي، أحد ملوك الحيرة في الجاهلية، نسب إلى أمه (هند بنت عمرو بن حجر الكندي) لقب بـ (المحرِّق) لاحراقه مائة من أسرى تميم يوم أوارة الثاني، لأن رجلاً اسمه (سويد الدارمي) قتل ابناً له كان مسترضعاً فيهم، كان شديداً باغياً، هابته العرب، قتل على يد عمرو بن كلثوم التغلبي، انظر: ابن الأثير – الكامل – ٣٣٥/١، جواد علي – ٢٣٩/٣.

[5] هو المنذر بن امريء القيس بن النعمان اللخمي، نسب إلى أمه، واسمها (مارية بنت عوف) ولقبها (ماء السماء)، وهو صاحب يوم أوارة الأول مع بكر بن وائل لنصرتهم لسلمة بن الحارث الكندي، فحلف المنذر إن ظفر بهم أن يذبحهم على جبل أوارة حتى يبلغ الدم الحضيض، وقد انتصر، فذبح الأسرى البكريين على الجبل، وأمر بالنساء أن يحرقن، فتشفع فيهم رجل قيسي، فأطلقهن، انظر: ابن الأثير – الكامل – ٣٣٤/١، جواد علي – ٢٢٧/٣.

وحشية وبراعة في الحرب من العرب من قبائل البربر أو الترك وغيرهم؟ فلماذا لم يكونوا هم حملة الدين الجديد؟ والجواب: إن لذلك سببين:

١- إن لدى العرب رقياً عقلياً ونفسياً يميزهم عن سواهم من الأمم الموغلة في الوحشية والدموية.

٢- كان لديهم من الأخلاق ما يؤهلهم ليكونوا أعظم الفاتحين مثل: الوفاء بالعهد، وفك الأسير، والعفو عند المقدرة، ورحمة الضعيف وكأنما كانوا جواداً جموحاً غاية في القوة والاندفاع والشموس. ما ظنك بجواد هذه صفاته حين يروض؟ ما ظنك بنهر زاخر، متدفق، متدافع بالأمواه والأمواج، يكتسح القرى والمروج حين يوجه؟ هكذا كان شأن العرب مع الإسلام.

ثالثاً- أثر البيئة على أخلاقه:

للبيئة الصحراوية تأثيرها الواضح على أخلاق العرب وشمائلهم، وسنعرض بالتوضيح لبعض تلك الأخلاق، ومنها:

الشجاعة، الكرم، الإباء، الحرية، الوفاء.

اشتهر العرب بالشجاعة والفروسية وثبات الجنان، حتى ليظن الظان أن لا مكان للخوف من الموت في نفوسهم، يقول عمرو بن كلثوم:

مَعَاذَ الإِلَهِ أَنْ تَنُوحَ نِسَاؤُنَا ... عَلَى هَالِكٍ أَوْ أَنْ نَضِجَّ مِنَ القَتْلِ[1]

فإما حياة كريمة وإما الموت:

دَعُونِي فِي القِتَالِ أَمُتْ عَزِيزاً ... فَمَوْتُ العِزِّ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةِ[2]

---

[1] ديوانه – ٥٤، أي: نعوذ بالله أن يكون من شأننا النياحة على الموتى، أو الضيق بالقتل، فنحن متمرسون بالحروب.

[2] عنترة بن شداد – ديوانه – ٣٩.

وكان لعيش العرب في القفار والصحاري الموحشة تأثيره في غرس فضيلة الشجاعة في نفوسهم، فالبدو أقرب إلى الشجاعة من الحضر، "فالبدو لتفردهم عن المجتمع، وتوحشهم في الضواحي، وبعدهم عن الحامية قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، فهم دائماً يحملون السلاح، ويتجافون عن الهجوع، إلا غراراً في المجالس،وعلى الرحال فوق الأقتاب، فصار البأس لهم خلقا،والشجاعة سجية"[1].

والكرم من أبرز السجايا في العرب، يقصد أحدهم الضيف فيبحث له عن قرى، وقد لا يجد إلا جواده الأصيل،أو ناقته القوية، فيذبحها،ويقدمها لضيفه، ويؤثره على نفسه وآله، وأظن أن البيئة الصحراوية فرضت هذا الخلق على قاطنيها؛ لأنها بيئة مجدبة قاحلة، ويضطر العربي بين الحين والحين إلى الانتقال في فيافيها الموحشة وقفارها الواسعة المهلكة، وقد يهلكه الجوع أو يقتله الظمأ إن لم يصادف من يمد له يد العون والمساعدة بتقديم بعض الزاد أو الماء، فالمسألة تتعلق بوجودهم ذاته، ولا نستطيع أن نتخيل مشاعر إنسان ما تكتنفه ظلمات ليل الصحراء من كل جانب، ولا يترامى إلى سمعه إلا نعيق البوم، أو هبوب الريح، أو عواء الذئاب، أو عزيف الجان، وهو يغذ السير في تلك المهامه، وقد برّح به الجوع والعطش، ولم يبق في مزادته إلا جرعات من الماء، وفجأة، ومن بعيد،يلمح ضوءاً يتلألأ في دياجير الليل المظلم، هناك فقط يستيقظ الأمل في حياته من جديد، ويوقن أنه سيجد الزاد،والمبيت،والترحاب، فالكرم حماية اجتماعية لأفراد البيئة من قسوتها وجفافها "والطبيعة الصحراوية هي التي فرضت هذا التعاون الاقتصادي بين أبناء البادية، حتى أصبح جزءاً من الأعراف والتقاليد المرعية، فالبدوي في صحرائه البعيدة عن العمران،المتنقل في خيامه،قد تسامى إنسانياً فأغاث الجائع، وساعد الملهوف، وسقى العطشان؛ لأنه قد يقع فيما وقع لهذا الإنسان في يوم

---

[1] ابن خلدون – المقدمة – ١٥٦.

من الأيام[1]" أما خلق الإباء فمرتبط بحب الحرية ارتباطاً وثيقاً، فالعربي مرتبط بالصحراء، والصحراء لا حدود فيها،بل اتساع وحرية، والعربي في انتقال دائم، هذا الارتحال الاضطراري خلق في العربي حب الحرية، حتى صار ذلك سجية من سجاياه، وعشق العربي حريته وانطلاقه، وبقدر عمق عشقه لحريته كره العربي القيود والضيم، وأبى الرضوخ لأي قيد كان، حتى لو بذل حياته ثمناً لحريته وكرامته، ولسان حالهم يقول:

الحَزْمُ وَالقُوَّةُ خَيْرٌ مِنَ الـ ... إِدْهَانِ وَالفَكِّهِ وَالهَاعِ
لَيْسَ قَطَاً مِثْلَ قُطَيٍّ وَلَا الـ ... مَرْعِيُّ فِي الأَقْوَامِ كَالرَّاعِي[2]

وشعارهم:

إِنِّي أَبِيٌّ أَبِيٌّ ذُو مُحَافَظَةٍ ... وَابْنُ أَبِيٍّ أَبِيٍّ مِنْ أَبِيِّينِ
وَاللهِ لَوْ كَرِهَتْ كَفِّي مُصَاحَبَتِي ... لَقُلْتُ إِذْ كَرِهَتْ قُرْبِي لَهَا: بِيْنِي[3]

ولشدة حبهم للحرية تمادوا في ذلك وأسرفوا، حتى خرجوا عن معنى الحرية وحدودها؛ لأنهم فهموها حرية مطلقة دون حدود، وإذا كان كل واحد منهم يرى أن حريته دون قيد فلابد أن يقع الصدام، وهنا يكون الحكم للقوة لا للحق، لذلك نجد

---

[1] يوسف عز الدين – التعبير عن النفس في الأمثال العربية، بحث منشور في مجلة دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الجزء الثاني ص٢٨٦، ٢٨٧.

[2] المفضليات – ٢٨٥، والأبيات من قصيدة لأبي قيس بن الأسلت، شاعر جاهلي، كان رئيس الأوس وفارسها، ابنة عقبة بن أبي قيس أسلم واستشهد في القادسية، انظر: حاشية المفضليات/ ٢٨٣
الإدهان: من المداهنة والنفاق، الفكه: الضعف، الهاع: شدة الحرص.
قطي: تصغير (قطا)، أي ليس الأكابر كالأصاغر، والمراد: ليس المسوس كالسائس، وهذا حض على طلب المعالي أي: كن كثيراً سائساً. ولا تكن قليلاً مسوساً، والأبيات في ديوان الشاعر: أبو قيس بن الأسلت – الديوان – ٧٩، تحقيق: د. حسن محمد باجودة، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٣٩١هـ، د ط.

[3] المفضليات – ١٦٤، الأبيات لذي الإصبع العدواني.

شاعرهم يهجو القوم الذين يلتزمون بمقر بلادهم لأن معنى ذلك: تحديد الحرية، فيقول عامر بن الطفيل[1]:

تَرْعَى فَزَارَةُ فِي مَقَرِّ بِلَادِهَا ... وَتَهِيمُ بَيْنَ شَقَائِقٍ وَرِمَالِ[2]

وكذلك الوفاء، فإن وجودهم في بيئة بدوية كانت خلواً من الضمانات المسجلة، والوثائق المدونة، جعل الكلمة التي ينطق بها الرجل عهداً يجب عليه أن يفي به، وإلا عرض شرفه للتجريح،ومكانته للامتهان[3].

---

[1] عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامري، كنيته أبو علي، من أشهر فرسان الجاهلية، وأحد شعراء الحماسة البارزين، اشترك في العديد من المعارك، وأظهر بطولة وفروسية فيها، عمه أبو براء (ملاعب الأسنة) دخل في منافرة مشهورة مع علقمة بن علاثة على رئاسة قومه، وفد على الرسول ولكنه لم يسلم،وحاول الغدر به عليه السلام، أصيب بالطاعون في عنقه ومات، يظهر في شعره اعتزازه بفروسيته،وفخره بنفسه،وعنفه،وسطوته. انظر: الأعلام – الزركلي –٣/٢٥٢، وقد أخطأ د. يوسف عيد الشارح لديوانه فسماه: عامر بن واثلة بن عبدا لله، وهذا صحابي أسلم.

[2] عامر بن الطفيل – الديوان – ٦٠، شرح: يوسف عيد، دار الجبل، بيروت. لبنان، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

[3] أحمد الحوفي – الحياة العربية في الشعر الجاهلي – ٣٥٨.

الباب الثاني:

أصداء الإسراف في الشعر الجاهلي:

أولاً – من خلال القيم المتعلقة بالعلاقة با لله.

ثانياً – من خلال القيم المتعلقة بالعلاقة مع الآخرين.

ثالثاً – من خلال القيم المتعلقة بالعلاقة مع النفس.

١- الإسراف في القيم المتعلقة بعلاقة الإنسان بالله:

يلاحظ الباحث في الأدب الجاهلي أن العديد من الباحثين من العرب والمستشرقين قد توقف عند ظاهرة تلمح في هذا الأدب، تلك الظاهرة هي إن هذا الشعر الجاهلي لا يمثل الوثنية التي كانت سائدة قبل الإسلام[١]، وجعلوا ذلك مدخلاً للشك في الشعر الجاهلي،ومن ثم رفضه؛ لأنه لم يصور الحياة الدينية للجاهليين – حسب زعمهم – ولتوضيح ذلك نقرر هنا بضعة أمور:

١- الشعر يتناول الحياة الدينية وماسواها من حياة سياسية،واجتماعية، يتناول كل ذلك بطريقة فنية وجدانية، لا تتعمق في التفاصيل والجزئيات، بل تعتمد على اللمح والإشارة.

٢- كثير من الشعر الجاهلي فُقِدَ عبر رحلته الطويلة إلى عصر التدوين، ولذلك قال أبو عمرو بن العلاء قولته المشهورة: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير"[٢] وربما كان من ضمن هذا المفقود شعر يعبر عن الوثنيات بوضوح.

٣- بقاء شعر جاهلي يعبر عن الحالة الدينية، وثنية وغير وثنية:

وتركيزنا على الشعر الذي عبر عن الوثنية، وهي أشعار ليست بالكثيرة، ولكنها موجودة، وفي كتاب (الأصنام) لابن الكلبي ما يؤيد ذلك، فهم قد يذكرون أن سبب معاركهم تلك الأصنام، مثل معركة الردم[٣]، حيث يقول الشاعر:

---

[١] انظر: طه حسين – في الأدب الجاهلي – ٧٣، وانظر مقاله ديفيد صمويل مرجليوث – (أصول الشعر العربي) ص٧١.

[٢] ابن سلام – طبقات فحول الشعراء – ٢٢.

[٣] معركة الردم: يوم بين مراد وبين همدان، وكان مع همدان بنو الحارث بن كعب، وكان النصر لهمدان على مراد، فأثخنوهم، وكان منشأ الصراع بسبب صنم مراد (يغوث)، الذي رفضت بنو الحارث أن ترده لهم،

فَسَارَ بِنَا يَغُوْثَ إِلَى مُرَادٍ فَنَاجَزْنَاهُمْ حَتَّى الصَّبَاحِ[1]

وحين يشبهون فإن صورة الأصنام والطواف حولها تبرز أيضاً:

فَعَنَّ لَنَا سِرْبٌ كَأَنَّ نِعَاجَهُ عَذَارَى دَوَارٍ فِي مُلَاءٍ مُذَيَّلِ[2]

٤- بناء على ما سبق فإن قلة الشعر الوثني يدل على ضعف ارتباط الشعراء بالأوثان، وقد أشار إلى ذلك بروكلمان بقوله: "لم تكن الصلة بين القبيلة عند العرب وبين آلهتها وثيقة جداً، كما كانت الصلة عند بني إسرائيل بين يهوه وشعبه"[3] وسبب ذلك هو اهتزاز المعتقدات الجاهلية في أواخر العصر الجاهلي، "لأن العرب في ذلك العهد كانوا على أبواب يقظة عقلية وروحية، وفي ريعان نهضة أدبية، وكل هذه الأمور هزت المعتقدات الوثنية،وأوشكت أن تقوضها[4].

٥- لقد ساء المستشرقين كثيراً أنهم لم يجدوا لدى العرب تلك الوثنية المسرفة الغليظة، مثل تلك التي نراها لدى اليونان،والرومان في العهود القديمة، وصدمتهم تلك الأشعار التي تظهر عقيدة التوحيد لدى عرب الجاهلية،

وبعد هذه المعركة وفد فروة بن مسيك المرادي على رسول الله، فأسلم، واستعمله الرسول على مراد وزبيد ومذحج كلها، وله – رضي الله عنه – في هذا اليوم أشعار بليغة، وقد ذكر ياقوت أن اسم هذا اليوم (الرزم) نسبة إلى موضع في بلاد مراد، وكان يوم الرزم في اليوم الذي وقعت فيه معركة بدر، انظر: ابن هشام – السيرة النبوية –٤/٥٨٣، ياقوت الحموي – معجم البلدان – ٣/٤٢.

[1] ابن الكلبي – الأصنام – ٢٧، والمناجزة: المقاتلة وسفك الدماء، انظر: "اللسان – مادة نجز".

[2] امرؤ القيس – الديوان – ١١٥، شرح: عمر فاروق الطباع، والمراد: ظهر لنا قطيع من بقر الوحش كأنه نساء عذارى يطفن حول حجر منصوب، في ملاء طويل ذيولها، فشبه المها في بياض ألوانها بالعذارى المصونات، فلا تغير حرارة الشمس ألوانهن، وشبه طول أذيالها وسبوغ شعرها بالملاء المذيل "انظر حاشية الديوان –١١٥".

[3] أحمد الحوفي – الحياة العربية في الشعر الجاهلي – ٣٧٦.

[4] أحمد الحوفي – المرجع نفسه – ٣٧٩.

فسارعوا إلى نفي ما ورد منها، باعتبار أنها قد وضعت بعد الإسلام، وليست من الجاهلية في شيء، ونحن حين نقول ذلك لا نعني أننا نقبل كل تلك الأشعار التي تصور الإيمان با لله فقد دخلها بعض الانتحال، ولكن ينبغي أن نعرف أن الرواة العلماء قد نبهوا على الشعر المنحول، وبقي لنا من ذلك أشعار تعبر عن اعتقاد الجاهليين بالوحدانية، وهذا أمر طبيعي؛ لأن دين إبراهيم -عليه السلام- كان موجوداً في جزيرة العرب، ورغم حصول التحرف عن هذا الدين، إلا أن قضية الإيمان بإله واحد خالق للكون ظلت قائمة في نفوس عرب الجزيرة، وهذا يتفق وما ذكره ا لله عز وجل في القرآن الكريم، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[1].

إنهم رغم عبادتهم للأوثان - وهذا ضلال كبير - لم يكونوا مسرفين في كفرهم، ولا مغرقين في وثنيتهم، فمنذ أن أشرق نور الإسلام حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين ما يقرب من خمسين عاماً، وهي فترة قصيرة، انتقل فيها العرب من قبائل متناحرة وثنية إلى دولة موحدة تسيطر على مناطق شاسعة، وتقوض أقوى دولتين في ذلك العهد، ونعني: الفرس، والروم، وما كان لهذه النقلة أن تكون لولا خلخلة الوثنية في نفوسهم، مما سهل اجتثاثها ونماء بذرة التوحيد الخيرة بسرعة مدهشة.

وقد عبر الجاهليون عن هذه الحالة من الشك في عقيدة عبادة الأوثان، وكذلك شكهم في العديد من المعتقدات الجاهلية الباطلة مثل. زجر الطير، وعقد التمائم ونحوها.

من ذلك قول العباس بن مرداس[2] مصوراً شكه في عبادة الأوثان، واحتقاره لها:

---

[1] سورة العنكبوت - الآية ٦١.

[2] العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي، أدرك الإسلام فأسلم، وشهد مع رسول ا لله فتح حنين، كان ممن حرم الخمر في الجاهلية، وهو أحد فرسان الجاهلية وشعرائها المذكورين، وهو القائل: =

أَرَبٌّ يَـؤُولُ الثَّعْلَبَـانَ بِرَأْسِـهِ لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ[1]

وقول آخر جاء إلى صنم لبني ملكان بن كنانة يدعى سعد، ومعه إبله ليقفها عليه التماس بركته، فلما رأته الإبل، وكان يهراق عليه الدماء نفرت منه، وذهبت في كل وجه، فغضب الرجل، ورمى الصنم بحجر، وقال:

أَتَيْنَا إِلَى سَعْدٍ لِيَجْمَعَ شَمْلَنَا فَشَتَّتَنَا سَعْدٌ، فَلَا نَحْنَ مِنْ سَعْدِ
وَهَلْ سَعْدٌ إِلَّا صَخْرَةٌ بِتَنُوفَةٍ مِنَ الأَرْضِ لَا تَدْعُو لِغَيٍّ وَلَا رُشْدِ[2]

وقال آخر أتى إلى ذي الخلصة[3] يستقسم عنده بالأزلام، يستشيره في الثأر لأبيه، فخرج السهم بنهيه عن ذلك، ويقال إن ذلك الرجل هو امرؤ القيس الشاعر، والأبيات هي:

لَوْ كُنْتَ يَا ذَا الخُلُصِ المَوْتُورَا
مِثْلِي وَكَانَ شَيْخُكَ المَقْبُورَا
لَمْ تَنْهَهُ عَنْ قَتْلِ العُدَاةِ زُوْرَا[4]

=

أَشُدُّ عَلَى الكَتِيبَةِ لَا أُبَالِي أَحَتْفِي كَانَ فِيهَا أَمْ سِوَاهَا

انظر: الإصابة – ٢٦٣/٢، المرزباني – معجم الشعراء – ٩١.

[1] ابن الشجري، هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة (ت٥٤٢هـ) – أمالي ابن الشجري – ٦١٥/٢، تحقيق: محمود محمد الطناحي مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

[2] ابن هشام – السيرة النبوية – ٨١/١.

[3] ذو الخلصة: صنم من مروة بيضاء منقوشة، عليه كهيئة التاج، كان بتبالة بين مكة واليمن، على مسيرة سبع ليال من مكة، وكانت خثعم وبجيلة وأزد السراة تعظمه وتهدي له، أرسل الرسول عليه السلام جرير بن عبدا لله البجلي فأحرقه: "ابن الكلبي – الأصنام – ٤٩" ابن هشام – السيرة – ٨٦/١.

[4] ابن هشام – المصدر السابق – ٨٦/١.

وكان لعنزة[1] صنم يقال له: سعير، فخرج ابن أبي خلاس الكلبي[2] على ناقته فمرت بالصنم، وقد عترت عنده عتيرة[3]. فنفرت ناقته منه، فقال:

نَفَرَتْ قَلُوْصِي مِنْ عَتَائِرَ صُرِّعَتْ ... حَوْلَ (السَّعَيْرِ) يَزُوْرُه ابْنَا يَقْدُمِ

وَجُمُوْعَ يَذْكُرُ مُهْطِعِيْنَ جَنَابَهُ ... مَا إِنْ يُحِيْرُ إِلَيْهِمُ بِتَكَلُّمِ[4]

وكانت همدان[5] قد اتخذوا يعوق، فقال عن ذلك مالك بن نمط الهمداني[6]:

يَرِيْشُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَيَبْرِي ... وَلَا يَبْرِي يَعُوْقُ وَلَا يَرِيْشُ[7]

فشعر هذا الهمداني يكشف عن الاعتقاد بعجز هذا الصنم، ويكشف عن إيمان راسخ بقدرة الله عز وجل، ونلمح لديهم كذلك الإيمان بأن الله هو القادر المتصرف في شئون العباد، وأن الكثير من المعتقدات الشائعة بينهم، إنما هي أوهام وأباطيل، مثل:

---

(1) عنزة: بطن من أسد بن ربيعة، وهم بنو عنزة من أسد، ديارهم على ثلاث مراحل من الأنبار، القلقشندي – نهاية الأرب – ٣٤١.

(2) هو جعفر بن أبي خلاس بن مالك، كان رئيس قومه، وهو من بني كعب بن عبدا لله بن كنانة من قضاعة، قادهم يوم نهادة، انظر: ابن الكلبي – نسب معد واليمن الكبير – ٦٠١/٢.

(3) عتيرة: الذبيحة التي كانت تذبح للأصنام، ويصب دمها على تلك الأصنام انظر: "اللسان، مادة عتر".

(4) ابن الكلبي – الأصنام – ٥٥، وفي الألوسي – بلوغ الأرب – ٢١٠/٢،

(5) همدان: بطن من كهلان من القحطانية، وهم بنو همدان بن مالك بن زيد، وديارهم شرقي اليمن، وكانوا شيعة على بن أبي طالب زمن الفتنة انظر: القلقشندي – نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب – ٣٨٩.

(6) مالك بن نمط الهمداني، أبو ثور، وفد على الرسول مع قومه من همدان، أسلم هو وقومه، فاستعمله عليهم، انظر: الإصابة – ٣٣٥/٣، ٣٣٦ ابن هشام – السيرة النبوية – ٥٩٧/٤.

(7) ابن هشام – المصدر السابق – ٨٠/١، يريش: يركب الريش على السهم (اللسان – ريش) يبري: يصلح السهم ويقومه وينحته: اللسان – بري، فهي من رشت السهم وبريته، ثم استعير في النفع والضر. يقال: لا يريش ولا يبري، أي: لا يضر ولا ينفع.

زجر الطير[1]، والطرق بالحصى[2]، وعقد التمائم[3] ونحوها، فهي لا تغني عن المرء شيئاً، قال لبيد بن ربيعة[4]:

لَعَمْرُكَ مَا تَدْرِي الطَّوارِقُ بِالحَصَى ... وَلَا زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللهُ صَانِعُ[5]

وقال النابغة الذبياني:

تَعَلَّمْ أَنَّهُ لَا طَيْرَ إِلَّا ... عَلَى مُتَطَيِّرٍ، وَهْيَ الثُّبُورُ

بَلَى شَيْءٌ يُوَافِقُ بَعْضَ شَيْءٍ ... أَحَايِينَاً، وَبَاطِلُهُ كَثِيرُ[6]

وعبر عن هذا الإيمان با لله، والتسليم بقضائه أفنون التغلبي[7]، حيث قال:

أَلَا لَسْتُ فِي شَيْءٍ فَرُوحاً مُعَاوِيَا ... وَلَا المُشْفِقَاتُ إِذْ تَبِعْنَ الحَوَازِيَا

لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي امْرُؤٌ كَيْفَ يَتَّقِي ... إِذَا هُوَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ اللهُ وَاقِيَا[8]

---

[1] زجر الطير: كانوا يثيرون الطير، فما تيامن منها سموه سانحا، وما تياسر منها سموه بارحا، وما استقبلهم فهو الناطح، وما جاء من خلفهم فهو القعيد، فمن من العرب من يتشاءم بالبارح ويتبرك بالسانح، ومنهم من يرى خلاف ذلك، انظر: الألوسي – نهاية الأرب – ٣/٣١٢.

[2] الطرق بالحصى: هو ضرب من التكهن، حيث يقوم الكاهن بإخراج حصيات فيطرق بعضها ببعض ليعلم جواب سؤال سئله، انظر: "اللسان – مادة طرق"، والألوسي – نهاية الأرب – ٣/٣٢٣.

[3] عقد التمائم، واحدتها تميمة، وهي خرزات كانوا يعلقونها على أولادهم؛ ينفون بها النفس والعين – حسب زعمهم، فأبطلها الإسلام، انظر: (اللسان – مادة تمم)، والألوسي – نهاية الأرب – ٣/٥.

[4] لبيد بن ربيعة بن مالك العامري، أحد شعراء الجاهلية المعدودين، أدرك الإسلام، فوفد على الرسول عليه السلام في وفد بني كلاب وأسلم، وحسن إسلامه، وهو من المعمرين، عاش مائة وخمساً و أربعين سنة، تسعون في الجاهلية، والباقي في الإسلام، توفي سنة ٤١هـ، جعله ابن سلام في الطبقة الثالثة، انظر: الأصفهاني – الأغاني – ١٥/٣٥٠، ابن سلام – طبقات فحول الشعراء – ٤٣.

[5] لبيد بن ربيعة – الديوان – ١١٣. شرح الطويسي، قدم له: حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١ – ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

[6] ديوانه – ٥٦.

[7] أفنون التغلبي: هو صريم بن معشر بن ذهل من تغلب بن وائل، شاعر جاهلي مشهور، لقب بأفنون لقوله في بيت: "إن للشباب أفنونا"، فهو جمع فن، وقيل: بل هو واحد الأفانين، انظر: حاشية المفضليات – ٢٦٠.

[8] المفضليات – ٢٦١، فروح: كثير الفرح، المشفقات: النساء ذوات الشفقة. الحوازي: الكواهن. المراد: إنني لا يتملكني الفرح الطاغي لأي أمر من أمور الحياة، فالقدر هو الغالب، والنساء المشفقات اللاتي يأتين الكواهن، فلن يغنوا عنهن شيئاً، فالواقي هو ا لله سبحانه وتعالى.

وقال آخر، هو عوف بن عطية[1]:

نَـؤُمُّ البِـلَادَ لِحُـبِّ اللِّقَـاءِ ... وَلَا نَتَّقِـي طَـائِراً حَيْـثُ طَـارَا

سَـنِيْحاً وَلَا جَارِيَـاً بَارِحَـاً ... عَلَى كُلِّ حَـالٍ نُلَاقِـي اليَسَـارَا[2]

وقال مرقش السدوسي[3]:

لَا يَمْنَعَـنَّكَ مِـنْ بغَـا ... ءِ الخَـيْرِ تِعْقَـادُ التَّمَـائِمْ

وَلَا التَّشَـاؤُمُ بِالعُطَـا ... سِ وَلَا التَّقَسُّـمُ بِـالأَزَالِمْ

وَلَقَـدْ غَـدَوْتُ وَكُنْـتُ لَا ... أَغْـدُو عَلَـى وَاقٍ وَحَـاتِمْ

فَـإِذَا الأَشَـائِمُ كَالأَيَـا ... مِـنِ، وَالأَيَـامِنُ كَالأَشَـائِمْ

وَكَـذَاكَ لَا خَـيْرٌ وَلَا ... شَـرٌّ عَلَـى أَحَـدٍ بِدَائِـمْ

قَـدْ خُـطَّ ذَلِـكَ فِي الزَّبُـو ... رِ الأَوْلِيَـاتِ القَدَائِـمْ

---

[1] عوف بن عطية بن عمرو من تيم الرباب، شاعر جاهلي مجيد، ومن فرسان العرب، له بضع مقطوعات في المفضليات، انظر: ابن سلام – طبقات الشعراء – ٥٩: حاشية المفضليات – ٣٢٧.

[2] المفضليات –٤١٥: السنيح: ما أتى عن اليمين إلى اليسار عند الحجازيين، وعند أهل نجد ما أتى عن اليسار، والبارح ضد ذلك عند كلا الفريقين، والمراد: لا نبالي من أي النواحي جرت الطير؛ لأنا لا نتطير، بل نمضي لما نريد. حاشية المفضليات – ٤١٥.

[3] القالي – ذيل الأمالي – ١٠٦، وفي اللسان – مادة "حتم"، مادة (وقي). الحاتم: الغراب الأسود، وهم يتشاءمون به "اللسان – حتم"، التشاؤم بالعطاس كان معروفاً عندهم، الألوسي – ٣٣١/٢ واق: هو الصُّرد، من الطير قيل له واق؛ لأنه لا ينبسط في مشيه، فشبه بالواقي من الدواب إذا حفي، وقال ابن سيده: أن (واق) حكاية صوته. قال ذلك أيضاً الجوهري، انظر: "اللسان – مادة وقي". والصُّرد طائر كانت العرب تطير من صوته وشخصه. وهو الواقي عندهم، انظر: "اللسان – صرد"التقسم بالأزالم: استشارة الأصنام التي يعبدونها بواسطة ضرب القداح، وهي ثلاثة: (افعل)، (لا تفعل)، (غفل). انظر: الألوسي – نهاية الأرب – ٦٧/٣ والشاعر جاهلي قديم، انظر: الألوسي – نهاية الأرب – ٣٢٠/٣ والأبيات تدل على عمق الشك في الكثير من أوهام الجاهلية الباطلة، وأن القدر لا مرد له من الله.

وقال ضابيء البرجمي[1] يصف اعتقاده بطلان زجر الطير والتشاؤم ببعض الحيوانات:

وَمَا أَنَا مِمَّنْ يَزْجُرُ الطَّيْرَ هَمُّهُ ... أَصَاحَ غُرَابٌ، أَمْ تَعَرَّضَ ثَعْلَبُ
وَلَا السَّانِحَاتُ الْبَارِحَاتُ عَشِيَّةً ... أَمَرَّ سَلِيمُ الْقَرْنِ، أَمْ مَرَّ أَعْضَبُ[2]

فالعرب في الجاهلية نظروا إلى الكون نظرة بعيدة – إلى حد ما – عن الخرافات الموغلة في الخيال، وعرفوا الخالق – عز وجل – وآمنوا به، وحين تحرفوا إلى عبادة الأوثان؛ فإن ذلك كان محاولة للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، فهم في مرحلة نضج عقلي قبيل البعثة، ولكنه لم يكن نضجاً كاملاً، كان ينقصهم قبس إلهي ينير ما غمض عليهم، فالاستعداد لديهم، ووجود معتقدات مثل، زجر الطير، وتعليق التمائم أمر يحدث للأمم خلال أطوار نموها. أما معتقداتهم حول الجن، فإن رحيلهم المستمر عبر مهامه الصحاري ومجاهلها، وما يلفها من السكون الرهيب المهيب، ومن الظلمة الموحشة في الليل، ضخّم في نفوسهم ما قد يسمعونه من عصف الرياح، وأصوات الحيوانات، فظنوه من فعل الجن، ودفعهم ذلك إلى الاستعاذة بها، والخوف الشديد منها، ومازالوا يتزيدون حتى قالوا برؤيتها، ومؤاكلتها، ونكاحها، وجعلوا لها مواضع معينة، ومراكب معينة، مثل: الغزال، والقنفذ، وادعى الكثير منهم سماع الهواتف ورؤيا الجان، التي تنتهي تارة بالإكرام والقرى، وتارة تنتهي بالحرب والقتال[3].

---

[1] ضابيء البرجمي: هو ضابيء بن الحارث، من البراجم من تميم، ممن أدرك رسول الله. وهجا قوماً في خلافة عثمان، فحبسه عثمان رضي الله عنه لذلك الهجاء. فأراد الفتك بعثمان، ثم جبن عنه: انظر: الإصابة – ٢٠٧/٢، ابن سلام – الطبقات – ٦٤.

[2] الألوسي – نهاية الأرب – ٣٢٠/٣، الأعضب: المكسور القرن "اللسان – عضب".

[3] انظر عن ذلك بتوسع: الجاحظ – الحيوان – ٢٢٥/٦ إلى ٢٥٤.

وخلال وصف الشاعر لرحلاته الطويلة في الصحراء، وقطعه وحيداً فيافيها الموحشة المظلمة، يصور ما يعرض له من غول وجان؛ دلالة على شجاعته، من ذلك قول عنترة بن شداد[1]:

فَأَنَا سَرَيْتُ مَعَ الثُّرَيَّا مُفْرَداً ... لا مُؤْنِسٌ لِي غَيْرَ حَدِّ المِنْصَلِ
وَالغُولُ بَيْنَ يَدَيَّ يَخْفَى تَارَةً ... وَيَعُودُ يَظْهَرُ مِثْلَ ضَوْءِ المَشْعَلِ
بِنَوَاظِرٍ زُرْقٍ، وَوَجْهٍ أَسْوَدٍ ... وَأَظَافِرٍ يُشْبِهْنَ حَدَّ المِنْجَلِ

وقدم لنا تأبط شراً أوصافاً أدق لشكل الغول، حيث قال[2]:

إِذَا عَيْنَانِ فِي رَأْسٍ دَقِيقٍ ... كَرَأْسِ الهِرِّ مَشْقُوقَ اللِّسَانِ
وَسَاقَا مُخْدَجٍ، وشَوَاةُ كَلْبٍ ... وَثَوْبٌ مِنْ عَبَاءٍ أَوْ شِنَانِ

وحتى حين لا يرونها، فإن أصواتها المفزعة تتناهى اليهم، فتبعث الخوف في قلوبهم، قال الأعشى[3]:

وَبَلْدَةٍ مِثْلِ ظَهْرِ التُّرْسِ مُوْحِشَةٍ ... للجِنِّ بِاللَّيْلِ فِي حَافَاتِهَا زَجَلُ

وقال بشر بن أبي خازم[4]:

وَخَرْقٍ تَعْزِفُ الجِنَّانُ فِيهِ ... فَيَافِيهِ تَحِنُّ بِهَا السَّهَامُ[5]

---

[1] ديوانه – ١٣٧.

[2] الأصفهاني – الأغاني – ٢١/١٤١، مخدج: ناقص الخلق، شنان: الجلد الخلق.

[3] ديوانه – ٢٨٣، والمراد: كم اقتحمت من صحراء جرداء، كأنها الترس، تسمع للجن بالليل في أطرافها زجلاً، وهو الأصوات المختلطة.

[4] بشر بن أبي خازم: هو بشر بن عمرو بن عوف من بني أسد بن خزيمة، شاعر جاهلي فحل قديم، له قصائد جياد في الفخر والحماسة، قال بضع قصائد في هجاء أوس بن حارثة الطائي، فلما تمكّن منه أوس عفا عنه، وأكرمه، فمدحه بشر بعدة قصائد، قتل في إحدى غاراته، انظر: حاشية المفضليات ٣٢٩.

[5] المفضليات – ٣٣٤. والبيت في ديوان الشاعر بشر بن أبي خازم – ٢٠٣. خرق: هي الفلاة الواسعة التي يشتد هبوب الريح بها "اللسان – خرق"، السّهام: وهج الصيف،وغبرته،وحر سمومه "اللسان – سهم" تعزف الجنان: عزيف الجن جرس أصواتها. قيل: هو صوت يسمع بالليل كالطبل، وقيل: هو صوت الرياح في الجو، فتوهم أهل البادية أنه صوت الجن "اللسان – عزف".

ويردد شعراء الجاهلية كثيراً دعوى معاونة الجن لهم في قرض الشعر، من ذلك قول امريء القيس:

تُخَيِّرُنِي الجِنُّ أَشْعَارَهَا ... فَمَا شِئْتُ مِنْ شِعْرِهِنَّ اصْطَفَيْتُ

وقال سويد بن أبي كاهل اليشكري[1]:

وَأَتَانِي صَاحِبٌ ذو غَيِّثٍ ... زَفَيَانٌ عِنْدَ إِنْفَادِ القُرَعْ
قَالَ: لَبَّيْكَ، وَمَا اسْتَصْرَخْتُهُ ... حَاقِراً لِلنَّاسِ، قَوَّالَ القَذَعْ[2]

وقد بلغ من إسرافهم في الخوف من الجن أن عبدوها، وتسمى بعضهم بـ (عبد الجن)[3]، وقد جاء في القرآن الكريم ذكر عبادتهم للجن، من ذلك قوله عز وجل:

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[4].

---

[1] سويد بن أبي كاهل بن حارثة اليشكري الغطفاني، مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، والبيتان من قصيدته العينية المسماه (اليتيمة)، جعله ابن سلام في الطبقة السادسة مع عمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، وعنترة ابن شداد، انظر: الإصابة ١١٧/٢، ابن سلام – الطبقات – ٥٧.

[2] المفضليات – ٢٠١، ذو غَيِّث: ذو إجابة، زفيان: خفيف سريع، القرع: جمع قرعة، وهي المزادة، القذع: الكلام القبيح. فالشاعر يصف شيطانه الذي يوحي له بالشعر، ويلقيه على لسانه، فهو يهب لإغاثتي وإجابتي بخفة وسرعة عندما تنفد القرائح وتكل، بل إنه ليأتي دون أن استصرخه، وهو يحقر قوال القذع للناس.

[3] مثل عمرو بن عبدالجن التنوخي، وهو جاهلي قديم، خلف على مُلك جذيمة الأبرش بعد قتله، فنازعه عمرو ابن عدي اللخمي، وفي ذلك يقول عمرو بن عدي:

دَعَوْتُ ابْنَ عَبْدِالجِنِّ للسِّلْمِ بَعْدَمَا ... تَتَابَعَ فِي غَرْبِ السَّفَاهِ وَكَلْسَمَا

انظر: المرزباني – معجم الشعراء – ٢١، غرب السفاه: الطيش والتمادي (اللسان – غرب)، كلسما: الاندفاع السريع "اللسان – كلسم".

[4] سورة الأنعام – ١٠٠.

زادوهم رهقا، أي خوفاً، وإرهابا، وذعرا"[1] وربما يفسر لنا هذا تلك القصص التي يرويها عرب الجاهلية عن عزيف الجان، وتلون الغول، والهواتف، وظهور الجن لهم، وكلامها معهم. ومن الأشعار التي تصور مذهب العرب في الاستعاذة من الجن قولهم:

قَدْ بِتُّ ضَيْفاً لِعَظِيْمِ الوَادِي ... المَانِعِي مِنْ سَطْوَةِ الأَعَادِي

رَاحِلَتِي فِي جَارِهِ وَزَادِي[2]

وقال آخر:

أَعُوْذُ مِنْ شَرِّ البِلَادِ البِيْدِ ... بِسَيِّدٍ مُعَظَّمٍ مَجِيْدِ

أَصْبَحَ يَأْوِي بِلَوَى زَرُوْدِ[3] ... ذِيْ عِزَّةٍ وَكَاهِلٍ شَدِيْدِ[4]

وقال آخر:

هَيا صَاحِبَ الشَّجْرَاءِ هَلْ أَنْتَ مَانِعِي

فَإِنِّي ضَيْفٌ نَازِلٌ بِفِنَائِكَا

وَإِنَّكَ لِلجِنَّانِ فِي الأَرْضِ سَيِّدٌ

وَمِثْلُكَ آوَى فِي الظَّلَامِ الصَّعَالِكَا[5]

فالعربي الجاهلي خاف من الجن؛ لأن لها وجوداً فعلياً، وليس الأمر مجرد خيالات وأوهام، كما يصوره بعضهم، ونحن لا نعني بهذا أن كل ما قيل عن الجن في العصر

---

[1] ابن كثير – تفسير القرآن العظيم. ٦٧١/٤.

[2] الألوسي – نهاية الأرب – ٣٢٦/٢.

[3] لوى زرود: اسم موضع، وهي رمال بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفة، انظر: ياقوت بن عبدا لله الحموي (ت ٦٢٦هـ) – معجم البلدان – ١٣٩/٣، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

[4] الألوسي – نهاية الأرب – ٣٢٦/٢.

[5] الألوسي – نهاية الأرب – ٣٢٧/٢.

الجاهلي صحيح لاشك فيه، فلابد أن هناك الكثير من القصص المختلقة، ولكن ما نرمي إليه هو الإشارة إلى وجود جانب من الحقيقة فيما ذكروه، وفيما حفظته لنا كتب التاريخ والأدب؛ لأن تخويفهم للإنس، واستماعهم لأمر السماء، ووفادتهم على الرسول الكريم، وسماعهم للقرآن، يدل على منطقية خوف الجاهليين منهم، ذلك الخوف الذي أسرفوا فيه، وما كان لهذا الإسراف في الخوف من الجان أن يقع لو كانت قيمهم المتصلة با لله سليمة تماما، ولذا كان العلاج الناجع هو تصحيح علاقتهم با لله، وإيمانهم به، واعتمادهم عليه وحده – سبحانه وتعالى – والاستعانة به،والاستعاذة به – جل وعز – والنظر إلى الجن باعتبارهم خلقاً من خلق ا لله، لا يضرون ولا ينفعون أحداً إلا بإذن ا لله، وبذلك يتحرر العقل والوجدان من سيطرة الخوف من الجن عليهما.

ثانياً– الإسراف في القيم المتعلقة بعلاقة الإنسان مع نفسه:

(الكرم، الحرية والإباء، طلب الملذات، مظاهر الترف)

١– الكرم:

الكرم هو إعطاء الشيء عن طيب نفس قليلاً كان أو كثيراً[١]، وهو من أبرز ما اتسم به العرب، والإعجاب بالكرم العربي في الجاهلية لا يعود إلى عظم العطاء، وإنما يعود إلى أن العربي في الجاهلية كان يعطي وهو محتاج، ويبذل مع ضيق الأحوال، وقلة ذات اليد[٢]، وقد عبر عن ذلك حاتم الطائي[٣] بقوله:

---

[١] أبو هلال، الحسن بن عبدا لله العسكري (ت بعد ٥٣٩٥) – الفروق اللغوية – ١٤٣، تحقيق: حسام الدين القدسي دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ط، دت.

[٢] أحمد الحوفي – الحياة العربية من الشعر الجاهلي – ٣١٦.

[٣] حاتم بن عبدا لله بن سعد الطائي، أشهر كرماء الجاهلية، يضرب المثل بجوده، من أشهر أولاده: عدي، وسفانة، وقد أدركا الإسلام وأسلما، امتاز حاتم بكريم الأخلاق، من كرم، ونجدة، ومروءة، فساد في قومه، له العديد من الأشعار التي تدل على تلك الصفات، انظر: الأغاني – ٣٦٣/١٧.

سَأَقْدَحُ مِنْ قِدْرِي نَصِيباً لِجَارَتِي ... وَإِنْ كَانَ مَا فِيهَا كَفَافاً عَلَى أَهْلِي
إِذَا أَنْتَ لَمْ تُشْرِكْ رَفِيقَكَ فِي الَّذِي ... يَكُونُ قَلِيلاً لَمْ تُشَارِكْهُ فِي الفَضْلِ[1]

وكتب الأدب والتاريخ حافلة بقصص الكرم والكرماء، ورغم ما في تلك القصص والأخبار من مبالغة وخيال – في بعض الأحيان – غير أنها تعكس أصالة الكرم في نفوسهم، وإشادتهم بهذه الفضيلة، وحرصهم عليها، ونظراً لعظم حرصهم على الاتصاف بصفة الكرم، تجدهم يغالون أحياناً في كرمهم وبذلهم، حتى يصير إسرافاً وإتلافاً للمال، مما يستدعي التعنيف واللوم من العاذلات واللائمين، وقد صوروا هذا في أشعارهم، من ذلك قول حَاتِم الطَّائِي:

وَقَائِلَةٍ: أَهْلَكْتَ فِي الجُودِ مَا لَنَا ... وَنَفْسَكَ حَتَّى ضَرَّ نَفْسَكَ جُودُهَا
فَقُلْتُ: دَعِينِي، إِنَّمَا تِلْكَ عَادَةٌ ... لِكُلِّ كَرِيمٍ عَادَةٌ يَسْتَعِيدُهَا[2]

وقال عُرْوَةُ بن الوَرْد[3]:

أَقِلِّي عَلَيَّ اللَّوْمَ يَا ابْنَةَ مُنْذِرٍ ... وَنَامِي، فَإِنْ لَمْ تَشْتَهِي النَّوْمَ فَاسْهَرِي
ذَرِينِي وَنَفْسِي أُمَّ حَسَّانَ، إِنَّنِي ... بِهَا قَبْلَ أَنْ لَا أَمْلِكَ البَيْعَ مُشْتَرِي
أُحَادِيثُ تَبْقَى، وَالفَتَى غَيْرُ خَالِدٍ ... إِذَا هُوَ أَمْسَى هَامَةً فَوْقَ صَيِّرِ[4]

ويقول حَاتِم:

---

[1] حاتم الطائي – الديوان – ٢٨٦، تحقيق: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

[2] ديوانه – ١٧٩.

[3] عُرْوَة بن الوَرْد بن زيد العبسي، شاعر من شعراء الجاهلية، وفارس من فرسانها، ومن الصعاليك الأجواد، كان يلقب بعروة الصعاليك، لجمعه إياهم، وقيامه بأمرهم، وقال عنه عبدالملك: من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد، انظر: الأغاني – ٧٢/٣.

[4] عروة بن الورد – الديوان – ٦٧ تحقيق: أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م. صير: هو القبر: انظر: اللسان – مادة صير"، وقد ضبطت الكلمة في اللسان: (صَيِّر)

يَقُولُونَ لِي: أَهْلَكْتَ مَالَكَ فَاقْتَصِدْ وَمَا كُنْتُ لَوْلَا مَا يَقُولُونَ سَيِّدَا[1]

ولو حاولنا أن نسبر أغوار نفس العربي الجاهلي في محاولة لفهم دوافعه لهذا الكرم والإنفاق، لوجدنا أنها دوافع متداخلة متشابكة، ولكن سنحاول إضاءة بعض من هذه الدوافع، على النحو التالي:

١- النظرة إلى الموت وتأثيرها في كرمهم:

إن إحساس الجاهلي بعجزه أمام قدر الله المحتوم، وهو (الموت) الذي يراه يتخطف الناس من حوله، في بيئة تستعر فيها نيران الحروب والغارات، وما تسفر عنه من قتلى، إلى غير ذلك من دواعي الموت التي تعصف بالإنسان حين يحين أجله، كل ذلك كان له تأثيره الواضح على عقل الجاهلي ونفسه، فالموت حتم على كل حي، ولا خلود لأحد، فلماذا يكنز المال ويكدسه؟ وقد صوَّر لنا المُخَبَّلُ السَّعْدِي[2] هذا في شكل مناقشة تدور بينه وبين العاذلة التي تلومه لإسرافه في الكرم والجود، فقال:

وَتَقُولُ عَاذِلَتِي وَلَيْسَ لَهَا بِغَدٍ وَلَا مَا بَعْدَهُ عِلْمُ
إِنَّ الثَّرَاءَ هُوَ الخُلُودُ وَإِنَّ المَرْءَ يُكْرِبُ يَوْمَهُ العُدْمُ
إِنِّي - وَجَدِّكِ - مَا تُخَلِّدُنِي مِائَةٌ يَطِيرُ عِفَاؤُهَا، أُدْمُ
وَلَئِنْ بَنَيْتِ لِيَ المُشَقَّرَ فِي هَضْبٍ تُقَصِّرُ دُونَهُ العُصْمُ
لَتُنَقَّبَنْ عَنِّي المَنِيَّةُ إِنَّ اللهَ لَيْسَ كَحُكْمِهِ حُكْمُ[3]

---

[1] ديوانه - ٢١٨.

[2] المُخَبَّلُ السَّعْدِي: ربيع بن مالك بن ربيعة التميمي، شاعر مشهور مخضرم، من فحول الشعراء، عمر طويلا ونزل البصرة، ومات في خلافة عمر أو عثمان. الإصابة - ٤٩١/١، الأعلام - الزركلي - ١٥/٣.

[3] المفضليات - ١١٨، يطير عفاؤها: يذهب وبرها من السمن، أدم: الإبل الخالصة البياض، المشقر: حصن بالبحرين، العصم: الوعول، فالشاعر يحكي قول عاذلته التي ترى أن الثراء يكفل الخلود، وأن العدم منغص للعيش، ويرد عليها مفنداً قولها؛ لأنه حتى لو كان له مائة من أجود الإبل، وعاش في حصن المشقر المنيع، فوق هضاب تقصر دونها الوعول، فإن المنية لابد وأن تنزل به؛ فالخلود في البذل لا في الإمساك.

ومن ذلك قول طَرَفَة بن العَبْد[1]:

أَرَى قَبْرَ نَحَّامٍ بَخِيْلٍ بِمَالِهِ ... كَقَبْرِ غَوِيٍّ فِي البَطَالَةِ مُفْسِدِ
أَرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ وَيَصْطَفِي ... عَقِيْلَةَ مَالِ الفَاحِشِ المُتَشَدِّدِ
أَرَى العَيْشَ كَنْزاً نَاقِصاً كُلَّ لَيْلَةٍ ... وَمَا تُنْقِصُ الأَيَّامُ وَالدَّهْرُ يَنْفَدِ[2]

فالموت لا يفرق بين كريم وبخيل، وحرص البخيل لا يخلده، ولا يرد عنه غائلة الموت، وجود الجواد لا يميته هزلاً وجوعاً، قال حاتم الطائي[3]:

أَرِيْنِي جَوَاداً مَاتَ هَزْلاً لَعَلَّنِي ... أَرَى مَا تَرَيْنَ، أَوْ بَخِيْلاً مُخَلَّداً

ومادام الأمر كذلك فلماذا البخل والتعرض للذم؟! فالأفضل أن يكون كريماً سخيا؛ حتى يحوز على حسن الأحدوثة في حياته وبعد مماته[4]:

أَعَاذِلَ إِنَّ الجُوْدَ لَيْسَ بِمُهْلِكِي ... وَلا مُخْلِدِ النَّفْسِ الشَّحِيْحَةِ لُؤْمُهَا
وَتُذْكَرُ أَخْلاقُ الفَتَى وَعِظَامُهُ ... مُغَيَّبَةٌ فِي اللَّحْدِ، بَالٍ رَمِيْمُهَا

وقال حاتم[5]:

---

[1] طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي، شاعر جاهلي مشهور، اتصل بعمرو ابن هند، ثم غضب عليه لشعر نسب إلى طرفة في هجائه، فأرسله برسالة إلى عامله على البحرين وعمان (المكعبر) يأمره بقتل طرفة، فقتله، وهو ابن ست وعشرين سنة، له أشعار جياد حسان أشهرها معلقته التي مطلعها: (لخولة أطلال ببرقة ثهمد)، وقد جعله ابن سلام في الطبقة الرابعة مع عبيد بن الأبرص، وعلقمة بن عبدة انظر: (ابن سلام – طبقات فحول الشعراء – ٤٩)، (الألوسي – نهاية الأرب – ٣/١١٠)، (الزركلي – الأعلام – ٣/٢٢٥).

[2] ديوانه – ٣٦، النحام: الحريص على الجمع والمنع، غوي: الضال، يعتام: يختار. عقيلة: كريم المال: الفاحش: الشديد البخل. يقول: أرى قبر البخيل بماله كقبر المفسد لماله المبذر له، فالموت يعم الأجواد والبخلاء، فيصطفي الكرام، وكرائم أموال البخلاء، وحياة الإنسان كنز تنقصه الأيام، حتى ينفد، ويموت المرء.

[3] ديوانه – ٢١٨.

[4] حاتم الطائي – المصدر نفسه، ٢٨٨.

[5] ديوانه – ١٩٢.

إِنَّ البَخِيلَ إِذَا مَا مَاتَ يَتْبَعُهُ سُوءُ الثَّنَاءِ، وَيَحْوِي الوَارِثُ الإِبِلَا
فَاصْدُقْ حَدِيثَكَ إِنَّ المَرْءَ يَتْبَعُهُ مَا كَانَ يَبْنِي إِذَا مَا نَعْشُهُ حُمِلَا

إن إحساسهم الدائم بتربص الموت بهم كان من أبرز دوافع كرمهم وبذلهم في العصر الجاهلي.

٢- مفهوم القدر:

لقد آمن أهل الجاهلية بالقضاء والقدر، وأنه لا مرد لهما، وقد أشار إلى ذلك جواد علي حيث قال: "لقد كانوا يؤمنون بما نسميه (القضاء والقدر)، وأن كل شيء في هذا الكون محتوم مكتوب، وما يصيب الإنسان لابد أن يكون قد كتب عليه، ولا راد لما هو مكتوب[١] وكان لهذا الاعتقاد تأثيره على بذلهم وكرمهم، فمن قدر له السعة والغنى، فسيناهما مهما بذل وأعطى، ومن كان قدره الفقر فلن يغني عنه شيئاً بخله وإمساكه[٢]، قال المُرَقِّشُ الأَصْغَر[٣]:

آذَنَتْ جَارَتِي بِوَشْكِ رَحِيلِ بَاكِراً جَاهَرَتْ بِخَطْبٍ جَلِيلِ
أَزْمَعَتْ بِالفِرَاقِ لَمَّا رَأَتْنِي أُتْلِفُ المَالَ، لَا يَذُمُّ دَخِيلِي
عَجَباً مَا عَجِبْتُ لِلعَاقِدِ المَا لِ، وَرَيْبُ الزَّمَانِ جَمُّ الخُبُولِ
أَجْمِلِ العَيْشَ، إِنَّ رِزْقَكَ آتٍ لا يَرُدُّ التَّرْقِيحُ شَرْوَى فَتِيلِ[٤]

---

[١] تاريخ العرب قبل الإسلام - ٦/١٢١.

[٢] لقد جاء القرآن الكريم بتقرير صحة هذا الاعتقاد، فحث الله سبحانه وتعالى عباده على البذل في سبيل الله، ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ سورة البقرة - ٢٤٥، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "انفقوا ولا تبالوا، فالله هو الرازق يضيق على من يشاء من عباده في الرزق، ويوسعه على آخرين، له الحكمة البالغة في ذلك" انظر: تفسير القرآن العظيم - ١/٤٤٩.

[٣] المرقش الأصغر: هو ربيعة بن سفيان بن سعد، ابن أخي المرقش الأكبر، وعم طرفة بن العبد، والمرقش الأصغر أشعر المرقشين وأطولهما عمرا، وهو أحد فرسان العرب وعشاقهم المشهورين من بني قيس بن ثعلبة، انظر حاشية المفضليات - ٢٤١.

[٤] المفضليات - ٢٥٠، ٢٥١، جارتي: زوجتي، دخيلي: من يدخل على من الأضياف، الخبول: الفساد، شروى: مثل، الترقيح: إصلاح المال، فتيل: الخيط الذي في شق النواة، أجمل العيش: أي أجمل في طلب العيش. المراد: حديثه عن مفارقة زوجه له، بسبب كرمه وبذله، وتعجبه من كانزي المال، الغافلين عن ريب الزمان، ثم يعلن أن الرزق قدر وتقدير من الله سبحانه.

فالشاعر يؤمن بأن رزق الإنسان سيأتيه، فلذلك على المرء أن يجمل في طلب العيش، وينبذ البخل والتقتير؛ لأنه لا يغني عنه شيئاً أمام ما حدد له من رزق في قدره المرسوم له.. وقال حاتم الطائي معبراً عن هذا الاعتقاد[1]:

فَلا الجُوْدُ يُفْنِي المَالَ قَبْلَ فَنَائِهِ ... وَلَا البُخْلُ فِي مَالِ الشَّحِيْحِ يَزِيْدُ
فَلا تَلْتَمِسْ رِزْقاً بِعَيْشٍ مُقَتِّرٍ ... لِكُلِّ غَدٍ رِزْقٌ يَعُوْدُ جَدِيْدُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الرِّزْقَ غَادٍ وَرَائِحٌ ... وَأَنَّ الَّذِي أَعْطَاكَ سَوْفَ يُعِيْدُ

وقال أيضاً[2]:

يَارُبَّ عَاذِلَةٍ لَامَتْ، فَقُلْتُ لَهَا: ... إِنَّ عَلَى اللهِ مِمَّا تُنْفِقُ الخَلَفَا

٣- نظرة المجتمع، ومطالب البيئة:

عاش عرب الجاهلية في بيئة قاسية مجدبة، وهم مضطرون - بسبب جدبها، وقلة الماء فيها - إلى الانتقال والترحال بين حين وآخر في مجاهل تلك الصحاري القاحلة، وفيافيها الموحشة، واحتمال نفاد الماء والزاد احتمال وارد قوي، وكل عربي يمكن أن يقع يوماً ما في هذا الموقف؛ لذلك - وحماية لأفراد البيئة - برز الكرم قيمة ضرورية في حياتهم؛ لأن هذا المسافر إن لم يجد من يستضيفه ويقريه فإن هلاكه واقع لا محالة، وقد برع الشعر الجاهلي في تصوير الرحلة المضنية التي قطعها الضيف قبل نزوله على أحد الكرماء، وخاصة في ليالي الشتاء الشديدة البرودة، قال الأَفْوَهُ الأَوْدِيُّ[3]:

---

[1] ديوانه - ٢٥٠.

[2] المصدر نفسه - ٢٦٧.

[3] الأفوه الأودي: هو صَلاءة بن عمرو بن مالك من أَوْد من قبيلة مَذْحِج، من كبار الشعراء القدماء في الجاهلية، كان سيد قومه وقائدهم في الجاهلية، يمتاز شعره بما فيه من حكم بليغة، من ذلك قوله:

لا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ ... وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا

انظر: الأغاني - ١٩٨/١٢، الألوسي - نهاية الأرب - ١٠٥/٣، الأعلام - الزركلي - ٢٠٦/٣.

وَمُسْتَنْبِحٍ تَهْوِي مَسَاقِطُ رَأْسِهِ ... إِلَى كُلِّ صَوْبٍ، فَهْوَ لِلسَّمْعِ أَصْوَرُ
يُصَفِّقُهُ أَنْفٌ مِنَ الرِّيحِ بَارِدٌ ... وَنَكْبَاءُ لَيْلٍ مِنْ جُمَادَى، وَصَرْصَرُ
حَضَأْتُ لَهُ نَارِي، فَأَبْصَرَ ضَوْءَهَا ... وَمَا كَادَ لَوْلاَ حَضْأَةُ النَّارِ يُبْصِرُ[1]

فهو يسري في ليل الصحراء الموحش البهيم، تتلاعب به الريح الباردة، فيقشعر بدنه مما يهب عليه من ريح جمادى النكباء، وهو في سراه مع الظلمة،والبرد،والجوع،والخوف، يرهف السمع إلى ما قد يتناهى إليه من أصوات، عَلَّهُ يسمع ما قد يبث الأمل في حياته من جديد، وهنا تظهر نار ذلك الكريم متأججة متعالية، تدعوه للقرى والحياة. فالتركيز على المدح بالكرم في فصل الشتاء، لما فيه من شدة البرد، وهبوب الزمهرير، قال عَمْرو بن شَأس الأَسَدِي[2]:

إِذَا الثَّلْجُ أَضْحَى فِي الدِّيَارِ كَأَنَّهُ ... مَنَاثِرُ مِلْحٍ فِي السُّهُولِ وَفِي الأَكَمْ[3]

لذلك ترسخ في المجتمع الجاهلي الإعجاب بالكرام والإشادة بهم، ومقت البخلاء اللئام وذمهم والتشهير بهم، وصارت هذه النظرة بمثابة عرف وقانون يسير عليه المجتمع. فالكريم إنسان يستحق الإعجاب والثناء، بل وحتى السيادة، ويتبعه هذا حتى بعد موته، أما البخيل فلا يستحق إلا الذم، فيسقط ذكره، ويعاب فعله، ويتبعه الذم والانتقاص حتى بعد موته، وقد عبر الشعراء الجاهليون الكرماء عن خشيتهم من هذا

---

[1] أبو تمام – الحماسة – ١٠٩٧/٢، أصور: الصور إمالة العنق؛ حرصاً على السمع "اللسان – صور". أنف من الريح: أنفه أوله وأشده "اللسان – أنف"، حضأت: أوقدت النار و أسعرتها "اللسان – حضأ" النكباء: كل ريح من الرياح الأربع انحرفت ووقعت بن ريحين، وهي تهلك المال، وتحبس القطر "اللسان – نكب".

[2] عَمْرو بن شَأس بن عبيد الأَسَدِي، شاعر جاهلي مخضرم، أسلم، وشهد القادسية، وضعه ابن سلاّم في الطبقة العاشرة، وهو شاعر كثير الشعر، مقدم، ويكنى أبا عِرار، وهو القائل في ابنه عِرار وكانت زوجة أبيه تؤذيه:

أَرَادَتْ عِرَاراً بِالهَوَانِ وَمَنْ يُرِدْ ... عِرَاراً لَعَمْرِي بِالهَوَانِ فَقَدْ ظَلَمْ

الأغاني – ٢٠٢/١١، المرزباني – معجم الشعراء – ٢٥، الإصابة – ٥٣٤/٢٠، ابن سلام – طبقات الشعراء – ٧٢.

[3] عَمْرو بن شَأس – ديوانه – ٦٨، تحقيق: يحيى الجبوري – مطبعة الآداب في النجف الأشرف – دط، دت.

العرف، ووجلهم مما سيلحق بهم من ذم وانتقاص إن لم يحسنوا إكرام ضيفانهم، قال حَسَّانُ بن ثابت[1]:

أَصُونُ عِرْضِي بِمَالِي لَا أُدَنِّسُهُ ... لَا بَارَكَ اللهُ بَعْدَ العِرْضِ فِي المَالِ
أَحْتَالُ لِلْمَالِ إِنْ أَوْدَى فَأَجْمَعُهُ ... وَلَسْتُ لِلْعِرْضِ إِنْ أَوْدَى بِمُحْتَالِ[2]

فهو يبذل المال لأنه يخشى على العرض، وهو ما يمكن أن نسميه (السمعة) و(حسن الأحدوثة)، ويخاف الذم؛ لأن المال إن فني يمكن طلبه ونيله مجدداً، ولكن السمعة إن سقطت بين الناس فلا سبيل إلى تزكيتها أبدا.

ولذلك يكثر في الشعر الجاهلي تصوير بذل المال وكأنه الدرع التي تقي صاحبها سهام الذم واللوم، وما يستتبع ذلك من السمعة السيئة والوصم بالبخل:

وَأَجْعَلُ مَالِي دُونَ عِرْضِي جُنَّةً ... لِنَفْسِي، فَأَسْتَغْنِي بِمَا كَانَ مِنْ فَضْلِ[3]

وقال عَمْرُو بن الأَهْتَم[4]:

وَكُلُّ كَرِيمٍ يَتَّقِي الذَّمَّ بِالقِرَى ... وَلِلْخَيْرِ بَيْنَ الصَّالِحِينَ طَرِيقُ[5]

ويقول المُثَقِّبُ العَبْدِيُّ[6]:

---

[1] هو حسان بن ثابت بن المنذر الأنصاري، شاعر الرسول عليه السلام، عاش في الجاهلية ستين سنة، وفي الإسلام مثلها، مات في خلافة معاوية رضي الله عنه، وكان أشعر أهل المدر، وبعد إسلامه دافع عن الدين وعن الرسول بأشعار مشهورة، كانت متصلاً بالغساسنة في الجاهلية، وقال فيهم مدائح رائعة، انظر: الإصابة – ٣٢٥/١، الأغاني – ١٤١/٤، ابن سلام – طبقات فحول الشعراء – ٨٤.

[2] أبو تمام – الحماسة – ١١٢٢/٢.

[3] حاتم الطائي – ديوانه – ١٤٨، جنة: الدرع، وكل ما وقاك واستترت به من سلاح وغيره "اللسان – جنن".

[4] عمرو بن الأهتم: هو عمرو بن سمي التميمي، كان شاعراً وخطيباً بليغاً شريفاً، وسيداً من سادات قومه، وفد على الرسول عليه الصلاة والسلام في وفد بني تميم فأسلم، وكان يقال لشعره: الحلل المنشرة، انظر: الإصابة – ٥١٧/٢، المرزباني – معجم الشعراء – ٢٤.

[5] أبو تمام – الحماسة – ١١٠٠/٢.

[6] المُثَقِّبُ العَبْدِيُّ: هو عَائِذُ بن محصن بن ثعلبة من بني عبدالقيس من ربيعة، شاعر جاهلي من شعراء البحرين، و (المثقب) لقبه، لقوله في شعر له: "وَثَقِّبْنَ الوَصَاوِصَ لِلْعُيُونِ"، كان متصلاً بالمناذرة، مادحاً لهم، وقد ذكره ابن سلام في شعراء البحرين، انظر: ابن سلام – طبقات فحول الشعراء – ١٠٧، المرزباني – معجم الشعراء – ١٤٨، الألوسي – نهاية الأرب – ١٢٣/٣.

أَجْعَلُ المَالَ لِعِرْضِي جُنَّةً ... إِنَّ خَيْرَ المَالِ مَا أَدَّى الذِّمَمْ[1]

وقال حَاتِم الطَّائِي:

إِذَا مَا صَنَعْتِ الزَّادَ فَالتَمِسِي لَهُ ... أَكِيلاً، فَإِنِّي لَسْتُ آكِلَهُ وَحْدِي

أَخاً طَارِقاً، أَوْ جَارَ بَيْتٍ، فَإِنَّنِي ... أَخَافُ مَذَمَّاتِ الأَحَادِيْثِ مَنْ بَعْدِي[2]

ومع ترسخ هذه المفاهيم وتجذرها في نفوسهم تجاوزوا الخوف من الذم، إلى الرغبة في اكتساب الحمد،وحسن الأحدوثة،وطيب الثناء، وعبروا عن ذلك بـ (اشتراء الحمد)، وقالوا في ذلك، فأكثروا، ومدحوا من يشترى الحمد مهما بلغ ثمنه، ومن ذلك قول الأَعْشَى يمدح:

تَشْتَرِي الحَمْدَ بِأَغْلَى بَيْعِهِ ... وَاشْتِرَاءُ الحَمْدِ أَدْنَى لِلرِّبَحْ[3]

وقول زُهَير بن أبي سُلْمى[4]:

وَمَنْ يَلْتَمِسْ حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ ... يَصُنْ عِرْضَهُ مِنْ كُلِّ شَنْعَاءَ مُوْبِقِ[5]

وقول حَاجِب بن حَبِيب بن خَالِد[6]:

---

(1) المفضليات – ٢٩٥.

(2) الديوان – ٢٩٥، ووردت في حماسة أبي تمام – ١١١١/٢.

(3) ديوانه – ٩١.

(4) زهير بن أبي سلمى: هو زهير بن ربيعة بن رباح بن قرة المزني، من مضر، وهو حكيم الشعراء في الجاهلية، وهو أحد الثلاثة المقدمين على الشعراء في الجاهلية، مع امرؤ القيس، والنابغة الذبياني، عاش في كنف خاله بشامة بن الغدير، وروى عنه الشعر، وروى كذلك عن زوج أمه أوس بن حجر، عرفت قصائده بالحوليات، لأنه كان يقضي حولاً كاملاً في تنقيحها وتجويدها وقد سميت هذه المدرسة (مدرسة عبيد الشعر)، انظر: الأغاني – ٣٣٦/١٠، ابن سلام – طبقات فحول الشعراء – ٢٥،٢٩.

(5) زهير بن أبي سلمى – الديوان – ١٨٥– تحقيق حنا نصر الحتى، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(6) حاجب بن حبيب بن خالد بن قيس الأسدي، ابن المضلل، من بني ثعلبة شاعر جاهلي، له في المفضليات قطعتان، ذكرتا كذلك في الأصمعيات، انظر: الزركلي – الأعلام – ١٥٢/٢ حاشية المفضليات – ٣٦٨.

وَالمُعْطِيَانِ ابْتَغَاءَ الحَمْدِ مَا هَمَّا وَالحَمْدُ لَا يُشْتَرَى إِلَّا بِأَثْمَانِ[1]

وعندما يشيع حمد ذلك الكريم بين الناس، ويصير معروفاً بشمائل الكرام، بذلك يكون له ذكر شائع طيب في مجتمعه يستمر حتى بعد موته:

أَمَاوِيَّ إِنَّ المَالَ غَادٍ وَرَائِحٌ وَيَبْقَى مِنَ المَالِ الأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ[2]

وقوله:

سَأَمْنَحُ مَالِي كُلَّ مَنْ جَاءَ طَالِباً وَأَجْعَلُهُ وَقْفاً عَلَى القَرْضِ وَالقَرْضِ[3]
وَهَذَا فِعَالُ الجُودِ فِي كُلِّ مَحْفَلٍ تُتِيرُ بِهِ الأَخْبَارُ فِي سَائِرِ الأَرْضِ

بتأثير هذه العوامل المتشابكة المتداخلة برزت قيمة الكرم في مجتمعهم، وبالغوا فيها وأسرفوا، ورويت عنهم القصص العجيبة في ذلك[4] وكأنما كان الله يعدهم لما هو مطلوب منهم في الإسلام من البذل والإنفاق والإيثار، ولولا ما كان مركوزاً في طبائعهم من الجاهلية من حب الكرم والبذل، لما استطاعوا الامتثال لهذه الأوامر الإلهية بالمستوى المرجو، ولكن دين الإسلام جاءهم متمماً لما لديهم من مكارم الأخلاق، ومحدداً مسارات صحيحة وأهدافاً سامية لهذه الأخلاق، فبعد أن كان الكرم خوفاً من الذم، واشتراء للحمد، وطلباً للذكر، أو السيادة، صار اشتراء لرضا الرحمن، وخوفاً من غضبه – سبحانه وتعالى – وطلباً لجنة الرضوان، ورفعة الإسلام وأهله.

---

[1] الأصمعي، عبدالملك بن قريب الأصمعي (ت ٢١٦هـ) – الأصمعيات – ٢٢١. تحقيق: أحمد محمد شاكر، عبدالسلام هارون، دار المعارف بمصر، ط٧، ١٩٩٣م.

[2] حاتم الطائي – ديوانه – ١٩٩.

[3] حاتم الطائي – المصدر نفسه – ٢٨٥ "تتير: تعيد مرة بعد مرة".

[4] ينظر – على سبيل المثال: الألوسي – بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب – ١/من ٤٦ إلى ٩٢.

٢- الحرية والإباء:

الحرية ضد العبودية، فالحرية تحرر من القيود، وانطلاق، وامتلاك كامل للإرادة، فالإنسان الحر يأتي ما يشاء،ويدع ما يشاء، دون أن يفرض عليه أحد ما لا يرتضيه. والحرية من سمات العرب البارزة، فقد عاشوا في صحرائهم الجدباء أحراراً لا يستعبدهم أحد، وكفلت لهم الصحراء القاحلة المجدبة حماية من طمع الطامعين، وإن حدث وحاول ملك ما أن يبسط نفوذه عليهم بقوته وجيوشه فإنه لا ينجح في محاولته تلك؛ لجهل غير العرب بمسالك الصحراء، وأماكن المياه فيها[١]. ولذلك نجد جزيرة العرب عبر العصور شامخة بأهلها،لا تستكين لحكم ولا سلطان، فالعرب القدماء لم يخضعوا لحكم الأشوريين[٢] ولا لحكم الإمبراطورية الفارسية[٣]، ولا للمقدونيين[٤]، ولا للميدين[٥]، ولا للإمبراطورية الرومانية[٦]، وعدم وقوعهم تحت سيطرة هذه الدول

---

(١) من الأمثلة على ذلك: الحملة التي بعثها (جاليوس الروماني) على بلاد العرب، وكان دليلهم عربياً من الأنباط، فضللهم، ثم هرب وتركهم؛ فهلكوا عطشاً، انظر: جواد علي - تاريخ العرب قبل الإسلام - ١٦/٣.

(٢) الأشوريون: من الشعوب السامية التي استقرت في بلاد الرافدين، وأسسوا الدولة الأشورية مطلع الألف الثالثة قبل الميلاد، اشتهروا بالفن العسكري، انظر: هـ.ج ويلز - معالم تاريخ الإنسانية - ١٦١/١، ترجمة: عبدالعزيز توفيق القاهرة، ط٣، دت.

(٣) الإمبراطورية الفارسية: ظهرت في الألف الأول قبل الميلاد، أشهر ملوكها (قورش) في القرن ٦ ق.م وامتدت في عهده من بلاد فارس إلى الهند، توالى على حكمها عدد من ملوكهم حتى سقطت على أيدي الفاتحين المسلمين، ويلز - المرجع السابق - ٣٤٧/٢.

(٤) المقدونيون: فئة من الإغريق نسبة إلى مقدونيا، وهي منطقة قديمة في شبه جزيرة البلقان، سيطرت على اليونان في عهد فيليب الثاني في القرن الرابع قبل الميلاد، ووسع ابنه الإسكندر هذه الدولة حتى وصلت إلى الهند، انظر: هـ. ج. ويلز - معالم تاريخ الإنسانية - ٤١٣/٢ وما بعدها.

(٥) الميديون: من الشعوب الآرية سكنوا شمال غرب إيران، وأسسوا لهم دولة هناك في الألف الأول قبل الميلاد، انظر هـ.ج ويلز - معالم تاريخ الإنسانية - ٣٥٠/٢ وما بعدها.

(٦) الإمبراطورية الرومانية: نسبة إلى مدينة روما في إيطاليا، وقد مرت في قيامها بمرحلتين: مرحلة الجمهورية، ومرحلة الإمبراطورية، وكانت من أعظم الدول اتساعاً، ثم حل انقسام في ق٤م، فكان لها الجناح الشرقي المعروف بالإمبراطورية البيزنطية أو الجناح الغربي، وامتد نفوذ القسم الشرقي إلى مصر والشام وشمال افريقيا حتى فتحت على أيدي المسلمين، انظر: هـ.ح. ويلز - المرجع السابق - ٥١٤/٢-٦٦٤.

نأى بهم عن خلق الخنوع،والاستعباد،والذل،الذي يشيع في الأمم الواقعة تحت الاستعمار.

وهكذا شغف عرب الجاهلية بالحرية، وأورثهم هذا إباءً للضيم والذل، وتعالياً على الملوك، وتفضيل الموت على حياة الذل، أما خضوعهم لشيخ القبيلة فقد كان نابعاً من الحرص على القبيلة، وحفاظاً على وحدتها، وتماسكها، وعصبية لها، وهو ليس خضوع استعباد وتسلط، وإنما خضوع طاعة واحترام، وتمادوا في حب الحرية وأسرفوا؛ لأنهم رأوها حرية مطلقة دون حد تقف عنده، بينما المفهوم الصحيح للحرية يخالف ذلك؛ لأن حدود حرية كل إنسان تنتهي عندما تبدأ حدود حرية الآخر، وعندما تظن فئة ما أن لاحد لحريتها فهذا يعني الاعتداء على حرية من سواهم.

يقول د. جواد علي: "غدت هذه الحرية أنانية شديدة، وفردية مطلقة حالت دون تعاون الأفراد، وطبعت أصحابها بطابع الإفراط في حب الحرية الفردية"[1]، وشعرهم ينطق بهذه الرؤية، من ذلك:

قول الأَخْنَس بن شِهَاب التَّغْلِبي[2]:

وَنَحْنُ أُنَاسٌ لَا حِجَازَ بِأَرْضِنَا ... مَعَ الغَيْثِ مَا نُلْقَى وَمَنْ هُوَ غَالِبُ
أَرَى كُلَّ قَوْمٍ قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ ... وَنَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فَهْوَ سَارِبُ[3]

فهو حر منطلق مثل سحاب السماء، يتبع مساقط الغيث أنى وجدت دون مراعاة حقوق الآخرين.

---

[1] تاريخ العرب قبل الإسلام – ٤/٤٠٨.

[2] سبق التعريف به.

[3] المفضليات – ٢٠٦، ٢٠٨، والبيتان وردا كذلك في أمالي القالي – ٢/٢٤٣، والمراد: أننا لا نخاف أحداً، وكلما وقع الغيث في بلد صرنا إليه، وغلبنا أهله عليه، بينما سوانا يقيم في موضع لا يجرؤ على النقلة إلى سواه، أما نحن فأعزاء نذهب حيث نشاء، ولا يقدر أحد على منعنا.

مثل هذا المفهوم للحرية كان لابد أن يـؤدي إلى الصدامـات والحـروب، وعنـد ذلك يكون الحكم للقوة لا للحق.

والشاعر الجاهلي كان يهجو القبيلة التي تلـتزم بمقـر بلادهـا، لأن معنـى ذلـك: تحديد الحرية، فيقول عَامِرُ بن الطُّفَيْل[1]:

تَرْعَـى فَـزَارَةُ[2] فِي مَقَـرِّ بِلَادِهَـا ... وَتَهِيـمُ بَـيْنَ شَـقَائِقٍ وَرِمَـالِ[3]

ويفخرون بإرادتهم المستقلة، التي لا تخضع لأحد، قال عمرو بن كلثوم[4]:

أَلَا فَـاعْلَمْ - أَبَيْـتَ اللَّعْـنَ - أَنَّـا ... عَلَى عَمْدٍ، سَنَأْتِي مَـا نُرِيـدُ[5]

بل ويفتخرون بمصادرة حرية الآخرين؛ مما يعني نطاقاً أوسع لحريتهم، ويرون أنـه مـادام لديهم القوة اللازمة لفرض حريتهم المطلقة على الغير فإن هذا يبيح لهم كل مـا أرادوا، ويمنع مثل ذلك عمن سواهم، من ذلك قول الأَفْوَه الأَوْدِي[6]:

نُقَـاتِلُ أَقْوَامَـاً فَنَسْـبِي نَسَـاءَهُمْ ... وَلَمْ يَـرَ ذُو عِـزٍّ لِنِسْـوَتِنَا حِجْـلَا
نَقُـودُ، وَنَـأْبَى أَنْ نُقَـادَ، وَلَا نَـرَى ... لِقَـوْمٍ عَلَيْنَـا فِي مَكَارِمِـهِ فَضْـلَا
وَإِنَّـا لَنُعْطِـي المَـالَ دُوْنَ دِمَائِنَا ... وَنَأْبَى فَمَا نَسْتَامُ دُوْنَ دَمٍ عَقْلَا[7]

---

(1) سبق التعريف به- ٦١

(2) فزارة: حي من غطفان، وهو فزارة بن ذبيان بن ريث بن غطفان، انظر: القلقشندي - نهاية الأرب في معرفـة أنساب العرب - ٣٥٢. الشقائق: مفردها شقيقة، وهي الفرجة الغليظة بين الرمال تنبت العشب "اللسان - شقق".

(3) ديوانه - ٦٠.

(4) سبق التعريف به- ٣٨

(5) ديوانه - ٣٣.

(6) سبق التعريف به- ٨٠

(7) الأصفهاني - الأغاني - ١٢/١٩٨، ١٩٩. الحجل: الخلخال، نقـود: مـن القـود، وهـو القصـاص، أي قتـل القاتل بالقتيل "اللسان - قود" العقل: الدية. "وقد قال الأفوه الأودي هذه الأبيات يفخر بهـا علـى قـوم مـن بني عامر، كانت بينه وبينهم دماء، فأدرك بثأره، وزاد، وأعطاهم ديات من قتل، فقبلوه وصالحوه" الأغاني - ١٢/١٩٩.

هذا مثال لما وصل إليه مفهوم الحرية والإباء لديهم، فإسرافهم في الإباء جعلهم يحرصون على انتزاع كامل حقوقهم ممن سواهم، ولا ينال الآخر من حقوقه لديهم ما يريد.

ومن ذلك قول حُجر بن خالد[1]:

مَنَعْنَا حِمَانَا، وَاسْتَبَاحَتْ رِمَاحُنَا ... حِمَى كُلِّ قَوْمٍ مُسْتَجِيرٍ مَرَاتِعُهْ[2]

وقول بِشْر بن أَبي خَازِم[3]:

نَحُلُّ مَخُوفَ كُلِّ حِمًى وَثَغْرٍ ... وَمَا بَلَدٌ نَلِيهِ بِمُسْتَبَاحِ[4]

وفي معلقة عمرو بن كلثوم[5] الشهيرة تتعالى صيحات الشغف بالحرية والإصرار عليها، وتحطيم كل ما يمكن أن يقف حائلاً دونها.

وَقَدْ عَلِمَ القَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ ... إِذَا قُبَبٌ بِأَبْطُحِهَا بُنِينَا
بِأَنَّا المُطْعِمُونَ إِذَا قَدَرْنَا ... وَأَنَّا المُهْلِكُونَ إِذَا ابْتُلِينَا
وَأَنَّا المَانِعُونَ لِمَا أَرَدْنَا ... وَأَنَّا النَّازِلُونَ بِحَيْثُ شِئْنَا
وَأَنَّا التَّارِكُونَ لِمَا سَخِطْنَا ... وَأَنَّا الآخِذُونَ إِذَا رَضِينَا
وَأَنَّا الطَّالِبُونَ إِذَا نَقِمْنَا ... وَأَنَّا الصَّابِرُونَ إِذَا ابْتُلِينَا[6]

---

(1) حُجْرُ بن خالد بن محمود، من ضُبيعة بن قيس بن ثعلبة، شاعر جاهلي، كان معاصراً لعمرو بن كلثوم، أنشد شعراً بين يدي النعمان بن المنذر، فلطمه عمرو بن كلثوم، فاقتص منه حُجر بأن لطمه، وأجاره الملك، ويستدل من بعض أشعاره على أنه كان في فترة من حياته أسيراً بأرض فارس، انظر: حاشية حماسة أبي تمام – ١/٢٥٤.

(2) أبو تمام – الحماسة – ١/٣٣٨.

(3) سبق التعريف به ـ ٧١

(4) ديوانه – ٤٤.

(5) سبق التعريف به ـ ٣٨

(6) ديوانه – ٨٩.

ومن آثار هذا الاتصاف بالحرية والحرص عليها أن صار الإباء فيهم خلقاً وجبلة، فاتصفوا بالتعالي على الملوك، وردعهم بكل حزم وإباء إن حاولوا أن ينزلوا بهم الذل والاستعباد، ومن يكن هذا خلقه فإنه يفضل الموت على حياة الذل والاستكانة، قال عَمْرُو بن كُلْثُوم:

إِذَا مَا المَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفاً ... أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الذُّلَ فِينَا[1]

ويشدو ذو الإِصْبَعِ العَدْوَانِيُّ[2] بنشيد الإباء، وكأن الصحراء تردد صدى كلماته وهتافاته:

إِنِّي أَبِيٌّ أَبِيٌّ ذُو مُحَافَظَةٍ ... وَابْنُ أَبِيٍّ أَبِيٍّ مِنْ أَبِيِّينِ
وَاللهِ لَوْ كَرِهَتْ كَفِّي مُصَاحَبَتِي ... لَقُلْتُ إِذْ كَرِهَتْ قُرْبِي لَهَا: بِيْنِي[3]

ويقف العربي من الحاكم أو الملك الذي يحاول الاستطالة، يقف منه موقف الند للند، ويوجه له الحديث بكل حزم وأنفة دون مداهنة ونفاق، يقول يَزِيْدُ بن الخَذَّاقِ[4]:

نُعْمَانُ إِنَّكَ خَائِنٌ خَدِعٌ ... يُخْفِي ضَمِيْرُكَ غَيْرَ مَا تُبْدِي
يَأْبَى لَنَا أَنَّا ذَوُو أَنَفٍ ... وَأُصُوْلُنَا مِنْ مَحْتِدِ المَجْدِ
أَحَسِبْتَنَا لَحْماً عَلَى وَضَمٍ؟ ... أَمْ خِلْتَنَا فِي البَأْسِ لَا نُجْدِي؟[5]

---

(1) ديوانه – ٩٠.

(2) سبق التعريف به– ٤٨

(3) المفضليات – ١٦٤.

(4) يزيد بن الخَذَّاقِ الشَّنِّيُّ العَبْدِيُّ، شاعر جاهلي قديم، قال هذه القصيدة يهجو النعمان بن المنذر ويتوعده، فبدأ كلمته بنعت فرسه وسلاحه، ثم هدد النعمان، وفخر بقومه واستعصائهم على الذل والخسف ويقال إنه أول من قال شعراً في ذم الدنيا، والتي أولها: هَلْ لِلْفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مَنْ وَاقٍ
أَمْ هَلْ لَهُ مِنْ حِمَامِ المَوْتِ مَنْ رَاقٍ
انظر: حاشية المفضليات – ٢٩٥، ٣٠١.

(5) المفضليات – ٢٩٦، محتد: الأصل، الوضم: الخشبة أو الحصير الذي يقي اللحم من التراب والمراد: أحسبتنا لا ندفع عن أنفسنا عدونا، وظننتنا بمنزلة لحم على وضم لا يدفع عن نفسه؟

ويقول المُتَلَمِّسُ[1]:

وَكُنَّا إِذَا الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ ... أَقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّمَا[2]

وصارت شريعتهم في الحياة هي كما قال المُتَلَمِّسُ:

فَلَا تَقْبَلَنْ ضَيْماً مَخَافَةَ مِيتَةٍ ... وَمُوتَنْ بِهَا حُرّاً، وَجِلْدُكَ أَمْلَسُ[3]

ونتيجة لهذا التعالي على الملوك وتحديهم دخل العرب في العديد من الصراعات والمناوشات مع من تبوأ منزلة الإمارة منهم، وقد افتخروا بقتل الملوك[4] والأمراء وأسرهم، يقول كُليب وائل[5]:

فَكَمْ مَلِكٍ أَذَقْنَاهُ المَنَايَا ... وَآخَرَ قَدْ جَلَبْنَا فِي الوِثَاقِ[6]

ويقول عَبِيْدُ بن الأَبْرَص[7]:

---

(1) المتلمس: جرير بن عبد المسيح، من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار، كان نديماً لعمرو ابن هند، ثم هجاه فأراد قتله، ولكنه فر إلى الشام، ولحق بالغساسنة، وسمي المتلمس لقوله في قصيدة له:

فَهَذَا أَوَانُ العَرْضِ جُنَّ ذُبَابُهُ ... زَنَابِيْرُهُ وَالأَزْرَقُ المُتَلَمِّسُ

وقد ذكره ابن سلام في شعراء الطبقة السابعة، انظر: الأغاني – ٢١٦/٢٤، ابن سلام – طبقات فحول الشعراء – ٥٨.

(2) الأصمعيات – ٢٤٥، الجبار: العاتي من الملوك، صعر خده: أماله كبراً.

(3) أبو تمام – الحماسة – ٤١٦/١، أملس: نقي من العار والدنس، أي مت كريما أبيا.

(4) لقب (ملك) في ذلك العهد قد لا يعني في الواقع العملي أكثر من سيد قبيلة، وخاصة في وسط الجزيرة، انظر: جواد علي – ١٨٨/٥.

(5) سبق التعريف به– ٥٦

(6) المهلهل بن ربيعة – الديوان – ٩٩ – تقديم: طلال حرب، الدار العالمية، بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

(7) عَبِيْد بن الأَبْرص بن حنتم الأَسَدِي، شاعر فحل فصيح من شعراء الجاهلية، جعله ابن سلام في الطبقة الرابعة من فحول الجاهلية، وهو شاعر قديم الذكر، يروى أنه قتل على يد المنذر ابن ماء السماء في يوم بؤسه، قال عنه ابن سلام: (شعره مضطرب ذاهب، لا أعرف له إلا قوله:

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ ... فَالقُطْبِيَّاتُ فَالذَّنُوبُ

انظر: ابن سلام – طبقات الشعراء – ٥٠، الأغاني – ٨٥/٢٢

كَـمْ مِـنْ رَئِيْـسٍ قَـدْ قَتَلْـ ... ـنَـاهُ، وَضَيْـمٍ قَـدْ أَبَيْنَـا
حَتَّـى تَرَكْنَـا شِلْـوَهُ ... جَـزَرَ السِّـبَاعِ، وَقَدْ مَضَيْنَـا[1]

ويفخر الحَارِثُ بن ظَالِمٍ[2] بقتله لابن النعمان بن المنذر، فيقول:

عَلَوْتُ بِذِي الحَيَّاتِ مَفْرِقَ رَأْسِهِ ... وَهَلْ يَرْكَبُ المَكْرُوْهَ إِلاَّ الأَكَارِمُ[3]

وقال الأَعْشَى يفخر بأفاعيلهم يوم ذي قَار[4]:

قَتَلْنَـا القَيْـلَ هَـامَرْزاً ... وَرَوَّيْنَـا الكَتِيْـبَ دَمَـا
أُبَـاةَ الضَّيْـمِ، لَا يَعْطُـو ... نَ مَـنْ عَـادَوْهُ مَـا حَكَمَـا
أَبَـتْ أَعْنَـاقُهُمْ عِـزّاً ... فَمَـا يُعْطُـوْنَ مَـنْ غَشَـمَا[5]

هذا الإسراف في الحرية أثر على حياتهم وعلاقاتهم فيما بينهم، فقد صار الحكم للقوة، ولا يلبث حكم ما أن يبسط نفوذه عليهم، ولو لفترة من الزمن، إلا انتفضوا عليه، وخرجوا عن طاعته، وعرف هذا الخلق عنهم، فقد ذكر ابن خلدون أنهم أصعب الأمم انقياداً؛ للغلظة، والأنفة وبعد الهمة، والمنافسة على الرئاسة، ولا يحصل الملك لهم إلا بأثر عظيم من الدين[6]" وهذا يعني أنهم لا يرضون لمخلوق – أياً كان – أن يصادر حريتهم، ولا يحصل انقيادهم إلا للخالق – عز وجل – فقط. وهذا ما قصده ابن

---

(1) عبيد بن الأبرص – الديوان – ١٤٣.

(2) سبق التعريف به ـ ٤٨

(3) المفضليات – ٣١٢، ذو الحيات: اسم سيف الحارث بن ظالم، كان فيه صورة حيتين.

(4) يوم ذي قار: يوم بين العرب والفرس، سببه مطالبة كسرى بما استودعه النعمان بن المنذر من ودائع هانيء بن مسعود، فبعد أن قتل كسرى النعمان بن المنذر، أراد أن يحوز ودائعه، ولكن هانيء بن مسعود رفض تسليمها له فنشبت الحرب، وانتهت بانتصار العرب "وهم بنو بكر بن وائل وحلفاؤهم"، انظر: ابن الأثير – الكامل – ٢٨٥/١ أبو عبيدة – أيام العرب – ٤٨٩/٢.

(5) ديوانه – ٣٢١، ٣٢٢.

(6) المقدمة – ١٨٩.

خلدون – "الصبغة الدينية، من نبوة أو ولاية[1]" فطاعتهم لحاكم يحكم بما أمر الله، هي طاعة وانقياد لله، وليس لشخص هذا الحاكم، لما هو مركوز فيهم من عشق الحرية وإباء الضيم.

ومن أوضح الأمثلة على إسرافهم في الحرية، ويمكن أن نعده كذلك أبرز نتائج هذا الإسراف: الاندفاع والطيش، وهي أمور تدل على سرعة الانفعال، وعدم ضبط ما قد يثور في النفس من مشاعر الغضب والرغبة في الانتقام؛ لأن عربي الجاهلية اعتاد الحرية، فلا مداراة، ولا مداهنة، وكان لهذا الطيش أثره في إشعال العديد من الحروب والفتن، ومن مظاهره كذلك الدعوة إلى البدء بالظلم؛ حفاظاً على الهيبة والمكانة، من ذلك:

قول عمرو بن كلثوم:

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا ... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا[2]

وقوله:

بُغَاةً ظَالِمِينَ، وَمَا ظُلِمْنَا ... وَلَكِنَّا سَنَبْدَأُ ظَالِمِينَا[3]

وقول زُهَير بن أبي سُلمى:

وَمَنْ لَا يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ ... يُهَدَّمْ، وَمَنْ لَا يِظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ[4]

وقول الفِنْد الزِّمَّانِيّ[5]:

---

(1) نفس المصدر، الجزء والصفحة.

(2) ديوانه – ٧٨.

(3) المصدر نفسه – ٩٠.

(4) ديوانه – ٥٠.

(5) الفِنْدُ الزِّمَّانِيُّ: هو شهل بن شيبان بن ربيعة بن زِمَّان الحنفي، من بني بكر بن وائل، شاعر جاهلي كان من فرسان بكر المعدودين، شهد حرب بكر وتغلب، وقد قارب المائة، سمي (الفند، لعظم خلقته، تشبيهاً بفند الجبل، وهو القطعة منه، كان يقال له: عديد ألف، لشجاعته، وأشهر الأيام التي شهدها بين بكر وتغلب يوم التحالق، وقد أبلى فيه البلاء الحسن، انظر: الأصفهاني – الأغاني – ٨٥/٢٤. =

وَبَعْضُ الحِلْمِ عِنْدَ الجَهْلِ لِلذِّلَّةِ إِذْعَانُ
وَفِي الشَّرِّ نَجَاةٌ حَيْنَ لا يُنْجِيكَ إِحْسَانُ[1]

ونخلص إلى أن هذه النصوص الشعرية السابقة أضاءت لنا رؤية العربي في الجاهلية لمفهوم (الحرية)، فهم قوم عشقوا الحرية بعمق، وحرصوا على الحفاظ على حريتهم تلك بأي ثمن، فدفعهم هذا الإسراف في الحرية إلى ظلم الآخرين، وإلى الطيش، وسرعة الانفعال، وإلى عدم الانتظام في وحدة تجمعهم.

٣- طلب الملذات:

عاش العربي في الجاهلية حياة يهددها الموت؛ لما شاع بينهم من الحروب والغزوات، تلك الحروب التي تحصد الأرواح، وتخلف وراءها الآلام والأحزان، ونتيجة لهذه الحياة الحربية شعر الجاهلي بحاجته إلى ما يبث الشجاعة والجرأة في نفسه، ليخوض غمار المعارك دون خوف، وتوهم أن الخمر لها هذا المفعول؛ فأقبل على شربها[2]. ربما هكذا كانت البداية، ومن ثم اشتد تعلقهم بالخمر، حتى تجاوز كل حد، وصاروا يسرفون في شربها إسرافاً شديداً، وقبل أن نقف على ما نظن أنه أسباب إسرافهم في الخمر، يجدر بنا أن نشير إلى ملمح طريف، وهو على كل حال افتراض نرجحه ولا نجزم به، وخلاصته: أن العرب ربما لم تكن تعرف الخمر أول الأمر، وأنها قد انتشرت بينهم بفعل الأعاجم،واليهود،والنصارى ونحوهم؛ لأن ما وصلنا من شعر جاهلي يصف

= أبو تمام – حاشية الحماسة – ٤٨/١.
الزركلي – الأعلام – ١٧٩/٢.
(١) أبو تمام – الحماسة – ٤٩/١.
(٢) انظر ما رواه جابر – رضي الله عنه – حيث قال: "اصطبح الخمر يوم أحد ناس ثم قتلوا شهداء" وذلك قبل تحريم الخمر: العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (ت ٥٨٥٢) – فتح الباري بشرح صحيح البخاري – ٩٧/٨ دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

تاجر الخمر بصفات لا تنطبق على العرب، مثل: زرقة العينين، وهناك العديد من الأشعار التي نستشف منها صورة تجار الخمر الغرباء، من ذلك:

قول الأعشى:

تَنَخَّلَهَا مِنْ بِكَارِ القِطَافِ ... أُزَيْرِقُ، آمِنُ إِكْسَادِهَا[1]

والأزيرق هو الأزرق العينين، وهذه ليست من صفات العرب.

وقال الأَسْوَدُ بن يَعْفُر[2]:

حَتَّى تَنَاوَلَهَا صَهْبَاءَ صَافِيَةً ... يَرْشُو التِّجَارَ عَلَيْهَا وَالتَّرَاجِيْمَا[3]

فالشاعر هنا يذكر التجار، وهم تجار الخمر الذين يستعينون بالتراجمة للتفاهم مع الناس، وهذا يشير إلى اختلاف اللغة، وأنهم من الغرباء عن بلاد العرب. وقد ينص الشاعر صراحة على أن تاجر الخمر أعجمي، أو يهودي، أو نصراني، من ذلك قول الأعشى:

وَصَهْبَاءَ طَافَ يَهُوْدِيُّهَا ... وَأَبْرَزَهَا وَعَلَيْهَا خُتُمْ
وَقَابَلَهَا الرِّيْحُ فِي دَنِّهَا ... وَصَلَّى عَلَى دَنِّهَا وَارْتَسَمْ[4]

---

[1] ديوانه – ١٢٣، تنخلها، اختارها، بكار القطاف: أول العناقيد وأفضلها،والشاعر يصف تلك الخمر التي اختيرت من أوائل العناقيد،من قبل ذلك التاجر الأعجمي الأزرق العينين، الذي يعلم جودته بضاعته فهو آمن من كسادها.

[2] الأسود بن يعفر بن عبدالأسود النهشلي التميمي؛ شاعر جاهلي فصيح مقدم، كان ينادم النعمان بن المنذر ولما أَسَنَّ،كَفَّ بصره،وكان يكثر التنقل في العرب، يجاورهم فيذم ويحمد، وله في ذلك أشعار، ويلقب بذي الآثار، لأنه إذا هجا قوماً ترك فيهم آثاراً، انظر: ابن سلام: طبقات فحول الشعراء – ٥٤، حاشية المفضليات – ٢١٥.

[3] المفضليات – ٤١٨، صهباء: من عنب أبيض.

[4] ديوانه – ٣١٢، يقول: يا ربما شربت تلك الخمر الحمراء، يبرزها صاحبها اليهودي بختمها، لم يعبث بها عابث، قد ضربتها الريح في دَنِّها، وأخذ تاجرها يعوذها ويباركها.

فالتاجر هنا يهودي، يعوّذ دنان الخمر التي جلبها؛ لما ستغدق عليه من المال الوفير.

وقال عَلْقَمَةُ بن عَبَدَة[1]:

ظَلَّتْ تَرَقْرَقُ فِي النَّاجُودِ يَصْفِقُهَا ... وَلِيدٌ أَعْجَمَ بِالكَتَّانِ مَفْدُومُ[2]

فهو يصف الساقي، وهو غلام أعجمي يشد الخرقة على فيه حين يمزج الخمر، وزيه يدل على أنه من فارس.

وقد ورد في بعض النصوص ما يشير إلى أن الخمر بضاعة مجلوبة، من ذلك قول عبدا لله بن عمر[3]، رضي ا لله عنه: "أمرني رسول ا لله أن آتيه بمدية –وهي الشفرة– فأُرهفت، ثم أعطانيها، فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة، وفيها زقاق الخمر قد جلبت من الشام، فأخذ المدية مني، فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته"[4] إضافة إلى ما سبق فكثيرا ما يدور في الشعر الجاهلي ذكر بعض الأماكن التي تجلب منها الخمور، من الشام والعراق ونحوهما، مثل:

عَانَات[5]، وبَانِقْياء[6]، خُسْرُوشاه[7].

---

(1) عَلْقَمَةُ بن عَبَدَةَ بن النُّعمان بن نَاشِرة التميمي، شاعر جاهلي مجيد، قال عنه ابن سلام، "لابن عبدة ثلاث روائع جياد لا يفوقهن شعر [ذَهَبتِ مِنَ الهِجْرانِ فِي كُلِّ مَذْهَبِ]، وقوله: [طَحابكَ قَلْبٌ فِي الحِسَانِ طَرُوبُ] والثالثة: [هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا اسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ]، انظر: ابن سلام – طبقات فحول الشعراء – ٥٠، الأغاني – ٢٠٥/٢١.

(2) عَلْقَمَة بن عَبَدَة – الديوان – ٧٠. تحقيق: لطفي الصقال – درية الخطيب، دار الكتاب العربي، سوريا، حلب، ط١ ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م وهي في المفضليات – ٤٠٢، الناجود: الباطية العظيمة، يصفقها: يمزجها.

(3) عبدا لله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، ولد سنة ثلاث من المبعث النبوي، وهاجر وهو ابن عشر سنين، وهو من المكثرين عن النبي صلى ا لله عليه وسلم، عرف رضي ا لله عنه بزهده،وورعه،وصلاحه، مات سنة أربع وثمانين هجرية، انظر: ابن حجر – الإصابة – ٣٣٨/٢.

(4) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ١٥١/٢.

(5) عانات: بلد مشهور بين الرقة وهيت، تنسب إليها الخمر الجيدة انظر: ياقوت الحموي – معجم البلدان – ٧٢/٤.

(6) بانقياء: ناحية من نواحي الكوفة، على شاطيء الفرات، انظر: ياقوت الحموي – المصدر نفسه – ٣٣٢/١.

(7) خسروشاه: قرية بينها وبين مرو فرسخان، انظر: ياقوت الحموي – المصدر نفسه – ٣٧١/٢.

من ذلك قول الأعشى:

تَخَيَّرَهَا أَخُو عَانَاتَ شَهْراً ... وَرَجَّى أَوْلَهَا عَاماً فَعَامَا[1]

وقوله – أي الأعشى –

وَطِلَاءٍ خُسْرُوَانِيٍّ إِذَا ... ذَاقَهُ الشَّيْخُ تَغَنَّى وَارْجَحَنْ[2]

وقول بِشْر بن أبي خَازِم:

فَقَدْ تَرَانِي بِبَانِقْيَاءَ مُتَّكِئاً ... يَسْعَى وَلِيْدَانِ بِالحِيْتَانِ والرُّغُفِ
وَقَهْوَة تَنْشُقُ المُسْتَامَ نَكْهَتُهَا ... صَهْبَاء صَافِية مِنْ خَمْرِ ذِي نَطَفِ[3]

وسواء أكانت الخمر مجلوبة أم يقومون هم بصنعها فإن النتيجة كانت إسرافاً شديداً في شرب الخمر.

وحين نحاول أن نعرف أسباب أسراف عرب الجاهلية في الخمور، يمكن أن نرجع ذلك إلى الأسباب التالية:

١– الحاجة إلى بث الشجاعة والحماسة في نفوسهم، ولذا يربطون في أشعارهم بين الشجاعة في الحرب وبين شرب الخمر، ويقرنون بينهما في المدائح:

قال حَفْصُ بن الأَحْنَف[4] يرثي رَبِيْعة بن مُكَدَّم[5]:

---

(١) ديوانه – ٣٢٦.
(٢) ديوانه – ٣٥٦.
(٣) ديوانه – ١٥٩، القهوة: الخمر، المستام: يسوم السلعة للشراء، نطف: قرط.
(٤) حَفْصُ بن الأَحْنَف الكِنَانِيُّ، مر بقبر ربيعة بن مكدم، وكان لا يمر به أحد من العرب إلا عقر عليه دابة، فقال: لا أعقر عليه، ولكن أرثيه، وذلك قوله:

لَوْلَا السِّفَارُ وَبُعْدُ خَرْقٍ مَهْمَهٍ ... لَتَرَكْتُهَا تَحْبُو عَلَى العُرْقُوبِ

حاشية الحماسة ٥٤٦/١

(٥) رَبِيْعة بن مُكَدَّم، من بني فِراس بن كِنَانة، حامي الظعينة، فارس جاهلي مشهور، قتل وهو يدافع عن آله ونسائه، انظر: الألوسي – نهاية الأرب في معرفة أحوال العرب – ١٢٥/٢/ الزركلي – الأعلام – ١٧/٣، الأغاني – ٦٤/١٦.

لَا تَنْفُرِي يَا نَاقَ عَنْهُ فَإِنَّهُ شَرِّيبُ خَمْرٍ مِسْعَرٌ لِحُرُوبِ[1]

يلاحظ الارتباط بين المدح بالإسراف في شرب الخمر، وبين كونه مِسْعر للحروب، ومما يوضح ذلك أيضاً قول حسان بن ثابت:

وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكاً، وَأُسْداً مَا يُنَهْنِهُنَا اللِّقَاءُ[2]

فيرون أن شربهم للخمر له تأثيرات محمودة، منها: بث الشجاعة حتى لكأنهم الأُسد.

٢- توقع الفجيعة:

في بيئة تكثر فيها الحروب والقتل، يصبح توقع الفجيعة أمراً وارداً، وهنا يشعر الإنسان بالقلق والخوف، ويحاول أن يتناسى ما قد يعتريه من الأفكار السوداوية المقلقة، عن طريق الغياب عن واقعه ولو لبعض الوقت، وكانت الخمر تحقق لهم ذلك، فأقبلوا عليها،من ذلك قول طَرَفَة بن العَبْد[3]:

أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرُ الوَغَى وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ، هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي؟
فَإِنْ كُنْتَ لَا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي فَدَعْنِي أُبَادِرْهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي[4]

٣- السببان السابقان يمكن أن يلمحا قبل حدوث الحرب،أما السببان التاليان فهما يتعلقان بنتيجة الحرب، فهي لابد أن تسفر عن منتصر ومنهزم، في حالة النصر فإن المنتصر يشعر بالنشوة،والزهو،والسعادة، فيشرب ويكثر، فهو منتصر يحتسي نخب النصر، وفي معلقة عمرو بن كلثوم نلاحظ المطلع الذي يصور نشوة المنتصر الذي ينتشي بشربه:

---

(١) أبو تمام – الحماسة – ٥٤٧/١.

(٢) حسان بن ثابت – الديوان – ٤٧.

(٣) سبق التعريف به- ٧٨

(٤) ديوانه – ٣١.

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِيْنَا ... وَلَا تُبْقِي خُمُورَ الأَنْدَرِيْنَا
مُشَعْشَعَةً كَأَنَّ الحُصَّ فِيْهَا ... إِذَا مَا المَاءُ خَالَطَهَا سَخِيْنَا[1]

٤- (الهزيمة) من خانه حظه، ونبا سيفه في ميدان المعركة،وعاد يجر أذيال الهزيمة، وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، مثل هذا الإنسان يريد أن ينسى، يريد أن ينسى هزيمته وانكساره، ويريد أن ينسى ألمه لموت الكثير من آله وأحبائه في حومة الوغى، وهنا تكون الخمر ملجأه الذي يهرب إليه، فيعب منها بإسراف ونهم.

٥- أما في حالة السلم، فإنهم يشربونها لما تبعثه من الأحاسيس السارة، والأوهام الحالمة - كما يظنون - مما يدل على ذلك قول المُنَخَّلِ اليَشْكُرِي[2]:

وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ المُدَا ... مَةِ بِالقَلِيْلِ وَبِالكَثِيْرِ
فَإِذَا انْتَشَيْتُ فَإِنَّنِي ... رَبُّ الخَوَرْنَقِ والسَّدِيْرِ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَإِنَّنِي ... رَبُّ الشُّوَيْهَةِ وَالبَعِيْرِ[3]

---

[1] ديوانه - ص٦٤. هبي: استيقظي من نومك، الصحن: القدح العظيم، أصبحينا: سقى الصبوح، أندرينا: قرية بالشام، مشعشعة: ممزوجة بالماء. الحص: الورس، سخينا: إما صفة وإما فعل، صفة للماء بالسخونة، وإذا كان فعلا فالمعنى: اذا سكرنا جدنا بأموالنا.

[2] المنخل اليشكري: هو المنخل بن مسعود بن عامر اليشكري، شاعر جاهلي قديم، كان ينادم النعمان بن المنذر، وهو الذي سعى بالنابغة الذبياني إلى النعمان، ففر النابغة إلى الغساسنة، وانتهى أمر المنخل بأن قتله النعمان، وقيل حبسه، وقيل دفنه حياً، وغمض خبره فضربت به العرب المثل في الغائب الذي لا يرجى إيابه، انظر: حاشية الأصمعيات - ٥٨، الزركلي - الأعلام - ٢٩١/٧.

[3] الأصمعيات - ٦٠، ٦١، الخورنق: قصر كان بظهر الحيرة، قيل أن من أمر ببنائه هو النعمان بن امريء القيس بناه له سنمار، انظر: ياقوت - معجم البلدان - ٤٠١/٢، السدير: قصر قريب من الخوزنق كان النعمان الأكبر قد اتخذه لبعض ملوك العجم انظر - ياقوت - معجم البلدان - ٢٠١/٣.

ويقول حَاجِبُ بن زُرَارَة التَّمِيْمِيُّ[1]:

شَرِبْتُ الخَمْرَ حَتَّى خِلْتُ أَنِّي ... أَبُو قَابُوسَ أَوْ عَبْدُ المَدَانِ
أُمَشِّي فِي بَنِي عُدُسِ بن زَيْدٍ ... رَخِيَّ البَالِ مُعْتَقَلَ اللِّسَانِ[2]

ويقول امرؤ القيس:

وَنَشْرَبُ حَتَّى نَحْسِبَ الخَيْلَ حَوْلَنَا ... نِقَاداً، وَحَتَّى نَحْسِبَ الجَوْنَ أَشْقَرَا[3]

وكذلك لما يرونه فيها من حث على الكرم والبذل، فكثيراً ما تذكر الخمر دلالة على كرم الشاعر، أو الممدوح، وأشار عمرو بن كلثوم إلى تأثيرها على البخيل عندما يشربها، فقال:

تَرَى اللَّحِزَ الشَّحِيْحَ إِذَا أُمِرَّتْ ... عَلَيْهِ لِمَا لَهُ فِيْهَا مُهِيْنَا[4]

ويقول طَرَفَة بن العبد عن تأثير الخمر على كرمهم:

فَإِذَا مَا شَرِبُوْهَا وَانْتَشَوا ... وَهَبُوا كُلَّ أَمُوْنٍ وَطِمِرْ[5]

وقال لَبِيْد بن ربيعة:

كِرَامٌ إِذَا نَابَ التِّجَارُ أَلِذَّةً ... مَخَارِيْقُ لَا يَرْجُوْنَ لِلْخَمْرِ وَاغِلَا[6]

---

(1) حَاجِبُ بن زُرارة بن عدس الدارمي التَّميمي، من سادات العرب في الجاهلية، أسر يوم شعب جبلة، انظر: الأصفهاني – الأغاني – /١٥٥، الزركلي – الأعلام – ١٥٣/٢.

(2) ابن الشجري – الأمالي – ١٧٤/١، عبدالمدان: عَمْرو بن يَزِيد من بَلْحَارِث بن كَعْب من بيوت العرب المعروفة بالسيادة، انظر: ابن الكلبي – نسب معد اليمن الكبير – ٢٧١/١ عدس بن زيد الشاعر، أبو قابوس: النعمان بن المنذر اللخمي.

(3) الديوان – ٤٩ – شرح: عمر فاروق الطباع، النقاد: صغار الغنم، الجون: الفرس الأسود.

(4) ديوانه – ٦٥، اللحز: البخيل، وذلك أنه إذا ذاقها حسن خلقه وأهان ماله، فبذله بسرف فيها.

(5) ديوانه – ٦٥، أمون: آمن من العثار والاعياء،لأنه وثيق الخلق "اللسان – أمن"
طِمِر: الجواد السريع الوثّاب "اللسان – طمر".

(6) ديوانه – ١٤٢، التجار: بائعو الخمر، مخاريق: مسرفون في الكرم،متوسعون فيه "اللسان – خرق".

وبعد أن عرضنا لما يمكن أن نطلق عليه "دوافع الإسراف في شرب الخمر" نحاول أن نلقي الضوء على الأبيات التي تدل على إسرافهم فيها، فمن ذلك قول الأعشى:

فَقَدْ أَشْرَبُ الرَّاحَ قَدْ تَعْلَمِيـ ـنَ يَوْمَ المُقَامِ وَيَوْمَ الظَّعَنْ
وَأَشْرَبُ بِالرِّيفِ حَتَّى يُقا لَ: قَدْ طَالَ بِالرِّيفِ مَا قَدْ دَجَنْ[1]

وقال عَنْتَرَة العَبْسِيّ:

أَلَا إِنَّهَا نِعْمَ الدَّوَاءُ لِشَارِبٍ أَلَا فَاسْقِنِيهَا قَبْلَ مَا أَنْتَ تَخْرُجُ
فَنُضْحِي سُكَارَى وَالمُدَامُ مُصَفَّقٌ يُدَارُ عَلَيْنَا، وَالطَّعَامُ المُطَهْجَ[2]

وقول عمرو بن كلثوم مصوراً لوم اللائمة على إسرافه في الخمر والملذات:

بَكَرَتْ تَعْذُلُنِي وَسْطَ الحَلَالِ سَفَهاً بِنْتُ ثُوَيرِ بنِ هِلَالِ
بَكَرَتْ تَعْذُلُنِي فِي أَنْ رَأَتْ إِبِلِي نَهْباً لِشَرْبٍ وَفِضَالِ
لَا تَلُومِينِي فَإِنِّي مُتْلِفٌ كُلَّ مَا تَحْوِي يَمِينِي وَشِمَالِي[3]

وقول طَرَفَة:

وَمَازَالَ تِشْرَابِي الخُمُورَ وَلَذَّتِي وَبَيْعِي وَإِنْفَاقِي طَرِيفِي وَمَتْلِدِي
إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي العَشِيرَةُ كُلُّهَا وَأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ البَعِيرِ المُعَبَّدِ[4]

---

[1] ديوانه – ٣٦٠، الراح: الخمر، يوم الظعن: الرحيل، دجن: حل في المكان. أي: كم شربت من الخمر أثناء أسفاري وترحالي، وأثناء إقامتي، وكم خرجت إلى الريف وأقمت به أحتسي الخمر، حتى يتحدث الناس عن ذلك.

[2] ديوانه – ٤٢، المطهج: المطبوخ، وهو ضرب من تملي اللحم « اللسان - طبهج »

[3] ديوانه – ٥٧، الشرب: المشاركون في الشراب، فضال: المتصفون بالفضل، يقول إنها تلومه لأنه أفنى إبله في استضافة رفاقه الذين يشاركونه احتساء الخمور.

[4] ديوانه – ٣١. تشرابي: تفعال، من الشرب، وهو يدل على الكثرة .

طريفي: ما كسبته، متلدي: ما ورثته عن آبائي.

تحامتني: تركتني، البعير المعبد: الأجرب، المهنو، الذي سقط وبره، فأفرد عن الإبل.

وكان الرجل يمتدح بإهلاك ماله في الخمر، وهو ما يسمونه:

(هَتَّاك غايات التِّجار)، قال عنترة[1]:

رَبِذٍ يَدَاهُ بِالقِدَاحِ إِذَا شَتَا ... هَتَّاكِ غَايَاتِ التِّجَارِ مُلَوَّمِ

فهو يهتك غايات الخمارين؛ لأنه لا يترك خمراً عندهم إلا اشتراه، ولذلك فهو يلام على إسرافه في ماله، وكان تاجر الخمر في الجاهلية يأتي ويرفع راية، ويظل يبيع من الخمر حتى ينفد، فيطوي رايته دلالة على نفاد الخمر، ومما يدل على ذلك الإسراف في الخمر قوله[2]:

فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنَّنِي مُسْتَهْلِكٌ ... مَالِي، وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكْلَمِ

---

[1] ديوانه – ١٧٧

ربذ يداه بالقداح: سريع اليدين خفيفها عند اللعب بالقداح، وهي سهام الميسر، وذلك أنه اذا كان زمن الشتاء، وكان لا ييسر عندهم إلا أهل الجود والكرم.

غايات التجار: علامات تكون للخمارين .

ملوم: يكثر لومه على إفساده ماله.

[2] ديوانه – ١٦٩، أي أهلك مالي إذا شربت، وعرضي مصان لا يثلم ولا يجرح.

ومما يدل على ما كانوا عليه من إسراف شديد في شرب الخمر أن الله – سبحانه وتعالى – حين حرمها لم يكن ذلك من أول مرة، بل جاء التحريم متدرجاً، لتمكنها منهم، وولعهم الشديد بها. ففي البداية نزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[1] هكذا جاءت المقارنة بين منافعهما المحدودة، وبين إثمهما الكبير وخطرهما العظيم في الدنيا والآخرة، وبعد ذلك نزل قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾[2]. وفي النهاية كان التحريم الصريح للخمر، قال – عز وجل﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ إلى قوله سبحانه:﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾[3].

ورغم هذا الإسراف الشديد في الخمر إلا أنه كان هناك من العقلاء من حرم على نفسه الخمر؛ لما كان يرى من إذهابها للعقل، أو لوقوعه في مواقف محرجة عندما تتمكن الخمر منه،ومن هؤلاء:قَيْس بن عَاصِم[4]، وعَامِر بن الظرب[5]، وعَفِيْف بن مَعْد يَكْرب[6]، وهم قلة على كل حال.

---

(1) سورة البقرة – ٢١٩.

(2) سورة النساء – ٤٣.

(3) سورة المائدة – ٩٠، ٩١. ترتيب نزول الآيات حسب ما ورد عند ابن كثير في تفسير القرآن العظيم – ٣٨٣/١.

(4) قيس بن عاصم بن سنان التميمي، كان قد حرم الخمر في الجاهلية، ثم وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم في وفد بني تميم فأسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا سيد أهل الوبر" وكان سيداً جواداً، قال له أبو بكر رضي الله عنه: ما حملك على أن وأدت؟ – وكان أول من وأد – فقال: "خشيت أن يخلف عليهن غير كفء". انظر: ابن حجر – الإصابة – ٢٤٢/٣.

(5) عامر بن الظرب العدواني. إمام مضر وحكمها وفارسها، ممن حرم الخمر في الجاهلية، وكانت العرب لا تعدل بفهمه فهما، ولا بحكمه حكما، وهذا أحد المعمرين في الجاهلية، وأول من قرعت له العصا، وكان يقال له: (ذو الحلم) انظر: الزركلي – الأعلام – ٢٥٢/٣.

(6) عفيف بن معد يكرب: عم الأشعث بن قيس وهم ملوك كندة. القالي – الأمالي – ٢٠٥/١.

قال قَيْسُ بن عَاصِم عن تركه للخمر:

لَعَمْرُكَ إِنَّ الخَمْرَ مَادُمْتُ شَارِباً ... لَسَالِبَةٌ مَالِي وَمُذْهِبَةٌ عَقْلِي
وَتَارِكَتِي مِنَ الضِّعَافِ قواهَم ... وَمُوْرِثَتِي حَرْب الصَّدِيْقِ بِلا تَبلِ[1]

وقال عامر بن الظرب:

سَآلَةٌ لِلْفتَى مَا لَيْسَ فِي يَدِهِ ... ذَهَّابَةٌ بِعُقُوْلِ القَوْمِ وَالمَالِ
أَقْسَمْتُ بِاللهِ أَسْقِيْهَا وَأَشْرَبُهَا ... حَتَّى يُفَرِّقَ تُرْبُ القَبْرِ أَوْصَالِي[2]

وقال عفيف بن معد يكرب:

فَلا وَاللهِ لا أُلْفَى وَشَرْباً ... أُنَازِعُهُمْ شَرَاباً مَا حَيِيتُ
أَبَى لِي ذَاكَ آبَاءٌ كِرَامٌ ... وَأَخْوَالٌ بِعِزِّهِمُ رَبِيْتُ[3]

وذَمَّ عبدالمَسِيْح بن عَسَلَة[4] الخمر، وإن لم يتركها:

وَالخَمْرُ لَيْسَتْ مِنْ أَخِيْكَ وَلَكِنْ ... قَدْ تَخُوْنُ بِآمِنِ الحِلْمِ
وَتُبَيِّنُ الرَّأْيَ السَّفِيْهِ إِذَا ... جَعَلَتْ رِيَاحُ شَمُوْلِهَا تَنْمِي[5]

ومن هؤلاء أيضاً: أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، رضي الله عنهما. ومن الملذات التي ارتبطت بالخمر: ما يتوفر لهم في مجالسها من الغناء والمجون ونحو ذلك. وقد صورت لنا أشعارهم شغفهم بمجالس الشراب، وتفننهم في وصفها، وحرصهم على التمتع بما فيها، قال الأعشى:

---

(1) القالي – الأمالي – ١/٢٠٤، تبل: عداوة.

(2) القالي – نفس المصدر والجزء والصفحة.

(3) القالي – نفس المصدر والجزء والصفحة.

(4) عبدالمَسِيْح بن عَسَلَة الشيباني، شاعر جاهلي، نسب إلى أمه (عسلة بنت عامر الغساني، واسم ابيه: حكيم بن عفر بن طارق، انظر: الزركلي – الأعلام – ٤/١٥٣.

(5) المفضليات – ٢٧٩ الشّمول: الخمر لأن لها عصفة كعصفة الشمال: (اللسان/ شمل).

وَعَـــلَالٍ، وَظِـــلَالٍ بَـــارِدٍ وَفَلِيْـجِ المِسْـــكِ وَالشَّاهِسْـــفَرَنْ
وَطِـــلَاءٍ خُسْـــرُوَانِيٍّ إِذَا ذَاقَـهُ الشَّـيْخُ تَغَنَّـى وَارْجَحَـنْ
وَطَنَابِـيْرَ حِسَـانٍ صَوْتُهَـا عِنْـدَ صَنْـجٍ كُلَّمَـا مُـسَّ أَرَنْ[1]

فالمجلس في الغرف العالية المظللة الباردة، التي يتضوع فيها شذا المسك، وتحيط بها الرياحين، مع ما فيها من غناء،وطرب،وشرب.

ودوماً يرتبط في شعرهم الشرب بالغناء:

قَـاصِدٌ وَجْهُهَـا تَزُوْرُبَـنِي الحَـا رِثِ أَهْلَ الغِنَـاءِ عِنْـدَ الشُّـرُوْبِ[2]

وفي تلك المجالس يقوم بخدمتهم ومؤانستهم الجواري، من الترك، ومن كابل:

وَلَقَـدْ شَـرِبْتُ الخَمْـرَ تَـرْ كُـضُ حَوْلَنَـا تُـرْكٌ وَكَـابُلْ
كَـدَمِ الذَّبِيْـحِ غَرِيْبَـةً مِمَّـا يُعَتَّـقُ أَهْـلُ بَـابِلْ[3]

ويصور بشر بن أبي خازم مجلسه، الذي بدأ بتناول الأسماك والأرغفة، ثم شرب من قهوة (بانيقاء)، أي الخمر:

فَقَـدْ تَرَانِـي بِبَانِقْيَاءٍ مُتَّكِئـاً يَسْعَى وَلِيْدَانِ بِالحِيْتَـانِ وَالرُّغُـفِ
وَقَهْـوَةٍ تَنْشُـقُ المَسْـتَامَ نَكْهَتُهَـا صَهْبَاءَ صَافِيَةٍ مِنْ خَمْـرِ ذِي نَطَـفِ[4]

هذه الملذات التي توفرت لهم؛ فأعتادوا عليها، ومـن ثـم شـغفوا بهـا، وأسـرفوا فيها، وكأنهم في سباق مع الموت، قبل أن يتخطفهم في معركة ما من المعارك الـتي تثـور

---

(1) ديوانه – ٣٥٦،٣٥٧ علال: غـرف مرتفعـة، فليـج المسـك: المسـك المفتـت، الشاهسـفرن: الريحـان، طـلاء خسرواني: الخمر المنسوبة إلى خسروشاه، ارجحن: تمايل طرباً، الطنابير: من آلات الطرب (فارسي معـرب)، صنج: من آلات الطرب ذات الأوتار.

(2) الأعشى، ديوانه – ٧١، والمراد: يممت ناقتي ناحية بني الحارث، أهل الغناء والطرب والخمر.

(3) المصدر نفسه – ٢٤٧، والمراد: كم شربنا الخمر في مجالس فيها الجواري من الترك ومـن كـابل، تلـك الخمـر الحمراء كدم الذبيح، نقلت من بلاد بعيدة، وعتقت في بابل.

(4) ديوانه – ١٥٩. بانيقاء: ناحية من نواحي الكوفة، ياقوت الحموي – معجم البلدان – ٣٣٢/١.

بين الحين والآخر؛ ولعدم تيقنهم من البعث والجزاء، لانصراف همهم إلى الاغتراف من متع الحياة، قبل أن يفجأهم الموت؛ فأسرفوا في طلب اللذة، وفي إنفاق المال عليها، وصار ذلك فلسفة حياة، وأسلوب معيشة، يقول مُجَمَّعُ بن هِلال بن الحَارِث[1]:

وَخَيْلٍ كَأَسْرَابِ القَطَا قَدْ وَزَعْتُهَا ... لَهَا سَبَلٌ فِيهِ المَنِيَّةُ تَلْمَعُ
شَهِدْتُ، وَغُنْمٍ قَدْ حَوَيْتُ، وَلَذَّةٍ ... أَتَيْتُ، وَمَاذَا العَيْشُ إِلاَّ التَّمَتُّعُ[2]

ويقول مُشَعَّثُ بن عَامِر[3] حاثاً نفسه على اغتنام اللذات قبل الموت:

تَمَتَّعْ يَا مُشَعَّثُ إِنَّ شَيْئاً ... سَبَقْتَ بِهِ الوَفَاةَ هُوَ المَتَاعُ[4]

ويرى عبيد بن عبدالعزى السلامي[5] أن العيش الحق يتمثل في ملذات ثلاث هي: الرحلة، والخمر، والمرأة، حيث يقول:

وَما العَيْشُ إِلاَّ فِي ثَلاثٍ هِي المُنَى ... فَمَنْ نَالَهَا مِنْ بَعْدُ لَا يَتَخَوَّفُ
صِحَابَةُ فِتْيَانٍ عَلَى نَاعِجِيَّةٍ ... مَنَاسِمُهَا بِالأَمْعَزِ المَحْلِ تَرْعُفُ
وَكَأْسٌ بِأَيْدِي السَّاقِيَيْنِ رَوِيَّةٌ ... يُمِدَّانِ رَاووقَيْهِمَا حِيْنَ تُنْزَفُ
وَرَبَّةُ خِدْرٍ يَنْفُحُ المِسْكَ جَيْبُهَا ... تَضَوَّعَ رَيَّاهَا بِهِ حِيْنَ تَصْدِفُ[6]

---

(1) مجمع بن هلال بن الحارث بن تيم الله بن ثعلبة من بكر بن وائل، شاعر فارس جاهلي، وهو من المعمرين، قال أبياته التي في المتن في غزوة غزاها، فقتل وأسر وغنم، انظر: المرزباني – معجم الشعراء – ٣٨٨، الزركلي – الأعلام – ٥/٢٨٠.

(2) أبو تمام – الحماسة – ١/٤٥٧، وزعتها: الوازع في الحرب المتقدم على الصفوف يرتبهم للقتال "اللسان – وزع" سبل: الرمح – "اللسان – سبل".

(3) مشعث بن عامر: ذكره المرزباني وقال عن اسمه: أحسبه لقبا، انظر: معجم الشعراء – ٣٩٦.

(4) الأصمعيات – ١٤٨، والبيت في اللسان، مادة (متع) .

(5) عبيد بن عبدالعزى السلامي، أحد بني سلامان بن مفرّج، وهو ابن عم الشنفرى، انظر: يحيى الجبوري – قصائد جاهلية نادرة – ١٢٠

(6) يحيى الجبوري – المرجع نفسه – ١٢٨.

ناعجية: ناقة بيضاء سريعة، الأمعز: المكان الصلب الكثير الحصى، راووق الخمر: باطية الخمر، يرى الشاعر أن متع الحياة تتلخص في ثلاث، فمن نالها فلا يخشَ شيئاً بعد ذلك، أولها صحبة الرفاق على الإبل البيضاء السريعة التي تطوي بهم الأرض، حتى لتنزف مناسمها من سرعة السير، وثانيها شرب كأس من الخمر مترعة، وما أن ينفذ راووقها حتى يضيفان المزيد، وثالثة تلك الفتاة ربة الخدر العطرة بشذا المسك.

وقال بِشْر بن أبي خَازِم:

وَعِشْتُ – وَقَدْ أَفْنَى طَرِيفِي وَتالِدِي– قَتِيلُ ثَلاثٍ بِيْنَهُنَّ أُصَرَّعُ[1]
فَإِنَّ سِقَاطَ الخَمْرِ كَانَتْ خَبالَهُ قَدِيماً، فَلُوْمُوا شَارِبَ الخَمْرِ أَوْ دَعُوا
وَحُبُّ القِدَاحِ لايَزَالُ مُنَادِياً إِلَيْهَا وَإِنْ كَانَتْ بِلَيْلٍ تُقَعْقِعُ
نِغَاءُ الحِسَانِ المُرْشِقَاتِ كَأَنَّها جَآذِرُ مِنْ بَيْنِ الخدورِ تَطَّلَّعُ[2]

ويقول طَرَفَة بن العَبْد ملخصاً حياته وملذاته:

وَلَوْلاَ ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ عِيْشَةِ الفَتَى وَجَدِّكَ لَمْ أَحْفَلْ مَتَى قَامَ عُوَّدِي
فَمِنْهُنَّ سَبْقُ العَاذِلاَتِ بِشَرْبَةٍ كُمَيْتٍ مَتَى مَا تُعْلَ بِالمَاءِ تُزْبِدِ
وَكَرِّي إِذَا نَادَى المُضَافُ، مُحَنَّباً كَسِيْدِ الغَضَا نَبَّهْتَهُ المُتَوَرِّدِ
وَتَقْصِيْرُ يَوْمِ الدَّجْنِ، والدَّجْنُ مُعْجِبٌ بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الخِبَاءِ المُعَمَّدِ[3]

---

[1] سبق التعريف به ـ ٧١

[2] ديوانه – ١١٩.

سقاط الخمر: الفتور الذي يصيب شارب الخمر، ويريد به شرب الخمر.

الخبال: الجنون والفساد، والمراد أنه يدمن شرب الخمر.

القداح: قداح الميسر.

تقعقع: اضطرب وتحرك وصوّت عند الحركة.

نغاء الحسان: محادثتهن وملاطفتهن.

المرشقات: الظباء التي تمد أعناقها وتنظر.

الجآذر: جمع جؤذر، وهو ولد البقرة الوحشية.

المراد: ما أفنى مال الشاعر ثلاث ملذات ملكت عليه نفسه وحياته، أولها الخمر وما تبث فيه من فتور، وثانيها لعب القداح، وثالثها مناغاة الحسان اللاتي يبدين من بين الخدور كالبقر الوحشي.

[3] ديوانه –٣٣، المراد: لو لا حبي لثلاث خصال هن من لذة الفتى الكريم لم أبال متى قام عودي آيسين من حياتي، أولها سبق العواذل بشرب الخمر كميت اللون، والثانية: عطفي إذا جاء إلي الخائف فرساً في يده الخناء، يسرع في عدوه إسراع ذئب يسكن بين الغضا إذا نبهته وهو يريد الماء، وهذه صفات تدل على شدة العدو، والثالثة: استمتاعه بأحبائه في الأيام الغائمة الجميلة".

ومن ملذات الانسان في هذه الحياة: (الطعام، والشراب، واللباس)، وقد أوصى الله عباده بعدم الإسراف فيها، وحين ننظر إلى عرب الجاهلية، نجد أن بيئتهم الشحيحة الموارد قد عودتهم الجوع والتكيف معه، فطعامهم محدود قليل التنوع، عماده الألبان والحبوب، من بُرّ، وذرة، وشعير. وبعض الفواكه، والرطب، والعسل، وما سوى ذلك من لحوم الصيد والماشية، ومن جهة ثانية فإن نزول المجاعات بهم، ورحلاتهم الطويلة في الصحراء التي قد تمتد حتى ينفد ما عندهم أو يكاد، كل ذلك وطّن نفوسهم على الجوع والصبر عليه، وعدم الخضوع لشهوات البطن التي لا تنتهي، وصار الرجل منهم يمدح بقلة الأكل وخفة اللحم على جسده، قال دُرَيْدُ بن الصِّمَّة[1]:

تَرَاهُ خَمِيْصَ البَطْنِ، والزَّادُ حَاضِرٌ ... كَثِيْرٌ، وَيَغْدُو فِي القَمِيْصِ المُقَدَّدِ
وَإِنْ مَسَّهُ الإِقْوَاءُ وَالجَهْدُ زَادَهُ ... سَمَاحاً وَإِتْلَافاً لِمَا كَانَ فِي اليَدِ[2]

ويقول حَاتِم[3]:

أَبِيْتُ خَمِيْصَ البَطْنِ مُضْطَمِرَ الحَشَا ... حَيَاءً، أَخَافُ الذَّمَ أَنْ أَتَضَلَّعَا
وَإِنَّكَ مَهْمَا تُعْطِ بَطْنَكَ سُؤْلَهُ ... وَفَرْجَكَ نَالاَ مُنْتَهَى الذَّمِّ أَجْمَعَا[4]

---

(1) دُرَيْدُ بن الصِّمَّة: هو دُرَيْدُ بن معاوية بن الحارث الجُشَمِيّ، من هَوَازن، فارس شجاع، وشاعر فحل "من المعمرين في الجاهلية، غزا نحو مائة غزوة ما أخفق في واحدة منها، وأدرك الإسلام ولم يسلم، وخرج مع قومه يوم حنين مظاهراً للمشركين، قد استصحبوه تيمناً به، فقتل يومئذ على شركه، والأبيات أعلاه قالها دريد في رثاء أخيه (عبدا لله) الذي قتلته غطفان. انظر: الأصفهاني – الأغاني – ١٠/٥.

(2) أبو تمام – الحماسة – ١١٥٩/٢، والشاعر يرثي أخاه عبدا لله، ويعدد ما كان يتحلى به من الشمائل، ومنها: عدم الحرص على الأكل، وعدم الشره، بل تراه يؤثر غيره بالطعام، وقميصه مقدد لكثرة غزوه، ولا يزيده الجوع والجهد إلا كرماً وبذلا.

(3) سبق التعريف به ـ ٧٥

(4) ديوانه – ١٧٤.

خميص البطن: ضامر البطن، مضطمر: افتعل من الضمر وهو الهزل ولحاق البطن، تضلع: انتفخ جنبه، وتمددت أضلاعه.

وقال أَعْشَى بَاهِلَة[1] ملخصاً الصورة المثلى للعربي في الجاهلية، فهو ذلك الرجل الخفيف اللحم، الهضيم الكشح، المتوثب دوماً للغزو، حيث قال:

لَا يَتَأَرَّى لِمَا فِي القِدْرِ يَرْقُبُهُ ... وَلَا يَزَالُ أَمَامَ القَوْمِ يَقْتَفِرُ
طَاوِي المَصِيْرِ، عَلَى العَزَّاءِ مُنْصَلِتٌ ... بِالقَوْمِ لَيْلَةَ لَامَاءٌ وَلَا شَجَرُ
مُهَفْهَفٌ أَهْضَمُ الكشْحَيْنِ، مُنْخَرِقٌ ... عَنْهُ القَمِيْصُ، لِسَيْرِ اللَّيْلِ مُحْتَقِرُ
لَا يَأْمَنُ النَّاسُ مَمْسَاهُ وَمُصْبَحَهُ ... مِنْ كُلِّ فَجٍّ إِذَا لَمْ يَغْزُ يُنْتَظَرُ
تَكْفِيْهِ حُزَّةُ فِلْذٍ إِنْ أَلَمَّ بِهَا ... مِنَ الشِّوَاءِ، وَيُرْوِي شُرْبَهُ الغُمَرُ[2]

فالمجتمع الجاهلي – بصورة عامة – لم يكن مسرفاً فيما يتعلق بالطعام و الشراب واللباس؛ بتأثير من بيئتهم التي تتصف بالجدب،والشح،وقلة الموارد، ونستثني من هذا الحكم العام بيئات محددة، يمكن أن نسميها:(البيئات المترفة)، وهي البيئات التي كان أهلها يتمتعون بألذ المآكل والمشارب، ويرفلون في أبهى الحلل وأرقها، وتصوير شعراء الجاهلية لما في تلك البيئات، وهي البيئات التالية:

---

[1] أعشى باهلة: هو عامر بن الحارث بن رياح، من همدان، جعله ابن سلام في طبقة أصحاب المراثي؛ لرثائه للمنتشر بن وهب بن عجلان الباهلي، الذي قتلته الحارث بن كعب، وكان المنتشر أخا الشاعر لأمه، وأعشى باهلة شاعر جاهلي من همدان، والأبيات أعلاه من رثائه لأخيه المنتشر، انظر:

ابن سلام – طبقات فحول الشعراء – ٧٨،٨٢

الزركلي – الأعلام – ٣/٢٥٠.

[2] الأصمعيات – ٩٠،٩١ لا يتأرى: لا يتحبس، يقتفر: يتبع الأثر.

المصير: واحد المصران، وهي الأمعاء، العزاء: الشدة والجهد.

منصلت: ماض في حوائجه، مهفهف: خميص البطن.

أهضم الكشحين: ضامر ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف.

الحزة: ما قطع من اللحم طولاً، فلذ: كبد البعير، الغمر: أصغر الأقداح.

فالشاعر يرثي أخاه، ويذكر خصاله الكريمة، وزهادته للطعام والشراب، فهو لا يظل بجوار القدر يرقب ما فيه، بل تراه يقدم قومه، ويتعرف لهم الأثر، كما مدحه بالإدلاج وإدمان الغزو، وخفة اللحم، وضمور البطن، فتراه يكتفي بحزة من كبد البعير، ويروي ظمأه بالقليل من الماء.

المناذرة[1]، الغساسنة[2]، بنو الحارث بن كعب في نجران[3]، جلنداء في عمان[4]، قيس بن معد يكرب[5] في حضرموت، سيف بن ذي يزن[6] في اليمن، هوذة ابن علي في اليمامة[7]، بعض أثرياء مكة والطائف.

ويصف الشعراء الذين وفدوا عليهم ما كان هؤلاء يتقلبون فيه من نعيم وترف. وعطاياهم للشعراء تدل على ما هم عليه من غنى وجاه، والأعشى من أبرز الشعراء الذين جالوا في هذه البيئات المترفة، وصوّر ما فيها، حيث قال[8]:

---

(1) المناذرة: أمراء إمارة المناذرة، التي نشأت في كنف الدولة الساسانية، وعاصمتهم الحيرة، وهم من قبيلة (لَخْم) اليمنية، من ملوكهم اللامعين (المنذر بن ماء السماء) و(عمرو ابن هند)، و (النعمان بن المنذر) انظر: جواد علي. تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء ١٥٥/٣.

(2) الغساسنة: أمراء إمارة الغساسنة، التي قربها الرومان وحالفوها، أقاموا إمارتهم شرقي الأردن، وهم من قبيلة الأَزْد اليمنية. مؤسس دولتهم هو (جفنة بن عمرو مزيقياء، لذلك يقال لهم: آل جفَنة "انظر، جواد علي – المرجع نفسه – ٣٨٧/٣".

(3) بنو الحارث بن كعب المذحجيون من كَهْلان اليمنية، منهم بنو عبد المدان، ملوك نجران في الجاهلية، وقد وفد منهم وفد على الرسول وأسلموا، انظر: السيرة النبوية – ٩٣/٤، الزركلي – الأعلام – ١٥٧/٢.

(4) جُلنداء: أمراء عمان من أزد عمان، بعث إليهم الرسول من يدعوهم إلى الاسلام، فأسلم عبيد وجيفر ابنا الجلندى في سنة ٦هـ. انظر: البلاذري، أحمد بن يحيى ت آخر ق٢هـ – فتوح البلدان – ص٨٨ مطبعة السعادة: ط١٩٥٩م.

(5) قيس بن معديكرب من أمراء كندة الذين حكموا حضرموت في الجاهلية، وهو والد الأشعث بن قيس الذي وفد على الرسول وأسلم "السيرة النبوية – ابن هشام – ٥٨٥/٤".

(6) سيف بن ذي يزن الحميري، استعاد ملك اليمن من أيدي الأحباش بمساعدة الفرس، اتخذ قصر (غُمدان) له، وقدمت وفود العرب لتهنئته: الأعلام ١٤٩/٣.

(7) هوذة بين علي الحنفي، من بكر بن وائل، صاحب اليمامة، وتبرز مكانته بوضوح من خلال أحداث يوم الصفقة، وما حباه به كسرى من تكريم، حيث دعا بعقد من در، فعقد على رأسه، وصار يسمى: (ذو التاج) = الزركلي – الأعلام – ١٠٢/٨ ، أبو عبيدة – أيام العرب – ٦٩/٢.

(8) ديوانه – ٢١٤، آل جفنة: ملوك الشام من الغساسنة في الجاهلية.

الرفيف: البحبوحة والخصب، بنو المنذر: ملوك الحيرةمن المناذرة في الجاهلية، الأشهب: الأبيض.

جلنداء: صاحب عمان من الأزد، المنيف: الشامخ، الموكر: المملوء، مجدوف: مقطوع.

صدوح: جارية مغنية، مزهر مندوف: عود تضرب على أوتاره. =

وَصَحِبْنَا مِنْ آلِ جَفْنَةَ أَمْلا ... كاً كِراماً بِالشَّامِ ذاتِ الرَّفِيفِ
وَبَنِي المُنْذِرِ الأَشَاهِبِ بِالحِيْـ ... ـرَةِ يَمْشُونَ غُدْوَةً كَالسُّيُوفِ
وَجُلَنْدَاءَ فِي عُمَانَ مُقِيماً ... ثُمَّ قَيْساً فِي حَضْرَمَوْتَ المُنِيفِ
قَاعِداً حَوْلَهُ النَّدَامَى فَمَا يَنْـ ... ـفَكُّ يُؤْتَى بِمُوكَرٍ مَجْدُوفِ
وَصَدُوحٍ إِذَا يُهَيِّجُهَا الشَّرْ ... بُ تَرَقَّتْ فِي مِزْهَرٍ مَنْدُوفِ

وقال كذلك واصفاً ما يعيش فيه هوذة بن علي في اليمامة من ترف ونعيم[1]:

مَنْ يَلْقَ هَوْذَةَ يَسْجُدْ غَيْرَ مُتَّئِبٍ ... إِذَا تَعَصَّبَ فَوْقَ التَّاجِ أَوْ وَضَعَا
لَهُ أَكَالِيلُ بِالياقُوتِ زَيَّنَهَا ... صُوَّاغُهَا، لَا تَرَى عَيْباً وَلَا طَبَعَا
وَكُلُّ زَوْجٍ مِنَ الدِّيبَاجِ يَلْبَسُهُ ... أَبُو قُدَامَةَ مَحْبُوّاً بِذَاكَ مَعَا

ويذكر الإخباريون أن النعمان بن المنذر كان يركب كل أحد إلى دِيْر اللِّج[2] ومعه أهل بيته خاصة من آل المنذر، عليم حلل الديباج المذهّبة، وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب، وفي أوساطهم الزنانير المفصصة بالجوهر، وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان، وإذا قضوا صلاتهم انصرفوا إلى مستشرفة النجف، فشرب النعمان وأصحابه فيه بقية يومهم، وخلع، ووهب، وحمل، ووصل، وكان ذلك في أحسن منظر

= يقول: كم صحبنا ملوكاً كراماً من آل جفنة في الشام، بلاد الخصب والرفاهية، وصحبت بني المنذر البيض الوجوه في الحيرة، الذين يشبهون السيوف رونقاً ومضاء، ورافقت جلنداء في عمان، وقيساً في حضرموت، صاحب القصور المرتفعة البنيان، وكم رأيت قيساً جالساً يحيط به الندماء، وتدور عليهم كؤوس الخمر المترعة المشعشعة ذات الرائحة الطيبة، في مجلس تصدح فيه مغنية، يصفو صوتها متدرجاً في الصعود، حين تضرب على أوتار العود.

[1] ديوانه – ٢٠٤، متئب: خجول، طبع: الدنس، أبو قدامة: كنية هوذة بن علي، المراد: للممدوح طلعة مهيبة، فمن يلقه لا يستح أن يسجد أمامه صاغراً أمام روعته، وهو مكلل بالتاج، ذلك التاج المزين بأكاليل الياقوت، فلا ترى فيها عيباً ولا دنساً، وقد لبس كذلك ألبسة الحرير التي حباه كسرى بها.

[2] دير اللِّج: دير بالحيرة، بناه أبو قابوس، النعمان بن المنذر أيام ملكه، انظر: البكري – معجم ما استعجم – ٥٩٥/١.

وأجمله"[1]. وكان العرب يضربون الأمثال بما بنى المناذرة من قصور فاخرة. مثل: الخورنق، والسدير[2]، ودار ذكرها كثيراً في شعرهم، وكذلك كان شأن الغساسنة وما هم فيه من حياة الرفاه والنعيم، قال النَّابغة الذبياني يصف الغساسنة:

رقاق النِّعال طيب حجزاتهم ... يُحَيَّوْنَ بِالرَّيْحَانِ يَوْمَ السباسبِ
تحييهم بيضُ الولائدِ بينهم ... وأكسية الإضريج فوق المشاجبِ
يصونون أَجْسَاداً قديماً نعيمها ... بخالصةِ الأردانِ خضرِ المناكبِ[3]

وقال عنهم حَسَّان بن ثابت:

يَمْشُونَ فِي الحُلَلِ المُضَاعَفِ نَسْجهَا ... مَشْيَ الجِمَالِ إِلى الجمالِ البُزَّلِ[4]

وكذلك كانت بيئة نجران المترفة. قال الأَعْشَى:

وَاضِعَاً فِي سَرَاةِ نَجْرَانَ رَحْلِي ... نَاعِمَاً غَيْرَ أَنَّنِي مُشْتَاقُ
دَرْمَكٌ لَنَا غُدْوَةً وَنَشِيلٌ ... وَصَبُوحٌ مَبَاكِرٌ وَاغْتِبَاقُ[5]

فمن يكون إفطاره بالغداة اللحم ولباب البر فهو مترف – ولاشك – بالقياس إلى ذلك العصر – وقد ذكرهم أيضاً بقوله:

---

(1) عبدا لله بن عبدالعزيز البكري (ت ٤٨٧هـ) – معجم ما استعجم – ٥٩٦/١، تحقيق: مصطفى السقاء عالم الكتب، بيروت، دط. دت.

(2) سبق التعريف بهما ـ ٣٨، ٩٨

(3) ديوانه – ٤٩، الإضريح، الخز الأحمر، وهو لباس الملوك.
الأردان: كم القميص خالص البياض، خضر المناكب: مواضع المناكب خضراء.

(4) ديوانه – ٥٨.

(5) ديوانه – ٢٢٨، دَرْمك: دقيق أبيض من لباب القمح.
نشيل: لحم منشول من القدر مطبوخ بغير توابل.
صبوح: شرب الخمر صباحاً، اغتباق: شرب الخمر مساء.

قَاصِـدٌ وَجْهَهَـا تَـزُوْرُ بَنِي الحَـا رِثِ أَهْلَ الغِنَاءِ عِنْدَ الشُّـرُوْبِ[1]

وقد بنى سادة نجران، وهم آل عبدالمدان بن الدَّيَّان سادة بني الحَارِث بن كَعْب، كعبة، جعلوها مربعة مستوية الأضلاع والأقطار، مرتفعة عن الأرض يصعد إليها بدرجة، فكانوا يحجون إليها وطوائف من العرب ممن يحل الأشهر الحرم ولا يحجون الكعبة، وعموماً فقد كان المناذرة بالحيرة، والغساسنة بالشام، وبنو الحارث بن كعب بنجران ممن يهتمون ببناء البيع وزخرفتها، فكانوا يبنونها في المواضع الكثيرة الشجر، والرياض، والمياه، ويجعلون في حيطانها وسقوفها الفسافس والذهب[2]، وقد ذكر الأعشى كعبتهم هذه، وذكر ما لديهم من المتع والملذات:

وَكَعْبَـةُ نَجْـرَانَ حَتْـمٌ عَلَيْـ ـكِ حَتَّـى تُنَـاخِي بِأَبْوَابِهَـا
نَـزُوْرُ يَزِيْـدَ وَعَبْـدَ المَسِـيْحِ وَقَيْسَـاً هُـمُ خَـيْرُ أَرْبَابِهَـا
إِذَا الحَـبَرَاتُ تَلَـوَّتْ بِهِـمْ وَجَـرُّوا أَسَـافِلَ هُدَّابِهَـا
لَهُمْ مَشْرَبَـاتٌ لَهَـا بَهْجَـةٌ تَـرُوْقُ العُيُـونَ بِتَعْجَابِهَـا[3]

ويلاحظ تأثر هذه البيئات ببعضها، وتنافسها في إبراز تفوقها على ما سواها، من ذلك ما قاله أُمَيّة بن أَبِي الصَّلْت[4] حيث قال: أتيت نجران فدخلت على عبدالمدان بن

---

(1) ديوانه ص٧١.

(2) البكري – معجم ما استعجم – ٦٠٣/١.

(3) ديوانه – ٧٠

الحبرات: ضرب من برود اليمن، هداب: أطراف الثياب.

مشربات: الغرفات في الأراضي اللينة، الدائمة النبات، أي: لهم غرفات جميلة، تشرح الصدر، وتروق العين ببهجتها، وإتقان صنعتها.

(4) سبق التعريف به ـ ٧٣

الديان[1]، فإذا به على سريره، وكأن وجهه قمر، وبنوه حوله كأنهم الكواكب، فدعا بالطعام، فأتي بالفالوذج، فأكلت طعاماً عجيبا، فقلت:

وَلَقَدْ رَأَيْتُ القَائِلِيْنَ وَفِعْلَهُمْ ... فَرَأَيْتُ أَكْرَمَهُمْ بَنِي الدَّيَّانِ
وَرَأَيْتُ مِنْ عَبْدِالمَدَانِ خَلَائِقاً ... فَضَلَ الأَنَامَ بِهِنَّ عَبْدُ مَدَانِ
البُرُّ يُلْبَكُ بِالشِّهَادِ طَعَامُهُ ... لَا مَا يُعَلِّلُنَا بَنُو جُدْعَانِ

فبلغ ذلك عبدا لله بن جدعان[2]، فوجه إلى اليمن من جاءه بمن يعمل الفالوذج بالعسل، فكان أول من أدخله مكه، فقال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت يمدحه:

لَهُ دَاعٍ بِمَكَّةَ مُشْمَعِلٌّ ... وَآخَرُ فَوْقَ دَارَتِهِ يُنَادِي
إِلَى رُدُحٍ مِنَ الشِّيْزَى عَلَيْهَا ... لُبَابُ البُرِّ يُلْبَكُ بِالشِّهَادِ[3]

ومن مترفي اليمن أيضاً: مَسْرُوق بن وَائِل[4]، قال عنه الأَعْشَى:

الوَاهِبُ القَيْنَاتِ كَالْـ ... ـغِزْلَانِ فِي عَقِدِ الخَمَايِلْ
يَرْكُضْنَ كُلَّ عَشِيَّةٍ ... عَصْبَ المُرَيَّشِ وَالمَرَاجِلْ[5]

---

[1] عَبْدُالمَدَان بن الدَّيَّان، هو عمرو بن يزيد من بَلْحَارِث بن كَعْب، من مَذْحِج، جاهلي، من أشراف اليمن، من أهل نجران، وفد ابنه يزيد على الرسول الكريم في وفد بني الحارث سنة ١٠هـ. انظر: الزركلي – الأعلام – ١٥٣/٤.

[2] عبدا لله بن جدعان التيمي القرشي أحد الأجواد المشهورين في الجاهلية، أدرك الرسول صلى ا لله عليه وسلم قبل النبوة، كان يسمى بحاسي الذهب؛ لأنه كان يشرب في إناء من الذهب، وقالوا في المثل: "أقرى من حاسي الذهب"، انظر: الألوسي – نهاية الأرب في معرفة أحوال العرب – ٨٧/١، الزركلي – الأعلام – ٧٦/٤.

[3] القالي – الأمالي – /٣٨، مشمعل: مشمعل عال، ردح: جفنة عظيمة، الشيزى: خشب أسود تعمل منه الجفان.

[4] مسروق بن وائل: أحد أمراء اليمن وأشرافهم "الأعشى – الديوان – ٢٤٤".

[5] ديوانه – ٢٤٥، الخمائل: جمع خميل، وهي الثياب المخملة ذات الوبر، وتطلق على القطيفة.
يركضن: يدفعن ويحركن، عصب المريش: نوع من الثياب مزين على أشكال الريش وصور الرجال.

فهو يمدح ذلك الشريف الـذي يهـب القيـان الجميـلات، اللاتـي يختلـن كـل مسـاء في ثيابهن المزينة بالريش وصور الرجال، فهذه هباته فكيف بما لديـه!! ومنهـم: سَيْف بـن ذِي يَزَن[1] في قصر غُمْدان، مدحه أُمَيّة بن أَبِي الصَّلْت بقوله:

فَاشْرَبْ هَنِيْئاً عَلَيْكَ التَّـاجُ مُرْتَفِقَـاً ... فِي رَأْسِ غُمْدَانَ دَاراً مِنْـكَ مِحْـلَالَا
ثُـمَّ اطَّـلِ المِسْكَ إِذْ شَـالَتْ نَعَـامَتُهُمْ ... وَأَسْـبِلِ اليَـوْمَ فِي بُرْدَيْـكَ إِسْـبَالَا
هَـــذِي المَـــكَارِمُ لَا قَعْبَـانِ مِنْ لَبَنٍ ... شِيْبَـا بِمَـاءٍ فَعَـادَا بَعْدُ أَبْوَالَا[2]

إضافة إلى هذه البيئـات كـان هنـاك مـن عـرب الجزيـرة مـن يمكـن أن يوصـف بـالغنى والترف، فنجـد أهـل بيتـه ونسـاءه يتحلـين بـالذهب واللؤلـؤ، ويلبسـن أرق الأقمشـة وأنعمها، ويتطيبن بأثمن العطور وأندرها، وهذا ما نجـده في وصـف الشـعراء الحبيبـات المترفات. قال عَلْقَمَةُ بن عَبَدَة[3] يصف زينة الحبيبة:

مُبَتَّلَـــةٌ، كَـــأَنَّ أَنْضَـــاءَ حليهـــا ... عَلَـى شَـادِنٍ مِـنْ صَاحَـةٍ مـترب
مَحَـالٌ كَأَجْـوَازِ الجَـرَادِ، وَلُؤْلُـــؤٌ ... مِـنَ القلقـيِّ، وَالكَبِيْسِ المَلُّوبِ[4]

---

(1) سبق التعريف –٧٣

(2) ابن الشجري – الأمالي – ١/٢٦٠، غُمْدان: قصر باليمن اختلف فيمن بناه، وقد هـدم في عهـد عثمـان بـن عثمان – رضي الله عنه – ويقال إن موقعه بين صنعاء وطيوة، انظـر: ياقوت الحموي – معجـم البلـدان – ٤/٢١٠ شالت نعامتهم: ذهب عِزّهم "اللسان – شول"، اطل المسك: تدهن بالمسك.

القعبان: القعب هو قدح من خشب مقعر،قد يروي الاثنين والثلاثة. انظر: (اللسان – قعب).

(3) سبق التعريف به– ٧٨

(4) ديوانه – ٨٠.

مبتلة: الحسنة الخلق، تفرد كل شيء منها بالحسن على حدته، فهي تامة الخلق، "اللسان – بتل".

المحال: الشذر من الذهب يصاغ مفقراً على تفقير وسط الجراد. صاحة : اسم جبل.

القلقي: اللؤلؤ المدحرج.

الكبيس: حلي يصاغ مجوفاً،ثم يحشى بطيب،ثم يكبس،أي يغطى.

الملوب: كل عطر مائع "والملاّب من أسماء الزعفران، انظر: "ابن الأجدابي – كفاية المحتفظ في اللغـة، تحقيـق: السائح على حسين – ص٢٣٣.

فهو يصف تلك الفتاة المترفة التي تتزين بحلية ذهبية قد صيغت على شكل فقرات، مثل فقرات وسط الجراد، وهي حلية مطعمة باللؤلؤ المستدير، ومعها حلى مجوفة محشوة بأجود أنواع الطيب.

ويقول طَرَفة بن العَبْد:

وَفِي الحَيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ المَرْدَ شَادِنٌ ... مُظَاهِرُ سِمْطَيْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدِ[1]

يصف تلك الفتاة المرفة التي تلبس عقدين من اللؤلؤ والزبرجد، وفي لباسهن يظهر أثر الترف أيضاً:

خَاشِعَاتٍ يُظْهِرْنَ أَكْسِيَةَ الخَـ ... ـزِّ، وَيُبْطِنَّ دُونَهَا بِشُفُوفِ[2]

وقول الأعشى:

تَرَى الخَزَّ تَلْبَسُهُ ظَاهِراً ... وَتُبْطِنُ مِنْ دُونِ ذَاكَ الحَرِيرَا
إِذَا قَلَّدَتْ مِعْصَماً يَارِقَيْـ ... ـنِ، فُصِّلَ بِالدُّرِّ فَصْلاً نَضِيرا
وَجَلَّ زَبَرْجَدَةٌ فَوْقَهُ ... وَيَاقُوتَةٌ خِلْتَ شَيْئاً نَكِيرَا[3]

فثيابها الخارجية نسجت من الحرير والصوف، أما قميصها الداخلي فهو من الحرير الناعم، وهي مترفة غنية تزين معصمها بسوار ذهبي عريض، مفصل باللؤلؤ بفن ومهارة، وفوقه الزبرجد والياقوت، وشذاطيبها يفوح من حولها:

إِذَا تَقُومُ يَضُوعُ المِسْكُ أَصْوِرَةً ... وَالزَّنْبَقُ الوَرْدُ مِنْ أَرْدَانِهَا شَمِلُ[4]

---

(1) ديوانه – ﴿ ينفض المرد: يعطو ليتناول ثمر الأراك، وثمر الأراك واحدته مردة. مظاهر سمطي: لبس واحداً فوق آخر، والسمط النظم من اللؤلؤ.

(2) الأعشى – ديوانه – ٢١٢، خاشعات: ساكنات، يلبسن الحرير، ومن دونه الثياب الشفافة.

(3) ديوان الأعشى ص١٦٠، اليارقين: السوار العريض، زبرجد والياقوت: أحجار كريمة، الخز: ما نسج من الحرير والصوف، وقد نهي عنه في الاسلام لأنه زي المترفين. اللسان – خزز.

(4) الأعشى – المصدر نفسه – ٢٨٠، والصُّوار وعاء المسك، والجمع أصورة، انظر: ابن الأجدابي – كفاية المتحفظ في اللغة – ٢٣٣، واللسان، مادة (صور).

ولو ذهبنا نتتبع أمثال ذلك لطال بنا الحديث، ولكن نكتفي بالشواهد السابقة.

وقد يرى بعضهم أن ما سبقت الإشارة إليه باعتباره من مظاهر الترف والإسراف ليس من ذلك، ولكننا نقول لهؤلاء: نحن نقيس مقدار ترفهم وإسرافهم بالنسبة إلى عصرهم لا إلى عصرنا، فمثل تلك المظاهر،التي سبقت الإشارة إليها،تعد – في زمانهم – دلالة الترف والمترفين المسرفين، وبناء على ذلك أُلحقت بالبحث، ومن المعروف أن انحراف الإنسان إلى الإسراف في الطعام والشراب والزينة من أسرع الأمور وأعمها؛ لأنها في الأصل من الطيبات، ولكن الخطأ يحدث عند الاستغراق فيها، وجعلها غاية لا وسيلة، وهذا ما وقع فيه المسلمون بعد أن فتح الله لهم الدنيا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حذر أمته من ذلك؛ لما يترتب على الترف من الليونة،والميوعة،وعبادة الشهوات،والتثاقل إلى الأرض. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

(٣) – الإسراف في القيم المتعلقة بعلاقة الإنسان بالآخرين:

أولاً – الحرب:

أ- الثأر .

ب – التمثيل .

جـ – الأسرى والسبايا .

ثانياً: الطبقية في المجتمع الجاهلي .

أولاً: الحرب:

لقد كان عرب الجاهلية يحيون حياة حربية دائمة، الغلبة فيها للأقوى، والحرب تنجلي عن قتلى وأسرى، وعن منتصر ومنهزم، والقتيل لابد من الأخذ بثأره، والأسير لابد من فك أسره، والمنتصر تسكره نشوة النصر، والمنهزم يظل يتلظى بنار الانكسار حتى ينال ممن هزمه، ويظلون يدورون في هذه الحلقة، ويسرفون على أنفسهم، في الحرب وفي الثأر، في النصر وفي الهزيمة، وما أبلغ وصف دُرَيْد بن الصِّمَّة[1] لهذه الحياة حين قال:

يُغَارُ عَلَيْنَا وَاتِرِيْنَ فَيُشْتَفَى ... بِنَا إِنْ أُصِبْنَا،أَوْ نُغِيْرُ عَلَى وِتْرِ
قَسَمْنَا بِذَاكَ الدَّهْرَ شَطْرَيْنِ بَيْنَنَا ... فَمَا يَنْقَضِي إِلاَّ وَنَحْنُ عَلَى شَطْرِ[2]

وحروبهم تشتعل في شتى بقاع الجزيرة، فتارة في نجد، وتارة في الحجاز، وثالثة في اليمامة، ورابعة في اليمن، قال عُرْوَةُ بن الورد[3]:

---

[1] سبق التعريف به- ١٠٧

[2] أبو تمام – الحماسة – ٥٠١/١.

[3] سبق التعريف به - ٧٦

فَيَوْماً عَلَى نَجْدٍ وَغَارَاتِ أَهْلِهَا وَيَوْماً بِأَرْضِ ذَاتِ شَثٍّ وَعَرْعَرِ[1]

وهم يصبّرون بعضهم على هذا النوع من الحياة المريرة، قال المهلهل:

لَا تَمَلَّ القِتَالَ يَا بْنَ عُبَادٍ صَبِّرِ النَّفْسَ، إِنَّنِي غَيْرُ سَالِ[2]

ويستخدمون في حروبهم كل ما يمكن أن تتناوله أيديهم من أسلحة، ويقاتلون بها حتى تكل السيوف فلا يكلون، قال عَبْدُالشَّارِقِ الجُهَنِيِّ[3]:

فَلَمَّا لَمْ نَدَعْ قَوْساً وَسَهْماً مَشَيْنَا نَحْوَهُمْ وَمَشَوْا إِلَيْنَا
فَآبُوا بِالرِّمَاحِ مُكَسَّرَاتٍ وَأُبْنَا بِالسُّيُوفِ قِدَا نُحَنَّا
فَبَاتُوا بِالصَّعِيدِ لَهُمْ أُحَاحٌ وَلَوْ خَفَّتْ لَنَا الكَلْمَى سَرَيْنَا[4]

ولشدة استغراقهم في هذه الحياة الحربية ظهر أثر ذلك على أجسادهم وهيئاتهم، فهذا أَبو قَيْس بن الأَسْلَت[5] يعبّر بمرارة عما فعلت الخوذة برأسه، فقد حصّتْ شعر رأسه؛ لطول ما يلبسها في حروبه وغاراته، يقول:

قَدْ حَصَّتِ البَيْضَةُ رَأْسِي فَمَا أَطْعَمُ غُمْضاً غَيْرَ تِهْجَاعِ[6]

وهذا عمرو بن معدي كرب الزبيدي يشكو تقرح عاتقه من حمل النجاد، فيقول:

أَعَاذِلَ إِنَّمَا أَفْنَى شَبَابِي إِجَابَتِيَ الصَّرِيخَ إِلى المُنَادِي
مَعَ الأَبْطَالِ حَتَّى سُلَّ جِسْمِي وَأَقْرَحَ عَاتِقِي حَمْلُ النِّجَادِ[7]

---

(1) ديوانه – ٦٨، ووردت في حماسة أبي تمام – ٢٩٣/١ شثّ وعرعر: من نباتات الجبال.

(2) ديوانه – ٧١.

(3) عبدالشّارق بن عبدالعزى الجُهَنِيّ، شاعر جاهلي، والشارق اسم صنم لهم، ولذلك قالوا: عبدالشارق. انظر حاشية حماسة أبي تمام – ٣٠٥/١.

(4) أبو تمام – الحماسة – ٣٠٨/١، الأُحاح: صوت يشبه الأنين، الكلمى: الجرحى.

(5) صيفي بن عامر بن الأسلت الأوسي، شاعر جاهلي، كان رأس الأوس، وشاعرها وقائدها في حروبها، وقد التبس اسمه كثيراً بالصحابي صرمة بن أنس. انظر – أبو قيس بن الأسلت – مقدمة الديوان.

(6) ديوانه – ٧٨.

(7) ديوانه – ٩٥.

بل إن جيادهم الأصيلة لتكاد تنطق بالشكوى من طول ما خاضت غمار المعارك، وقتام الحروب، قال عُرْوَة بن الوَرْد:

تَقُولُ: أَلَا أَقْصِرْ مِنَ الغَزْوِ، وَاشْتَكَى ... لَهَا القَوْل طِرْفٌ أَحْوَر العَيْنِ دَامِعُ[1]

وقال عَنْتَرَة بن شَدَّاد:

يَدْعُونَ عَنْتَرَ وَالرِّمَاحُ كَأَنَّهَا ... أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لَبَانِ الأَدْهَمِ
فَازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ القَنَا بِلَبَانِهِ ... وَشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ
لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا المُحَاوَرَةُ اشْتَكَى ... وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الكَلَامَ مُكَلِّمِي[2]

ونتيجة لاستمرارية هذا النمط من الحياة برزت القوة قيمة أولى في عرفهم، تلك القوة التي تتخذ الظلم شعارها، والبدء بالاعتداء دستورها، وحين ترد الاعتداء فإنها ترده مضاعفاً أضعافاً كثيرة. وعبروا عن هذا فقال عمرو بن معد يكرب:

فَكِلْنَا لَهُمْ بِالصَّاعِ صَاعِيْنِ عَنْوَةً ... فَآلوا بِرَبِّ البَيْتِ أَلَّا يُحَارِبُوا[3]

وقال زُهَيْر بن أَبِي سُلْمى مبرزاً قيمة القوة المرتكزة على الظلم:

وَمَنْ لَا يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ ... يُهَدَّم، وَمَنْ لَا يِظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ[4]

وقوله يمدح:

جَرِيْءٍ، مَتَى يُظْلَمْ يُعَاقِبْ بِظُلْمِهِ ... سَرِيْعاً، وَإِلَّا يُبْدَ بِالظُّلْمِ يَظْلِمِ[5]

وقال عَمْرُو بن كُلْثُوم:

---

[1] ديوانه – ٨٢.

[2] ديوانه – ١٨٣، يشبه الرماح في صدر الفرس بحبال البئر من الدلاء، فعند ذلك أعرض الفرس وشكا لفارسه.

[3] ديوانه –٦١.

[4] ديوانه – ٥٠.

[5] المصدر نفسه – ٤٦.

بُغَـــاة ظَـــالِمِيْنَ وَمَـــا ظُلِمْنَـــا وَلكِنَّـــا سَـــنَبْدَأُ ظَالِمِيْنَـــا[1]

وقال الفِنْدُ الزِّمَّانِيّ[2]:

وَبَعْـــضُ الحِلْـــمِ عِنْـــدَ الجَهْـــ ـــلِ لِلذِّلَّـــةِ إِذْعَـــانُ
وَفِي الشَّـــرِّ نَجَـــاةٌ حِيْـــ ـــنَ لَا يُنْجِيْـــكَ إِحْسَـــانُ[3]

وهكذا تشتعل حروبهم هنا وهناك، في ضوء هذه القيم السالفة الذكر، وبعد أن ينقشع قتام المعركة، تظهر الصورة التي خلفتها وراءها، وتتمثل في تلك الجثث المتناثرة في الميدان، تنوشها الجوارح، وتنهشها السباع، وهنا، وعندما يرى المرء أخاه أو أباه أو ابنه وقد صار إلى هذا المصير تتأجج مشاعر الغضب والألم في نفسه، وتشتعل نار للحقد لا يخمدها إلا .. الثأر، وهكذا حرص العربي الجاهلي على الثأر وعدم التهاون فيه[4]. وهو عرف شاع بينهم لحماية هيبة القبيلة من السقوط، فتجترئ عليها القبائل الأخرى، ولكنهم أسرفوا في الثأر واشتطوا؛ لأنهم كانوا يرون أن الناس طبقات متفاوتة، فحين يقتل رجلٌ من طبقة وضيعة رجلاً من طبقة رفيعة، يقع الإسراف في الثأر؛ لأن مجرد قتل القاتل لا يعتبر أخذاً بالثأر، بل لابد من قتل من يكافيء القتيل في المكانة الاجتماعية، ولذا قد يتركون القاتل ويعمدون إلى الأبرياء من أشراف قبيلته فيأخذون بثأرهم منهم؛ لأن الناس: رأس وذنب، والرأس لا يعدل الذنب، هكذا قال امرؤ القيس معبراً عن فلسفة الثأر المسرفة عندهم:

ضَـــارَتْ بَنُـــو أَسَـــدٍ بِحُكْمِهِـــمُ إِذْ يَعْدِلُـــوْنَ الـــرَّأْسَ بِـــالذَّنَبِ[5]

---

(1) ديوانه – ص٩٠.

(2) سبق التعريف به– ٩٢

(3) أبو تمام – الحماسة – ٣٩/١.

(4) وبقي من ذلك بقية في نفوسهم حتى بعد الاسلام، قيل لأعرابي: أيسرك أن تدخل الجنة ولا تسيء إلى من أساء اليك؟ قال: بل يسرني أن أدرك الثأر وأدخل النار، انظر: شهاب الدين، أحمد بن عبدالوهاب النويري – نهاية الأرب في فنون الأدب – ٦٧/٦، دار الكتب، دط، دت. (ت ٧٣٣هـ).

(5) ديوانه – ٤٥٧، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم.

وعبر عن ذات الفكرة التي تفلسف للإسراف في الثأر المهلهل بن ربيعة[1] بقوله:

أَلَا أَبْلِغْ بَنِي بَكْرٍ ... رِجَالاً مِنْ بَنِي ذُهْلِ
بِأَنَّكُمْ قَوْمُكُمْ بِالغَدْ ... رِ وَالعُدْوَانِ وَالقَتْلِ
قَتَلْتُمْ سَيِّدَ النَّاسِ ... وَمَنْ لَيْسَ بِذِي مِثْلِ
وَقُلْتُمْ: كُفْؤُهُ رِجْلٌ ... وَلَيْسَ الرَّأْسُ كَالرِّجْلِ
وَلَيْسَ الرَّجُلُ المَاجِدَ ... م مِثْلَ الرَّجُلِ النَّذْلِ
فَتًى كَانَ كَأَلْفٍ مِنْ ... ذَوِي الإِنْعَامِ وَالفَضْلِ[2]

ومن نفس المنطلق قال عَبِيْدُ بن الأَبْرَص[3]:

إِنَّنَا إِنَّمَا خُلِقْنَا رُؤُوساً ... مَنْ يُسَوِّي الرُّؤُوسَ بِالأَذْنَابِ[4]

ونتيجة لاقتناعهم بهذا التقسيم الطبقي للناس؛ أسرفوا في الثأر، وافتخروا بهذا الإسراف، وَعُدَّ المسرف الظالم الغشوم في أخذ ثأره هو أفضل من يطلب الثأر، قال لَبِيْد بن ربيعة[5]:

غَضِبْنَا لِلَّذِي لَاقَتْ نُفَيْلٌ ... وَخَيْرُ الطَّالِبِي التِّرَةِ الغَضُوبُ[6]

ويقول حَاجِزُ بن عَوْف[7]:

قَتَلْنَا نَاجِياً بِقَتِيلِ فَهْمٍ ... وَخَيْرُ الطَّالِبِ التِّرَةَ الغَشُوْمُ[8]

---

(1) سبق التعريف به ـ ٥٦
(2) ديوانه – ٦٧،٦٨.
(3) سبق التعريف به ـ ٩٠
(4) ديوانه – ٤٢.
(5) سبق التعريف به ـ ٦٨
(6) ديوانه – ٣٧، نفيل: بنو نفيل بن ربيعة بن كلاب، الترة: الثأر.
(7) حاجز بن عوف بن الحارث، من بني سلامان، من الأزد، شاعر جاهلي مقل، وهو أحد الصعاليك المغيرين على قبائل العرب ممن كان يعدو على رجليه عدواً يسبق به الخيل. انظر: الأصفهاني – الأغاني – ٣٣٣/١٣ الزركلي – الأعلام – ١٥٣/٢.
(8) يحيى الجبوري – قصائد جاهلية نادرة –٧٢، والشاعر يتحدث عن قتلهم رجلاً ثأراً لمن قتلت قبيلة فَهْم منهم، وقبيلة فَهْم هي قبيلة تأبط شراً، والشاعر يفخر بنيلهم ثأرهم، وأن الظلوم هو خير من يطلب الثأر.

فالإسراف في الثأر ديدنهم دائماً، فقد يقتلون برجل واحد تسعة رجال، يقول لَبيْد بن ربيعة:

قَتَلْنَا تِسْعَةً بِأَبِي لُبَيْنَى ... وَأَلْحَقْنَا المَوَالِي بِالصَّمِيمِ[1]

ومثل ذلك فعل العَبَّاسُ بن مِرْدَاس[2] للأخذ بثأره:

فَإِنْ يَقْتُلُوا مِنَّا كَرِيماً فَإِنَّنَا ... أَبَأْنَا بِهِ قَتْلَى تُذِلُّ المَعَاطِسَا

قَتَلْنَا بِهِ فِي مُلْتَقى الخَيْلِ خَمْسَةً ... وَقَاتِلُهُ زِدْنَا مَعَ اللَّيْلِ سَادِسَا[3]

بل قد يقتلون بالواحد مائة، قال عَامِرُ بن الطُّفَيْل[4]:

قَتَلْنَا مِنْهُمُ مِائَةً بِشَيْخٍ ... وَصَفَّدْنَاهُمُ عُصَباً قِيَامَا[5]

وحين يكون المطالب بالثأر من الملوك، نجد ذلك الإسراف في الثأر الذي لا يحده حد، فقد حدث أن قتل الحَارِثُ بن ظَالِم[6] ابناً للأَسْوَد بن المُنْذِر اللَّخْمِي[7]، اسمه (شُرَحْبِيْل)، فأوقع الأَسْوَدُ ببني ذُبْيَان[8] وبني أَسَد[9]، ثم وجد الأَسْوَدُ نعل ابنه في موضع من بلاد بني مُحَارِب[10]، فقال: سأحذيكم نعالا، فأحمى لهم الصفا التي بصحراء

---

(1) ديوانه – ٢٦١، ووردت في أمالي القالي – ١٣٩/٢.

(2) سبق التعريف به ـ ٦٥

(3) الأصمعيات – ٢٠٦، ٢٠٧، أباءه به: قتله به، والبواء، السواء والكفء، المعاطس: الأنوف.

(4) سبق التعريف به ـ ٦١

(5) ديوانه – ٨٣.

(6) سبق التعريف به ـ ٤٨

(7) الأسود بن المنذر بن النعمان بن امريء القيس بن عمرو اللخمي، من ملوك الحيرة، قتل في إحدى معاركه مع الغساسنة، انظر: الزركلي. الأعلام – ٣٣٠/١، جواد علي – تاريخ العرب قبل الاسلام – ٢٠٩/٣.

(8) بنو ذبيان: من غطفان التي تعود في قيس عيلان من مضر، انظر: ابن الكلبي – جمهرة النسب – ١٠٧/٢، تحقيق: محمود فردوس، دار اليقظة العربية – دمشق – دط، دت.

(9) بنو أسد: هم بنو أسد بن خزيمة بن مدركة، حي من العدنانية، انظر: "القلقشندي – نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب – ٤٧.

(10) بنو محارب بن خصفة بن قيس عيلان، انظر: ابن الكلبي – جمهرة النسب – ١٠٤/٢.

أُضَاخ[1]، حيث وجد نعل ابنه، وسيرهم عليها، حتى تساقط لحم أقدامهم، وفي ذلك يقول الأعشى:

رُبَّ حَيٍّ أَشْقَاهُمُ آخِرَ الدَّهْـ ... ـرِ، وَحَيٍّ سَقَاهُمُ بِسِجَالِ
وَلَقَدْ شُبَّتِ الحُرُوبُ فَمَا غُمِّـ ... ـرْتَ فِيهَا إِذْ قَلَّصَتْ عَنْ حِيَالِ
هَؤُلَاءِ ثُمَّ هَؤُلَاءِ كِلَا أَعْطَيْـ ... ـتَ نِعَالاً مَحْذُوَّةً بِمِثَالِ
وَشُيُوخٍ صَرْعَى بِشَطِّي أَرِيْكٍ ... وَنِسَاءٍ كَأَنَّهُنَّ السَّعَالِي[2]

فلما كان الإسلام هجا شاعر من كِنْدة بني مُحَارِب بتحريق الأَسْوَد أقدامهم، فقال:

عَلَى عَهْدِ كِسْرَى نَعَّلَتْكُمْ مُلُوكُنَا ... صَفاً مِنْ أُضَاخٍ حَامِياً يَتَلَهَّبُ[3]

وهذا بَاعِثُ بن صُرَيْم[4] يقتل أخ له اسمه (وَائِل) في بني تَمِيْم[5]، وكان عَمْرُو ابن هِنْد قد بعثه اليهم ليجمع الصدقات، فبينما هو جالس على شفير بئر يجمعها إذ دفعه رجل منهم، فوقع فيها، ورموه بالحجارة حتى قتلوه، فلما بلغ ذلك باعثاً آلى أن يقتل في بني تميم حتى تمتليء دلوه من دمائهم، وقال:

سَائِلْ أُسَيِّدَ هَلْ ثَأَرْتُ بِوَائِلٍ ... أَمْ هَلْ شَفَيْتُ النَّفْسَ مِنْ بَلْبَالِهَا
إِذْ أَرْسَلُوْنِي مَائِحاً لِدِلَائِهِمْ ... فَمَلَأْتُهَا عَلَقاً إِلَى أَسْبَالِهَا
إِنِّي وَمَنْ سَمَكَ السَّمَاءَ مَكَانَهَا ... وَالبَدْرَ لَيْلَةَ نِصْفِهَا وَهِلَالِهَا
آلَيْتُ أَثْقَفُ مِنْهُمُ ذَا حِيَّةٍ ... أَبَداً فَتَنْظُرَ عَيْنُهُ فِي مَالِهَا[6]

---

[1] أُضَاخ: موضع من الشربة .."ديار بني محارب بن خصفة، بين الرمة والحريب، انظر: البكري – معجم ما استعجم – ١٦٤/١.

[2] ديوانه – ٣٠٢، وأبو عبيدة – أيام العرب – ١٤٧/٢، أَرِيْك: جبل قريب من معدن النقرة شق منه لمحارب، وشق لبني الصادر من سليم، انظر: ياقوت الحموي – معجم البلدان – ١٦٥/١.

[3] أبو عبيدة – أيام العرب – ١٤٧/٢.

[4] باعث بن صريم بن أسيد اليشكري، شاعر جاهلي فارس، انظر: أبو تمام – الحماسة – ٣٥٢/١.

[5] بنو تميم: تميم بن مُرّ بن أُدّ، من طابخة بن إِلْيَاس بن مُضَر، انظر: ابن الكلبي – جمهرة النسب – ٢٧١/١.

[6] أبو تمام – الحماسة – ٣٥٢/١، ٣٥٣، والأبيات وقصتها وردت في أيام العرب لأبي عبيدة – ٤٥٥/٢. تحت عنوان (يوم الحاجز)، وكذلك في نهاية الأرب للنويري –٣٩٦/١٥، تحت (يوم الحاجز) وفي كلا المصدرين تذكر الرواية ان تميماً أسروا وائلاً، وجعلوا يغمسونه في الماء حتى قتلوه، فقتل باعث منهم مائة.

العلق: الدم الغليظ (اللسان – علق) أسبالها: شفاهها وحروفها (اللسان – سبل)

يقول: بعثوني طالباً لتراتهم، فأكثرت من القتل.

وهذا امرؤ القيس بن حُجْر الكِنْدِي[1] يسرف في الثأر لأبيه الذي قتله بنو أَسَد[2] لظلمه لهم وبغيه عليهم، فقد ورد امرؤ القيس بالخيل على بني أَسَد قتلة أبيه، فلما ظفر بهم، انتزع دروعهم، فألقاها في النار، فلما حميت، ألقاها عليهم، فقطعت لحومهم، وسلخت جلودهم، وأحمى ميلاً، فأمره على أعينهم فسملها، وحُزَّتْ رؤوس قتلاهم، وقُوِّرَتْ هاماتهم، ثم صُبَّتْ فيها الخمر،فشربها علاً بعد نهل، وقد ذكر ذلك الكَلْبِي[3] عن شيوخ كِنْدَة من أنه جعل يسمل أعينهم، ويحمي الدروع فيلبسهم إياها[4]. وقد قال عن ذلك:

سَائِلْ بَنِي أَسَدٍ بِمَقْتَلِ رَبِّهِمْ ... حُجْر بن أُمِّ قطام جلّ قَتِيلا
إِذْ سَارَ ذُو التَّاجِ الهِجَانِ بِجَحْفَلٍ ... لَجِبٍ يجاوبُ بِالفَلاةِ صَهِيلا
حَتَّى أَبَالَ الخَيْلَ فِي عَرَصَاتِهِمْ ... فَشَفَى وَزَادَ عَلَى الشِّفَاءِ غَلِيلا
أَحْمَى دُرُوعَهُمْ فَسَرْبَلَهُمْ بِهَا ... وَالنَّار كَحَّلَهُمْ بِهَا تَكْحِيلا
وَأَقَامَ يُسْقَى الرَّاح فِي هَامَاتِهِمْ ... مَلِكٌ يعلُّ بِشُرْبِهَا تَعْلِيلا[5]

وهذا مهلهل بن ربيعة[6] يسرف ويشتط في مطالبته بثأر أخيه كُليب[7] ويجر قبيلتي بَكْر وتَغْلب[8] إلى سلسلة بشعة من الحروب الطويلة الأليمة المعروفة بـ (حرب البَسُوْس)[9]

---

(1) سبق التعريف به ـ ٤٠
(2) سبق التعريف بهم ـ ٤٠
(3) لعلة يقصد بالكلبي: محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤هـ) العالم المؤرخ النسابة.
(4) الألوسي – نهاية الأرب في معرفة أحوال العرب – ٢٥/٣.
(5) ديوانه – ٣٦٠، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، الهجان: الرجل الكريم الحسب، نقي الأصل انظر: (اللسان – هجن).
(6) سبق التعريف به ـ ٥٦
(7) سبق التعريف به ـ ٥٦
(8) بكر وتغلب: من وائل بن قاسط، من ربيعة بن نزار، انظر: ابن الكلبي – جمهرة النسب – ١٩٣/٢.
(9) حرب البسوس: هي سلسلة من الحروب التي نشبت بين بكر وتغلب، وهما من ربيعة، وسببها قتل جساس ابن مرة كليب بن ربيعة سيد تغلب؛ لأن كليباً اعتدى على ناقة رجل كان يستجير بالبسوس خالة جساس، وقد استمرت هذه الحرب مدة أربعين سنة وتسميها العرب "البراء"؛ لأنها:أقلعت من غير تكافؤ في الدماء ولا عقل، انظر: ابن الأثير – الكامل – ٣١٢. أبو عبيدة – أيام العرب – ١٦٥/٢. جواد علي – تاريخ العرب قبل الاسلام – ٣٥٥/٥.

والتي استمرت أربعين سنة، وكأن أهل الأرض جميعاً لا يعدلون ذلك القتيل في نظره. والمتأمل في أشعاره يكاد يسمع صرخات الثأر والحرب والموت والألم معاً، استمع اليه وهو يعاهد أخاه ذلك العهد الرهيب:

خُذِ العَهْدَ الأَكِيْدَ عَلَيَّ عُمْرِي ... بِتَرْكِي كُلَّ مَا حَوَتِ الدِّيَارُ
وَهَجْرِي الغَانِيَاتِ وَشُرْبَ كَأْسٍ ... وَلُبْسِي جُبَّةً لا تُسْتَعَارُ
وَلَسْتُ بِخَالِعٍ دِرْعِي وَسَيْفِي ... إِلَى أَنْ يَخْلَعَ اللَّيْلَ النَّهَارُ
وَإِلاَّ أَنْ تَبِيْدَ سَرَاةُ بَكْرٍ ... فَلا يَبْقَى لَهَا أَبَداً أَثَارُ[1]

وقوله:

قَتَلُوا كُلَيْباً ثُمَّ قَالُوا: أَرْتِعُوا ... كَذَبُوا، لَقَدْ مَنَعُوا الجِيَادَ رُتُوعَا
حَتَّى أُبِيْدَ قَبِيلَةً، وَقَبِيلَةً ... وَقَبِيْلَةً، وَقَبِيْلَتَيْنِ جَمِيْعَا[2]

وحين يقتل مهلهل بُجَير بن الحَارِث بن عُبَاد – الذي كان متجنباً للقتال، ولم يشترك فيه – فإن ذلك لا يشفي غليله؛ لأنه يرى أن بجيراً لا يساوي إلا شسع نعل كليب، ولذلك قال حين قلته: "بُؤْ بِشِسعِ نَعْلِ كُلَيب"، وهنا يغضب الحَارِث بن عُبَاد[3] ويقول:

---

(1) ديوانه – ٣٤.

(2) المصدر نفسه – ٤٨، ارتعوا: الرعي في الخصب "اللسان – رتع".

(3) الحَارِثُ بن عُبَاد: هو الحارث بن عباد بن قيس بن ثعلبة البكري، حكيم جاهلي، كان شجاعاً، من السادات وحين وقعت حرب البسوس اعتزلها مع قبائل من بكر، حتى أقدم المهلهل على قتل ابنه بجير، فثار الحارث ونادى بالحرب، وارتجل قصيدته المشهورة التي يكرر فيها قوله (قربا مربط النعامة)، والنعامة فرسه، وكان أول يوم شهده هو يوم تحلاق اللمم، الذي انتصرت فيه بكر، وأسر المهلهل وهو لا يعرفه، فأمنه، ولما كشف عن شخصيته جزّ ناصيته وأطلقه، وقال: لَهَف نَفْسِي عَلَى عَدِيٍّ وَلَمْ أَعْـ ... ـرِفْ عَدِياً إِذْ أَمْكَنَتْنِي اليَدَانِ
انظر: ابن الأثير – الكامل – ٣٢٢/١، الزركلي – الأعلام – ١٥٦/٢.

قَرِّبَا مَرْبَطَ النَّعَامَةِ مِنِّي ... لَقِحَتْ حَرْبُ وَائِلٍ عَنْ حِيَالِ
قَرِّبَا مَرْبَطَ النَّعَامَةِ مِنِّي ... إِنَّ قَتْلَ الغُلَامِ بِالشِّسْعِ غَالِي
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عَلِمَ اللـ ... ـهُ وَإِنِّي بِحَرِّهَا اليَوْمَ صَالِي[1]

فيرد عليه المُهَلْهِل:

صَدَقَ الجَارُ إِنَّنَا قَدْ قَتَلْنَا ... بِقِبَالِ النِّعَالِ رَهْطَ الرِّجَالِ
قَرِّبَا مَرْبَطَ المُشَهَّرِ مِنِّي ... لِقَتِيلٍ سَفَتْهُ رِيحُ الشَّمَالِ[2]

وتستمر نيران الحرب بين الحيين مستعرة، ويكثر القتل، حتى ليشعر المهلهل نفسه باسرافه في ثأره. ولكن العزة بالإثم قد تمكنت منه:

أَكْثَرْتُ قَتْلَ بَنِي بَكْرٍ بِرَبِّهِمُ ... حَتَّى بَكَيْتُ وَمَا يَبْكِي لَهُمْ أَحَدُ
آلَيْتُ بِاللهِ لَا أَرْضَى بِقَتْلِهِمُ ... حَتَّى أُبَهْرِجَ بَكْراً أَيْنَمَا وُجِدُوا[3]

وقد أهاجت هذه الفلسفة المسرفة في الثأر حرب الفِجَار الثاني[4]، فالبَرّاض[5]، وهو من الخلعاء الفتاك، قتل عُرْوَة الرَّحَّال[6]، وهو سيد شريف من هَوَازن[7]، والبَرّاض

---

(1) ابن الأثير – الكامل – ٣٢٢/١.

(2) ديوانه – ٧١، قِبال النعال: الزمام الذي يكون من النعل.

(3) المصدر نفسه – ٢٧، آليت. أقسمت، أبهرج: أبيح دماءهم بلادية.

(4) حرب الفِجَار الثاني: وقعت بين قريش وكنانة كلها وبين هوازن، والذي أهاج تلك الحرب هو قتل البَرّاض لعروة الرَّحَّال بن عتبة بن كلاب، فأبت هوازن أن تقتل بعروة البَرّاض؛ لأن عروة سيد هوازن، والبراض خليع في بني كنانة، فأرادوا أن يقتلوا بعروة سيداً من قريش، وسميت هذه الحرب بحرب الفِجَار؛ لما استحل الحيان: كنانة، وقيس فيه من المحارم، انظر: ابن الأثير – ٣٥٩/١، أبو عبيدة – أيام العرب – ٥٠٦/٢.

(5) البَرّاض: هو البرّاض بن قيس بن رافع الكناني، كان رجلاً فاتكاً خليعاً، قد خلعه قومه لكثرة شره وكان يضرب المثل بفتكه، فيقال: أفتك من البراض، وهو الذي أهاج حرب الفجار الثاني بقتله عروة الرحال وكانا قد تنافسا عند النعمان بن المنذر على إجارة لطيمة النعمان حتى تصل إلى سوق عكاظ، ففضل النعمان أن يجعل ذلك لعروة، فتبعه البراض وقتله. انظر: ابن الأثير – الكامل – ٣٥٩/١.

(6) عُرْوَة الرَّحَّال: هو عروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب المعروف بالرَّحَّال؛ لكثرة رحلته إلى الملوك، ووفادته عليهم،وبسبب قتله هاجت حرب الفِجَار الثاني، انظر: ابن الأثير – الكامل – ٣٦٠/١، أبو عبيدة – أيام العرب – ٥٠٦/٢.

(7) سبق التعريف بها ـ ٤٧ .

خليع في بني كِنانة[1]، فلم ترض هوازن أن تقتل البَرّاض بعُرْوَة، ورأوا أنهم لن ينالوا ثأرهم إلا بقتل سيد من قريش، فكانت حرب الفِجَار قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بست وعشرين سنة.

وعندما يسعون للأخذ بالثأر يصابون بتعطش غريب للدماء، قال قَيْسُ بن زُهَير[2] بعد أن أدرك ثأره يوم جَفْر الهَبَاءة[3]:

إنَّ يَوْمَ الهَبَاءَة أَوْرَثَني الذُّلَ ... فَأَصْبَحْتُ ظَالِماً مَظْلُومَا
كَانَ ظُلْمِي قَتْلَ سَرَاة بَنِي بَدْرٍ ... فَأَصْبَحْتُ بَعْدَهُمْ مَرْجُوْمَا
كَانَ ثَأْري لِمَالِكِ بن زُهَيْرٍ ... وَاحِداً كَانَ فِيْهِمُ مَعْلُوْمَا
فَقَتَلْتُ الجَمِيْعَ مِنْ حَذَرِ الثُّكْـ ... ـلِ لَقَدْ كُنْتُ فِي الدِّمَاءِ نَهُوْمَا[4]

وحين يحاول بعض العقلاء عقد الصلح بين الأطراف المتحاربة، ودفع ديات القتلى، نجدهم يرفضون، ويغالون في الرفض، من ذلك:

قال عَمْرُو بن بَرّاقة الهَمْدَاني[5]:

---

(1) بنو كِنَانَة: كِنَانَة بن خزيمة بن لؤي بن غالب، جد جاهلي عدناني مُضري، انظر: ابن سلام – النسب – ٢٢١.

(2) قيس بن زهير بن جذيمة العبسي كان يلقب بقيس الرأي، لجودة رأيه، وهو من الدهاة الشجعان الفرسان، اشتهرت وقائعه في حروبه مع بني فَزارة وَذبْيان، انظر: الزركلي – الأعلام – ٢٠٦/٥.

(3) يوم جفر الهباءة: كان لعبس على ذبيان، وفيه قتل قيس بن زهير وأصحابه حذيفة بن بدر وحمل بن بدر، وقد استعظمت غطفان قتل حذيفة وتجمعوا لذلك، فرحلت عبس عن أرض غطفان، انظر: أبو عبيدة – أيام العرب – ٢١٤/٢، النويري – نهاية الأرب – ٣٦٠/١٥ وجفر الهباءة مستنقع في بلاد غطفان، انظر: ياقوت الحموي – معجم البلدان – ١٤٦/٢.

(4) أبو عبيدة – أيام العرب – ٢٨٩/٢، النَّهوم: الذي يفرط في شهوة شيء ما ولا يشبع منه، انظر: "اللسان – نهم".

(5) عَمْرُو بن بَرّاقة الهَمْداني، وبراقة أمه، واسم أبيه: منبه بن شهر بن نهم من هَمْدان، وهو أحد صعاليك العرب العدائين، وكان عمرو صاحبا لتأبط شراً والشنفرى، يغيرون على القبائل فيغنمون ويسبون، وقد ورد في الأغاني خبر فراره هو وتأبط شراً من قبيلة بجيلة، بعد أن كادوا يمسكون بهما، حيث يقول تأبط شراً:
لَيْلَةَ صَاحُوا وَأَغْرَوْا بِي سِرَاعَهُمْ ... بِالعَيْكَتَيْنِ لَدَى مَعْدَى ابن بَرّاقِ
انظر: الأصفهاني – الأغاني – ١٨٢/٢١، ١٤٤، المفضليات – ٢٨. يحيى الجبوري، قصائد جاهلية نادرة ٩٧.

فَلَا صُلْحَ حَتَّى تُقْدَعَ الخَيْلُ بِالقَنَا وَتُضْرَبَ بِالبيضِ الخِفافِ الجَمَاجِمُ[1]

ويقول العَبّاسُ بن مِرْدَاس[2] رافضاً الصلح:

لا نَسَبَ اليَوْمَ وَلَا خُلَّةً اتَّسَعَ الخَرْقُ عَلَى الرَّاتِقِ
لَا صُلْحَ بَيْنِي - فَاعْلَمُوْهُ - وَلَا بَيْنكم مَا حَمَلَتْ عَاتِقِي
رُمْحِي، وَمَا كُنَّا بِنَجْدٍ، وَمَا قَرْقَرَ قُمْرُ الوادِ بِالشَّاهِقِ[3]

ويقول مهلهل معبراً عن العداء المستحكم المستعصي على كل صلح:

لَا أَصْلَحَ اللهُ مِنَّا مَنْ يُصَالِحُكُمْ حَتَّى يُصَالِحَ ذِئْبُ المَعْزِ رَاعِيَهَا[4]

وقد يضع شروطاً مستحيلة للصلح تعجيزاً للخصم وإمعاناً في الرفض:

يَا لِبَكْرٍ أَنْشُرُوا لِيْ كُلَيْباً يَا لِبَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ الفِرَارُ؟
يَا لِبَكْرٍ فَاظْعَنُوا أَوْ فَحِلُّوا صَرَّحَ الشَّرُّ وَبَانَ السِّرَارُ[5]

وقوله:

ذَهَبَ الصُّلْحُ أَوْ تَرُدُّوا كُلَيْباً أَوْ أُذِيقَ الغَدَاةَ شَيْبَانُ ثُكْلَا
ذَهَبَ الصُّلْحُ أَوْ تَرُدُّوا كُلَيْباً أَوْ تَذُوقُوا الوَبَالَ وِرْداً وَنَهْلَا[6]

---

[1] القالي – الأمالي – ١٢٢/٢، الأصفهاني – الأغاني – ١٨٣/٢١.
تقدع الخيل بالقنا: أي تضرب بالرماح لتكبح وتكف، أقدعه قدعاً: كبحته وكففته: "اللسان – قدع".

[2] سبق التعريف به – ٦٥.

[3] ابن الشجري – الأمالي – ٢٩٠/٢، قرقر الطائر: صوت، والشاهق، الجبل المرتفع.

[4] ديوانه – ٩١.

[5] المصدر نفسه – ٣٥.

[6] المصدر نفسه – ٦٠، ٦١، الوبال: سوء العاقبة.
الورد: القدوم إلى الماء "اللسان – ورد".
النهل: الشرب في أول الورد "اللسان – نهل".
يهددهم بأنهم سيتجرعون الأمرّين في حروبهم معه.

وإن حدث ومال ولي الدم إلى الصلح وقبول الدية فإن نساء العائلة له بالمرصاد، بما يوجهن إليه من لوم وتقريع واستهجان؛ باعتبار أن قبول الدية عار لا تمحوه الأيام، وأن قبوله لها دلالة على جبنه وتقاعسه، وهذا ما فعلته كَبْشَةُ أخت عَمْرِو بن مَعْد يكرِب[1] حينما شعرت أنه يميل إلى قبول الدية في أخيه عبدا لله، فقالت:

أَرْسَلَ عَبْدًا للهِ إِذْ حَانَ يَوْمُهُ ... إِلَى قَوْمِهِ لا تَعْقِلُوا لَهُمُ دَمِي
وَلا تَأْخُذُوا مِنْهُمْ إِفَالاً وَأَبْكُراً ... وَأُتْرَكُ فِي بَيْتٍ بِصَعْدَةَ مُظْلِمِ
وَدَعْ عَنْكَ عَمْراً، إِنَّ عَمْراً مُسَالِمٌ ... وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم
فإن أنتم لم تثأروا واتديتم ... فمشوا بآذان النعام المصلم
ولا تردوا إلا فضول نسائكم ... إذا ارتملت أعقابهن من الدم[2]

ومثل ذلك ما قالته أم عمرو بنت وقدان[3]، تحث قومها على الأخذ بالثأر، وإلا فلا شأن لهم بالسلاح؛ لأنهم صاروا نساء شأنهم الاكتحال ولبس المجاسد والنقب، وتنعى عليهم انشغالهم بملذات الطعام والشراب:

إِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَطْلُبُوا بِأَخِيكُمْ ... فَذَرُوا السِّلاحَ،وَوَحِّشُوا بِالأَبْرَقِ
وَخُذُوا المَكَاحِلَ وَالمَجَاسِدَ وَالْبَسُوا ... نُقَبَ النِّسَاءِ فَبِئْسَ رَهْطُ المُرْهَقِ
أَلْهَاكُمْ أَنْ تَطْلُبُوا بِأَخِيكُمْ ... أَكْلُ الخَزِيرِ وَلَعْقُ أَجْرَدَ أَمْحَقِ[4]

---

[1] هي أخت عمرو بن معد يكرب فارس اليمن المشهور من بني زُبَيْد، وقد قالت هذه الأبيات بعد أن قتل رجل من بني مازن أخاها عبدا لله، فقالت بنو مازن لعمرو: إنما قتل منا رجل سفيه سكران، ونحن يدك وعضدك، فنسألك بالرحم أن تأخذ الدية، فغضبت كبشة وقالت الأبيات، انظر: أبو تمام – حاشية الحماسة – ١٥٨/١.

[2] أبو تمام – الحماسة – ١٥٨/١، ١٥٩.
إفال: صغار الإبل، أبكر: الفتى من الإبل.
(مشوا بآذان النعام (المصلم): أي امشوا أذلاء بآذان مجدعة كآذان النعام.
(ولا تردوا إلا فضول ..) العزيز يرد أولاً، ثم الرجال، ثم الصغار، ثم النساء الطواهر، ثم الحيض، فأنتم أذلاء، لا تردون إلى بعد الحيض.

[3] أم عمرو بنت وقدان: جاهلية: حاشية الحماسة – ١٠٣١/٢.

[4] أبو تمام – الحماسة – ١٠٣٢/٢، وحشوا بالأبرق: قيل صيدوا الوحش، والتمسوا قوتكم من ذلك وذروا السلاح فلستم هناك بعد تضييع دم أخيكم.
المجاسد: الثياب المصبوغة بالزعفران، الخزير: لحم يقطع صغاراً ويطبخ بالدقيق، أمحق: لبن أخذ زبده.

وقال مُرَّةُ بن عَدَّاء الفَقْعَسِيّ[1] ينهاهم عن الدية وعارها:

فَلَا تَأْخُذُوا عَقْلاً مِنَ القَوْمِ إِنَّنِي ... أَرَى العَارَ يَبْقَى وَالمَعَاقِلُ تَذْهَبُ
كَأَنَّكَ لَمْ تَسْبِقْ مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةً ... إِذَا أَنْتَ أَدْرَكْتَ الذِي كُنْتَ تَطْلُبُ[2]

وهكذا فهم في النهاية قد اختاروا الدم على اللبن.

ونتيجة لما سبق عرضه من صفات العصبية والطيش وسرعة الغضب ورفض الصلح، والحرص على الثأر، كان تشب الحروب بين قبائل الجزيرة، بل إنها لتستعر بين أبناء العمومة، والدليل على ذلك أن أطول الأيام في الجاهلية كانت بين أبناء العمومة، فهذه حرب البسوس[3] بين: بَكْر، وتغلب[4]، وكلتا القبيلتين من وائل من ربيعة، وكذلك: عَبْس وذُبْيَان[5] في حرب (داحس والغبراء)[6]، فهما تعودان في غَطَفَان من قَيْس عَيْلان، والأَوْس والخَزْرَج[7] وما كان بينهما من حروب عديدة، رغم أنهما تعودان في قبيلة الأَزْد[8] اليمنية، وغيرهم كثير، فحرب الأقارب شائعة بينهم، وقد

---

(1) مُرَّة بن عَدَّاء الفَقْعَسِي، وبنو فَقْعَس حي من بني أَسَد، جاهلي، انظر: أبو تمام: حاشية الحماس – ١٥٦/١.

(2) أبو تمام – الحماسة – ١٥٧/١، والبيتان يحثان على طلب الثأر، وأن من أدرك ثأره فكأنه لم يصب.

(3) سبق التعريف بها ـ ٥٦

(4) سبق التعريف بهما ـ ٥٦ ، ٣٨

(5) عبس وذبيان: عبس بن بغيض من قيس عيلان، وذبيان بن بغيض من قيس عيلان، فهما أخوان، انظر: ابن سلام – النسب – ٢٤٤.

(6) داحس والغبراء: هي الحرب التي وقعت بين عبس وذبيان، وكان مبدؤها سباقاً جرى بين خيل قيس بن زهير وحذيفة بن بدر فلطمت خيل قيس عن الفوز، وبغى عليهم حذيفة، وتداعى الشر إلى أن ثارت الحرب بين الحيين، وقد دامت تلك الحرب أربعين سنة.

انظر: ابن الأثير – الكامل – ٣٣٤/١.

أبو عبيدة – أيام العرب – ١٧٧/٢.

(7) الأوس والخزرج: قبيلتان عربيتان تعودان في الأزد بن الغوث من كهلان من قحطان، أبناء حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن الأزد. انظر: ابن سلام – النسب – ٢٧٠

(8) الأزد: جد جاهلي قديم، وهو الأزد بن الغوث، من كهلان: انظر: ابن سلام – النسب – ٢٦٧.

تنسب إليه قبيلة الأزد الواسعة الفروع التي منها الأنصار والغساسنة.

قالوا فيها أشعاراً تقطع نياط القلوب، فقد قال رجل من بني عَقِيْل، حاربه بنو عمه، فقتل منهم وأسر:

وَنَبْكِي حِيْنَ نَقْتُلُكُمْ عَلَيْكُمْ ... وَنَقْتُلُكُمْ كَأَنَّا لَا نُبَالِي[1]

وقال الحُصَيْنُ بن الحُمَامِ المُرِّيِّ[2]:

نُفَلِّقُ هَامَاً مِنْ رِجَالٍ أَعِزَّةٍ ... عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا[3]

وقال قَيْسُ بن زُهَير العَبْسِي[4] حين قتل حُذَيفة وحملاً ابني بدر في يوم جَفْر الهَبَاءة[5]:

شَفَيْتُ النَّفْسَ مِنْ حَمَلِ بن بَدْرٍ ... وَسَيْفِي مِنْ حُذَيْفَةَ قَدْ شَفَانِي
فَإِنْ أَكُ قَدْ بَرَدْتُ بِهِمْ غَلِيْلِي ... فَلَمْ أَقْطَعْ بِهِمْ إِلَّا بَنَانِي[6]

وقال قَيْسُ بن الخَطِيْم[7] يذكر قتاله لبني عمه:

إِنَّا - وَلَوْقَدَّمُوا الَّذِي عَلِمُوا - ... أَكْبَادُنَا مِنْ وَرَائِهِمْ تَجِفُ
نَفْلِي بِحَدِّ الصَّفِيْحِ هَامَهُمْ ... وَفِلْبُنَا هَامَهُمْ بِهَا عَنُفُ
لَمَّا بَدَتْ غُدْوَةً وُجُوهُهُمُ ... حَنَّتْ إِلَيْنَا الأَرْحَامُ وَالصُّحُفُ[8]

---

(1) أبو تمام – الحماسة – ١/١٤٥.

(2) الحُصَيْنُ بن الحُمَامِ بن ربيعة بن مساب المُرِّيُّ، من غَطَفَان، جاهلي، ذكر أنه أدرك الإسلام، وجعله ابن سلام في الطبقة السابعة. وقال عنه أبو عبيدة: أشعر المقلين في الجاهلية ثلاثة: المسيب بن علس، والحصين بن الحمام، والمتلمس. كان سيداً شاعراً، ووفياً من أوفياء العرب، وكان سيد قومه وقائدهم، وكان يقال له: مانع الضيم، انظر: ابن حجر – الإصابة – ١/٣٣٥، ابن سلام – طبقات فحول الشعراء – ٥٨.

(3) أبو تمام – الحماسة – ١/١٤٣.

(4) سبق التعريف به ـ ٤٨

(5) سبق التعريف بهذا اليوم ـ ٢٧ \

(6) أبو تمام – الحماسة – ١/١٤٧.

(7) قَيْسُ بن الخَطِيْم بن عدي الأَوْسِي، فارس الأَوْسِ وشاعرها، له قصة مشهورة في أخذه بثأر أبيه وجده، أدرك الإسلام، ولكنه قتل قبل أن يدخل فيه، وقد ذكره ابن سلام في شعراء المدينة، وأورد شيئاً من أشعاره، انظر: ابن سلام – طبقات فحول الشعراء – ٨٩. الأصفهاني – الأغاني – ٣/٣.

(8) قيس بن الخطيم – الديوان – ١١٦و ١١٧، تحقيق: ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، وقد وردت في الأصمعيات – ١٩٨، وفي الأغاني – ٣/٢٥.

وقوله:

إِنَّ بَنِي عَمِّنَا طَغَوا وَبَغَوا ... وَلَجَّ مِنْهُمْ فِي قَوْمِهِمْ سَرَفُ[1]

وقال عَمْرُو بن مَعْدَيكْرِب[2] يصف الصفوف وقد اصطفت للمواجهة على ما بينهم من قرابة:

مُصَافِّينَ أَصْهَاراً وَرِحْماً وَجِيرَةً ... وَمَا كَانَ فِيهِمْ فَارِسٌ غَيْرُ جَانِحِ[3]

وقال الحَارِثُ بن وَعْلَةَ الذُّهْلِيُّ[4]:

قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيْمَ أَخِي ... فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي

فَلَئِنْ عَفَوْتُ لأَعْفُوَنْ جَلَلاً ... وَلَئِنْ سَطَوْتُ لأُوْهِنَنْ عَظْمِي[5]

وقال عَمْرُو بن كُلْثُوم عن غزوه لأقاربه:

جَلَبْنَا الخَيْلَ مِنْ جَنْبَيْ أَرِيكٍ ... إِلَى القَنَعَاتِ مِنْ أَكْنَافِ يَعْرِ

نَؤُمُّ بِهَا بِلَادَ بَنِي أَبِينَا ... عَلَى مَا كَانَ مِنْ نَسَبٍ وَصِهْرِ[6]

وقال المهلهل:

وَلَقَدْ خَبَطْتُ بُيُوتَ يَشْكُرَ خَبْطَةً ... أَخْوَالَنَا وَهُمُ بَنُو الأَعْمَامِ[7]

وقوله:

قَدْ شَفَيْتُ الغَلِيلَ مِنْ آلِ بَكْرٍ ... آلِ شَيْبَانَ بَيْنَ عَمٍّ وَخَالِ[8]

---

(1) ديوانه – ٢٣٩.

(2) سبق التعريف به ـ ٤٤ .

(3) ديوانه – ٧٥، تحقيق: مطاع الطرابيشي.

(4) الحَارِثُ بن وَعْلَةَ الذُّهْلِيُّ، شاعر جاهلي، وكثيراً ما يقع خلط بين اسمه واسم الحارث الجرمي الذي شهد الكُلاَب الثاني، انظر: حاشية الحماسة – ١٤٨/١.

(5) حماسة أبي تمام ١٤٨/١.

(6) ديوانه – ٤٥، أَرِيْك: اسم جبل بالبادية، القَنَعَات: اسم موضع، يَعْر: جبل بالحجاز.

(7) ديوانه – ٧٧، يشكر: يَشْكُرُ بن بَكْر، بطن من بكر بن وائل.

(8) المصدر نفسه – ٧٠.

بل إن السبية حين تستصرخ قومها لنصرتها تفاجأ أنها في أسرهم:

وَتُلْفَى حَصَانٌ تَخْدِمُ ابْنَةَ عَمِّهَا ... كَمَا كَانَ يُلْفَى النَّاصِفَاتُ الخَوَادِمُ
إِذَا اتَّصَلَتْ قَالَتْ: أَبَكْرَ بنَ وَائِلٍ! ... وَبَكْرٌ سَبَتْهَا، وَالأُنُوفُ رَوَاغِمُ[1]

وبعد أن تنتهي المعركة، تخلف وراءها القتلى والأسرى، ومع هذين الفريقين يمتد حبل الإسراف والشطط.

أما بالنسبة للقتلى، فيكون الإسراف في ما يوقعونه بهم من (التمثيل) وهو أمر كثيراً ما يقترفونه بعد انتهاء المعارك، حين يعمدون إلى جثث القتلى من أعدائهم فيشوهونها، ويمثلون بها، ويقال: مثل بالرجل يمثل مثلة، إذا نكل به، ومثلت بالقتيل: جدعت أنفه، وأذنه، أو مذاكيره، أو شيئاً من أطرافه"[2] فمن ذلك، أنهم كانوا يعمدون إلى القتيل، فيحتزّون رأسه، ثم يقوّرونه، فيشربون فيه الخمر، وقد ذكروا ذلك في أشعارهم، قال عنترة بن شداد[3]:

وَإِنِّي قَدْ شَرِبْتُ دَمَ الأَعَادِي ... بِأَقْحَافِ الرُّؤُوسِ وَمَا رَوِيتُ[4]

وقوله:

إِذَا اشْتَغَلَتْ أَهْلُ البَطَالَةِ بِالكَاسِ ... أَو اغْتَبَقُوهَا بَيْنَ قَسٍّ وَشَمَّاسِ
جَعَلْتُ مَنَامِي تَحْتَ ظِلِّ عَجَاجَةٍ ... وَكَأْسَ مُدَامِي قِحْفَ جُمْجُمَةِ الرَّاسِ[5]

---

[1] الأعشى – ديوانه – ٣٤٣: حصان: سيدة كريمة، الناصفات: الخادمات
اتصلت: انتسبت، أي: تجد السيدة الكريمة تخدم ابنه عمها ممتهنة كالخدم الأذلاء، وحين يثقلها الذل تنتسب وتعتزي ببكر بن وائل، ولكن بكراً هي التي سبتها!!.

[2] اللسان – مادة "مثل".

[3] سبق التعريف به.

[4] ديوانه – ٣٨، قحف الرأس: ما انفلق من الجمجمة.

[5] المصدر نفسه: ٨٧: الغبوق: شرب العشي "اللسان – غبق"
قس: رتبة كهنوتية للنصارى بين الأسقف والشماس، وفي اللسان هو رئيس من رؤساء النصارى في الدين والعلم، انظر: "اللسان – قسس".
شماس: من رؤوس النصارى، وهو الذي يحلق وسط رأسه ويلزم البيعة: "اللسان – شمس" والبيت الأول فيه إشارة إلى قصد الأديرة التي يعيش فيها الرهبان بهدف شرب الخمر.

وما ذكره عنترة في شعره هذا من شربه الخمر في أقحاف الرؤوس ليس من مبالغات الشعراء، بل من واقع حياتهم الحربية، ومما يدعم هذا الرأي ما حدث للصحابي الجليل عَاصِم بن ثَابِت بن أبي الأَقْلَح[1]، ففي غزوة أحد[2] قتل عاصم – رضي الله عنه – ابنين لسُلافة بنت سعد بن شهيد، هما: مسافع بن طلحة، وأخاه الجلاس بن طلحة[3]، شعرهما[4] بسهامه، وحين سألتهما عمن أصابهما، قالا: سمعنا رجلاً حين رمانا يقول: "خذها وأنا ابن أبي الأقلح" فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر[5]، فلما قتل عاصم في يوم الرجيع[6]، "أرادت هذيل أخذ رأسه، ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد لنذرها الذي نذرته حين أصاب ابنيها يوم أحد: لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في قحفه الخمر، فمنعته الدَّبْرُ[7]، فقالوا: دعوه يمسي فتذهب عنه فنأخذه، فبعث الله الوادي، فاحتمل عاصماً فذهب به، وقد كان عاصم قد أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركاً أبداً تنجساً، فمنعه الله بعد وفاته، كما امتنع منه في حياته"[8].

---

(1) عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح قيس بن عصمة بن النعمان الأنصاري، من السابقين الأولين من الأنصار، قتل يوم الرجيع في سنة ثلاث من الهجرة، انظر: ابن حجر – الإصابة – ٢/٢٣٥.

(2) غزوة أحد: وقعت في السنة الثالثة للهجرة بين المؤمنين والمشركين، وأصيب بها المسلمون، انظر: ابن هشام – السيرة – ٣/٦٠.

(3) هما من المشركين الذين قتلوا يوم بدر، انظر: ابن هشام – السيرة النبوية.

(4) يشعره: يصيبه في جسده ، فيصير له مثل الشِّعار، والشِّعار ما ولي الجسد من الثياب.

(5) ابن هشام – السيرة النبوية – ٣/٧٤.

(6) يوم الرجيع: قدم على رسول الله رهط من عضل والقارة، وهم من الهون بن خزيمة بن مدركة، وطلبوا أن يرسل معهم من يفقههم في الدين، فبعث ستة من أصحابه، فلما كانوا على الرجيع، وهو ماء لهذيل بالحجاز غدروا بهم، فاستصرخوا هذيلا، فلم يرع القوم وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف، وقد رفض عاصم – رضي الله عنه – الاستسلام، وقاتل حتى قتل، وأرادوا رأسه، فحمته الدبر، وأُخذ زيد بن الدثنة وخبيب بن عدي فباعوهما بمكة، وقتلا هناك، وذلك في السنة الثالثة للهجرة، انظر: ابن هشام، السيرة النبوية – ٣/١٦٩، ١٧٠.

(7) الدَّبْر: الزنابير والنحل (اللسان – مادة «دبر»)

(8) ابن هشام – السيرة النبوية – ٣/١٧١.

ومن التمثيل بالقتلى أيضاً: جدع الأنوف والآذان، ويروى أنه في حرب الفَسَاد[1]، بين حيين من طيء، كثر القتل، وكثر التمثيل، حتى كان الرجل يخصف نعله بأذن قتيل من القتلى:

نُخَصِّفُ بِالآذَانِ مِنكُمْ نِعَالَنَا وَنَشْرَبُ كُرْهاً مِنكُمُ فِي الجَمَاجِمِ[2]

وكان يخشون التمثيل بهم بعد قتلهم، ففي يوم الرَّقَم[3] بين غَطَفَان وبني عَامِر، وكان النصر لغطفان، "فانهزم الحَكَمُ بن الطُّفَيل في نفر من أصحابه حتى وصلوا إلى ماء يقال له: المروراة، فماتوا، وخنق الحكم بن الطفيل نفسه تحت شجرة؛ مخافة المثلة"[4]، وذكر ذلك عُرْوَة بن الوَرْد في شعره فقال:

عَجِبْتُ لَهُمْ إِذْ يَخْنقون نُفُوسَهُمْ وَمَقْتَلُهُمْ تَحْتَ الوَغَى كَانَ أَجْدَرَا
يَشُدُّ الحَلِيمُ مِنْهُمُ عَقْدَ حَبْلِهِ أَلَا إِنَّمَا يَأْتِي الَّذِي كَانَ حُذِّرَا[5]

وفي غزوة أحد اقترف كفار قريش – الذين مازالوا على جاهليتهم – التمثيل بجثث المسلمين بكل قسوة ووحشية، قال ابن إسحاق: "خرج رسول الله صلى الله عليه

---

(1) حرب الفساد وتعرفه بـ (يوم اليحاميم) بين قبائل طيء (غَوْث وجديلة) وكان النصر للغَوْث وفيهم زيد الخيل وحاتم الطائي، وعلى جديلة أَوْس بن حَارِثة بن لأم الطائي، انظر: ابن الأثير – ٣٨٨/١.

(2) ابن الأثير – الكامل – ٣٨٨/١، وقد عرف ذلك بـ: يوم اليحاميم.

(3) يوم الرَّقَم: يوم لغَطَفَان على بني عَامِر، والرَّقَمُ واد فيه ماء بالحجاز، وهو من ديار غَطَفَان، وفيه هزمت بنو عَامِر، وأصيب منهم رجال، وركبوا الفلاة، فهلك أكثرهم عطشاً، انظر: أبو عبيدة – أيام العرب – ٥٤٩، البكري – معجم ما استعجم – ٦٦٦/١.

(4) أبو عبيدة – أيام العرب – ٥٥١/٢، والحكم بن الطفيل هو أخو عامر بن الطفيل الذي فر في يوم الرَّقَم.

(5) ديوانه – ٧٤. ووردت الأبيات منسوبة إليه كذلك في: أبو عبيدة – أيام العرب – ٥٥٢/٢، البكري – معجم ما استعجم – ٦٦٦/١ والخوف من التمثيل هنا منصرف للمثلة قبل القتل. قال جواد علي: "كانوا يمثلون بقتلى الحرب وبالأسرى بتقطيع أجزاء جسمهم، وتشويه الجسم، يفعلون ذلك بالأسير حتى يموت" انظر: تاريخ العرب قبل الاسلام – ٤٦٦/٥.

وسلم يلتمس حَمْزَة بن عَبْدِالمُطَّلِب[1]، فوجده ببطن الوادي، قد بُقِرَ بطنه عن كبده، ومُثِّلَ به، فجُدِعَ أنفه وأذناه، فقال عليه السلام حين رأى ما رأى: لولا أن تحزن صفية، ويكون سنة من بعدي لتركته، حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم، فلما رأى المسلمون حزن الرسول وغيظه. قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب، قال ابن عباس: إن الله عز وجل أنزل في ذلك من قول الرسول عليه السلام وقول أصحابه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[2]، فعفا رسول الله، وصبر، ونهى عن المثلة، عن سمرة بن جندب قال: ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقام قط ففارقه، حتى يأمرنا بالصدقة، وينهانا عن المثلة"[3]. وممن مثل به أيضاً يوم أحد: الصحابي الجليل (عبدا لله بن جحش) رضي الله عنه[4]، وكان قد دعى الله قبل المعركة أن يقتل ويُمَثَّلَ به تقرباً إلى الله، سمعه سعد بن أبي وقاص يدعو ويقول: "اللهم ارزقني رجلاً شديداً حرده[5]، أقاتله فيك، حتى يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك قلت: هذا فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت، قال سعد: فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلق في

---

[1] حمزة بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف القرشي الهاشمي، عم رسول الله، وأخوه من الرضاعة، ولد قبل رسول الله بسنتين وأسلم في السنة الثانية من البعثة، شهد بدراً، وأبلى فيها، واستشهد يوم أحد، قتله وحشي، سنة ثلاث للهجرة، لقبه رسول الله بأسد الله، وسماه سيد الشهداء، وقد دفن مع عبدا لله بن جحش في قبر واحد. انظر: ابن حجر – الإصابة – ٣٥٣/١.

[2] سورة النحل – آية ١٢٦،١٢٧.

[3] ابن هشام – السيرة النبوية – ٩٥/٣،٩٦.

[4] عبدا لله بن جحش بن رباب بن يعمر الأسدي، حليف بني عبدشمس، أحد السابقين، هاجر إلى الحبشة، وشهد بدراً، وهو أول أمير في الاسلام، أمره رسول الله على سرية بعثها، وقد دعا الله أن يرزقه الشهادة يوم أحد، فقتل رضي الله عنه، وكان يقال له: المُجَدَّع في الله، انظر: ابن حجر – الإصابة – ٢٧٨/٢.

[5] حرده: غضبه، انظر: "اللسان – مادة حرد".

خيط، وقال الزبير: كان يقال له: المُجَدَّع في الله"[1]، وقد دفن مع حمزه في قبره[2].

فالتمثيل معروف شائع عندهم في جاهليتهم، ويكثر كلما كانت الأحقاد أعمق في النفوس، من ذلك ما حدث لحُذَيْفَة بن بَدْر في يوم جَفْر الهَبَاءَة[3]، حيث قتل،ومُثِّلَ به بطريقة بشعة بذيئة[4]، وذلك لما كان بينه وبين قَيْس بن زُهَيْر[5] من العداوة منذ تسابق داحس والغبراء، حيث ظلم قيساً ورهطه وبغى عليهم، وحين أرادوا الصلح، وجعلوا بعض غلمانهم وصبيانهم رهائن عند رجل من بني ذُبْيَان، فأخذهم حذيفة، فجعل يبرز كل يوم غلاماً، فينصبه غرضاً، ثم يرمي ويقول: ناد أباك. فينادي أباه حتى تخرقه النبل، حتى قتل الغلمان جميعاً[6]، وهكذا حين قدر عليه آباء الغلمان مثّلوا به كما مثّل بالغلمان.

وقد يتجاوز التمثيل الرجال إلى النساء، وهو قليل الوقوع، من ذلك: (بَقْر بطون الحبالى) قال عَامِر بن الطُّفَيْل:

بَقَرْنَا الحَبَالَى مِنْ شَنُوْءَةَ بَعْدَمَا ... خَبَطْنَ بِفَيْفِ الرِّيْحِ نَهْداً وَخَثْعَمَا[7]

---

[1] ابن حجر العسقلاني – الإصابة – ٢/٢٧٨.

[2] ابن هشام – السيرة النبوية – ٣/٩٧.

[3] سبق التعريف بهذا اليوم ـ ٢٧ \

[4] أبو عبيدة – أيام العرب – ٢/٢٢١.

[5] سبق التعريف به ـ ٤٨

[6] أبو عبيدة – أيام العرب – ٢/٢١٢.

[7] ديوانه – ٧٦، يوم فَيْف الريح: كان بين قبائل مَذْحِج، من بني الحَارثِ بن كَعْب وزُبَيْد ومُرَاد وصُدَاء ونَهْد، تعينهم خَثْعَم، عليهم أَنَس بن مُدْرِك الخَثْعَمِي، وعلي بني الحَارِث الحُصَين الحارثي، وبين بني عَامِر بن صَعْصَعة. وعليهم عَامِر بن الطُّفَيل، فالتقوا بمكان يقال له: فَيْفَ الريح، فدارت الدائرة على بني عَامِر، وفي هذا اليوم ذهبت عين عامر بن الطفيل طعنه فيها: مَسْهَرُ بن يَزِيْد الحَارِثِيّ، انظر: أبو عبيدة – أيام العرب – ٢/٤٦٥، النويري – نهاية الأرب – ١٥/٤١٤.

نَهْد: نَهْد بن زَيدِ من قُضَاعة، جد جاهلي قديم: ابن سلام – النسب – ٣٧٥.

خَثْعَم: خَثْعَم اسمه أَفْتَل بن أَفْتَل، من كَهْلان، جد جاهلي قَحْطَاني، انظر: ابن سلام – النسب – ٣٠١.

خبطن: الصواب: (خبطنا) لأن الضمير لا يعود للحبالى،بل للغزاة.

ومنه "ذبح الأطفال". وربما يقصد به اليافعون من الناشئة، وليس مطلق الأطفال، باعتبارهم رجال الغد، يقول المهلهل:

قَدْ ذَبَحْنَا الأَطْفَالَ مِنْ آلِ بَكْرٍ وَقَهَرْنَا كُمَاتَهُمْ بِالنِّضَالِ[1]

وربما يراد بالأطفال الضعفاء، وذلك ما ذكر أبو العباس ثعلب: من أن العرب تسمى كل ضعيف طفلاً، واستشهد بقول الشاعر:

قُلْ لِأَطْفَالِ آلِ بَكْرٍ يُجِيبُوا مَنْ دَعَاهُمْ لِلْحَرْبِ عِنْدَ البِرَازِ[2]

ومما سبق أيضاً ما حدث يوم شِعْب جَبَلَة[3]، حين قتلت بنو عامر يومئذ من تميم ثلاثين غلاماً أغرل[4]، ونكتفي بهذه الإشارات بالنسبة للقتلى، لنتابع ما يحدث للأسرى، وفي البداية نقول: الأسير اسم مأخوذ من الإسار، وهو القيد الذي يشد به الأسير حتى لا يفر[5]، والأسرى هم الرجال المحاربون الذي يهزمون في المعركة ويقعون في يد خصومهم.

والأسرى عندهم صنفان: أسير دم، وأسير لبن[6]، ويعنون بالأول:

الأسير من قبيلة بينها وبين من قبض على ذلك الأسير دماء وثارات.

والنوع الثاني: هو الأسير الذي تطالب القبيلة التي هو في يدها بفداء له، يكون عادة من الإبل.

---

(1) ديوانه – ٧٢.

(2) أبو العباس، أحمد بن يحيى ثعلب (ت٢٩١هـ) – مجالس ثعلب – القسم الأول/٢٦٠. تحقيق: عبدالسلام هارون، دار المعارف – ط٥، ١٩٨٧م، ولم أجد الأطفال بمعنى الضعفاء لافي اللسان ولافي معجم المقاييس.

(3) سبق التعريف به ـ ٩٩

(4) أبو عبيدة – أيام العرب – ٢/٢٥٦، وقد وردت هذه الرواية في الأغاني – ١١/١٥٥، والأغرل: الذي لم يختتن لحداثه سنه (اللسان – غرل) ـ

(5) اللسان – مادة (أسر).

(6) أبو عبيدة – أيام العرب – ٢/٨٢.

فأما بالنسبة لأسيرالدم، فإن مصيره هو (القتل)، من باب الأخذ بالثأر لمن قتل من القبيلة المنتصرة التي حازت الأسير، وليس بالضرورة أن يكون هذا الأسير هو من ارتكب عملية القتل، بل يكفي أن يكون من قبيلة القاتل، وهنا قد يعرض الأسير عليهم فداءه بما يشاؤون من الابل، ولكنهم يرفضون ولا يرضيهم إلا الدم، لا اللبن[1]، من ذلك ما حدث في يوم الكُلاَب الثاني[2] لعَبدِ يَغُوْثِ الحَارِثِيّ[3]، حين وقع في أسر بني تميم، فقتلوه ثأراً لسيدهم: النُّعْمَان بن جَسَّاس[4]، رغم أن عبد يغوث ليس هو من قتله، بل رجل يقال له: عبدا لله بن كعب، وهذا ما عناه عبد يغوث حين قال:

أَقُوْلُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ ... أَمَعْشَرَ تَيْمٍ أَطْلِقُوا عَنْ لِسَانِيَا
أَمَعْشَرَ تَيْمٍ قَدْ مَلَكْتُمْ فَاسْجِحُوا ... فَإِنَّ أَخَاكُمْ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَوَائِيا[5]

---

(1) في قصة أسر عبديغوث الحارثي نجد أنه يستلم لآسره طواعية: "فألقى يده في يده"؛ وذلك لأن آسره أخبره أنه إنما يريد الفداء:"وأنا خير لك من الفلاة والعطش" فاستأسر له عبديغوث، بناء على ظنه بأن الفداء سينقذه، ولكنه عومل بعد ذلك باعتباره أسيردم، فكانت نهايته القتل، انظر: أبو عبيدة – أيام العرب – ٨٢/٢،٨٥.

(2) يوم الكُلاَب الثاني: يوم بين بني تَمِيْم واليمانية، وهم: مَذْحِج وَهَمْدان وكِنْدة، وكان النصر حليف بني تميم، وفي هذا اليوم أسر عبديَغُوث الحارثي المَذْحِجِيّ، والكُلاب ماء لبني تميم أعلاه مما يلي اليمن وأدناه مما يلي العراق، انظر: أبو عبيدة – أيام العرب – ٧١/٢.

النويري – نهاية الأرب – ٤٠٧/١٥.

البكري – معجم ما استعجم – ١٧٣٢/٢.

(3) عَبْدُيَغُوثَ بن وَقَّاص بن صَلاءة الحَارِثِيُّ، من بني الحارث بن كَعْب، ومن قواد يوم الكُلاب الثاني، قتل في الأسر عند بني تميم. انظر: المفضليات – ١٥٥، أبو عبيدة – أيام العرب – ٨٥/٢.

(4) النعمان بن مالك بن الحارث بن جساس، فارس من تَيْم الرباب، قتل يوم الكُلاب الثاني، قتله رجل اسمه عبدا لله بن كعب، أمه من بني حنظلة فقال له حين رماه: خذها وأنا ابن الحنظلية. انظر: ابن سلام – النسب – ٢٤١، أبو عبيده – أيام العرب – ٧٩/٢.

(5) أبو عبيدة – أيام العرب – ٨٥/٢ والقصيدة في المفضليات ت – ١٥٧.

وأما بالنسبة لأسير اللبن، فإنه يظل عند آسيريه مكبلاً مقيداً حتى يرسل أهله بالفداء لمن أسره، وعند ذلك يطلق سراحه، ومقدار الفداء يختلف باختلاف المكانة الاجتماعية للأسير، ففداء الملوك يختلف عن فداء السوقة، وفداء الملك يكون ألف بعير، بل قد يصل إلى ألفي بعير، مثل ما حدث للأَشْعَث بن قَيْس الكِنْدي[1] حين غزا قبيلة مَذْحِج[2]، فوقع في الأسر، ففدى نفسه بألفي بعير، وألف من الهدايا والطرف، فقال عَمْرُو بن مَعْد يكرب[3]:

فَكَانَ فِدَاؤُهُ أَلْفَي قَلُوصٍ ... وَأَلْفاً مِنْ طَرِيفَاتٍ وَتُلْدِ[4]

وكذلك فدى هَوْذَة بن عَلِيّ الحَنَفِي[5] نفسه بثلاثمائة بعير من بني تميم[6]، فقال شاعرهم:

وَمِنَّا رَئِيسُ القَوْمِ لَيْلَةَ أَدْلَجُوا ... بِهَوْذَةَ مَقْرُونَ اليَدَيْنِ إِلَى النَّحْرِ
وَرَدْنَا بِهِ نَخْلَ اليَمَامَةِ عَانِياً ... عَلَيْهِ وِثَاقُ القَدِّ وَالحَلَقِ السَّمْرِ[7]

وينبغي الإشارة في هذا المقام إلى أن العرب كان يفخرون بإطلاق الأسرى دون مقابل، من باب المن عليهم والعفو عنهم، وقد يكون ذلك بسبب شفاعة من أحد ما، أو بسبب مدح يوجه للآسر؛ فيؤثر ذلك في نفسه ويطلق من تحت يده من الأسرى، من

---

(1) الأشعث بن قيس الكندي: صحابي جليل، كان ملكاً في الجاهلية، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان مع علي رضي الله عنه في أيام الفتنة، ابن حجر – الإصابة – ٦٦/١، ابن سلام – النسب – ٣٠٥.

(2) سبق التعريف بها ـ ٤٤ .

(3) سبق التعريف به ـ ٤٤ .

(4) ابن الكلبي – نسب معد واليمن الكبير – ١٤٦/١.

(5) سبق التعريف به ـ ١٠٩ .

(6) تميم: سبق التعريف بها ـ ٣٣ .

(7) أبو عبيدة – أيام العرب – ٦٩/٢.

ذلك إطلاق الحَارِث بن أَبِي شَمِر الغَسَّاني[1] لأسرى من بني تميم، حين مدحه عَلْقَمَة بن عَبَدَة[2]، متشفعاً لأخيه شَاس بقوله:

إِلَى الحَارِثِ الوَهَّابِ أَعْمَلْتُ نَاقَتِي ... لِكَلْكَلِهَا وَالقُصْرَيَيْنِ وَجِيبُ
فَلَا تَحْرِمَنِّي نَائِلاً عَنْ جَنَابَةٍ ... فَإِنِّي امرؤٌ وَسْطَ القِبَابِ غَرِيبُ
وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ ... فَحُقَّ لِشَاسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ

فقال الحارث: "نعم، وأذنبة" ، وأطلق شاساً وأسرى تميم"[3].

وكان في يد ملك من ملوك اليمن أسارى من مُضَر[4] ورَبِيْعة[5] وقُضَاعة[6]، وقدم إليه وفد ليكلموه في شأن الأسرى، فدخل مع الوفد أحد أولئك الأسرى، وكان شاعراً، فمدح الملك، فوهب الأسرى لهم[7]، وكانت العرب تقدر من يفعل ذلك، وتمدحه بهذا الصنيع، فيوصف بأنه: (يَفُكُّ العَانِي)، ويفتخر الشاعر بقبيلته التي تطلق الأسرى بغير فداء، قال لَبِيْد بن رَبِيْعة:

---

(1) الحارث بن جبلة بن أبي شَمِر الغساني: هو الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر، أمه مارية ذات القرطين، كان من خير ملوك الغساسنة وأيمنهم طائراً، وأبعدهم غارة، انظر: جواد علي – ٤٠١/٣.

(2) سبق التعريف به– ٧٨ .

(3) المفضليات – ٣٩٢–٣٩٤.

الكلكل: الصدر. ، القصرين: أسفل الأضلاع، وجيب: اضطراب وخفقان من شدة السير.

خبطت: أعطيت وتفضلت، ذنوب: أصلها الدلو العظيمة والمراد: النصيب والحظ.

(4) مضر: مضر بن نزار بن معد بن عدنان، جد جاهلي، تنسب إليه قبائل عدنانية كبيرة انظر: ابن سلام – النسب – ٢٤٤.

(5) ربيعة: ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، جد جاهلي، تنسب إليه قبائل عدنانية كبيرة. انظر: ابن سلام – النسب – ٣٤٦.

(6) قضاعة: قضاعة بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير، جد جاهلي قديم تنسب إليه قبائل عديدة، مثل:كلب وتنوخ، وجرم، ونهداً، وبلي، وعذرة، انظر: ابن سلام – النسب – ٣٦١.

(7) ابن الأثير – الكامل – ٣١٠/١.

وَعَـانٍ فَكَكْنَـاهُ بِغَـيْرِ سِوَامِـهِ فَأَصْبَـحَ يَمْشِـي فِي الْحَلَّةِ جَاذِلا[1]

وقد يعمدون إلى جز ناصية[2] الأسير قبل إطلاقه؛ دلالة على تمكنهم منه، وإظهاراً لمقدرتهم وسطوتهم، وعفوهم عن مقدرة، وفيها كذلك إذلال لهذا الأسير وبرهنة على عجزه ووقوعه تحت سطوتهم، وقد حدث هذا الأمر – أعني جز الناصية – للعديد من فرسان العرب، فمثلاً: الحارث بن عباد[3] حين أسر المهلهل[4] وهو لا يعرفه، واستطاع المهلهل أن يحصل منه على الأمان، ثم كشف عن شخصيته، فأطلقه الحارث بعد أن جز ناصيته، وذلك في يوم تحلاق اللمم[5]، وكذلك أسر زيدُ الخيل[6] عامرَ بن الطفيل[7] وجَزَّ ناصيته وأطلقه[8]، وأسر كذلك الحطيئة[9] ومعه كَعْب بن زُهَيْر، ثم مَنَّ عليهما وأطلقهما بغير فداء، وحفظ الحطيئة هذا الجميل لزيد الخيل، وذلك أن فَزَارة[10] طلبت من الحطيئة أن يهجوه، فامتنع، فعرضوا عليه مائة ناقة، فأبى، وقال: "وا لله لو

---

(1) ديوانه – .

(2) الجز: حلق الشعر، الناصية: قصاص الشعر في مقدم الرأس "اللسان – نصا".

(3) سبق التعريف به– ١١٨

(4) سبق التعريف به– ٥٦

(5) يوم تحلاق اللمم (التحالق): يوم من أيام حرب البسوس بين بكر وتغلب، وفي هذا اليوم تولى الحارث بن عباد قيادة قومه، فكان النصر حليفهم، ووقع المهلهل في الأسر، ثم أطلق، وقد سمى بالتحالق لأن البكريين حلقوا رؤوسهم ليتميزوا عن عدوهم، انظر: ابن الأثير – الكامل – ٣٢٣/١، النويري – نهاية الأرب – ٤٠٤/١٥.

(6) زيد الخيل: هو زيد الخيل بن مهلهل بن زيد الطائي؛ وفد على رسول الله سنة تسع للهجرة وأسلم وسماه: (زيد الخير) كان شاعراً خطيباً شجاعاً كريماً أحد شعراء الجاهلية وفرسانها المعدودين – الإصابة – ٥٥٥/١.

(7) سبق التعريف به– ٦١

(8) الأصفهاني – الأغاني – ٢٦٥/١٧.

(9) سبق التعريف به– ٤٣

(10) سبق التعريف بها– ٨٧

جعلتموها ألفاً ما فعلت، اطلبوا غيري، فقد حقن دمي، وأطلقني بغير فداء، فلست بكافر نعمته أبدا"[1].

وقد ذكر ذلك حَسَّان بن ثابت:

كَمْ مِنْ أَسِيْرٍ فَكَكْنَاهُ بِلا ثَمَنٍ ... وَجَزَّ نَاصِيَةٍ كُنَّا مَوَالِيْهَا[2]

ورغم إعجاب العرب بمن يطلق الأسرى ويعفو عنهم، فإن الأمر لم يكن يخلو من وقوع التجاوزات والشطط في التعامل مع الأسرى، ولعل وقع الحياة الحربية الرهيب كان له تأثيره المرير على موقفهم من الأسرى، فالعداوات المستحكمة، والثارات الطويلة، وتنازع السلطة، كل هذه الأسباب وغيرها تشعل في النفوس نيران الأحقاد والرغبة في الانتقام، مما يجعلهم يتحرفون عن الشيم التي يحبوبها في بعض المواقف، ويظهر لنا هذا بوضوح في العلاقات بين ملوك شبه الجزيرة وحروبهم وما يفعلونه بأسراهم الذين يرون أنهم يمثلون خطراً على سلطانهم وملكهم، من ذلك ما فعله المُنْذِرُ بن مَاءِ السَّمَاء[3]، حين وقع في أسره ثمانية وأربعون نفساً من بني آكل المُرار[4]، فقتلهم في ديار "بني مَرِيْنَا[5]" وفيهم يقول امرؤ القيس:

مُلُوْكاً مِنْ بَنِي حُجْرِ بنِ عَمْرٍو ... يُسَاقُونَ العَشِيَّةَ يُقْتَلُوْنَا
فَلَوْ فِي يَوْمِ مَعْرَكَةٍ أُصِيْبُوا ... وَلكِنْ فِي دِيَارِ بَنِي مَرِيْنَا
وَلَمْ تُغْسَلْ جَمَاجِمُهُمْ بِغُسْلٍ ... وَلكِنْ فِي الدِّمَاءِ مُرَمَّلِيْنَا
تَظَلُّ الطَّيْرُ عَاكِفَةً عَلَيْهِمْ ... وَتَنْتَزِعُ الحَوَاجِبَ وَالعُيُوْنَا[6]

---

[1] الأصفهاني – المصدر نفسه – ٢٦٨/١٧.

[2] ديوانه – ٢٥٩.

[3] سبق التعريف به.

[4] آكل المُرار: هم بنو حُجر بن عمرو الكندي، ملوك كِنْدة.

[5] بني مَرِينا: طائفة من أهل الحيرة، ينسب إليهم الدير الذي قتلوا على مقربة منه.

[6] ابن الأثير – الكامل – ٣٠٥/١. وتشير بعض الروايات إلى أنهم كانوا اثني عشر أميراً، انظر: جواد علي – تاريخ العرب – قبل الإسلام – ٢٢٤/٣.

وفي حادثة أخرى يباغت المُنْذِر بن ماء السماء[1] ابنا للحَارِث بن جَبلة[2] يَكْلأُ[3] خيله في البادية، فيأسره، ويقدمه – على ما يقوله بروكوبيوس – ضحية إلى العُزَّى[4]، وفي زمن المنذر بن امريء القيس[5] وقع يوم أُوَارَة الأول[6]، بين هذا الملك وبين بكر بن وائل[7] التي خرجت عن طاعة المنذر، وأذعنت لسلمة بن الحارث الكندي[8]، فحلف المنذر لئن ظفر بهم ليذبحنهم على قلة جبل أُوَارة[9] حتى يبلغ الدم الحضيض وهذا ما حدث، فقد انتصر عليهم، ووقع في أسره يزيد بن شرحبيل الكندي[10]، فقتله، وكذلك وقع في أسره أسرى كثيرون من بكر، فأمر بهم فذبحوا على جبل أوارة، فجعل الدم يجمد، فقيل له: أبيت اللعن، لو ذبحت كل بكري على وجه الأرض، لم تبلغ دماؤهم الحضيض، ولكن لو صببت عليه الماء، ففعل فسال الدم إلى الحضيض، وأما السبايا فأمر بهن أن يحرقن، فشفع فيهم رجل قيسي كان منقطعاً إلى المنذر، ولذلك افتخر به الأعشى فقال:

وَمِنَّا الذي أَعْطَاهُ فِي الجَمْعِ رَبُّهُ ... عَلَى فَاقَةٍ وَلِلْمُلُوكِ هِبَاتُهَا
سَبَايَا بَنِي شَيْبَانَ يَوْمَ أُوارةٍ ... عَلَى النَّارِ إِذْ تُجْلَى لَهُ فَتَيَاتُهَا[11]

---

[1] سبق التعريف به ـ ٥٧ .

[2] الحارث بن جبلة الغساني، أحد ملوك الغساسنة.

[3] يكلأ: يرعى خيله، انظر: اللسان – مادة "كلأ".

[4] جواد علي – المرجع السابق – ٢٢٤/٣.

[5] سبق التعريف به ـ ٥٧

[6] يوم أوارة الأول: انظر ابن الأثير ٣٣٤/١.

[7] سبق التعريف بهم ـ ٥٦

[8] سلمة بن الحارث بن عمرو الكندي، أحد ملوك كندة على بني تغلب والنمر بن قاسط، ابن الأثير ٣٣٢/١.

[9] جبل أوارة = في ديار بني تميم: انظر = البكري – معجم ما استعجم – ٢٠٧/١.

[10] يزيد بن شرحبيل الكندي: أحد ملوك كنده على بكر بن وائل، ابن الاثير – ٣٣٣/١.

[11] ابن الأثير – الكامل – ٣٣٤/١، والأبيات في ديوان الأعشى – ص٨٠

ومن الظلمة المسرفين: عمرو ابن هند، وهو ابن المنذر بن امريء القيس السابق ذكره، وقد كان عمر ابن هند يلقب بـ (مُحَرِّق)؛ وذلك أنه غزا بني دارم من تميم؛ لأن رجلاً منهم قتل ابن عمرو ابن هند الذي كان مسترضعاً في بني دارم واسمه (أَسْعَد)، وهرب ذلك القاتل، فغزاهم ووقع في يده تسعة وتسعون رجلاً، وكان حلف ليحرقن منهم مائة، فأحرق تسعة وتسعين رجلاً، "فاجتاز رجل من البَرَاجِم[1]، فشمَّ قتار اللحم، فظن أن الملك يتخذ طعاماً، فقصده، فقال: من أنت؟، قال: أبيت اللعن، أنا وافد البَرَاجم، فقال: إن الشقي وافد البَرَاجم، ثم أمر به فقذف في النار، وصاروا يعيرون بذلك، قال جرير يعير الفرزدق:

أَيْنَ الذِيْنَ بِنَارِ عَمْرٍو حُرِّقُوا ... أَمْ أَيْنَ أَسْعَدُ فِيكُمَ المُسْتَرْضَعُ[2]

وكذلك قتل الحَارِثُ الغَسَّانِيُّ[3] ابن السَمَؤْل بن عَادِيَاء[4]، الذي وقع في أسره؛ لأن أباه لم يسلم أدرع امريء القيس الكندي[5] التي استودعها عنده[6]، وفي ذلك قال الأعشى:

كُنْ كَالسَّمَؤْلِ إِذْ طَافَ الهُمَامُ بِهِ ... فِي جَحْفَلٍ كَسَوَادِ اللَّيْلِ جَرَّارِ
إِذْ سَامَهُ خُطَّتَيْ خَسْفٍ، فَقَالَ لَهُ: ... قُلْ مَا تَشَاءُ، فَإِنِّي سَامِعٌ حَارِ
فَقَالَ: غَدْرٌ، وَثُكْلٌ أَنْتَ بَيْنَهُمَا ... فَاخْتَرْ، فَمَا فِيهِمَا حَظٌّ لِمُخْتَارِ
فَشَكَّ غَيْرَ طَوِيلٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: ... اقْتُلْ أَسِيْرَكَ، إِنِّي مَانِعٌ جَارِي[7]

---

(1) البَرَاجم، قوم من بني تميم، يعود نسبهم إلى أبناء حنظلة بن مالك، وهم خمسة أخوة: عمرو، والظليم، وكلفة، وغالب، وقيس، فالبراجم هم هؤلاء الخمسة، انظر: ابن سلام – النساب، ٢٣٢.

(2) ابن الأثير – الكامل – ٣٣٥/١، وقد ورد خبر هذه الوقعة عند أبي عبيدة – أيام العرب – ٥٨٦/٢.

(3) سبق التعريف به ـ ١٤٤ .

(4) السموءل بن عادياء الأزدي: شاعر جاهلي حكيم من سكان خيبر، كان ينتقل بينها وبن حصنه (الأبلق) وقصة وفائه مع امريء القيس الشاعر معروفة. الزركلي – الأعلام – ١٤٠/٣.

(5) سبق التعريف به ـ ٤

(6) ابن الأثير – المصدر نفسه – ٣١٠/١.

(7) ابن الأثير – نفس المصدر والجزء والصفحة، والأبيات في ديوان الأعشى – ١٧٦.

وفي الحروب بين القبائل العربية يقع مثل ذلك من التجاوزات والإسراف في معاملة الأسرى؛ لما تورثه الحروب عادة من تأجج الأحقاد والكراهية، والرغبة في الانتقام، ففي يوم جَبَلَة[1] بين تميم وبني عَامِر[2]، حين انتصرت بنو عامر قتلت من تميم ثمانين غلاماً أغرل[3]، وفي يوم الفُرَات[4] حين أغار المُثَنَّى بن حَارِثة الشيباني على بني تغلب وهم عند الفُرَات فظفر بهم، فقتل من ظفر به من مقاتلهم[5]، وفي يوم جَزْع ظِلَال[6] أغارت فَزَارة[7] على التَّيْم[8]، فقتلوهم قتلاً لم يقتلوه أحداً، وأخذوا سبياً كثيراً فقتلوهم"[9]، وإذا نجا الأسير من القتل بعد المعركة، فإن احتمال تعرضه للمعاملة السيئة يظل قائماً، ومن أظهر أسباب المعاملة السيئة، محاولة اجباره على مفاداة نفسه، والإقرار بما لديه من إمكانات تسهل عملية الفداء، قال عمرو بن معد يكرب[10] مفتخراً بتخليصه الأسرى من عذابهم:

أَلَمْ تَرَنِي إِذْ ضَمَّنِي البَلَدُ القَفْرُ ... سَمِعْتُ نِدَاءً يَصْدَعُ القَلْبَ: يَا عَمْرُو
أَغِثْنَا فَإِنَّا عُصْبَةٌ مَذْحِجِيَّةٌ ... نُنَاطُ عَلَى وَفْرٍ، وَلَيْسَ لَنَا وَفْرُ[11]

---

(1) سبق التعريف به ـ ٩٩ .

(2) سبق التعريف بهما ـ ٤٨ .

(3) أبو عبيدة – أيام العرب – ٢٥٦.

(4) يوم الفُرَات: يوم أغار فيه المثنى الشيباني على بني تغلب، فظفر بهم، فقتل مقاتلتهم، وغرق كثير منهم بالفرات، وأخذ أموالهم وقسمها بين أصحابه، انظر: أبو عبيدة – أيام العرب – ٦٠٤/٢.

(5) أبو عبيدة، المصدر نفسه – ٦٠٤/٢.

(6) يوم جَزْع ظلال: يوم لبني فَزَارة على التيم، انظر: أبو عبيد: – أيام العرب – ٥٩٦/٢.

(7) سبق التعريف بها ـ ٨٧ .

(8) التيم: تيم بن عبد مناة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر، وهم فرع من تميم، انظر: ابن سلام – النسب – ٢٤١

(9) أبو عبيدة، أيام العرب – ٥٩٧/٢.

(10) سبق التعريف به ـ ٤٤ .

(11) ديوانه – ١٠٤، نناط: نعلق، الوفر: المال الكثير.

فالأبيات تصور لنا استغاثة مجموعة من الأسرى المنتسبين لقبيلة مَذْحِج اليمنية[1]، وهي قبيلة الشاعر أيضاً، فهم ينادون فيه الحمية والعصبية القبلية؛ كي ينقذهم من الأسر، وما يلاقون فيه من هوان وتعذيب، فيقولون: أغثنا، فنحن نعذب بتعليقنا لندفع فدية باهظة، ونحن لا نملك مثل هذه الفدية.

وفي يوم رَحْرَحَان الثاني[2]، بين بني تميم[3] وبني عَامِر[4]، يقع معبد بن زرارة التميمي[5] في الأسر، ويفد أخوة لَقِيْطُ بن زُرارة[6] لمفاداته، فيعرض مائتي بعير، فيرفض آسرو أخيه، ويصرون على فدية ملك، ولكن لقيطاً يتمسك برأيه، ويأبى دفع الدية التي تم تحديدها، ويظل معبد في الأسر حتى مات، فيروى أنهم حين يئسوا من فدائه "شدوا عليه القد، وبعثوا به إلى رجل بالطائف كان يعذب الأسرى، فقطعه إرباً حتى قتله، وقيل: بل وضعوه في حصن بالطائف، فجعلوا إذا سقوه قراه ليشرب، ضَمَّ بين فَقْمية[7]، وقال: أأقبل قراكم وأنا في القِدِّ[8] أسيركم؟ فلما رأوا ذلك عمدوا إلى

---

(1) سبق التعريف بها ـ ٤٤ .

(2) يوم رَحْرَحَان الثاني: لبني عامر بن صعصعة ورئيسهم الأحوص، على بني دارم من تميم، وفي هذا اليوم أسر معبد بن زرارة، وقد مات في الأسر، حيث شدوا عليه القد، وبعثوا به إلى الطائف خوفاً من أن يستنقذه بنو تميم، فلما انقضت وقعة رحرحان جمع لقيط لبني عامر، وألب عليهم فكان يوم جبلة، وفيه قتل لقيط، وبين يوم رحرحان ويوم جبلة سنة واحدة. انظر:

أبو عبيدة – أيام العرب – ١٢٧/٢.

أبو علي، الحسن بن رشيق القيرواني – العمدة – ٢٠٩/٢، تحقيق محي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت ط٥ ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(3) سبق التعريف بهم ـ ٣٣ .

(4) سبق التعريف بهم ـ ٤٨ .

(5) معبد بن زرارة بن عدس التميمي.

(6) لقيط بن زرارة بن عدس التميمي، من سادة بني تميم.

(7) فقمية: لحييه، انظر: اللسان – مادة "فقم".

(8) القد: السير من الجلد غير المدبوغ، انظر: اللسان – مادة "قدد".

شِظَاظٍ[1] فَأَوْلَجُوه في فيه، فَشَجُوا به فاه، ثم أَوْجَرُوه[2] اللبن؛ رغبة في فدائه، وكراهية أن يهلك، فلم يزل حتى هلك في القِدِّ، وقيل: بل سقوا معبداً الماء، وضاروه حتى هلك هزلاً"[3]. وجميع هذه الروايات تظهر سوء معاملة الأسير، واستخدام العنف والقسوة معه، وقد ذكر عَامِر بن الطُّفَيْل[4] هذه النهاية لأسيرهم مفتخراً بذلك، حيث قال:

قَضَيْنَا الحَزْنَ مِنْ عَبْسٍ وَكَانَتْ ... مَنِيَّةُ مَعبَدٍ فِينَا هُزَالاَ[5]

ويرد في الشعر الجاهلي لوم قوم ما لامتناعهم عن سقي الأسير حتى يهلك عطشاً، قال عبدا لله بن ثور[6]:

هَلاَّ سَقَيْتُمْ بَنِي بَدْرٍ أَسِيْرَكُمُ ... لَا يَبْرَحِ الدَّهْرُ فِي أَجْوَافِكُمْ غُلَلُ[7]

وكانت بنو نَهْد[8] قد أخذت أسيراً اسمه: جفنة بن قتيرة السَّكوني من كِنْدة[9]، فمات عندهم عطشاً، فقالت النائحة ترثيه:

أَلاَ سَقَيْتُمْ بَنِي نَهْدٍ أَسَيْرَكُمُ ... وَقَدْ يُمَنُّ عَلَى الأَسْرَى وَقَدْ يَسَعُ
يَا فَارِساً مَا قَتَلْتُمْ غَيْرَ جَفْنَتِهِ ... وَلاَ هيوب إِذَا مَا حَدَّقَ الفَزَعُ[10]

---

(1) شظاظ: خشبية عقفاء محددة الطرف "اللسان – شظاظ".

(2) أوجروه: جعلوه يتجرّع الشراب وهو كاره "اللسان – وجر".

(3) أبو عبيدة – أيام العرب – ١٣٨، ١٣٩.

(4) سبق التعريف به ص ٦١

(5) ابن الأثير – الكامل – ١/٣٤١، وفي ديوانه ص ٦٩، شرح: يوسف عيد.

(6) عبدا لله بن ثور العامري، شاعر جاهلي مقل. انظر: يحيى جبوري – قصائد جاهلية نادرة – ١٥٣.

(7) يحيى جبوري – قصائد جاهلية نادرة – ١٥٩.

(8) سبق التعريف بهم ص ١٦٧

(9) كِنْدة: جد جاهلي قحطاني قديم اسمه: ثور بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد، وسمي كندة، لأنه كند أباه أي كفره، انظر: ابن سلام – النسب – ٣٠٤.

(10) ابن الكلبي – نسب معد واليمن الكبير – ١/١٨٣.

وقالت أخت عمرو بن عاصية السلمي ترثيه، وكان بنو سَهْم[1] – وهم بطن من هُذَيل – قد أسروه في غزوة لهم، فاستسقاهم، فمنعوه، وقتلوه على عطشه:

هَلَّا سَقَيْتُمْ بَنِي سَهْمٍ أَسِيرَكُمُ ... نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ ذِي غُلَّةٍ صَادِي
الطَّاعِنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلَاءَ يَتْبَعُهَا ... مُضَرَّجٌ بِعَدَمَا جَادَتْ بِإِزْبَادِ[2]

وفي العادة يقومون بعد انتهاء المعركة بشد الأسرى بالقيود، ويجعلونهم يسيرون على أقدامهم بجانب مطاياهم في رحلات قد تمتد مسافات طويلة، قال عبدا لله بن ثور شامتاً في أعدائه:

أَخَذْنَاكُمْ يَوْمَ الجَرِّ فَكُنْتُمْ ... نهاباً وَسَبْياً بيننا مُتَقَسَّما
وَرُحْتُمْ بِأَعْضَادِ المَطَايَا جنابنا ... تَشَكَّوْنَ مَصْحُوباً مِنَ القِدِّ مُحْكَما[3]

وحين أشرق نور الإسلام، أمر المسلمون بالإحسان إلى الأسرى، قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾[4]، وفي غزوة بدر[5] يروي أبو عزيز بن عمير، أخو مُصْعب بن عمير[6] – وكان في بَدْر على الشرك – كيفية معاملة المسلمين له، فيقول: "كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز، وأكلوا التمر، لوصية الرسول صلى ا لله

---

[1] بنو سهم بن معاوية بن تميم بن سعد بن هذيل، انظر: ابن سلام – النسب – ٢٣٠.

[2] الأصفهاني – الأغاني – ١٢٧/١٢.

[3] يحيى الجبوري – المرجع السابق – ١٨٩.

[4] سورة الإنسان – آية ٨.

[5] غزوة بدر: في السابع عشر من رمضان في السنة الثانية للهجرة، وهي أول معركة في الاسلام، أعز ا لله فيها جنده، وتسمى يوم الفرقان، انظر – ابن هشام – السيرة – ٦٠٦/٢.

[6] مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، أسلم قديماً، وكتم إسلامه، ثم علم أهله فحبسوه، ولكنه هرب إلى الحبشة. ثم رجع، ثم هاجر إلى المدينة، شهد بدراً وشهد أحداً ومعه اللواء فاستشهد رضي ا لله عنه، انظر: الإصابة – ٤٠١/٣.

عليه وسلم إياهم حين قال: "استوصوا بالأسارى خيرا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، قال: فاستحي فأردها على أحدهم، فيردها علي ما يمسها"[1].

وحين ننتقل للحديث عن السبايا، نجد أن العرب في غاراتهم يحرصون على حيازة السبايا من النساء الحرائر في القبيلة المعادية؛ إمعاناً في الإذلال وإرغام الأنوف، لأنهم يعلمون أن من أشد الأمور إيلاماً للرجال وقوع محارمهم في الأسر. من ذلك ما ترويه كتب الأيام عن دوافع يوم الكُلاب الثاني[2] بين تَمِيم[3] ومَذْحِج[4]، ومن ضمنها "السبايا" فهذا أحدهم يحسن لهم الغزو فيقول: "هل لكم في جارية عذراء، ومهرة شوهاء، وبكرة حمراء، ليس دونها نكبة، تلك تميم القاء مطروحون بقِدَّة"[5]، ولذا كانت حرائر القبيلة حين تفزعهن الغارة يخرجن مذعورات من خدورهن ويكشفن وجوههن تشبهاً بالإماء، ولذا قال عمرو بن معد يكرب:

لَمَّا رَأَيْتُ نِسَاءَنَا ... يَفْحَصْنَ بِالمَعْزَاءِ شَدَّا
وَبَدَتْ لَمِيسُ كَأَنَّهَا ... بَدْرُ السَّمَاءِ إِذَا تَبَدَّا
نَازَلْتُ كَبْشَهُمُ وَلَمْ ... أَرَ مِنْ نِزَالِ الكَبْشِ بُدَّا[6]

يصور هذه المحبوبة الغالية على نفسه، "وقد خرجت سافرة عن وجهها تشبهاً بالإماء حتى تأمن السباء"[7]، ولذا كان أعظم دافع لديهم للاستبسال والتقدم في ميادين الوغى هو: حماية أعراضهم، وإذا أرادوا أن يستميتوا في غارة ما اصطحبوا معهم

---

(1) ابن هشام – السيرة النبوية – ٦٤٥/٢.

(2) سبق التعريف به ـ ١٣٢ .

(3) سبق التعريف بهم ـ ٣٣ .

(4) سبق التعريف بهم ـ ٤٤ .

(5) أبو عبيدة – أيام العرب – ٧٤. قِدَّة: ماء بالكلاب، أعلاه مما يلي اليمن، وأسفله مما يلي العراق، انظر معجم ما استعجم ١١٣٢/٢.

(6) ديوانه – ص٦٤، المعزاء: الأرض الحزنة ذات الحجارة.

(7) حاشية ديوان عمرو بن معد يكرب – ص٦٤.

نساءهم؛ ليكون ذلك مدعاة للثبات ومنازلة الأعداء بكل شجاعة وحمية، ذوداً عن أعراضهم وأهليهم، وربما كان هذا الخوف الشديد على المرأة من أسباب ظاهرة الوأد التي وجدت في المجتمع العربي في الجاهلية، وهو من المغالاة المسرفة في المحافظة على الشرف، وحين يقع المحظور وتصبح المرأة في يد آسريها، لا يبقى لها من ملجأ إلا دموعها الغزيرة التي تذرفها بحرقة وأسى لما آل إليه حالها، ولا تشفع لها تلك الدموع، فتكبل بالقيود الشديدة المحكمة في اليدين والرجلين، قال النَّابِغة الذُّبْيَاني[1] مصوراً ما انتهت إليه غارة توجت بالنصر:

لَمْ يَبْقَ غَيْرُ طَرِيْدٍ غير منفلتٍ ... أَوْ موثقٍ في حِبَالِ القِدِّ مَسْلُوْبِ
أَوْ حُرَّةٍ كَمَهَاةِ الصَّيْدِ قَدْ كُبِلَتْ ... فَوْقَ المَعَاصِمِ مِنْها والعَرَاقِيْبِ
تَدْعُو قُعَيْناً وَقَدْ عَضَّ الحديدُ بِهَا ... عَضَّ الثِّقَافِ عَلَى صُمِّ الأَنَابِيْبِ[2]

وبعد ذلك يرحلون بالسبايا إلى بلادهم، وقد يردفونهن على المطايا، ثم يسيرون بهن سيراً عنيفاً، لا تواني فيه، ولا رحمة لضعف النساء، وقد يفخرون بذلك، قال بِشْر بن أبي خَازِم[3]:

بَنِي عَامِرٍ إِنَّا تَرَكْنَا نِسَاءَكُمْ ... مِنَ الشَّلِّ وَالإِيْجَافِ تدمى عُجُوْبُهَا[4]

---

[1] سبق التعريف به ـ ٣٩ .

[2] ديوانه – ٤٣، ٤٤، قُعَين: قُعَين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد، من بطون بني أسد، انظر: ابن سلام – النسب – ٢٢٦ الثقاف: آلة تسوى بها قنوات الرماح.

الأنابيب: كعب في العصا.

[3] سبق التعريف به ـ ٧١

[4] أبو عبيدة – أيام العرب – ٥٣٦، الشل: طرد الإبل وحثها "اللسان – شل".

الإيجاف: سرعة سير الإبل، وحثها المستمر على ذلك "اللسان – وجف".

عجوبها: جمع عجب، وهو أصل الذنب وعظمه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب" – اللسان – عجب.

بل قد يصل الأمر بالبعض إلى إجبار السبية أن تسير على الأقدام، في حالة مزرية مثل ما فعل عرعرة بن عاصية السلمي حين غزا هذيلا[1] ليثأر لأخيه عمرو بن عاصية السلمي، فالتقوا، واقتتلوا قتالاً شديداً، وأصابوا امرأة من هذيل، فعرّوها من ثيابها، واستاقوها مجردة، فأفحشوا في ذلك، وقالت المرأة:

أَلَامَتْ سُلَيْمٌ فِي السِّيَاقِ وَأَفْحَشَتْ ... وَأَفْرَطَ فِي السَّوْقِ العَنِيفِ إِسَارُهَا
لَعَلَّ فَتَاةً مِنْهُمُ أَنْ يَسُوقَهَا ... فَوَارِسُ مِنَّا، وَهْيَ بَادٍ شَوَارُهَا[2]

ومنذ ذلك اليوم الذي تقع المرأة فيه في الأسر، فإنها تصبح رقيقاً مملوكاً لمن أسرها بعد أن يقسمن بين المنتصرين مثل بقية الغنائم، وهكذا وبعد حياة الشرف والكرامة والرفاهية عند آلها، تجد السبية نفسها تخدم أعداءها، بل قد يجعلونها تخدم خدمهم وأجراءهم؛ إمعاناً في الإذلال، قال النَّابِغة الذُّبْيَاني يصف السبايا:

عَذارى يسحبن الذيولَ كأنَّها ... مَعَ القَوْمِ يَنْصِفنَ العَضَارِيطَ، رَبْرَبُ[3]

وكذلك فإن قلة الغذاء أمر وارد، فيبدو الجوع والهزال على هيئات السبايا، حتى ليشبهن بالسعالي، قال امرؤ القيس:

أَنَّا تَرَكْنَا مِنْكُمُ قَتْلَى بخو ... عي، وسَبَايَاً كالسَّعَالي
يَمْشِينَ فِي أَرْجِلِنَا مُعْتَرِفَا ... تٍ بِجُوعٍ وَهُزَالِ[4]

---

(1) سبق التعريف بها ـ ٤٩ .

(2) الأصفهاني – الأغاني – ١٢٨/١٢، ألامت: فعلت ما تستحق عليه اللوم، شوارها: عورتها "اللسان – شور"

سليم: هم بنو سليم بن منصور بن عكرمة، من قيس عيلان، ابن سلام – النسب – ٢٥٣.

(3) علي الجندي – الحرب في الشعر الجاهلي – ٨٧، ينصفن: يخدمن، العضاريط: الخدم والأجراء.

(4) ديوانه – ٢١٠، خوعي: موضع بالحجاز، انظر: البكري – معجم ما استعجم – ٥١٨/١.
تحقيق: أبو الفضل إبراهيم .
شبه السبايا بالغيلان لما نالهن من البؤس والجوع، وورد البيت كذلك في الديوان - تحقيق: حسن السندوبي دار إحياء العلوم ، ط١ ، ١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م _ ص٢٠٦ .

ومن أقسى ما عوملت به المرأة السبية، ما عاملها به المنذر بن امريء القيس[1] في يوم أُوَارَة الأول[2]، حين أمر بسبايا شيبان[3] أن يحرقن، لولا أن شفع فيهن رجل قيسي كان منقطعاً إلى المنذر، وهذا مراد الأعشى حين قال مفتخراً:

وَمِنَّا الذِي أَعْطَاهُ فِي الجَمْعِ رَبَّهُ ... عَلَى فَاقَةٍ وَلِلْمُلُوكِ هِبَاتُهَا
سَبَايَا بَنِي شَيْبَانَ يَوْمَ أُوَارَةٍ ... عَلَى النَّارِ إِذْ تُجْلَى لَهُ فَتَيَاتُهَا[4]

ولكن ينبغي التنبيه إلى أن القسوة في معاملة المرأة السبية ليست القاعدة السائدة، بل نجد في كثير من الأحيان أن آسرها يحاول إرضاءها، وقد تصبح زوجة له تعامل باحترام وعطف، ولكنها رغم ذلك تظل تتحين الفرص للهرب والعودة إلى أهلها،مثل ما فعلت المرأة التي سباها عُرْوَة بن الوَرْد[5]، وتدعى سَلْمى، من بني كِنَانَة[6]، فأعتقها واتخذها لنفسه، فمكثت عنده بضع عشرة سنة، وولدت له أولاداً، وهو لايشك في أنها أرغب الناس فيه، وحدث أن طلبت منه أن تحج، وتمرّ على أهلها وتراهم، فحجّ بها، ثم أتى يثرب، وكان أهلها يخالطون بني النضير[7]، فقدم إليهم، فسقوه الشراب حتى ثمل، ثم حسنوا له أن يفاديها، على أن يعيدوها إليه، باعتبار أن السبي سبة عليهم، فوافق، فلما جاء الغد وصحا، امتنع عن فدائها، فشهد عليه جماعة ممن حضر، ففاداها، ثم خيرها، فاختارت أهلها، وقالت له: "يا عروة أما إني أقول فيك – وإن فارقتك – الحق، وا لله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك، وأغض طرفاً،وأجود يداً، وأحمى حقيقة، وما مَرَّ عليَّ يوم منذ كنت عندك، إلا والموت أحب إلي من الحياة بين

---

(1) سبق التعريف به ـ ٥٧ .

(2) سبق التعريف به ـ ٥٧ .

(3) بنو شيبان: شيبان بن ثعلبة بن عكابة من بكر بن وائل: ابن سلام – النسب – ٣٤٦.

(4) ابن الأثير – الكامل – ٣٣٤/١، ووردت في ديوان الأعشى – ص٨٠

(5) سبق التعريف به ـ ٧٦ .

(6) سبق التعريف بهم ـ ٣٣ .

(7) بنو النضير: إحدى قبائل اليهود التي كانت تقطن المدينة قبل الإسلام، ابن هشام – السيرة النبوية.

قومك، لأني لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول: قالت أمة عروة كـذا وكـذا، إلا سمعته، فارجع راشداً إلى ولدك فأحسن إليهم" فقال عروة:

أَطَعْـتُ الآمِرِيْـنَ بِصَـرْمِ سَـلْمَى ... فَطَـارَوا فِي عِضَـاةِ اليَسْـتَعُوْرِ
سَـقَوني النَّـسْءَ، ثُـمَّ تَكَنَّفُونِـي ... عُـدَاةَ اللهِ مِـنْ كَـذِبٍ وَزُوْرِ
وَقَـالُوا: لَسْـتَ بَعْـدَ فـداءِ سَـلْمى ... بِمُغْـنٍ مَـا لَدَيْـكَ وَلاَ فَقِـيْرِ
أَلاَ وَأَبِيْـكَ، لَـوْ كَـالْيَوْمِ أَمْـرِي ... وَمَـنْ لَـكَ بـالتدبر في الأمـور
إِذاً لَمَلَكْـتُ عصمـةَ أُمِّ وَهْـبٍ ... عَلَى مَا كَانَ مِنْ حَسَكِ الصُّدُوْرِ[1]

وإذا لم تجد للهرب سبيلاً، فإنهـا تلجأ إلى المـوت، وتـأبى حيـاة الأسـر والمهانـة، فهـذه فَاطِمَةُ بنت الخَرْشَبِ[2] تفضل الانتحـار علـى عـار السـبي، وذلـك" أن حَمَـلَ بـن بَدْر الفَزاري أغار على بني عَبْس[3]، فظفر بفاطمة بنت الخُرْشُب أم الرَّبيع بن زِيَاد وإخوتـه راكبة على جمل لها فقادها بجملها، فقالت له: أي رجل ضَلَّ حلمك، وا لله لئن أخذتـني لا يكون بينك وبين بني زِيَاد صلح أبدا، وحسبك من شَرٍّ سماعه، قال: فإني أذهب بك حتى ترعي علي إبلي، فلما أيقنت أنه ذاهب بها رمت بنفسها على رأسـها مـن البعـير، فماتت، خوفاً من أن يلحـق بنيهـا عـار فيهـا"[4]. ومـن أعظـم المنـن وأجلهـا أن يطلـق المنتصر من وقع في يده من السبايا، فإن لمثل هذا الموقف أثره البالغ في نفـوس أهليهـن، ويظل هذا الجميل ماثلاً في نفوسهم، يحفظونه لمن قدمه إليهم.

---

(1) ديوانه – ص٦٤ اليستعور: موضع فيه عضاة وطلح، النسء: المسكر، يقال لكل مسكر نسء (اللسان - نسأ)

(2) هي فاطمة بنت الخُرْشُب الأَنْمَارية، من غَطَفَان، منجبة جاهلية يضرب بهـا المثـل: "أنجـب مـن فاطمـة" كـانت امرأة زياد بن سفيان العبسي، وولدت له أربعة أبناء يوصفون بالكملة، وهم: الربيع الكامل، وقيس الحفـاظ، وعمارة الوهاب، وأنس الفوارس.

انظر: الزركلي – الأعلام – ١٣٠/٥.

(3) سبق التعريف بهم– ٤٧ .

(4) الأصفهاني – الأغاني – ١٨٧/١٧، وأبو عبيدة – أيام العرب – ٢٠١/٢.

٢- الطبقية في المجتمع الجاهلي:

يظن الكثير من الناس أن مجتمع العرب في العصر الجاهلي لم يعرف الطبقية، وأن أفراده كانوا سواسية في نظر المجتمع، ولكن الباحث المتأمل يجد نفسه مجبراً على الوقوف المتأني أمام العديد من النصوص والإشارات، التي تهيء له فهماً أعمق لطبقات مجتمع العرب في الجاهلية، فعرب الجاهلية كانت لديهم ملامح من الإسراف فيما يتعلق بالنظرة الاجتماعية، بل إننا لنكاد نلمح لديهم اعتقادات غريبة تذكرنا بنظرية (الدم الأزرق)، فهم قد آمنوا بأن بعض الناس، بطبيعة ميلادهم، أشرف من سائرهم، وظلت تلك عقيدتهم حتى جاء الاسلام وحاربها، ودعا لهدمها، وقد أشار إلى إسرافهم في هذه الجانب د. النويهي بقوله: "كانوا يؤمنون قبل الإسلام بأرستقراطية[١] مسرفة، تساوي في إسرافها الأرستقراطية الإنجليزية في العصر الفكتوري[٢]، حين كان الإنجليز يؤمنون بأن بعض الدماء (زكية) أو (زرقاء) بطبيعة وراثتها"[٣].

وهذا الرأي لم نقل به جزافاً، بل لقد رجحته الكثير من الدلائل، وأوضح تلك الدلائل ما يتعلق بالملوك، فقد رأوا فيهم طبقة رفيعة متميزة عن سائر الناس، فكانت دية الملوك تختلف عن دية السوقة، وكذلك فإن فدية الملوك تختلف عن فدية من سواهم، فأما الديات فهي تتفاوت حسب الطبقة التي ينتمي إليها القتيل، فقد جعلوا دية الملوك ألفاً من الإبل، تليها في الثمن ديات الأشراف وسادات القوم حسب الشرف والمنزلة، حتى تصل إلى ديات المغمورين المطمورين فتكون أقلها ثمناً، إذ تبلغ خمساً من الإبل[٤].

---

(١) أرستقراطية: كلمة يونانية تدل على حكم طبقة الأشراف، المنجد في اللغة والأعلام – ٨.

(٢) العصر الفكتوري: عصر الملكية في إنجلترا ١٨٣٧م – ١٩٠١م، انظر: المنجد في اللغة والأعلام – ٦٣٧.

(٣) الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه – ٢٣٠/١

(٤) جواد علي – تاريخ العرب قبل الاسلام – ٥٤٢/٤.

ونجد هذا التفاوت أيضاً فيما يتعلق بالفداء، ففداء الملوك ألف بعير، بل قد يصل إلى ألفي بعير، والسادة والأشراف يكون فداؤهم بضع مئات من الإبل، وسواد الناس وعامتهم قد تصل إلى أبخس الأثمان، ولذا حرص الأسير الشريف على إخفاء شخصيته والتظاهر بالإملاق لينجو من دفع فدية كبيرة مقابل حريته[1].

ومن المؤشرات على هذا التقسيم الطبقي ما كانوا يعتقدونه من أن دم الملوك يشفي من الكَلَب[2]، فقد رأت العرب أن دواء الكَلَب قطرة من دم ملك، يخلط بماء فيسقاه المريض حتى يبرأ، فكان إذا أصاب أحدهم الكَلَب أتوا رجلاً شريفاً فقطر لهم من دم أصبعه، ثم يسقون الكلب فيبرأ – حسب زعمهم –[3]، وهذا يدل على أنهم نظروا إلى الملوك على أنهم طبقة متفوقة ومتميزه عمن سواهم، ومن معتقداتهم التي ترجح ذلك (وَطْء المِقْلَاة دم الشريف)، فقد زعموا أن المرأة التي لا يعيش لها ولد إذا وطئت دم الشريف عاش ولدها، وهو خاص بالشريف القتيل، تتخطاه المقلاة سبع مرات، قال بِشْر بن أَبي خَازِم:

تَظَلُّ مَقَالِيتُ النِّسَاءِ يَطَأْنَهُ ... يَقُلْنَ: أَلَا يُلْقَى عَلَى المَرْءِ مِئْزَرُ؟[4]

ومن دلائل هذه النظرة الطبقية أيضاً فلسفتهم في الثأر، فإذا قتل سيداً شريفاً منهم رجل وضيع مغمور، لم يأخذوا ثأرهم من هذا الرجل، بل يبحثون عمن يكافيء هذا السيد من أشراف قبيلة القاتل، فيقتلونه، أو قد يقتلون برجل واحد العشرات من قبيلة القاتل، وقد عبروا عن هذه الطبقية في أشعارهم، قال عَبِيْدُ بن الأَبْرَص:

إِنَّنَا إِنَّمَا خُلِقْنَا رُؤُوساً ... مَنْ يُسَوِّي الرُّؤُوسَ بِالأَذْنَابِ[5]

وقال امرؤ القيس:

---

[1] جواد علي – نفس المصدر والجزء والصفحة.
[2] الكلب: داء جنون الكلاب لمن عضه كلب، فيمزق ثيابه عن نفسه، ويعوي عواء الكلب، ويعقر من أصاب، ثم يصير أمره إلى أن يأخذه العطاش، فيموت من شدة العطش ولا يشرب، انظر: اللسان – مادة كلب.
[3] اللسان – مادة (كلب).
[4] أحمد الحوفي – الحياة العربية من الشعر الجاهلي – ٤٩٨، وانظر، اللسان – مادة (قلت).
[5] ديوانه – ٤٢.

ضَـــازَتْ بَنُـــو أَسَـــدٍ بِحُكْمِهِـــمُ إِذْ يَعْدِلُـــوْنَ الـــرَّأْسَ بِـــالذَّنَبِ[1]

ولم تكتف تلك النظرة الطبقية بتقسيم الناس إلى ملوك وسوقة، بل امتدت إلى نظرة كل قبيلة إلى القبائل الأخرى، ومن المعلوم أن من طبيعة الحياة أن تكون هناك قبائل نابهة وقبائل مغمورة، نتيجة لعوامل اجتماعية متشابكة، هذا التمايز الطبيعي عضده الشعر، وخاصة الهجاء والمديح، وقد ذكر الجاحظ أن القبيلة التي لا يكون فيها خير كثير ولا شر كثير تخمل، وتصبح من المغمورين، فتسلم من الهجاء، بينما تهجا قبيلة أخرى بدافع الحسد لنباهتها وعلو شأنها، أو قد يحط من مكانة قبيلة ما بروز أبناء عمومتهم، فشرف هؤلاء ضعة لهؤلاء[2] وعموماً "فليس في العرب قبيلة إلا وقد نِيْل منها، وهُجيت، وعُيِّرت، فَحَطَّ الشعر بعضاً منها بموافقة الحقيقة، ومضى صفحاً عن الآخرين لما لم يوافق الحقيقة"[3]. وسنحاول هنا أن نتلمس بعضاً من المعايير التي يبني عليها عربي الجاهلية حكمه بازدراء قبيلة ما من القبائل، ويمكن أن نجمل تلك المعايير في النقاط التالية:

١- أن تكون القبيلة ضعيفة.

٢- ألا يشيع عنها فعل المكارم.

٣- أن يكون أفرادها أخلاطاً لا يجمعهم نسب واحد.

٤- أن يكون بعض أصولهم من العبيد.

٥- أن يكون بعض أصولهم من الصناع.

---

(١) ديوانه - ٤٥٧، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) الجاحظ - الحيوان - ٣٥٧/١.

(٣) ابن رشيق - العمدة - ١٨٢/٢.

فمن القبائل التي شقيت بالهجاء ومزقت كل ممزق – كما يقول ابن رشيق[1] – ونرجح أن ذلك يعود لضعف القبيلة:

غَنِيٌّ، نسبة إلى غَنِي بن أَعْصُر بن سعد بن قَيس عَيْلَان، فهم كانوا موالي عَامِر بن صَعْصَعَة يحملون عنهم الديات والنوائب[2].

ونحو مُحَارِب بن خَصفة بن قَيْس عَيْلَان؛ وذلك لما أوقعه الأَسْوَدُ بن المُنْذِر اللَّخْمِيّ بهم، حين أحمى لهم الصفا بصحراء أُضَاخ، وسَيَّرهم عليها حتى تساقط لحم أقدامهم، وظلوا يهجون بهذه الحادثة حتى بعد الإسلام حين هجاهم شاعر من كِنْدَة بقوله:

عَلَى عَهْدِ كِسْرَى نَعَّلَتْكُمْ مُلُوكُنَا ... صَفاً مِنْ أُضَاخٍ حَامِياً يَتَلَهَّبُ[3]

ونحو تَيْم وعُكْل من عبد مناة بن أُدّ، صادف الشعر سباء كان وقع عليهم في الجاهلية، فاستهانت بهم العرب، وانطبع الهجاء فيهم[4].

ونحو (بَاهِلَة)[5]، وهي قبيلة سدد لها الشعراء سهام هجائهم، حتى لكأنها – كما قال الجاحظ – آلة لمدارج الأقدام، ينكب فيها كل ساع، ويعثر بها كل ماش"[6]. وربما يعود ذلك إلى أن قبيلة بَاهِلة كانت محاطة بعدة قبائل ذات شوكة. فهي تجاور بني عَامِر، وغَطَفَان، وعَبْس، وذُبْيَان[7]، فصارت تجنح للسلم، ولا تقوى على إبداء

---

[1] المصدر السابق – ١٨٣/٢.

[2] ابن رشيق – العمدة – ١٨٢/٢.

[3] أبو عبيدة – أيام العرب – ١٤٧/٢.

[4] ابن رشيق – المرجع السابق – ١٨٢/٢.

[5] باهلة: هي من أعصر من قيس عيلان من العدنانية، وهم بنو سعد مناة بن مالك بن أعصر، وباهلة أم سعد مناة، عرفوا بها، وهي امرأة من هَمْدان، ومن باهلة (الأصمعي) الراوية – انظر: القلقشندي – نهاية الأرب – ص١٦١.

[6] الحيوان – ٣٥٨/١.

[7] عباس بيومي عجلان – الهجاء الجاهلي، صوره وأساليبه الفنية – ١٨٦.

العداوة، وتميل إلى الدعة والسلامة؛ ولذلك صارت غرضاً لسهام الشعراء وهجائهم بسبب ضعفها، ولسوء حظ هذه القبيلة فقد استمرت هذه النظرة المحتقرة لها حتى بعد الإسلام، يروى أن اعرابياً لقي رجلاً من الحاج، فقال له: ممن الرجل؟ قال: باهلي، قال: أعيذك با لله من ذلك، قال: إي وا لله، وأنا مع ذلك مولى لهم، فأقبل الأعرابي يقبل يديه، ويتمسح به، قال له الرجل: ولم تفعل ذلك؟ قال: لأني أثق بأن ا لله عز وجل لم يبتلك بهذا في الدنيا إلا وأنت من أهل الجنة[1]!

وقيل للأصمعي، وهو من باهلة: "أتحب أن تدخل الجنة وأنت باهلي؟" قال: نعم، على أن لا يعرف أهل الجنة ذلك[2].

أما المعيار الثاني، فهو ألا يشيع عنهم فعل المكارم، فمن ذلك هجاء حَسَّان بن ثابت لأبي سفيان بأن آله لم يعرف عنهم الرفادة أو السقاية، حيث قال:

وَلَيْسَ أَبُوْكَ بِسَاقِي الحَجِيْـ ـجِ، فَاقْعُدْ عَنِ الحَسَبِ الأَرْذَلِ[3]

ومن تلك المعايير أن يكون أفراد القبيلة أخلاطاً لا يجمعهم نسب واحد، من ذلك قول حسان بن ثابت يهجو هُبَيْرة بن أبي وَهْبٍ المَخْزُوْمِيّ، حيث قال:

أَنْتُمْ أَحَابِيْشُ، جُمِّعْتُمْ بِلَا نَسَبٍ أَئِمَّةُ الكُفْرِ، غَرَّتْكُمْ طَوَاغِيْهَا[4]

ومنها أيضاً أن يكون بعض أصولهم من العبيد، قال حسان بن ثابت يهجو قوماً:

مَهاجِنَةٌ إِذَا نُسِبُوا عَبِيْدٌ عَضَارِيْطٌ، مَغَالِثَةُ الزِّنَادِ[5]

---

[1] المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ) – الكامل في اللغة والأدب – ٢٨/٢. مكتبة المعارف، بيروت. د ط، د ت.

[2] عباس بيومي عجلان – المرجع السابق – ١٨٥.

[3] ديوانه – ٢٠٦، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت د ط، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.

[4] ديوانه – ٢٥٩. الأحابيش: الأحياء التي تجمعت، سميت بالأحابيش من قبل تجمعها "اللسان – حبش".

[5] ديوانه – ٨٠ هجين: من أب عربي وأمة. عضروط: الخادم بطعامه(اللسان - عضرط) . غلث الزند: لم يور(اللسان - مادة (غلث) .

وقال يهجو ابن الزبعرى:

فَـلَا تَفْخَـرْ بِقَـوْمٍ لَسْـتَ مِنْهُـمْ ... فَـإِنَّ قَبِيلَـكَ الهجـن اللِّئَـامُ
إِذَا عُـدَّ الأَطَايِـبُ مِـنْ قُرَيْشٍ ... تُقَاعِدُكُـمْ إِلَى المَخْـزَاةِ حَامُ[1]

وقال يهجوه:

فَـلَا تَفْخَـرْ فَقَـدْ غَلَبَـتْ قَدِيمًـا ... عَلَيْـكَ مَشَـابِهٌ مِـنْ آلِ حَـامِ[2]

وهجا بني الحُمَاس بذلك حيث قال:

أَوْلادُ حَـامٍ فَـلَا تَلْقَـى لَهُـمْ شَـبَهاً ... إِلاَّ التُّيُوسَ عَلَـى أَكْتَافِهَـا الشَّـعَرُ
كَأَنَّ رِيحَهُـمْ فِي النَّـاسِ إِذْ بَـرَزُوا ... رِيـحُ الكِلَابِ إِذَا مَا بَلَّهَا المَطَرُ[3]

والمقتل الأخير الذي ترمى منه قبيلة ما أن يعرف عن أفرادها ممارسة مهنة ما من المهن، فكل قبيلة تُعرف بالاستقرار في الأرض، والاشتغال ببعض الحرف، عليها أن تتحمل الهجاء واللوم، ومن هذا القبيل ما رميت بـه (أَشْجَع)؛ لأنها كانت تخصف وتعمل، وكذلك (النَّبَط)؛ لأنهم يخرزون الخفاف، ويحيكون الثياب[4].

وقد سدَّد حسان بن ثابت رضي ا لله عنه – سهام هجائه الى بني المغيرة من هذه الثغرة، وهي أن جدهم كان قيناً صانعاً، فقال يهجوهم:

سَـأَلْتُ قُرَيْشـاً، وَقَـدْ خَـبَّروا ... وَكُـلُّ قُرَيْـش بِكُـمْ عَـالِمٌ
فَقَـالَتْ قُرَيْـشٌ، وَلَمْ يَكْذِبُـوا ... وَقَـوْلُ قُرَيْـشٍ لَكُـمْ لَازِمٌ
عَبِيـدُ قَيْـونٍ إِذَا حصّلـوا ... أَبُوكُـمْ لَـدَى كِـيْرِهِ جَاثِمٌ[5]

---

[1] المصدر السابق – ٢٤٤.

[2] المصدر السابق – ٢٤٣.

[3] المصدر السابق – ١٣١.

[4] محمد الحربي – نظرة العرب القدامى إلى النبط – بحث منشور في مجلة (الدارة) – العدد الرابع – السنة ١٨ – ١٤١٣هـ – ص٣٧.

[5] ديوانه – ٢٤٤، الكِيْر: الزِّق الذي ينفخ فيه الحداد، انظر: اللسان – مادة (كير).

وقوله فيهم:

بني القين، هَلَّا إذْ فخرتم بِرَبْعِكُمْ ... فخرتم بكِيْرٍ عِنْدَ بَابِ ابنِ جندعِ
وألقوا رمادَ الكيرِ يُعرف وسطكم ... لَدَى مجلسٍ منكم لئيمٍ ومفجعِ[1]

وعندما ردوا عليه، كان الرد من نفس المنطق، فهو يماني مولع بالصناعة، قال أُمَيَّة بن خلف الخُزَاعي يهجو حسان بن ثابت – رضي الله عنه –:

أَلَا مَنْ مُبْلِغ حَسَّانَ عَنِّي ... مغلغلةً تَدِبُّ إِلَى عُكَاظِ
أَلَيْسَ أَبُوكَ فِينَا كَانَ قَيْناً ... لَدَى القيناتِ، فَسْلاً فِي الحِفَاظِ
يَمانِياً يَظَلُّ يَشُدُّ كِيْراً ... وَيَنْفُخُ دَائِباً لَهَبَ الشُّوَاظِ[2]

ومن التقسيمات التي ميزت بين القبائل العربية، وأوجدت لونا من الفروقات الطبقية بين تلك القبائل: تقسيم القبائل إلى حُمْس وحلّة، وهو تقسيم ديني في أصله، ولكنه أسهم في تكوين صورة اجتماعية ذات طابع طبقي.

ومعنى الحمس في اللغة: الشدة والشجاعة، ثم صارت تطلق على قبائل من العرب تشددت في دينها، واتخذت لها شعائر تخالف من سواها من العرب، تلك القبائل هي: قريش، ومن ولدت قريش، وكِنانة، وجَديلة قَيْس، وهم: فَهْمٌ وَعَدْوانُ،وبنو عَامِر بن صعصعة، وقد عُدَّ بنو عامر من الحُمْس رغم أنهم ليسوا من ساكني الحرم لأن أمهم قرشية، وهي: مَجْدُ بنت تيم بن مُرَّة. فكانت الحمس سكان الحرم، لا يخرجون في الموسم إلى عرفات، وإنما يقفون بالمزدلفة، ويقولون: نحن أهل الله ولا نخرج من الحرم، وكانوا لا يستظلون أيام منى، ولا يدخلون البيوت من أبوابها[3]، هذا التقسيم الديني أوجد حدوداً اجتماعية بين الحمس وغيرهم، فرأوا لأنفسهم ميزة وفضلاً على من

---

(1) ديوانه – ١٥٧.

(2) المصدر نفسه – ١٤١، الشُّواظ : لهب النار ، انظر: اللسان – مادة (شوظ) .

(3) انظر: اللسان – مادة حمس، ابن رشيق – العمدة – ١٩٧/٢.

سواهم، فقد "ذكروا أن قريشاً رفعت البيت، واتخذت لـه سُلّماً، لئلا يدخلـه إلا مـن يرضونه، وكانوا ربمـا يـتركون الرجـل يرتقـي السـلم، حتـى يكـاد يدخـل البيـت، ثـم يدفعونه، فيسقط وربما يعطـب"[1] وتشـير بعـض الأبيـات المتفرقـة في المصـادر إلى هـذا الفرق في المعاملة بين القبائل أثناء أداء شعائر الحج، فقد تحدثت بعض الأبيات عن منـع قبائل معينة من الشرب من ماء زمزم، وصار ذلك يذكر دليلاً على مكانة تلك القبيلة، قال حسان بن ثابت يهجو هذيلاً:

فَـلا وَا للهِ مَـا تَـدْرِي هُذَيْـلٌ ... أَمَحْضٌ مَـاءُ زَمْـزَم أَمْ مَشُـوْبُ
وَمَـا لَهُـمْ إِذَا اعْتَمَـرُوا وَحَجُّـوا ... مِـنَ الحجريـن وَالمَسْـعَى نَصِيْـبُ
وَلَكِـنَّ الرَّجِيْـعَ لَـهُـمْ مَحَـلٌّ ... بِهِ اللُّـؤْمُ المبِـينُ وَالعُيُـوْبُ[2]

وقال الأعشى يهجو قوماً من هذه الثغرة:

فَمَا أَنْتَ مِنْ أَهْلِ الحُجُـوْنِ وَلا الصَّفَا ... وَلَا لَكَ حَقُّ الشُّرْبِ مِنْ مَاءِ زَمْزَمِ[3]

ومن المؤشرات الـتي تـدل علـى مـا ذهبنـا إليـه مـن تفـاوت طبقـي في المجتمـع الجـاهلي الألقـاب الـتي كـانت تطلـق علـى طبقـة السـادة مـن المجتمـع، فهـم السـروات[4]، والنَّواصي[5] والجَحاجِح[6]، أما الطبقات الوسطى فيسـمون: (اللَّهَـازِم)[7]، وأمـا مـن دونهم فيسمون: بني الغَبْراء[8]، والسّوْقة[9]، والسَّواد[10].

---

(1) د. مصطفى عبداللطيف جياووك – الحياة والموت في الشعر الجاهلي – ١٥ الوزارة الإعلام، بغداد، دار الحرية دط. وقد روي عن رسول الله قوله لعائشة: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها من الحجر» رواه مسلم في صحيحه ١/ ٩٦٩، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، دط، دت.

(2) ديوانه – ٣٣.

(3) ديوانه – ٣٤.

(4) السروات: أشراف القوم، والسري، الرفيع في قومه (اللسان – سرا).

(5) النواصي: هم الرؤوس والأشراف وخيار القوم (اللسان – نصا).

(6) الجحاجح: السادة الكرماء، جمع جحجح. (اللسان – جحجح).

(7) اللهازم: وسط القبيلة والنسب (اللسان – لهزم).

(8) بني غبراء: الفقراء؛ للصوقهم بالتراب (اللسان – غبر).

(9) السوقة: الرعية التي تسوسها الملوك، ويسوقونهم، فينساقون لهم (اللسان – سوق).

(10) السواد: عوام الناس (اللسان – سود).

وكانت بيوت العرب تتفاوت في المكانة، فقد برزت بيوتات معينة من القبائل العربية، وكانت لها شهرة خاصة، قال الجُمَحي: بيت اليمن في كِنْدة الأَشْعَث بن قَيْس، وشاعرها امرؤ القيس، وفارسها في بني زُبَيْد عَمْرُو بن مَعْد يكرب، وإنما اختلف في نِزَار[1]. وقيل: بيوتات العرب في الجاهلية ثلاثة: فبيت تَمِيم بنو عبدا لله بن دارم، وبيت بَكْر بن وَائِل بنو شَيْبَان، وبيت قَيْس بنو فَزَارة[2].

هذه وأمثالها إشارات إلى ما نراه طبقية في المجتمع الجاهلي.

---

[1] ابن رشيق – العمدة – ١٩٣/٢

[2] المصدر نفسه – ١٩٢/٢

ووردت عند المبرد – الكامل – ٣٥/١

الباب الثالث

النهي عن الإسراف في القرآن الكريم

الفصل

١ ـ الإسراف في القيم المتعلقة بالعلاقة مع الله .

٢ ـ الإسراف في القيم المتعلقة بالعلاقة مع النفس .

٣ ـ الإسراف في القيم المتعلقة بالعلاقة مع الآخرين .

نهى رب العزة والجلال عباده عن آفة الإسراف في مواطن شتىٰ من كتابه الكريم، وكان ذلك يأتي بأساليب متنوعة، تلامس الحس، وتوقظه من غفلته، وترده إلى الصراط المستقيم. من تلك الأساليب:

١ـ أن يأتي الحديث عن الإسراف والتحذير منه بذكر الصيغة المباشرة للإسراف، مثل: أسرف، يسرف، مسرف... إلخ، وتارة يأتي بصيغ غير مباشرة عديدة متنوعة. مثل: طغىٰ، بغىٰ، عدا، فجر، أفرط، غلا... إلخ.

٢ـ في مواضع عديدة لم ترد أي صيغة من الصيغ، وإنما دل السياق ككل على التحذير من الإسراف، ونقصد هنا تلك الآيات التي وردت فيها قصص الأولين من الأمم الغابرة، ممن ساروا على طريق الإسراف فكانت نهايتهم الهلاك والبوار، مثل: قوم فرعون، وقوم لوط، وعاد قوم هود، وثمود قوم صالح وغيرهم، حتى نستلهم من تلك القصص العظة والعبرة، ويستيقظ فينا ما غفل من أحاسيسنا، ولا نحيد فنهلك كما هلكوا.

٣ـ وقد يأتي التحذير عن الإسراف بالوعيد والتهديد، وبيان سنة الله وحكمه على المسرفين، كقوله عز وجل:

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾[1].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[2].

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾[3].

٤ـ وتارة يأتي النهي عن الإسراف عن طريق الحث على التوازن، ولزوم الطريق المستقيم، ومن ذلك قوله تعالى:

---

(١) سورة القصص ـ ٥٨.

(٢) سورة المؤمنون ـ ٦٤.

(٣) سورة الإسراء ـ ١٦.

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ . . . ﴾ الآية[1] .

وقوله عز وجل: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾[2] .

وقوله عز من قائل: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾[3] .

وعموماً فإن مباحث هذا الباب تشمل ما سبق ذكره، ويمكن توزيعها على النحو التالي:

١ـ النهي عن الإسراف في القيم المرتبطة بالعلاقة مع الله .

٢ـ النهي عن الإسراف في القيم المرتبطة بالعلاقة مع النفس .

٣ـ النهي عن الإسراف في القيم المرتبطة بالعلاقة مع الآخرين .

---

(١) سورة الإسراء ـ ٢٩ .

(٢) سورة القصص ـ ٧٧ .

(٣) سورة الفرقان ـ ٦٧ .

١ـ الإسراف في القيم المتعلقة بالعلاقة مع الله : مقدّمة

الآية الأولى:

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾[١].

الآيات الكريمة تحذر من مصير من سار على طريقة الإسراف في عصيان الله والكفر بآياته، ومخالفة أمر الله ورسله، وتناسي آياته «فإن له معيشة ضنكاً في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح في صدره، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه في حيرة وقلق وشك، وفي الحياة الأخرى يبعث ويحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة، فيأتي الجزاء من جنس العمل؛ لأنه تعامى عن آيات الله في الدنيا وتناساه، كذلك يعامله الله معاملة من ينساه؛ لأن الجزاء من جنس العمل»[٢]، ثم يلتفت الخطاب من الحوار بين ذلك المذنب وبين الله عز وجل، ليقرر سنة الله تعالى فيه، وفي أمثاله من المسرفين، قال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ ﴾[٣]، فيتحدث عنه هنا بضمير الغائب؛ لأن المشهد الخاص به قد انتهى حيث حشر إلى النار، وقضي الأمر، فتأتي الآية بعد ذلك للتحذير من سبيل الإسراف، «فهو أسرف في متابعة هواه، وتكبر عن متابعة أوامر الله، وكفر بإحسانه»[٤]، «وأسرف حين ألقى بالهدى من بين يديه، وهو أنفس ثراء وذخر، وأسرف في إنفاق بصره في غير ما خلق له، فلم يبصر من آيات الله شيئًا، فلا جرم

---

(١) سورة طه ـ من الآية ١٢٤ إلى االآية ١٢٧.

(٢) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ ٣/ ٢٧١ «النسيان في حق الله تعالىٰ يأتي بمعنىٰ الترك».

(٣) سورة طه ـ ١٢٧.

(٤) البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ، ١٤٨٠م) ـ نظم الدرر ـ ١١/ ٤٠٦. مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر آباد ـ الهند، ط١، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

يعيش معيشة ضنكاً، ويحشر يوم القيامة أعمى»[1]، وأسرف كذلك بالانهماك في الشهوات والإعراض عن آيات الله[2].

الآية الثانية:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[3] نحن هنا أمام نموذج للإنسان المسرف في العلاقة مع الله، فهو يخطيء، ويسرف في الأخطاء، ويتمادى، وذلك في ساعات الرخاء ورغد العيش؛ لأن الغنى يطغيه، فإذا ما مسه الضر، جزع وهلع، وصار ذا دعاء عريض، فإذا رفع الله عنه الضر انطلق إلى ما كان فيه من اندفاع واستهتار[4]، ومن كان هذا شأنه، وهذه صفته، فهو من المسرفين الذين زين لهم سوء عملهم، فهو مسرف بنسيان الله في الرخاء، وتذكره في الشدة فقط، «مسرف في غفلته عن ذكر الله في كل حال»[5]، ويلاحظ التعبير الجميل عن نزول الضر بـ«المس»، وكأن شدة هول الضر حولته من حيز المعقول إلى حيز المحسوس المدرك بالحواس[6]، وقد سبق في السياق القرآني الكريم ما يضيء لنا صفات هؤلاء المسرفين بقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾[7]، «فهم نعموا أبدانهم، ونسوا أديانهم، واقتصروا على عمارة

---

(١) سيد قطب ـ الظلال ـ ٤/ ٢٣٥٦.

(٢) الألوسي ـ روح المعاني ـ مجلد ٨/ ج ١٦/ ٢٧٩.

(٣) سورة يونس ـ الآية ١٢.

(٤) سيد قطب ـ المرجع السابق ـ ٣/ ١٧٦٩.

(٥) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد ٩/ ج ١٧/ ٥٥.

(٦) محمد أبو موسى ـ من أسرار التعبير القرآني ـ ١٠٤.

(٧) سورة يونس ـ ٧، ٨.

الحياة الدنيا، ولم يتعبوا بطلب الأخرى، فهم غلوا في إيثار الدنيا وتعجيل نعيمها، وتجاوزوا الحد في عمارتها والإعراض عما هو أهم منها، ويقال لمن أفرط في ظلم: أسرف، فالذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها يقال لهم: مسرفون، على وجهين: أحدهما: المبالغة في تنعيم النفوس، وجعلهم الدنيا حظهم، والثاني: مجاوزتهم الحد في معصية الله»[1]، وقد لمح الإسكافي ـ رحمه الله ـ ما في السياق من ترابط ودلالات تفضي إلى إقرار وصفهم بالإسراف واستحقاقهم ذلك، حين قال: «أشار إليهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ ثم قال: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ ثم وصف حال الإنسان في الشدة والرخاء، وانقطاعه في الشدة إلى الدعاء، ونسيانه له في الرخاء، فسمى الذين هذه صفتهم: مسرفين، على أحد الوجهين اللذين ذكرنا؛ لإسرافهم في الحالين[2]».

الآية الثالثة:

قال تعالىٰ: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾[3].

هذه الآية سبقت بمقاطع واسعة في السورة تناولت حقيقة التوحيد في جوانب متعددة، بدأت بتصوير حقيقة القلب المؤمن واعتماده على الله، ثم بيان وظيفة الرسول، ثم وصف المشركين الذين تشمئز قلوبهم حين يذكر الله وحده، أما حين يصيبهم الضر فإنهم يهرعون إلى الله، حتى إذا تفضل عليهم، وأنجاهم، ورزقهم، أنكروا فضل الله، ونسبوا الفضل لأنفسهم ولعلمهم، وعندها تعرض الآيات الكريمة

---

(١) الإسكافي، محمد بن عبدالله (ت٤٢٠) ـ درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز ـ ١٣٠. ط٢، ١٩٧٧م، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) سورة الزمر ـ ٥٣.

مصارع الغابرين قبلهم، وتوضح أن الرزق بيد الله، يبسط لمن يشاء ويقدر، وعندها يفتح الحق عز وجل أبواب رحمته لمن أسرف وسلك هذا السبيل[1].

وعظم رحمة الله وسعتها تبهر من يقرأ هذه الآية، فالله سبحانه وتعالى قال في البداية: (يا عبادي)، ولفظ (العباد) عندما يضاف إليه ـ سبحانه ـ يجعله خاصاً بالمؤمنين؛ لأن المؤمن هو الذي يعترف بكونه عبدالله[2].

ثم بين أن هؤلاء العباد من (الذين أسرفوا)، ولم يقل: (المسرفون)؛ لأن الاسم يفيد الثبوت، أي: ثبوت دائم لتلك الصفة فيهم، بينما الفعل يفيد الحدوث والتجدد مرة بعد أخرى، وحدوث الإسراف وتجدده أمر سيء ولاشك، ولكنه ليس بمستوى السوء الحاصل بثبوت الصفة الدائم[3].

وبعد ذلك جاء قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ فأضاف الرحمة إلى لفظ الجلالة الظاهر دون المضمر، «وشرف الإضافة إليه يفيد الأمن من العذاب»[4] «وكذلك فإن قولنا ((الله)) أعظم أسماء الله وأجلها، فالرحمة المضافة إليه يجب أن تكون أعظم أنواع الرحمة والفضل[5]، وأما النهي في قوله سبحانه وتعالىٰ: (لا تقنطوا) فقد جاء للتحنن والتلطف والتحبيب، وهي معان تفيض بالرحمة والترفق والإشفاق منه تعالى على عباده؛ ترغيباً لهم في الإقبال عليه والإنابة له، وترهيباً من

---

(١) سيد قطب ـ في ظلال القرآن ـ ٥/ ٣٠٥٢.
دار الشروق ـ بيروت، ط١١، ١٩٨٥م،

(٢) الفخر الزاري ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد١٤/ ج٢٧/ ٥.

(٣) الفرق بن الإخبار بالاسم والإخبار بالفعل، كالفرق بين قولك: زيد طويل وزيد يطول، ففي الأولى: الصفة ثابتة لزيد، أما الثانية فتفيد الحدوث والتجدد.

(٤) الفخر الرازي ـ المصدر السابق ـ نفس الجزء والصفحة.

(٥) الفخر الرازي ـ نفس المصدر والجزء والصفحة.

التفريط والإعراض عنه[1] ثم لم يقل سبحانه: ﴿إنه يغفر الذنوب جميعاً﴾، بل أعاد لفظ الجلالة ((الله))، وقرن به (إن) التي تفيد التأكيد، وجاء خبرها في صورة فعل (يغفر)[2]؛ ليناسب ما سبق من الحدوث والتجدد للإسراف، فهو يغفر لهم مرة بعد أخرى، ثم أردف باللفظ الدال على التأكيد في قوله سبحانه: (جميعاً)، كل هذه المؤكدات لتبديد أي أثر لظلال الشك التي قد تتسرب إلى قلب من أسرف على نفسه، فهو قد يشك في إمكانية قبول توبته، ويشك في كونه مستحقاً لرحمة الله سبحانه، فتأتي المؤكدات المتتالية لتزيل كل ما علق بنفسه المثقلة بالذنوب والهموم، وتفتح له أبواب رحمة الله الواسعة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ مؤكدات متتابعة: إن، ثم ضمير الشأن، ثم ضمير الفصل، ثم (الغفور) وهي صيغة مبالغة، ثم (الرحيم)، كل ذلك للدلالة على كمال الرحمة والغفران منه سبحانه، واحتياج الموقف إلى كل هذه المؤكدات دلالة على إمعان المسرف في البعد عن الله، حتى ليشك هو نفسه في إمكانية التراجع عن انحرافه وإسرافه.

الآية الرابعة:

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾[3].

يقسم الله ـ سبحانه ـ بالكتاب المبين، إنه جعله عربياً، وبين الغاية من ذلك، وهي أن يعقلوه حين يجدونه بلغتهم وبلسانهم الذي يعرفون، ثم بين منزلة هذا القرآن

---

(١) يوسف الأنصاري ـ أساليب الأمر والنهي في القرآن وأسرارها البلاغة ـ ٣٨٤(رسالة ماجستير مخطوطة).

(٢) معجم إعراب القرآن الكريم ـ إعراب سورة الزمر ٦١٤، مكتبة لبنان، ط١/ ١٩٩٥م.

(٣) سورة الزخرف الآيات من ١ـ ٥.

وقيمته في تقديره الأزلي الباقي، فهذا القرآن (علي) (حكيم)، وهاتان صفتان للقرآن، فهو «عال عن وجوه الفساد والبطلان وعلى جميع الكتب؛ لأنه معجز باق على وجه الدهر، وهو حكيم ذو حكمة بالغة»[1] ثم يأتي الاستفهام الإنكاري موجهاً لهؤلاء الكافرين: أفنرد عنكم القرآن لسبب كونكم مسرفين؟! «قال قتادة: لو أن هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله برحمته كرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة»[2]، فوصفهم بالإسراف هنا بسبب الإعراض عن ذكر الله وكتابه المبين: القرآن الكريم، والمعرض عن ذكر الله مسرف في علاقته مع ربه، الذي بعث إليه بالهدي،والنور،والرشاد،وما فيه النجاة من الهلاك، رغم أن كل من في الأرض لا يمثلون شيئاً ذا بال بالقياس إلى عظم ملكوت الله سبحانه، وبعد كل ذلك يأتي هو بجهله،وغلبة شقوته،فيعرض عن ذكر الله، وهذا هو الشطط والإسراف، «لذا جاء الاستفهام هنا ومعناه الوعيد، أي: أفنترككم ولا نذكركم بعقابكم؟»[3].

بعد هذه الآيات الكريمات تأتي جملة آيات تتحدث عن وقوع الإسراف في العلاقة مع الله من قبل الأمم السابقة، والمؤمن معني بهذا؛ لأنه يأخذ العظة والعبرة مما حدث للغابرين، فيتجنب سبل الإسراف التي ألقت بهم إلى المهالك، وأولى هذه الآيات لا تحدد قوماً معينين، وإنما تصف ما وقع من المكذبين المسرفين عبر العصور، قال ـ سبحانه وتعالىٰ ـ: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾[4] إسراف في الإعراض عن ذكر الله، وتكذيب للرسل الذين بعثهم الله لإرشاد العباد إلى طريق النجاة، وتتضح هذه المعاني بصورة جلية حين نضع الآية الكريمة في السياق القرآني الكريم الذي وردت فيه.

---

(١) الفخر الرازي ـ مجلد ١٤/ ٢٧/ ١٩٥.

(٢) المصدر نفسه ـ ١٤/ ٢٧/ ١٩٦، وانظر كذلك، تفسير ابن كثير ٤/ ١٨٦.

(٣) ابن الشجري ـ الأمالي ـ ١/ ٤٠٩.

(٤) سورة الأنبياء ـ ٩.

قال عز وجل: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ ﴾[1] إلى قوله عز من قائل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩ ﴾[2]، وقد فسر ابن كثير المسرفين هنا بأنهم المكذبون بما جاءت به الرسل[3].

والوصف بالإسراف هنا جاء ـ والله أعلم ـ لاجتماع عدة أمور:

١ـ اقتراب الساعة، وأهوالها المروعة، وغفلتهم عن ذلك رغم كل التحذيرات.

٢ـ مجاوزة كل الحدود في الموقف من الأنبياء المرسلين بذكر الله وهديه، فهؤلاء المكذبون يعرضون عن الهدى الذي جاء به الأنبياء، ويصفون الأنبياء تارة بالكذب، وتارة بالسحر، وتارة بإن ما جاءهم إنما هو أضغاث أحلام، وأخرى بالاعتراض على بشرية الرسل، ويبلغون الغاية فيما يواجهون به الأنبياء من التحدي الأرعن، وقد ذكر عز وجل فقال سبحانه وتعالى:

﴿ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ ﴾[4].

وهذه دعوى المسرفين في كل زمان ومكان، ولذا يحذرهم الله من الهلاك إن ساروا في هذا السبيل. ﴿ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝١٩ ﴾[5]

---

(١) سورة الأنبياء ـ الآيات من ١ـ ٣.

(٢) سورة الأنبياء ـ الآيات من ٧ـ ٩.

(٣) سورة تفسير القرآن العظيم ـ ٣/ ٣٧٩.

(٤) سورة الأنبياء ـ ٥.

(٥) سورة يس ـ ١٩.

وردت هذه الآية الكريمة ضمن قصة أصحاب القرية، وهم قوم كذبوا الرسل الذين بعثهم الله إليهم، وقد بدأت القصة بإرسال رسولين في آن واحد، فجوبهوا بالتكذيب، فعزز الله برسول ثالث، وهنا يعلن رسل الله الثلاثة أنهم مرسلون من الله عز وجل: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤﴾[1] هذا التكذيب استدعى التأكيد بـ(إن)، وعندما أصر القوم على التكذيب باعتراضهم على بشرية الرسل، والإنكار أن يبعث الله لهم رسلاً، ثم وصم رسل الله بالكذب، أمام هذا الإنكار والتكذيب المتمادي يحشد السياق القرآني الكريم على لسان الرسل المؤكدات تلو المؤكدات، لعل نداء الإيمان يصل إلى القلوب الغليظة، وهكذا تزداد المؤكدات في السياق كلما زاد الإنكار والتكذيب، ولذا جاءت الآية الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾[2] «ربنا يعلم، هذا قول يجري مجرى القسم، فهم أكدوا قولهم باليمين»[3]، ثم جاءت (إن) ثم (اللام)، وهما من مؤكدات الجملة، ثم تلا ذلك الإخبار بالاسم، هذه المبالغة في البلاغ جوبهت بالغلو في التكذيب[4]، حيث كان جوابهم كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾[5] هذا هو ردهم، العنف الغليظ المعربد، الذي أطغته العزة بالإثم؛ وذلك لأنهم عجزوا عن رد حجج الرسل المقنعة، فاتجهوا للتهديد بالعنف الجسدي، وهكذا دائما عندما يعجز العقل يتحدث الجسد، فهاهم أولاء يهددون رسل الله بالقتل رجماً، وبالتعذيب الأليم، مع اتهام الرسل بأنهم شؤم لا خير فيهم، وهنا يوضح الرسل الحقيقة، وهي أن: (طائركم معكم، أي: «الشؤم مردود عليكم» نتيجة

---

(١) سورة يس ـ ١٤.

(٢) سورة يس ـ ١٦.

(٣) الفخر الرازي ـ المجلد ١٣/ ج ٢٦/ ٥٣.

(٤) الفخر الرازي ـ نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٥) سورة يس ـ ١٨.

أعمالكم، بل أنتم قوم مسرفون في كفركم وفي إصراركم على الكفر حتى بعد ظهور الحجج والبراهين»[1].

ونقف الآن عند القوم الذين نالوا النصيب الأكبر في الوصف بالإسراف. وهم:

«قوم فرعون»، وكذلك فقد حاز فرعون نسبة عالية من الوصف بالإسراف بصورة لافتة للانتباه، وقد حاولت جهدي أن استجلي السر وراء ذلك، من خلال معاودة النظر في تلك الآيات، وترتيبها ـ سواء ما جاء بالصيغة المباشرة «سرف» أو بالصيغ غير المباشرة «طغى/ علا/ استكبر/ بغى ونحو ذلك ـ حسب أحداث قصة نبي الله موسى مع فرعون. فمنذ بداية أمر فرعون، ومن قبل أن يرسل الله نبيه موسى إليه وإلى قومه، نجد الآيات الكريمة تصفهم بالعلو والطغيان؛ لما كانوا عليه من اعتقادات خاطئة، مثل البعد عن الله،وعبادة سواه، وفشو السحر فيهم، إضافة إلى ظلمهم البالغ لبني إسرائيل بذبح الأبناء واستحياء النساء، قال تعالى:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾[2] الإنسان البعيد عن نور الله حين يوصف بالعلو أو الاستعلاء، فهذا ذم له، وما وصف الإنسان بالعلو بصورة توحي بالاستحسان إلا عندما يكون مرتبطاً بالله، فعلوه مقترن بمدى التزامه بحبل الله الوثيق؛ لأن المؤمن الحق لا يريد علواً في الأرض: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[3]، أما المؤمن فإنه يعلو بإيمانه: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾[4].

---

(١) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ ٣/ ٩٠٣، ٩٠٤.

(٢) سورة القصص ـ ٤.

(٣) سورة القصص ـ ٨٣.

(٤) سورة آل عمران ـ ١٣٩.

وهكذا فإن فرعون قد اتصف بالاستعلاء والطغيان من أول الأمر، وجاء إرسال موسى لردعه عن هذا الطغيان، قال تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾[1]، وتكرر أيضاً ذات الأمر في قوله سبحانه: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾[2]، وكذلك كرر الأمر الإلهي لموسى وهارون: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾[3]، وقد كان قوم فرعون على شاكلته، قال عز وجل: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[4].

وبلغ موسى ـ عليه السلام ـ أمر ربه، فكذّبه فرعون، وجحد رسالته، ولم ييأس موسى ـ عليه السلام ـ من أن يصدقوه بما سخر الله له من المعجزات الباهرات البينات، ويعرض موسى ـ عليه السلام ـ تلك المعجزات العظام أمام فرعون وحاشيته، فتبهرهم، ولكنهم لا يؤمنون، بل ينسبونها إلى السحر، وينكر فرعون الآيات، بل لقد بلغ من طغيانه أن أمر هامان أن يبني له صرحاً ليطلع إلى إله موسى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[5] فموقفه من آيات الله التي رآها بعينه موقف الطغاة المسرفين، فهو كذّبها وأنكرها أولاً، ثم وقف موقف التحدي والتطاول على الله سبحانه وتعالى بأمره بنيان الصرح، ومحاولة الوصول إلى الله تعالى، ثم زاد على ذلك بأن أمر بجمع السحرة أهل الباطل في مواجهة الحق الذي جاء به موسى عليه السلام، ثم نادى في مشهد من قومه، وبكل

---

(١) سورة النازعات ـ ١٧.

(٢) سورة طه ـ ٢٤.

(٣) سورة طه ـ ٤٣.

(٤) سورة المؤمنون ـ ٤٥، ٤٦.

(٥) سورة القصص ـ ٣٨، ٣٩.

وقاحة، بأنه هو الرب والإله:

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[1]، وأما قومه فكانوا مثله في الطغيان والتكذيب، وكان ردهم المسرف في الكفر عند رؤية الآيات، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾[2]، لقد كان هذا هو ردهم: الاستكبار بالباطل: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾[3] وإنكارهم لرسالة موسى كان بسبب حرصهم على ما هم فيه من علو واستكبار، وما يمارسونه من إذلال وامتهان لمن تحت إيديهم، وهو ما سموه بـ(الكبرياء في الأرض) واعتبروا أن موسى يريد أن ينازعهم هذا الامتياز، قال سبحانه: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾[4] وفي محاولة لإيقاظ الحس الميت في نفوسهم جاء الابتلاء بالطوفان والجراد.. إلخ. لعلهم يرجعون إلى الله، فكانوا إذا نزل البلاء يعدون موسى بالإيمان وبإطلاق بني إسرائيل، فإذا كشف العذاب عادوا إلى الطغيان، ونكثوا بعهدهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾[5] وقال عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[6] فهم يرون كل هذه الآيات من قبيل السحر البارع قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[7]

---

(١) سورة النازعات ـ ٢٣، ٢٤.

(٢) سورة الأعراف ـ ١٣٢.

(٣) سورة يونس ـ ٧٥.

(٤) سورة يونس ـ ٧٨.

(٥) سورة الأعراف ـ ١٣٠.

(٦) سورة الأعراف ـ ١٣٣.

(٧) سورة النمل ـ ١٣، ١٤.

بل لقد بلغ من طغيانهم وعلوهم واستكبارهم أن تآمروا على العودة إلى قتل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[1] وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾[2] بل لقد بلغ منهم الإسراف في الكفر أن تآمروا على قتل نبي الله موسى ـ عليه السلام: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾[3] وعندما وصل فرعون وقومه إلى هذا الحد المتمادي في الطغيان نجد السياق القرآني يركز على وصفهم بالإسراف ثلاث مرات متتاليات، تعريضاً أو تصريحاً، وذلك حين يعترض مؤمن آل فرعون على هذا البغي الذي يجترىء على نبي الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾[4] قالها مؤمن آل فرعون وهو يجادلهم ويحاول ثنيهم عن كفرهم وطغيانهم وتشاورهم في قتل موسى عليه السلام، وفي أثناء ذلك يعرض بهم من طرف خفي، يعرض بذلك الغلو والعتو والإعراض عن الحق، رغم ما رأوا ـ بأم أعينهم ـ من الآيات والبراهين، فقد أصروا على إنكار رسالته، وكان جوابهم: (اقتلوا أبناء الذين آمنوا. . الآية) ثم غالى فرعون فقال: (ذروني أقتل موسى وليدع ربه) إن من يقف هذه المواقف كلها فهو حقيق أن يوصف بالإسراف والتكذيب، إسراف في الإعراض عن الحق الذي بعثه الله إليهم.

ويمضي مؤمن آل فرعون معهم في تلك المجادلة، ويذكرهم بمواقفهم السالفة

---

(١) سورة الأعراف ـ ١٢٧.

(٢) سورة غافر ـ ٢٥.

(٣) سورة غافر ـ ٢٦، ٢٧.

(٤) سورة غافر ـ ٢٨.

من رسالة يوسف ـ عليه السلام ـ حين ظلوا في شك مما جاءهم به، حتى توفاه الله، فقرروا من عند أنفسهم ألا رسول بعد يوسف، وهنا يصفهم بالإسراف ثانياً: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾[1] أي: ينذرهم بإضلال الله الذي ينتظر كل مسرف مرتاب في عقيدته وقد جاءته معها البينات[2]، وفي النهاية حين ييأس منهم، لما هم فيه من إسراف وغلو يقرر مصيرهم ومصير أمثالهم من المسرفين في كفرهم وعلوهم: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾[3] المسرفون المتجاوزون الحد في الادعاء، والكفر بالله، والإعراض عن هديه سبحانه، هم أصحاب النار، ففرعون وقومه بلغوا الغاية، وكان منهم الإيذاء للنبي ولمن اتبعه، كانوا يصدون عن السبيل، ولم يكتفوا بأن يكونوا هم كفارا، بل منعوا سواهم من اتباع الحق: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾[4] هذا ما فعله فرعون وقومه، إرهاب المؤمنين، ومصادرة حرية الاعتقاد، ولذلك أخذه الله وجنده أخذ عزيز مقتدر؛ لأنهم أصروا على البغي حتى آخر لحظة قبل غرقهم، ويتمثل ذلك في ملاحقة موسى وأتباعه بغياً وعدوا: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ﴾[5]، وعند هذه الذروة التي لا زيادة بعدها يقصمهم الله، فيكون هلاكهم بين أمواج البحر الطاغية المتعالية المتلاطمة، وحتى بعد هلاكهم يأتي وصفهم بالإسراف:

---

(١) سورة غافر ـ ٣٤.

(٢) سيد قطب ـ الظلال ـ ٥/ ٣٠٨١.

(٣) سورة غافر ـ الآيات من ٤١ ـ ٤٣.

(٤) سورة يونس ـ ٨٣.

(٥) سورة يونس ـ ٩٠.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾[1].

بعد كل ما سبق نخلص إلى أن إسراف فرعون كان منبعه إسرافه في علاقته بالله، فهو لا يكتفي بالكفر بالله، بل يدعي هو الألوهية ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾، وزاد على ذلك بأن ادعي إمكانية محاربة إله موسى، ثم تكذيب كل الآيات التي رآها، ثم معاداة المؤمهين وترويعهم في أنفسهم وفي أموالهم وأولادهم، ثم حوك مؤامرة شنيعة لقتل موسى عليه السلام، ثم مطاردة المؤمنين المستضعفين الفارين بدينهم، ونحن حين ننسب لفرعون الإسراف في علاقته مع الله، فإن علاقته مع نفسه ومع الآخرين تطبع تلقائياً بطابع الإسراف؛ لأن ما يصحح ميزان القيم والسلوك في نفس الإنسان هو: (المعتقد المرتبط بإله الكون)، فمن اختل هذا المعتقد في نفسه وقع في هاوية الإسراف ولا شك.

وقوم فرعون كانوا على دين الإسراف، فقد أسرفوا في ظلم بني إسرائيل، وأسرفوا في تمجيد الطاغية وعدم الوقوف في وجه بغيه، وأسرفوا في تكذيب الآيات ورفضها، فكان مصيرهم وسيدهم فرعون (النار)؛ لأن الله سبحانه قد حكم عليهم بقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾[2] والقرآن الكريم في عرضه لهذه النماذج المسرفة الباغية في علاقتها بالله ينبه المؤمنين أصحاب الصراط المستقيم إلى البعد عن هذا التحرف والانحراف؛ لما يفضي إليه من ضياع وإسراف، واستخدم بالإضافة إلى الصيغة المباشرة لـ(سرف) ومشتقاتها صيغاً لغوية أخرى، نعرض الآن لبعض منها:

---

(١) سورة الدخان ـ ٣٠، ٣١.

(٢) سورة غافر ـ ٤٣.

الصيغ غير المباشرة للنهي عن الإسراف في العلاقة مع الله:

١ـ «طغى»:

طغى يطغى طغياناً،ويطغو طغيانا: جاوز القدر، وارتفع،وغلا في الكفر، فكل مجاوز حده طاغ، يقال: طغى الماء والبحر. ارتفع وعلا على كل شيء، وكل شيء جاوز القدر فقد طغى، كما طغى الماء على قوم نوح:

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾[1]، وكما طغت الصيحة على ثمود، قال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾[2]، فكل مجاوز للقدر طاغ[3].

آيات هذه الصيغة:

الآية الأولى:

قال الله عز وجل: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾[4].

بعد أن أمر الله الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بالاستقامة، أعقب ذلك النهي عن الطغيان؛ «لأن الأمر بالاستقامة وما يتبعه من يقظة وتحرج قد ينتهي إلى الغلو والمبالغة التي تحول الدين من يسر إلى عسر، والله يريد دينه كما أنزله دون إفراط ولا غلو[5]» وقال ابن عباس: «إن المراد تواضعوا لله تعالى ولا تكبروا على أحد، وقيل: لا تطغوا في القرآن فتحلوا حرامه وتحرموا حلاله، وقيل: لا تتجاوزوا

---

(١) سورة الحاقة ـ ١١.

(٢) سورة الحاقة ـ ٥.

(٣) لسان العرب ـ مادة (طغا).

(٤) سورة هود ـ ١١٢.

(٥) سيد قطب ـ الظلال ـ ٤/ ١٩٣١.

ما أمرتم به وحد لكم، وقيل: لا تعدلوا عن طريق شكره والتواضع له عند عظم نعمه عليكم، قال الفخر الرازي: «والأولى دخول الكل فيه»[1].

والرأي ـ والله أعلم ـ أن الله سبحانه وتعالى حين أمر بالاستقامة في بداية الآية، وقد ذكر المفسرون أن الاستقامة هنا كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعقائد والأعمال[2]» أي الالتزام بحدود الله تماما، ولتأكيد تمام الالتزام بهذه الاستقامة جاء النهي عن الطغيان؛ لأن الطغيان هو مجاوزة الحد إفراطاً أو تفريطاً، فكما أن الاستقامة جامعة للالتزام بحدود الله في العقائد ولأعمال، كذلك النهي عن الطغيان جامع لكل طغيان عن حدود الله في العقائد والأعمال، فالمراد بقوله سبحانه ﴿لا تطغوا﴾ أي: لا تنحرفوا عما حد لكم بإفراط أو تفريط، فإن كلا الطرفين ذميم، وسمى ذلك طغياناً، وهو مجاوزة الحد، تغليظاً أو تغليباً لحال سائر المؤمنين على حاله عليه السلام»[3] والتجافي عن الطغيان يعني لزوم الاستقامة، وهي أمر بالغ الصعوبة، قال الفخر الرازي: «إن معرفة الصراط المستقيم في غاية الصعوبة، والبقاء عليه والعمل به أصعب، ولما كان هذا المقام في غاية الصعوبة لا جرم قال ابن عباس: «ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع القرآن أشد ولا أشق عليه من هذه الآية[4]» ويلاحظ سمو التعبير القرآني، حيث وجّه الخطاب في البداية للرسول: (فاستقم)، وحين جاء النهي الذي فيه مظنة العنف جمع الرسول مع غيره؛ تليينا في الأسلوب، وتشريفاً للرسول عليه الصلاة والسلام[5].

---

(١) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد ٩/ ج١٨/ ٧٣.

(٢) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب المجلد ٩/ ج ١٨/ ٧٢.

(٣) الألوسي، السيد محمود البغدادي ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ـ المجلد٦، ١٢/ ١٥٣، دار الفكر ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧.

(٤) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد٩/ ١٧/ ٧٢.

(٥) يوسف عبدالله الأنصاري ـ أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية ـ ص١٢٢.

الآية الثانية:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾[1] هذه الآيات الكريمات جاءت تعقيباً على قصص الرسل التي سبق ذكرها في السياق، واتضح خلال ذلك موقف أقوامهم منهم، ذلك الموقف الذي يماثل موقف المشركين من رسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وسبب ذلك أنهم يصدرون عن طبيعة واحدة مشتركة بينهم هي: «طبيعة الطغيان،وتجاوز الحق والقصد التي تجمع بين الغابرين واللاحقين»[2]، فوصفهم بالطغيان والإسراف في الآية نابع من إعراضهم عن الرسل والرسالات التي تحمل ذكر الله الذي يهدي البشر إلى الطريق المستقيم؛ لأنهم لم يتواصوا به، بدليل وجود (بل) التي تفيد الإضراب، وذلك لأنهم لم يتلاقوا في زمن واحد، بل جمعتهم العلة الواحدة وهي (الطغيان)[3].

الآية الثالثة:

قال الله عز وجل: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾[4] تمضي الآيات الكريمات مع الاستفهامات الإنكارية التي تكشف عن موقف هؤلاء الكفرة من الرسول عليه السلام،

---

(١) سورة الذاريات ـ الآيات من ٥١ـ ٥٣.

(٢) سيد قطب ـ الظلال ٦/ ٣٣٨٦.

(٣) الزمخشري. جار الله محمود بن عمر (ت٥٣٨هـ) ـ الكشاف ـ ٤/ ٢٠، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

(٤) سورة الطور ـ الآيات من ٢٨ـ ٣٢، ذكر الفخر الرازي أن (أم) في قوله تعالي: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أنها بمعنى (بل) واستدل بمن قرأ: (بل هم قوم طاغون) وفائدة ذلك أن ما قالوه عن كونه شاعراً أو كاهناً أو مجنوناً ليس مجرد قول يقال، بل يعتقدونه عقلاً، انظر: الفخر الرازي ـ ١٤/ ٢٥٨.

وتماديهم في الكفر والعناد وإنكار الرسالة، ويأتي التهكم اللاذع بما يفاخرون به من الأحلام والعقول الراجحة[1]، لتتقرر بعد ذلك سبب هذه اللجاجة وهذا الكفر، إنه الطغيان. وفي ختام هذا المقطع يصور لنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ مدى إصرارهم على الكفر وإسرافهم فيه. وذلك بأنهم حتى لو رأوا العذاب في صورة قطعة من السماء توشك أن تسقط عليهم لقالوا: (سحاب مركوم)، قال سبحانه: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾[2] فأي طغيان ولجاجة أكثر من هذا القول؟! وعند هذا الحد يوجه الله أمره إلى الرسول الكريم بأن يدعهم حتى ملاقاة الوعد المقرر: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾[3] وذلك لأن طغيانهم، أي: «مجاوزتهم الحد في العناد مع ظهور الحق»[4] قد بلغ حداً لا يرجى من ورائه هداية ولا رشاد، والسر في ذلك أنهم (قوم طاغون) أي: «مجاوزون للحد، أو تلك عادة لهم بما أفهمه الوصف، لذلك لا يبالون بالعناد الظاهر في مخالفته لما تأمر به الأحلام والنهى»[5].

الآية الرابعة:

قال سبحانه: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[6].

من اتصف بهذه الصفات القبيحة، فإنه يوصم بالطغيان؛ لأنها صفات الطغاة، أولها أن (كَفَّار) صيغة مبالغة على وزن: (فَعَّال) تفيد الكثرة والشدة، «والتشديد في

---

(١) كانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهى: الزمخشري/ الكشاف/ ٤/ ٢٥.

(٢) سورة الطور ـ ٤٤.

(٣) سورة الطور ـ ٤٥.

(٤) الزمخشري ـ المصدر السابق ـ ٤/ ٢٥.

(٥) البقاعي ـ نظم الدرر ـ ١٩/ ٢٤.

(٦) سورة ق ـ الآيات من ٢٤ ـ ٢٧.

لفظ (فَعَّال) يدل على شدة في المعنى»[1]. أي: شديد الكفر. كثير الكفران، وعنيد فعيل بمعنى فاعل، من عند عنودا، ومنه العناد، و(مَنَّاع للخير) فيها وجهان: إما أن المراد أنه كثير المنع للمال الواجب، والثاني: أن يكون شديد المنع من الإيمان، أي: فيه مناسبة شديدة للكفر، كأنه يقول: كفر بالله، ولم يقتنع بكفره حتى منع الخير من الغير»[2] ومن الممكن أن يحتمل الكلام الوجهين؛ وذلك لأن الزمخشري في تفسيره ذكر سبباً لنزول هذه الآية حيث قال: «نزلت هذه الآية في الوليد بن المغيرة، كان يمنع بني أخيه من الإسلام، وكان يقول: من دخل منكم فيه لم أنفعه بخير ما عشت»[3]، وهو فوق كل ذلك (مُعْتَد): أي: ظالم متخط للحق، أي: منع الإيمان ولم يكتف بذلك، بل أهان من آمن به وآذاه، وأعان من كفره وآواه. مريب: أي: شاك في الله وفي دينه، وقيل في الآية ترتيب آخر، وهو بيان أحوال الكفر بالنسبة إلى الله، وإلى رسوله، وإلى اليوم الآخر، فهو كَفَّار يكفر بالله، ويعاند آياته، وهو يمنع الناس من اتباع الرسول ومن الإنفاق على من عنده،وهو مرتاب في اليوم الآخر وفي قيام الساعة[4]، وأمام هذا السيل الجارف من الصفات البشعة، التي استحق صاحبها عذاب النار، يحاول هذا الكَفَّار أن يتنصل منها، ويلقى باللائمة على شيطانه، فيقول: رب هو أطغاني، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿ ۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ . . . ﴾ الآية. هذا جواب لكلام مقدر، كأنَّ الكافر حينما يلقى في النار يقول: ربنا أطغاني شيطاني، فيقول الشيطان: ربنا ما أطغيته، يدل على ذلك قوله تعالى: «قال لا تختصموا لدي. . الآية» لأن الاختصام يستدعي كلاماً من الجانبين[5]، فالشيطان يدفع التهمة عنه بأن

---

(١) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد١٤/ ٢٨/ ١٦٧.

(٢) الفخر الرازى ـ نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٣) الكشاف ـ ج٤/ ٨.

(٤) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد١٤/ ٢٨/ ١٦٧.

(٥) الفخر الرازي ـ المصدر نفسه، المجلد١٤/ ٢٨/ ١٦٨.

الطغيان عائد إلى ذات هذا الكافر المسرف، ووصف حاله بأنه كان في (ضلال) غير عادي؛ لأنه (ضلال بعيد) ووصف الضلال بالبعد هنا، لتصوير مدى تغلغله في الضلال، وإمعانه في البعد عن جادة الحق، لما كان عليه من طغيان، قال الفخر الرازي: «وصف المصدر هنا بما يوصف به الفاعل كما يقال: كلام صادق، وعيشة راضية، والمراد: ضلال ذو بعد[1]» هذا الإيغال في الضلال والانحراف نتيجة حتمية لطغيانه الذي تمثل فيما سبق أن وصف به في الآيات السابقة.

الآية الخامسة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾[2].

يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ مصير الطغاة المتجبرين، وهو (النار)، وبعد أن يذكر طرفاً من ألوان العذاب التي يتجرعونها في جهنم، يعيد إلى أذهان السامعين صفات هؤلاء الطغاة، وأفعالهم الشنيعة التي مارسوها في الحياة الدنيا، وترتب عليها هذا المصير وهذا العذاب الذي يعانونه. فهم كانوا (لا يرجون حسابا) ومعنى ذلك: إنكار الآخرة والبعث»[3]، وإنكار البعث شك في قدرة الله سبحانة وتعالى القادر على كل شيء، ومن لا يؤمن بالبعث ولا يعتقد بالآخرة فإنه يترك لنفسه الحبل على الغارب، لذلك فهؤلاء الكفار «أتوا بأنواع القبائح والكبائر، وفعلوا كل شر، وتركوا

---

(١) الفخر الرازي ـ المصدرنفسه، المجلد١٤/ ٢٨/ ١٦٩.

(٢) سورة النبأ ـ الآيات من ٢١ـ ٢٨.

(٣) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد ١٦/ ٣١/ ١٨.

وانظر: ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ٤/ ٧٢٩.

كل خير»[1]، ثم أضاف لهم صفة أخرى لا تقل جرماً وشناعة عن سابقتها وهي أنهم: كذبوا بآيات الله، ثم أَكَّدَ هذا التكذيب تأكيداً قوياً بقوله: (كِذَّابا)، قال الزمخشري: «أي أنهم يتكلمون بما هو إفراط في الكذب، فعل من يغالب في أمر فيبلغ فيه أقصى جهده، وكِذَّاباً أي: تكذيباً، وفِعَّال في باب فعل»[2]، والمراد: أنهم كذبوا بجميع دلائل الله تعالى في التوحيد والنبوة والمعاد والشرائع والقرآن، وكِذَّابا صفة لمصدر كَذَّبوا أي: تكذيباً كِذَّابا مفرطاً كذبه[3]، وقال ابن كثير: «هو مصدر من غير الفعل»[4] ومجيء هذه الصيغة لإيضاح مدى إفراط هؤلاء الطغاة في التكذيب، ولذلك حق أن يوصفوا بالطغيان والإسراف في البعد عن نور الله وهديه.

الآية السادسة:

في موضع آخر من كتاب الله الكريم، يعرض السياق القرآني لمشهد الغواة الطغاة وهم يتلاومون ويتلاعنون، قال سبحانه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾﴾[5].

وصف هؤلاء القوم بالطغيان في العلاقة مع الله؛ لما اشتملوا عليه من صفات وردت في آيات سابقة، أولها: إنكار الرسل وتكذيبهم والسخرية بهم: ﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾[6]، وكذلك إنكار البعث، وهذا تشكيك في قدرة الله سبحانه

---

(١) الفخر الرازي ـ نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٢) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٤/ ٢٠٩.

(٣) الفخر الرازي ـ المصدر السابق ـ المجلد ١٦/ ٣١/ ١٩.

(٤) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ٤/ ٧٢٩.

(٥) سورة الصافات ـ الآيات من ٢٧ ـ ٣٢.

(٦) سورة الصافات ـ ١٥.

الخالق الجبار: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾﴾[1] وبعد وصفهم بصفة الطغيان، يأتي السياق القرآني بصفات لا حقة يصمهم بها وهي: (الاستكبار) قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[2]، وإنكار الرسالة، قال عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾[3]، ومن خلال ما وصفوا به سابقاً ولاحقاً تتضح العلة في وصفهم بالطغيان المستحق لعذاب الله.

من خلال العرض السابق للآيات الكريمة التي وردت فيها صيغة (طغى) ومشتقاتها نلاحظ أن الغالب مجيء (الاسم) منها:

﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾[4]

﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾[5]

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾[6]

﴿هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾[7]

وذلك ـ والله أعلم ـ لثبوت هذه الصفة فيهم، فناسب ذكر الاسم دون الفعل؛ للدلالة على هذا الطغيان الثابت الراسخ في نفوسهم وفي مسالكهم وأعمالهم، والله المستعان على ما يصفون.

---

(١) سورة الصافات ـ ١٦.
(٢) سورة الصافات ـ ٣٥.
(٣) سورة الصافات ـ ٣٦.
(٤) سورة الصافات ـ ٣٠.
(٥) سورة النبأ ـ ٢٢.
(٦) سورة الطور ـ ٣٢.
(٧) سورة الذاريات ـ ٥٣.

٢ـ (فرط):

أفرط في الأمر: أسرف وتقدم، وكل شيء جاوز قدره فهو (مفرط)، يقال: أفرط الحوض، ملأه حتى فاض، وأفرطت في القول: أكثرت، وأمر فرط: أي: مجاوز فيه الحد، وفرط عليه في القول: أسرف وتقدم، وفي التنزيل: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾[١] الفرط: الظلم أو الاعتداء، وفي حديث أم سلمة لعائشة رضي الله عنهما قالت: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاك عن الفرطة في الدين» يعني السبق والتقدم ومجاوزة الحد[٢].

الآية الأولى:

قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[٣].

هذه الآية من سورة الكهف، تلك السورة التي تدور آياتها حول محور مشترك هو (تصحيح العقيدة)[٤]، وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة، فالرسول عليه الصلاة والسلام أمام نموذجين، الأول: الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، وهم من الفقراء الضعفاء الذين تزدريهم الأنفس، وتنبو عنهم الأعين، أما الفريق الآخر فهم أتباع الهوى من الغافلين، ممن جماع أمرهم وحالهم الإسراف والإفراط، والرسول عليه السلام أمر بمجالسة الأولين والبعد عن التالين. ويلاحظ الترتيب البديع لنعوت الفريق

---

(١) سورة طه ـ ٤٥.

(٢) لسان العرب ـ مادة (فرط).

(٣) سورة الكهف ـ ٢٨.

(٤) سيد قطب ـ الظلال ـ ٤/ ٢٢٥٧.

الثاني وأولها: (الغفلة)، أي: أن قلبه غافل عن ذكر الله، خال عن ذكر الحق، والقلب الغافل عن ذكر الله يكون كالبيت الخرب المهجور، ويلي ذلك (اتباع الهوى)، فهو في أول الأمر غفل، والاستقامة على الصراط المستقيم تستوجب اليقظة والحذر الدائمين، وحين يغفل الإنسان يميل مع هواه ويتبع هواه، وعندها يقع في الإفراط والإسراف (وكان أمره فرطا) أي: «مجاوزاً للحد، فرس فرط، إذا كان متقدماً الخيل، أي: إنسان لا ينظر لدينه، وإنما عمله لدنياه»[1]، والنهي موجه إلى الرسول عليه السلام وإلى أمته من بعده، نهي عن إتباع المفرطين المسرفين، عبدة الهوى، وأمر بإلزام النفس مجالسة أهل الإيمان والهدى.

الآية الثانية:

قال سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾[2].

أي: يجعلون لله ما يكرهون لأنفسهم من البنات، ويجعلون له ـ سبحانه ـ أرذل أموالهم، ولأصنامهم أكرمها، ويجعلون لأنفسهم ما يحبون، من البنين، ثم يذكر ـ سبحانه ـ مصيرهم النهائي وهو (النار)، لأنهم: مفرطون، وقد ذكر الزمخشري أن للكلمة في هذه الآية ثلاثة أوجه:

١ـ (مُفْرَطون) بفتح الراء، أي: مقدمون إلى النار، معجلون إليها من أفرطت فلاناً وفرطته في طلب الماء إذا قدمته، وقيل: منسيون متركون، من أفرطت فلاناً خلفي إذا نسيته.

٢ـ (مُفْرِطون) بكسر الراء مع التخفيف، من الإفراط في المعاصي، ومجاوزة الحد

---

(١) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد١١/ ٢١/ ١١٩.

(٢) سورة النحل ـ ٦٢.

فيها.

٣ـ (مُفَرِّطون) بكسر الراء مع التشديد، من التفريط في الطاعات،وتضييعها،والتقصير فيها[١].

وعلى كل حال، فإن الوجهين الثاني والثالث يتفقان ومفهوم مجاوزة الحد؛ لأن الإكثار من المعاصي هو مجاوزة للحد وإسراف، وكذلك التقصير في الطاعات وتضييعها مجاوزة للحد وإسراف، وقد ذكر الأوجه السابقة أيضاً الفخر الرازي، حيث ذكر أن في الكلمة قراءات هي:

(مفرِطون) بكسر الراء، وهي قراءة نافع وقتيبة عن الكسائي، وفسرها الفراء بإن المراد أنهم كانوا مفرطين في الذنوب، وقرأ الفتح والباقون بفتح الراء (مفرَطون)، والله أعلم.

وبمقارنة صيغة (فرط) مع صيغة (طغى) ودلالة كل منهما على الإسراف، وجدت أنه ربما كان الطغيان معبراً عن انحراف أشد، وإسراف أمعن في البعد عن الاستقامة من صيغة (فرط) التي تدل على الإسراف كذلك، ولكن بمستوى أقل مما تدل عليه صيغة الطغيان، ورأيت هذا الرأي في ضوء قوله تعالى على لسان موسى وهارون: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾[٢]، فهما خافا بداية من أن يفرط «وهو من الإفراط في الأذية، وأن يطغى بأن يقول في الله ما لا ينبغي لجراءته عليه سبحانه، واعلم أن من أُمِر بشيء فحاول دفعه بأعذار يذكرها، فلابد وأن يختم كلامه بالأقوى، فلذلك بدأ موسى بقوله: (أن يفرط علينا)، وختم بقوله: (أو أن يطغى) لأن طغيانه في حق الله تعالى أعظم من إفراطه في حق موسى وهارون عليهما

---

(١) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٢/ ٤١٥.

(٢) سورة طه ـ ٤٥.

السلام»[1].

٣ ـ (غلا):

أصل الغلا: الارتفاع ومجاوزة القدر في كل شيء، يقال: غلا في الدين والأمر يغلو غلوا، جاوز حده وأفرط فيه، وفي الحديث: «إياكم والغلو في الدين» أي: التشدد فيه، ومجاوزة الحد[2].

الآية الأولى:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾[3]

(الغلو) هو مجاوزة الحد والإفراط، والله ـ سبحانه وتعالى ـ ينهى عن الغلو والإسراف في الدين ومجاوزة الحد؛ لأن النصارى حين غلوا في دينهم جعلوا عيسى ابناً لله ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا ـ «فالنصارى تجاوزوا الحد في عيسى حين نقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله، بل غلوا في أتباعه وأشياعه فادعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل ما قالوا، حقاً كان أو باطلا»[4]، وهكذا فقوله تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي: لا تفرطوا في تعظيم المسيح[5]، ويرى الزمخشري أن الآية تشمل جميع أهل الكتاب؛ «لأن اليهود غلت في حط المسيح عن منزلته، وغلت النصارى في رفعه عن مقداره حيث جعلوه إلها»[6] وأمة الإسلام تعتبر بهذا النهي، فتحذر من الغلو في الدين، ومن الغلو في النظرة إلى الرسول عليه

---

(١) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد ١١/ ٢٢/ ٦١.

(٢) لسان العرب ـ مادة غلا ـ محمد ناصر الدين الألباني ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته ـ ١/ ٣٨٥، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

(٣) سورة النساء ـ ١٧١.

(٤) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ١/ ٨٩٨.

(٥) الفخر الرازي ـ المصدر السابق ـ المجلد٦/ ١١/ ١١٧.

(٦) الكشاف ـ ١/ ٥٨٤.

السلام، ونبينا عليه الصلاة والسلام نبّه إلى هذا حين قال صلى الله عليه وسلم: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»[1].

٤ـ (بطر):

البطر: هو الطغيان في النعمة وعند النعمة، ورجل بطرير: متماد في غيه، والأنثى بطريرة، إذا بطرت وتمادت في الغي، ومنه قوله تعالى: ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾، أي: بطرت في معيشتها، فحذف وأوصل، قال أبوإسحاق: نصب (معيشتها) بإسقاط (في) وعمل الفعل، وتأويله: (بطرت في معيشتها)[2].

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[3].

كانت قريش تخاف الهلاك إن اتبعت الهدى، فبين الله لهم أين يكون الأمن،وأين يكون الخوف، وأين يكون الهلاك، وأين تكون النجاة، وبيّن لهم أسباب الهلاك الحقيقية ممثلة في البطر،وعدم الشكر،والتكذيب بالرسل،والإعراض عن الآيات[4]. وقد كان أهل مكة يتمتعون بنعم سابغة متعددة من الأمن والغذاء، ومن أسبغ الله عليه هاتين النعمتين العظيمتين، ثم أعرض عن شكر الله، فقد حكم على نفسه بالهلاك الحقيقي؛ لأن ذلك هو (بطر النعمة)، وبطر النعمة كان سبباً في هلاك أهل القرى الغابرين؛ لأنهم بطروا نعمة الله، ولم يشكروه ـ عز وجل ـ عليها، وهذا إسراف،

---

(١) ابن حجر ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ـ ٧/ ١٤٩.

(٢) لسان العرب ـ مادة بطر.

(٣) القصص ـ ٥٧، ٥٨.

(٤) سيد قطب ـ الظلال ـ ٥/ ٢٧٠٣.

وأي إسراف؛ لأن معنى بطرت: طغت، وأشرت، وكفرت نعمة الله التي أنعم بها من الأرزاق[1]، وهكذا يبين الله لأولئك الحريصين على بقاء نعم الدنيا، الظانين أن الإيمان بالله يجردهم من هذه النعم، ويعرضهم لعداء من لا قبل لهم به، يبين لهم أن عدم قبول الأيمان هو الذي يزيل هذه النعم، قال صاحب الكشاف: البطر سوء احتمال الغنى، وهو أن لا يحفظ حق الله تعالى فيه[2]، والآية تحذير من البطر؛ حتى لا يحل بهم الهلاك، وتبقى المساكن شاخصة تحدث عن مصارع أهلها، وتروي قصة البطر في النعمة[3].

٥ـ (فجر):

الفاجر: المائل. قال لَبِيْد يخاطب عمه أَبَامَالِك:

فَأَصْبَحْتَ أَنَّى تَأْتِهَا تَبْتَئِسْ بِهَا ... كِلا مَرْكَبَيْهَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ شَاجِرُ[4]

فَإِنْ تَتَقَدَّمْ تَغْشَ مِنْهَا مُقَدَّماً ... غَلِيْظاً وَإِنْ أَخَّرْتَ فَالكِفْلُ فَاجِرُ[5]

والفَجْر أصله: الميل عن الحق، والكافر فاجر، والكاذب فاجر؛ لميلهم عن الحق والقصد، وفجر الراكب فجورا: مال عن سرجه، قال ابن الأعرابي: الفجور والفاجر، المائل الساقط عن الطريق[6].

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾[7].

---

(١) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ ٣/ ٦٣١.

(٢) الفخر الرازى ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد ١٣/ ٢٥/ ٦.

(٣) سيد قطب ـ الظلال ـ ٥/ ٢٧٠٤.

(٤) شاجر: مختلف.

(٥) الكفل فاجر: مقعد الرديف مائل.

(٦) لسان العرب ـ مادة (فجر)، وفي ديوانه ـ ٩٢، ٩٣.

(٧) سورة القيامة الآيات من ٣ـ٦.

القضية التي تتناولها الآيات هي قضية (البعث) و(اليوم الآخر) وما فيه من حساب وجزاء، والمراد بالإنسان هنا: «الإنسان المكذب بالبعث على الإطلاق» والآية الثالثة هنا تناقش من ينكر البعث إنكاراً متولداً من الشبهة[1]، أي: استبعاد إمكانية تجميع أجزاء الإنسان بعد اختلاطها بغيرها وتفرقها في مشارق الأرض ومغاربها، وتفند الآية الكريمة هذه الشبهة بأنه ـ سبحانه ـ قادر على الإعادة كما قدر على الابتداء، ونبه بالبنان على بقية الأعضاء؛ وذلك لأن من قدر على ضم سلاماته[2] ـ على صغرها ـ قادر على كبار العظام، ثم تناقش الآية الخامسة من ينكر البعث إنكاراً مبنياً على الشهوة ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾ أي: أن الإنسان الذي يميل طبعه إلى الاسترسال في الشهوات، والاستكثار من اللذات، لا يكاد يقر بالحشر والنشر؛ لئلا تتنغص عليه اللذات الجسمانية[3] فهو يريد أن يدوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات، وفيما يستقبله من الزمان[4] وهذه هي العلة النفسية الحقيقية لإنكار البعث، وهي إرادة الفجور والإسراف، «فهو يريد أن يفجر، ويمضي قدماً في الفجور، لا يريد أن يصده شيء عن فجوره[5]، ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾ وهو سؤال مستعنت مستبعد للساعة[6]، وانظر إلى (أَيَّان)، تجد لفظاً مديد الجرس، يوحي باستبعاد ذلك اليوم، تمشياً مع رغبته الجامحة في الفجور، والمضي فيه دون حد[7]، وسؤاله السابق على ما فيه من استبعاد، فإنك أيضاً تلمح فيه نبرة

---

(١) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد ١٥/ ٣/ ٢١٨.

(٢) سلامى: عظام الأصابع واليد والقدم، وقيل هي كل عظم مجوف من صغار العظام «اللسان ـ مادة سلم».

(٣) الفخر الرازي ـ المصدر السابق ١٥/ ج ٣/ ٢١٩، ٢٢٠.

(٤) الزمخشري ـ الكشاف ٤/ ١٩٠.

(٥) سيد قطب ـ الظلال ـ ٦/ ٣٧٦٩.

(٦) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٤/ ١٩٠.

(٧) سيد قطب ـ المصدر السابق ـ ٦/ ٣٧٦٩.

الاستهزاء[1]، كل ذلك الاستبعاد والاستهزاء ليترك نفسه على هواها، تنطلق جامحة وراء الرغبات والشهوات بكل إسراف وفجور؛ لأن صاحبها يظن ألا بعث، ولا حساب، ولا جزاء.

خلاصة:

من خلال العرض السابق وجدت أن الآيات التي تتناول الإسراف في القيم المتعلقة بالذات العلية تشكل حيزاً كبيراً من آيات الإسراف بشكل عام، وذلك ـ والله أعلم ـ ربما يعود إلى سببين:

الأول: (الأهمية) فإن علاقة العبد بربه ـ سبحانه وتعالى ـ أهم العلاقات في حياة الإنسان على الإطلاق، فلا عجب أن يحظى تصحيح هذه العلاقة، وإرساؤها على قواعد سليمة واضحة، بأكبر نصيب من الآيات؛ لأن الإيمان الصحيح بالله، وعبادته على بصيرة وهدى، وعدم الإعراض عن ذكره والإيمان برسله، وكتبه، وبيوم لقائه سبحانه، كل ما سبق يعد معياراً لمدى استقامة العبد على الصراط المستقيم.

الثاني: (الشمول)، فإن الإسراف في العلاقة مع الله يطبع حياة المرء بطابع الإسراف في جميع مناحيها، فتجده يسرف على نفسه، فيتركها على هواها، راكضة وراء شهواتها في اللباس،والمأكل،والمشرب،والزينة،والإنفاق . . . إلخ، ويسرف على الآخرين،فيعتدي،ويظلم،ويطغى، ويهضم حقوق الآخرين؛ كل ذلك لأن المرتكز المقوم لكل حياته قد اختل، ونعني به (علاقته بالله)، فاختل تبعاً لذلك كل ما عداه، ولعل أوضح مثال على ذلك: (فرعون) وقومه، وانسحاب الإسراف لديهم على كل حياتهم.

---

(١) الفخر الرازي ـ المصدر السابق ـ المجلد ١٥/ج٣٠/ ٢٢٠.

ثانياً: الإسراف في القيم المتعلقة بالعلاقة مع النفس:

القيم المتعلقة بالعلاقة مع النفس يمكن أن نصنفها في مجالين كبيرين، وهو تصنيف ذهبنا إليه تسهيلاً للبحث والدراسة؛ لأن تلك القيم ترابطها كبير وقوي، والتصنيف السابق الذكر يسهل تحليلها وفهمها للباحث المتأمل.

أما المجال الأول، فيشتمل على القيم المرتبطة بالسلوك، مثل آداب الطعام والشراب، وكذلك المشي والكلام، واللباس والزينة، بل وحتى (البناء).

وأما المجال الثاني، فيتناول القيم المرتبطة بالمشاعر الإنسانية، مثل الفرح، والحزن، وحب المال، وحب الدنيا، والخوف، والغفلة ونحو ذلك من المشاعر.

ونبدأ ـ بعون الله ـ بقيم المجال الأول:

القيم المتعلقة بالسلوك:

الآية الأولى في آداب الطعام،والشراب،واللباس:

قال الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ[1] وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ ﴾[2].

تنبّه الآية الكريمة جميع البشر إلى عدم الإسراف في الزينة،والأكل،والشرب،بما يضرّ النفس والمال، ويلاحظ أن هذه الآية جاءت بعد عرض رائع لقصة خروج سيدنا آدم وأمنا حواء من الجنة، بقصد تذكير بني آدم بذلك الموقف الذي عاناه أبواهم، حيث قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا

---

(١) (عند كل مسجد) مجاز مرسل علاقته المحلية، لأن المراد بالمسجد هنا (الصلاة والطواف) أو لما كان المسجد مكان الصلاة أصلق ذلك عليه «الصابوني» ـ صفوة التفاسير ١/ ٤٤٣.

(٢) سورة الأعراف ـ ٣١.

لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾[1]، فهذا تحذير من الله سبحانه للإنسانية جمعاء «لأن قضية اللباس ليست منفصلة عن شرع الله ومنهجه للحياة، إنها ترتبط بالعقيدة، وبتحديد الجهة التي تشرّع للناس هذه الأمور، وتتعلق بإبراز خصائص الإنسان في الجنس البشري، وتغليب الطابع الإنساني فيه على الطابع الحيواني»[2] والمراد بالزينة هنا (لبس الثياب)، والأمر هنا للوجوب، أي: لبس الثياب الساترة للعورات، ووجوب اللبس التام عند كل صلاة أو طواف، ثم عطف عليه قوله: (وكلوا واشربوا) وهنا أمر إباحة؛ لأن الأصل في المنافع الحل والإباحة، إلا ما ورد دليل بتحريمه، وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ هذا نهاية التهديد؛ لأن كل من لا يحبه الله يبقى محروماً من الثواب، فعدم المحبة عبارة عن عدم حصول الثواب، وعندئذ فقد حصل العقاب[3]، وقال صاحب الكشاف عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة[4]» والتحذير الإلهي من الإسراف في هذه النواحي ضرورة ملحة؛ لأن انحراف الإنسان إلى الإسراف في الطعام،والشراب، واللباس،أمر كثير الحدوث؛ لأنها من المباحات في الأصل، وكثيراً ما يحدث الاستكثار والاستزادة منها، مما يلحق الضرر بالنفس والمال.

الآية الثانية، في آداب المشي والكلام:

قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ

---

(١) سورة الأعراف ـ ٢٧.

(٢) سيد قطب ـ الظلال ٢/ ١٢٨١.

(٣) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد ٧/ج/ ٦٥، ٦٦ وانظر: أساليب الأمر والنهي في القرآن ـ ١٥٢.

(٤) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٢/ ٧٦، وقد ذكر هذا الأثر في: فتح الباري ـ ١١/ ٤٤٤.

فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾[1].

تحث الآيتان الكريمتان على التوسط والقصد في أمور عدة تتعلق بطريقة المشي، وطريقة الكلام، فالمشي يجب أن يكون قصداً، ليس بالبطيء المثبط، ولا بالسريع المفرط، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ نهي عن التكبر، والتكبر إسراف في الإعجاب بالنفس، وإسراف في احتقار الغير.

وقد عَبّر السياق القرآن عن ذلك بـ(الصَّعَر) وهو داء يصيب البعير فيلوي عنقه[2]، والغرض من ذلك النهي عن التكبر، ودلالة ذلك التكبر إمالة الخد للناس كبراً عليهم وإعجاباً بالذات وتحقيراً للغير، والمعنى: أقبل على الناس بوجهك تواضعاً، ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعل المتكبرون[3]، والصفة الثانية المنهي عنها هي: (الإسراف في الافتخار بالنفس)، ويظهر أثر ذلك في المشي بحيث (يمشي في الأرض مَرَحا) ويلاحظ هنا أنه أوقع المصدر وهو (مَرَحا) مكان الحال، والمراد: لا يكن غرضك من المشي البطالة والأشر[4]، ويلاحظ أن مجيء النهي الثاني: (لا تمش) توكيد للنهي السابق: (لا تصعر) ثم جاء تعليل النهيين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ فتكرار النهي مع التعليل يبين شناعة هذا الكبر وينفر منه[5].

وختمت الآية الكريمة بتقرير عدم حب الله لكل من كان مختالاً[6] فخورا،

---

(١) سورة لقمان ـ ١٨، ١٩.

(٢) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٣/ ٢٣٤، واللسان ـ مادة «صعر».

(٣) الزمخشري ـ نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٤) الزمخشري نفس المصدر والمجزء والصفحة.

(٥) يوسف الأنصاري ـ أساليب الأمر والنهي في القرآن ـ ص ٤٣٥.

(٦) المختال من الفعل (خيل)، والمختال هو الصلف المتباهي، وقد سميت الخيل خيلا لأنها تختال في =

والمختال مقابل للماشي مرحاً، والفخور مقابل للمصعر خده كبراً[1]، وبعد أن نهى عن الخلق الذميم، أمر ـ سبحانه ـ بالخلق الكريم، وهو (القصد في المشي وفي الصوت)؛ لأن الآية السابقة حين نهت عن المشي مرحاً وأشراً، قد يترتب على ذلك أن يفهم البعض أن المراد هو المشي المتماوت، الذي يري من نفسه الضعف زهداً فقال: (واقصد في مشيك) أي: كن وسطاً بين الطرفين المذمومين[2]، ثم قال سبحانه: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾ أمر آخر منه سبحانه بالتوازن والقصد حتى في طريقة الكلام، فهو لم يقل ـ سبحانه ـ «اغضض صوتك»، وإنما جاء بـ(من) وهي هنا للتبعيض، والمراد من ذلك ـ والله أعلم ـ نفي أن المراد الخفض الشديد للصوت كلية، وإنما أن يكون الصوت معتدلاً غير مسرف في علوه أو انخفاضه، ولتأكيد هذا الأمر في النفوس جاءت الاستعارة التمثيلية في ختام الآية: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ حيث شبه الرافعين أصواتهم بالحمير، وأصواتهم بالنهيق، ولم يذكر أداة التشبيه، بل أخرجه مخرج الاستعارة للمبالغة في الذم، والتنفير عن رفع الصوت[3]، ومجيء السياق بهذه الاستعارة البليغة الغرض منها: المبالغة الشديدة في الذم والتهجين عن رفع الصوت والترغيب عنه[4] والملاحظ أن الأمر هنا جاء للنصح والإرشاد[5].

= مشيتها.

اللسان ـ مادة خيل.

(١) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٣/ ٢٣٤.

(٢) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ١٣/ج٢٥/ ١٥١.

(٣) الصابوني ـ صفوة التفاسير ـ ٢/ ٤٩٤.. الاستعارة التمثيلية هي تركيب استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي «انظر: عبد العزيز عتيق ـ علم المعاني ـ ص١٩٦، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.

(٤) الزمخشري ـ الكشاف ٣/ ٢٣٤.

(٥) يوسف الأنصاري ـ أساليب الأمر والنهي في القرآن ص ١٦٣.

الآية الثالثة، في أدب المشي:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾[1].

هذه الآية الكريمة وردت في سورة الإسراء، وقد ورد في هذه السورة التنبيه على العديد من قواعد السلوك الفردي والجماعي وآدابه القائمة على العقيدة، أي: على الاستقامة على صراط الله المستقيم، والنهي عن التحرف والإسراف ورد في عدة مواضع من هذه السورة، ومن ضمن ذلك هذه الآية التي بين أيدينا، «والنهي هنا عن (المرح) وهو شدة الفرح، والمراد: النهي عن أن يمشي الإنسان مشياً يدل على الكبرياء والعظمة، ويلاحظ مجيء المصدر (مَرَحًا) قال الزَّجَاجُ: المصدر أحسن هاهنا وأوكد، تقول: جاء زيد رَكْضًا، وراكضا: فقولك: (رَكْضا) أوكد؛ لأنه يدل على توكيد الفعل[2]، ثم زاد التوكيد بقوله سبحانه: ﴿إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا﴾، «ذلك لأن المشي إنما يتم بالارتفاع والانخفاض، فكأنه قيل: إنك حال الانخفاض لا تقدر على خرق الأرض ونقبها، وحال الارتفاع لا تقدر أن تصل إلى رؤوس الجبال، وذلك تنبيهاً على كونه ضعيفاً عاجزاً، فلا يليق به التكبر»[3] والنهي في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ المراد به الكراهة[4]، ويلاحظ أن النهي هنا موجه إلى القيد وليس للمشي، بل لصورة من صور المشي، فالنهي عن القيد (مرحاً)، أي: المشي المرح والاختيال، وقوله سبحانه: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لزيادة

---

(١) سورة الإسراء ـ٣٧.

(٢) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ١٠/ج ٢٠/ ٢١٣.

(٣) الفخر الرازي ـ المصدر نفسه ـ المجلد ١٠/ج٢٠/ ٢١٤.

(٤) يوسف الأنصاري ـ أساليب الأمر والنهي في القرآن ـ ٢٩٠.

التقرير والإشعار بأن المشي عليها مما لا يليق به المرح والتكبر[1].

الآية الرابعة، في آداب الطعام والشراب:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾[2].

روي عن سبب النزول في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها «أن أناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبي عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي صلي الله عليه وسلم فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا، لكني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، آكل اللحم، وأتزوج النساءفمن رغِبَ عن سنتي فليس منى[3]» فالله ـ سبحانه وتعالى ـ ينهى عباده المؤمنين عن تحريم الطيبات المحللة لهم زهداً وتقشفاً، وقد روى الفخر الرازي سبب النزول بقوله: «إن نفراً من الصحابة حينما سمعوا وصف النبي للقيامة، عزموا على رفض الدنيا، وحرموا على أنفسهم المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة، وأن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، وألا يقربوا النساء والطيب، ويلبسوا المسوح، وألا يناموا على فراش، ويسيحوا في الأرض، وحين علم الرسول صلى الله عليه وسلم نهاهم عن ذلك[4] فالله سبحانه وتعالى حلل الطيبات اللذيدات التي تشتهيها النفوس، وتميل إليها القلوب، ولم يحرمها على عباده، ونهاهم عن أن يحرموها على أنفسهم زهداً وتقشفاً، فهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير، ثم عقب على هذا النهي بنهي آخر في قوله سبحانه:

---

(١) يوسف الأنصاري ـ المرجع نفسه ـ ٤٠٢.

(٢) سورة المائدة ـ ٨٧، ٨٨.

(٣) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ ٢/ ١٣٩.

(٤) الفخر الرازي ـ المصدر السابق المجلد ٦/ ج٥/ ٧٥.

«ولا تعتدوا»، وأصل الاعتداء في اللغة: مجاوزة الحد والقدر والحق، والعادي: الظالم، وأصله من تجاوز الحد في الشيء، والمعتدون: المجاوزون ما أمروا به[1].

فهذا نهي عن الإسراف، وقد تعددت أقوال المفسرين في المراد بالاعتداء ومجاوزة الحد هنا، ومجمل تلك الأقوال يرجع إلى ثلاثة آراء:

١ـ (لا تعتدوا) أي: لا تبالغوا في التضييق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم.

٢ـ (لا تعتدوا) أي: لا تسرفوا في تناول الحلال، بل خذوا منه قدر كفايتكم ولا تجاوزوا الحد فيه إلى الإسراف، ونظير ذلك قوله تعالى: «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا».

٣ـ (لا تعتدوا) أي: اكتفوا بهذه المحللات ولا تتعدوها إلى ما حُرِّم عليكم[2].

والجامع لهذه الأقوال جميعاً ـ والله أعلم ـ هو النهي عن الإسراف ومجاوزة حدود الله على أي وجه كان، أي: لزوم الصراط المستقيم، وعدم التحرف عنه زيادة أو نقصا.

ومن جهة أخرى فلعل الآية الكريمة حين نهت عن الإسراف في الزهد، وفي التقشف والتضييق على النفس، بتحريم ما حلل الله، ربما سمح بعضهم لنفسه أن يطلق لها عنان الأهواء، فتستزيد من الحلال وتستكثر، وتنكب على النهل منه دون أن ترتوي، وهذا باب للهلاك؛ لأن الإنسان إذا تعود التنعم بالمباحات، ونبت على التنعم

---

(١) لسان العرب ـ مادة عدا.

(٢) ذكرت هذه الأوجه في:
الزمخشري ـ الكشاف ـ ١/ ٦٤٠.
الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد ٦/ ج١٢/ ٧٦.
ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ ٢/ ١٤٢.
أما الصابوني في صفوة التفاسير ١/ ٣٦٢ فذكر أن المراد «لا تتجاوزوا الحلال إلى الحرام".

بها جسده، عندها لا يمكنه الصبر عنها، ولا استدامتها إلا بالكذب،والرياء،والالتجاء إلى الظلمة، وكذلك فإنها تُمَكِّنُ من المعاصي، ومن العصمة أن لا تقدر، قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾[1]، وفوق كل ما سبق فهي تلهي عن ذكر الله تعالى، إذ يزدحم القلب بالاشتغال بها عما سواها[2]، ولذلك جاء النهي عن الاعتداء، أي تجاوز الحد في هذه المباحات، بل الاكتفاء منها بقدر الحاجة دون زيادة. ولمعرفة مهاوي الردى التي تستتبع الإسراف في المباحات والاستغراق فيها نورد ما قاله ابن خلدون عن النتائج المروعة للتأنق المسرف في الطعام،والشراب، واللباس،والسكن: «إن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم إلى الحضارة، والحضارة هي التفنن في الترف، واستجادة أحواله وسائر فنونه، من الصنائع المهيئة للمطابخ، أو الملابس، أو المباني، أو الفرش، أو الآنية، ولسائر أحوال المنزل، والتأنق في ذلك، وإذا بلغ التأنق في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات؛ وذلك لأن التفنن في الحضارة يؤدي إلى عظم نفقات أهلها، ولا يجدون وليجة عن ذلك لما ملكهم من أثر العوائد وطاعتها، وتذهب مكاسبهم كلها في النفقات، ويتتابعون في الإملاق، ويغلب عليهم الفقر، ويقل المستامون للبضائع؛ فتكسد الأسواق، ويفسد حال المدينة، وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والترف، ويكثر من أهل المدينة الفسق، والشر، والسفسفة، والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه، وتنصرف النفس إلى الفكر في ذلك، والغوص عليه، واستجماع الحيلة له، فتجدهم أجرياء على الكذب، والغش، والسرقة، والفجور في الأيمان، والربا في البياعات، وتجدهم لكثرة الشهوات الناشئة عن الترف أبصر بطرق الفسق ومذاهبه، وأبصر بالمكر والخديعة، وَيَمُوْجُ بحر المدينة بالسفلة من أهل الأخلاق

---

(١) سورة العلق ـ ٦، ٧.

(٢) محمد بن عبد الرحمن ـ البركة في السعي والحركة ـ ص ٤٨.
دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، دط.

الذميمة، ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم، وإن كانوا أهل نسب وبيوتات، وإذا كثر ذلك في المدنية أو الأمة تَأَذَّنَ الله بخرابها وانقراضها»[1].

وأعقب ذلك النهي عن الاعتداء قوله تعالى: (وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيبا..) أي: كلوا ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله عز وجل، وتمتعوا بما أباح الله لكم، «وإنما خص الأكل بالذكر لأنه أعظم حاجات الإنسان[2]، ويلاحظ أنه ـ سبحانه ـ قال: «مما رزقكم» ولم يقل (ما رزقكم)، وكلمة (من) للتبعيض، فكأنه قال: اقتصروا في الأكل على البعض، واصرفوا البقية إلى الصدقات والخيرات، وهذا إرشاد إلى ترك الإسراف كما قال سبحانه: (ولا تسرفوا)[3]، ووفقاً لهذا القول الأخير يترجح تفسير الاعتداء في الآية السابقة بأنه الإسراف في المباحات التي حَلَّلَها الله، والاستكثار منها، والإفراط فيها.

الآية الخامسة، في آداب البناء:

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾[4] عاد قوم كانوا يسكنون الأحقاف، وهي جبال رملية قرب حضرموت من ناحية اليمن[5]، أرسل الله إليهم نبيه هوداً ـ عليه السلام ـ لما كانوا عليه من الزيغ، والضلال، والبعد عن عبادة الله وطاعته، ولما شاع فيهم من الإسراف والبطش والطغيان، والآيات السابقة تبين

---

(١) المقدمة ـ ٤٦٥، ٤٦٦.

(٢) الصابوني ـ صفوة التفاسير ـ ١/ ٣٦٢.

(٣) الفخر الرازي ـ المصدر السابق ـ المجلد السادس ج١٢/ ٧٧.

(٤) سورة الشعراء ـ الآيات من ١٢٣ـ١٢٩.

(٥) سيد قطب ـ الظلال ـ ٥/ ٢٦٠٩.

استنكار نبيهم (هود) ـ عليه السلام ـ لتلك السلوكيات التي تفشت فيهم وتمكنت منهم، فهو يأمرهم أولاً بتقوى الله سبحانه وتعالى واتباع ما أمرهم الله بهم ثم يأتي بذلك الاستفهام الإنكاري لما هم عليه: «أتبون بكل ريع آية تعبثون» والريع: هو المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة، حيث يبنون هناك بناءً محكماً هائلاً باهراً، وذلك البناء (آية) أي: معلماً بناءً مشهوراً. (تعبثون) أي: عبثاً لا للاحتياج بل لمجرد اللهو،واللعب،وإظهار القوة[1]، فهو بناء عابث دون حاجة فعلية، وإنما بنوها سرفاً، وعبثاً، وإظهاراً للبراعة والمقدرة، والأمر الثاني الذي لامهم عليه: «وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون» قيل: المصانع هي القصور المشيدة، وقيل الحصون المشيدة، قال أحمد: وتأويلها على القصور أظهر، وقد ورد ذم ذلك على لسان نبينا ـ عليه السلام ـ حيث وصف الكائنين آخر الزمان بأنهم يتطاولون في البنيان[2]، فالأمر الأول مذموم لدلالته على السرف، والخيلاء، والثاني مذموم لدلالته على طول الأمل والغفلة عن أن الدنيا دار ممر لا دار مقر، والآيات تبين ما كانوا عليه من السرف باتخاد الأبنية العالية التي تدل على حب العلو، واتخاد المصانع التي تدل على حب البقاء، فهم أحبوا العلو، وبقاء العلو، والتفرد بالعلو، فدل ذلك على أن حب الدنيا قد استولى عليهم، بحيث استغرقوا فيها، وخرجوا عن حدود العبودية، وحاموا حول ادعاء الربوبية[3] «وهكذا فهؤلاء القوم أسرفوا في العبث،والبطش، والبطر الذميم[4]، وصار الإسراف لهم أسلوب حياة، ولذا كان حكم الله عليهم بالهلاك قال سبحانه: «فكذبوه فأهلكناهم.. الآية»[5]، وعندما بعث الله نبي الرحمة إلى إمة الإسلام،

---

(١) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ ٣/ ٥٤٦.

(٢) الشريف الجرجاني ـ الحاشية الأولى علي الكشاف ـ ٣/ ١٢١.

(٣) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد ١٢/ ج٢٤/ ١٥٨.

(٤) سيد قطب ـ الظلال ـ ٥/ ٢٦١٠.

(٥) سورة الشعراء ـ ١٣٩.

وأنزل معه القرآن الكريم هدى ونوراً للمتقين، اعتبروا بما كان من الأمم السابقة وأسباب هلاكها، ومن تلك الأمم: عاد قوم هود عليه السلام وإسرافهم في البناء العابث، وقد انعكس ذلك على الحضارة الإسلامية في عهودها الأولى، التي اتسمت بالتمسك بكتاب الله وسنة رسوله، فكانت المباني والمصانع عندهم قليلة بالنسبة إلى قدراتهم، وإلى ما كان للدول والممالك من قبلهم، وقد لاحظ ذلك ابن خلدون، وعَلَّل ذلك بقوله: «كان الدين أول الأمر مانعاً من المغالاة في البنيان، والإسراف فيه في غير قصد، كما عهد لهم عمر ـ رضي الله عنه ـ حين استأذنوه في بناء الكوفة بالحجارة، وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل، فقال: افعلوا، ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات، ولا تطاولوا في البنيان، والزموا السنة، تلزمكم الدولة، وعهد إلى الوفد، وتقدم إلى الناس أن لا يرفعوا بنياناً فوق القدر، قالوا: وما القدر؟ قال: لا يقربكم من السرف، ولا يخرجكم عن القصد» فلما بعد العهد بالدين، وغلبت طبيعة الملك والترف، واستخدم العرب أمة الفرس، فحينئذ شيدوا المباني والمصانع، وكان عهد ذلك قريباً بانقراض الدولة»[1].

الآية السادسة، في آداب البناء:

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[2].

بعث الله نبيه صالحاً إلى ثمود، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر التي بين

---

(١) ابن خلدون ـ المصدر السابق ـ ٤٤٧.

(٢) سورة الشعراء ـ الآيات من ١٤١ ـ ١٥٢.

وادي القرى وبلاد الشام، ومساكنهم معروفة مشهورة، وكانوا بعد قوم عاد[1]، فدعاهم نبيهم صالح إلى تقوى الله والشكر له على جزيل نعمه، فأبوا عليه، وكذبوه، وخالفوه، فكان الهلاك مصيرهم.

وفي الآيات السابقة يذكرهم نبيهم صالح بما هم عليه من رغد العيش، وسعة الحال، ويخوفهم سلب هذه النعم الوفيرة التي يتقلبون فيها، ويقول لهم: أتظنون أنكم تتركون في دياركم آمنين، وتطمعون في ذلك، وأن لا دار للمجازاة، ثم فسَّرَ ذلك بقوله: «في جنات وعيون» وهذا تفصيل بعد إجمال[2]، وفيه تذكير لهم بنعم الله عليهم في الأمن من المحذورات، وإنبات الجنات، وتفجير العيون الجاريات، ثم خَصَّ النخل بالذكر بعد أن دخل في عموم ما قبله؛ قيل لأن الله وهب لهم أجود النخل وأنفعه، ودلالة ذلك ما اتصف به طلعه، من أنه «هضيم»، أي: لين نضيج[3]، ثم ذكر ما كانوا يقومون به من نحت الجبال الصُّمِّ الجلاميد واتخاذها بيوتاً، ثم وصف حالتهم بقوله: ﴿فرهين﴾، ولتحديد المراد بمعنى الكلمة، نجد باديء ذي بدء أن لها قراءتين:

الأولى: فرهين، من فَرِهَ ـ بالكسر ـ بمعنى: أشرين بطرين شرهين.

الثانية: فارهين: من فَرُهَ ـ بالضم ـ بمعنى: حاذقين[4].

قال الفخر الرازي: «قريء: فرهين، وفارهين[5]» وذكر ذلك أيضاً

---

(١) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ ٣/ ٥٤٨.

(٢) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب، المجلد ١٢/ج ٢٤/ ١٦٠.

(٣) الزمخشري ـ الكشاف ٣/ ١٢٣.

(٤) ابن منظور ـ لسان العرب ـ مادة فره، وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي: (فَرِهَ مثل فَرِحَ بمعنى: أشر وبطر، وفَرُهَ مثل كَرُمَ بمعني حذق «القاموس المحيط ـ مادة فره».

(٥) المصدر السابق ـ المجلد ١٢/ج٢٤/ ١٦٠.

الزمخشري[1]، وكذلك ابن كثير حيث قال: «قيل: حاذقين، وقيل: أشرين شرهين، ولا منافاة بينهما، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً، وبطرا، وعبثاً من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم»[2]، وقد ورد ذكر هذا الإسراف في البناء الحاصل من هؤلاء القوم في آيات أخرى، حيث قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾[3]، قيل في تفسير هذه الآية: كانوا يسكنون السهول في الصيف، والجبال في الشتاء، وهذا يدل على أنهم كانوا مترفهين متنعمين[4]، وقال سبحانه: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾[5]، ونحت الجبال حتى تصير بيوتاً مع عدم وجود حاجة حقيقية ماسة لهذا العمل يدل على طول الأمل وحب الدنيا، والغفلة عن المعاد، وفي الوقت نفسه فهو يدل على مهارة، وحذق، وبراعة أمة ما في صناعة من الصناعات حتى تبدع فيها لا يتأتى إلا بتوفر الأمن والاستقرار مما يسهل لها الانصراف إلى القيام بهذه الصناعة على أتم وجه، وأمة صالح ما كان لها أن تنحت الجبال حتى تصير بيوتاً إلا بنعم سابغة من الأمن، والاستقرار، والتمكن في الأرض[6]، بحيث ينصرفون إلى التفنن في المساكن، وتجاوز القصد إلى الإسراف، وهكذا غلب عليهم الانصراف إلى اللذات الحسية،

---

(١) الكشاف ـ ٣/ ١٢٣.

(٢) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ ٣/ ٥٤٩.

(٣) سورة الأعراف ـ ٧٤.

(٤) سورةالفخر الرازي ـ مجلد ٧/ ج١٤/ ص١٧.

(٥) سورة الحجر ـ ٨٢.

(٦) يلاحظ ما سبق وروده في الآيات من ذكر لتمتعهم بنعمة الأمن: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ سورة الشعراء ـ ١٤٦، ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ سورة الحجر ـ ٨٢.

وهي طلب المأكول، والمشروب، والمساكن الطيبة الحصينة[1]، ولذلك جاء النهي المباشر في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[2]، وهكذا بدأ الانحراف بالغفلة ﴿أتتركون في ما هاهنا آمنين. .﴾ غفلة يعقبها انحراف وإسراف، واتباع أسلوب حياة المسرفين الباذخ في التمتع بما في الحياة، وفي البناء والتشييد أشراً وبطراً دون حاجة، وحين يحذرهم رسولهم من ذلك، يرفضون قوله، ويتبعون سبل المسرفين، الذين يزينون لهم هذا التحرف والضلال، وفي قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ إشارة إلى أنه يجب الاكتفاء من الدنيا بقدر الكفاف، ولا يجوز التوسع في طلبها والاستكثار من لذاتها وشهواتها وفي قوله: (ولا يصلحون) بيان أن فسادهم فساد خالص ليس معه شيء من الصلاح)[3]. أي أن فسادهم فساد مصمت ليس معه شيء من الصلاح[4]، ولكنهم أبوا، وساروا في طريق السرف والمسرفين، ورفضوا التراجع عن الطغيان، فكان الجزاء من جنس العمل، وكان هلاكهم بالطاغية: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾[5] ولكن. . ترى ماذا حصل لبيوتهم التي بنوها سرفاً وبطراً وأشراً. . ؟ ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[6] ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) الفخر الرازي ـ المصدر السابق ـ مجلد ١٢/ ج٢٤/ ١٦٠.

(٢) سورة الشعراء ـ ١٥١، ١٥٢.

(٣) الفخر الرازي ـ المصدر السابق ـ مجلد ١٢/ ج٢٤/ ١٦٠.

(٤) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٣/ ١٢٣.

(٥) سورة الحاقة ـ ٥.

(٦) سورة النمل ـ ٥٢.

المجال الثاني ـ القيم المتعلقة بالمشاعر الإنسانية:

الآية الأولى، الإسراف في حب الدنيا وحب المال:

قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[1] الآية في مجملها حث على التوازن، والقصد، وتنبيه الإنسان إلى وجوب عدم طغيان جانب على آخر؛ لأن الطغيان يؤدي إلى اختلال التوازن، ووقوع الإسراف، ووردت هذه الآية ضمن سياق قصة قارون، التي تروي كيف يكون طغيان المال والعلم، وكيف تكون نهايته، فقارون بغى علي قومه، وكان ثراؤه سبب بغيه، قال عز وجل: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾[2] أي: لا تبطر بما أنت فيه من المال[3]، ذلك البطر الذي يلهي عن أمر الآخرة أصلاً، ولا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها، واطمأن إليها، فأما من يعلم أنه سيفارق الدنيا عن قريب لم يفرح بها[4]. فقارون بغى، أي: تجاوز الحد[5]، السياق لا يحدد فيم كان بغيه على قومه، بل يظل محتملاً لشتى الصور[6]، ومقابل هذا البغي المسرف، وهذا الفرح المسرف، جاء نداء الإيمان يدعو إلى الاستقامة والاعتدال بقوله: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ

---

(١) سورة القصص ـ ٧٧.

(٢) سورة القصص ـ ٧٦.

(٣) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ ٣/ ٦٣٦.

(٤) الفخر الرازي ـ المصدر السابق ـ مجلد ١٣/ ج٢٥/ ١٦.

(٥) أصل البغي مجازوة الحد، وفي حديث ابن عمر أنه قال لرجل: إني أبغضك، قال: لم؟ قال: لأنك تبغي في أذانك، أراد التمديد في الأذان، وتجاوز الحد في إصالة الصوت، وكل مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء فهو (بغي) فهو التعدي والظلم والاستطالة، ابن منظور ـ لسان العرب ـ مادة بغى.

(٦) سيد قطب ـ الظلال ـ ٥/ ٢٧١١.

﴿ٱلْأَخِرَةَ﴾ أي: ابتغ فيما آتاك الله من الغنى، والثروة الدار الآخرة، بأن تفعل أفعال الخير، وتجعله زادك إلى الآخرة، وأن تأخذ من الدنيا ما يكفيك ويصلحك[1]، ولكن ما هو رد هذا الباغي المستطيل بماله؟ لقد كان رده عليهم: «إنما أوتيته على علم عندي» ويلاحظ بناء الفعل للمجهول في قوله: «أوتيته» ولم يقل: «أتاني الله»، وهذا يدل على تناسي مصدر النعمة وهو الله سبحانه وتعالى. وبعد ذلك ينسب الفضل إلى علمه هو، ويركز على ذاته، فلم يقل: «بعلمي» وإنما: «على علم عندي» لقد فتنه المال، وشطح به الإسراف والبغي بعيداً في سبل الضلال، هذه الذات المنتفشة المنتفخة المستعلية المستطيلة بالباطل كانت نهايتها (الخسف)، قال سبحانه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾[2] «وهكذا ابتلعته الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاء وفاقا»[3].

الآية الثانية ـ الإسراف في الفرح، والإسراف في الحزن:

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾[4] عندما يقرأ المؤمن هذه الآيات الكريمة يستشعر فيضاً من السكينة والطمأنينة يغمر روحه، ويستقبل الأقدار ـ خيرها، وشرها ـ بالرضى والتسليم بأمر الله، وبذلك يحافظ على توازنه النفسي من الاختلال أمام ضربات الأيام وتقلباتها، وليس المراد نفي الأسى والفرح على الإطلاق، بل معناه: لا تحزنوا حزناً يخرجكم إلى أن تهلكوا أنفسكم، ولا تفرحوا فرحاً شديداً يطغيكم حتى

---

(١) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٣/ ١٩٠.

(٢) سورة القصص ـ ٨١.

(٣) سيد قطب ـ المصدر السابق ـ ٥/ ٢٧١٣.

(٤) سورة الحديد ـ الآيات ٢٢، ٢٣.

تأشروا فيه وتبطروا»[1] فالمراد» النهي عن الحزن الذي يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله، والفرح المطغي الملهي عن الشكر»[2] «فقوله سبحانه: ﴿لا تأسوا﴾ أي: لا تحزنوا حزناً كبيراً زائداً، و﴿ولا تفرحوا﴾ أي: لا تسروا سروراً يوصل إلى البطر بالتمادي مع ما في أصل الجبلة، فالنهي هنا منصب على التمادي مع الجبلة في الحزن والفرح»[3]. فالإنسان لابد أن تمر عليه أوقات الحزن، ولحظات الفرح، والمطلوب منه الاعتدال في الفرح والحزن، قال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه: «ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً، والحزن صبرا»[4]. والمؤمن الحق يستطيع تحقيق هذا التوازن، ويستطيع أن ينجو من الوقوع في الحزن المسرف في الضراء، والفرح المسرف في السراء؛ يستطيع تحقيق كل ذلك في ضوء ما نبه سبحانه وتعالى إليه في صدر الآيات الكريمات من أن جميع الحوادث الأرضية مكتوبة في اللوح المحفوظ قبل دخولها الوجود، سواء أكانت في الأرض، نحو: الجدب،وآفات الزروع والثمار[5]، وغلاء الأسعار،وتتابع الجوع، أم كانت في الأنفس، مثل: الأمراض، والفقر، وذهاب الأولاد[6] والمصيبة هنا جاءت نكرة «ما أصاب من مصيبة» فجاءت عامة شاملة للخير والشر، بدليل قوله سبحانه: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ . . . ﴾ الآية. واللام هنا تفيد جعل أول الكلام سبباً لآخره، فالأقدار مثبتة في الكتاب الذي لا يتغير، وهذا يوجب ألا يشتد فرح الإنسان بما وقع، وألا يشتد حزنه بما لهم يقع[7]، وبذلك تغشاه السكينة،

---

(١) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد ١٥/ ج٢٩/ ٢٤٠.

(٢) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٤/ ٦٦.

(٣) البقاعي ـ نظم الدرر ـ ١٩/ ٢٦٩، ٢٩٧.

(٤) البقاعي ـ نظم الدرر ـ ١٩/ ٢٩٦، ٢٩٧

(٥) الزمخشري ـ المصدر السابق ـ ٤/ ٦٥.

(٦) الفخر الرازي ـ المصدر السابق ـ المجلد ١٥/ ج٢٩/ ٢٣٧.

(٧) الفخر الرازي ـ المصدر نفسه ـ المجلد ١٥/ ج٢٩/ ٢٣٩.

ويملؤه الرضى بما قدر الله، وبعد ذلك جاء قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ وهذا يدل على أنه كما ذم الإفراط في الجزع عند المصيبة والفجيعة، ذم الغلو في الفرح والمرح عند العطية، حتى يخرج عن التواضع، مما يحول إلى الكبرياء، فيبطر، ويمرح، ويفخر[1].

الآية الثالثة، الإسراف في حب المال:

قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[2].

يذم الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك الإسراف الشديد في حب المال والتكالب عليه، وقد وردت هذه الآيات بعد الإشارة إلى اختبار الله لعباده بسعة الرزق أو ضيقه، قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾[3] والله ـ عز وجل ـ سمى كلا الأمرين من بسط الرزق وقبضه ابتلاء؛ لأن كل واحد منهما اختبار للعبد، فإذا بسط له فقد اختبر حاله، أيشكر أم يكفر، وإذا قدر عليه فقد اختبر حاله، أيصبر أم يجزع[4]، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[5].

فالإنسان الغافل يجهل حقيقة هذا الابتلاء، فتكون قيمة (المال) عنده أعلى من كل شيء، فيرى أن بسط الرزق دليل الكرامة عند الله، وأن قبضه وتضييقه دليل المهانة، ويشتد حبه للمال، ويطغى هذا الحب على نفسه، فيجمعه من أي مصدر كان، غير عابيء بالتفريق بين حلاله وحرامه، ويشتد حرصه وجشعه على هذا المال، فلا يكرم اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين. وهكذا، فالإعلاء من قيمة المال،

---

(١) الإسكافي ـ درة التنزيل وغرة التأويل ـ ٥٤، ط٢/ ١٩٧٧، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

(٢) سورة الفجر ـ ١٩، ٢٠.

(٣) سورة الفجر ـ ١٥، ١٦.

(٤) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٤/ ٢٥١.

(٥) سورة الأنبياء ـ ٣٥.

وجعل وجود المال أو عدمه مقياساً للكرامة أو المهانة عند الله، هذا التصور ينعكس على السلوك وعلى المشاعر، فيتسم السلوك بمنع حق المال عن اليتيم والمسكين، وعلة هذا الفعل هو الحب الطاغي الذميم للمال، وصور ذلك بأكل التراث أكلاً لما، أي: «من أي جهة حصل لهم، من حلال أو حرام»[1] واللم: الجمع الشديد، وقوله سبحانه: «أَكْلاً لَمًّا» أي: شديداً، والمراد بالتراث، تراث اليتامى، قال الحسن: يأكلون نصيبهم ونصيب صاحبهم، فيجمعون نصيب غيرهم إلى نصيبهم، فَيَلُمُّ الكل: أي يضم البعض إلى البعض، ويأخذ الكل ويأكله»[2]، وأيضاً فهم يحبون المال حباً جَمًّا، «والجَمُّ هو الكثرة، أي: يحبون المال حباً كثيراً شديداً، وهذا دليل على الحرص على الدنيا فقط، والعدول عن الآخرة»[3] وقيل: الحُب الجَمّ أي: الكثير الفاحش،[4] ويلاحظ أن إيقاع الكلمات والعبارات في الآيات السابقة يعبر عن هذا الحب الفاحش المسرف الذي أورث ذلك التكالب الشنيع على المال، «تأكلون.. أكلاً لَمًّا» يأتي الفعل مؤكداً بالمفعول المطلق، ثم يزاد التأكيد بوصف هذا المفعول المطلق، ومثل ذلك في الآية التي تليها، أي: تأكيد الفعل بالمفعول المطلق، ثم وصف هذا المفعول المطلق، مع تكرار حرف الردع: (كلا) قبل وبعد، وفي ذلك ردع، وزجر، وتنديد بهذه الصفات وبفاعليها، ويرى سيد قطب ـ رحمه الله ـ أن الآيات تعبر عن واقع الجاهلية في أي مكان وأي زمان، وعن نظرتها للمال بكافة الطرق، وكان هناك انتهاب لأموال اليتامى وخاصة الإناث، كما كان الربا ظاهرة بارزة في المجتمع المكي قبل الإسلام، وهذه هي سمات الجاهليات في كل زمان

---

(١) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ ٤/ ٨٠٥.

(٢) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد ١٦/ ح١٣/ ١٧٣.

(٣) الفخر الرازي ـ المصدر نفسه.

(٤) ابن كثير ـ المصدر السابق ـ ٤/ ٨٠٥.

ومكان[1]، والآيات الكريمات في مجملها تحلل العلاقة النفسية بين الإنسان والمال، وتسعى إلى تصحيح نظرته إليه، وتكشف له عن الابتلاء بهذا المال.

(٣) الإسراف في القيم المرتبطة بالعلاقة مع الآخرين:

ويشمل ذلك جوانب متعددة من أبرزها:

القصاص ورد الاعتداء/ الإنفاق/ الجرائم الأخلاقية: «الزنا، اللواط».

١ـ القصاص وأحكام القتال:

الآية الأولى:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾[2].

ينهى رب العزة والجلال عن قتل النفس بغير حق شرعي، وهو: «إما الكفر، أو قتل مؤمن عمداً، أو زنى بعد إحصان»[3]، ثم بين الحكم في حال وقوع هذه الجريمة، حيث جعل ـ عز وجل ـ للولي سلطاناً على القاتل، أي «تسليطاً، إن شاء قتل، وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدية»[4].

وأما قوله سبحانه «فلا يسرف في القتل» فيه وجوه:

١ـ المراد ـ والله أعلم ـ أن يقتل القاتل وغير القاتل؛ وذلك لأن الواحد منهم إذا قتل واحداً من قبيلة شريفة، فأولياء ذلك المقتول كانوا يقتلون خلقاً من القبيلة الدنيئة، فنهى الله تعالى عنه، وأمر بالاقتصار على قتل القاتل وحده.

---

(١) سيد قطب ـ الظلال ـ ٦/ ٣٩٠٦.

(٢) سورة الإسراء ـ ٣٣.

(٣) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٢/ ٤٤٨. وذكر أيضاً عند ابن العربي ـ أحكام القرآن ـ ٣/ ١٢٠٨.

(٤) القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ـ المجلد ٥/ ١٠/ ٢٢٩.

٢ـ هو أنه لا يرضى بقتل القاتل، فإن أهل الجاهلية كانوا يقصدون أشراف قبيلة القاتل، ثم يقتلون منهم قوماً معينين، ويتركون القاتل.

٣ـ هو أن لا يكتفي بقتل القاتل، بل يمثّل به، ويقطّع أعضاءه، قال القفال: «ولا يبعد حمله على الكل؛ لأن جملة هذه المعاني مشتركة في كونها إسراف[١]» وهكذا نجد أن رب العزة والجلال في مقابل السلطان الكبير الذي أعطاه للولي ينهاه عن الإسراف في القتل استغلالاً لهذا السلطان، ومن جهة ثانية فإن تولية صاحب الدم فيها تلبية للفطرة، وتهدئة للغليان الذي تستشعره نفس الولي، حين يشعر أن الله قد وَلّاه على دم القاتل، وأن الحاكم مجند لنصرته على القصاص، فإن مشاعره تسكن، ويقف عند حد القصاص العادل»[٢]، ففي الإسلام نجد أن كل طاقات الإنسان ونوازعه معترف بها، ومقبولة، وغير مكبوتة، ولكن ضمن حدودها، وحين تتجاوز الحدود تنقلب إلى فاحشة، والفحش هو كل ما تجاوز الحد[٣]، فمشاعر الثأر والانتقام معترف بها وغير مكبوتة، ولكن الله وضع لها الضوابط، والحدود، والآداب التي يجب أن تقف عندها ولا تتجاوزها، وإلا وقع الإنسان في الإسراف الذي هو علة الهلاك.

الآية الثانية:

قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾

---

(١) الفخر الرازي ـ المجلد ١٠/ ٢٠٥، وانظر كذلك: الألوسي ـ روح المعاني ـ المجلد ٨/ ج١٥/ ٦٩.

(٢) سيد قطب ـ الظلال ـ ٤/ ٢٢٢٥.

(٣) محمد قطب ـ منهج الفن الإسلامي ـ ٤٢.

ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[1].

أمر الله عز وجل عباده المؤمنين بالجهاد في سبيله؛ تمكيناً للدين في مواجهة كل من يقف ضده ويناصبه العداء، ولتعلو عقيدة عبادة الله عز وجل على كل ما سواها، ولا يتحقق هذا الهدف إلا (بالجهاد)، ولم يؤمر النبي عليه الصلاة والسلام بالجهاد منذ بدء الرسالة، بل كان ذلك على أربع مراحل، في البداية كان الجهاد ممنوعاً، حيث أمر النبي في بداية الرسالة بكف اليد والصبر، ثم جاء الإذن بالجهاد في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[2]. ثم بعد ذلك جاء الأمر بالجهاد[3]، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾[4] عن الربيع بن أنس عن أبي العالية قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل من قاتله، ويكف عمن كف عنه، حتى نزلت سورة براءة[5].

---

(١) سورة البقرة ـ الآيات من ١٩٠ـ ١٩٤.

(٢) سورة الحج ـ ٣٩.

(٣) منير محمد غضبان ـ فقه السيرة النبوية ـ ٣٨٢ط١. ١٤٠هـ/ ١٩٨٩م جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

(٤) سورة البقرة ـ ١٩٠.

(٥) لقد جاء الأمر بالجهاد في الشرع الإسلامي على مراحل ففي البداية كان ممنوعاً، وأمر الرسول عليه السلام بالصبر وكف اليد وذلك في مكة، وحين هاجر عليه السلام إلى المدينة وأقام دعائم الدعوة، وصار للإسلام دولة، عندها أذن الله له بالقتال، ولم يفرضه عليه، في قوله سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ الحج/ ٣٩، ثم فرض القتال لمن قاتل المسلمين دون من لم يقاتلهم، قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ البقرة/ ١٩٠. والجهاد في هذه المرحلة يعني الدفاع، دون الابتداء والطلب، ثم جاءت بعد ذلك المرحلة الرابعة والأخيرة، وهي المرحلة التي فرض الله تعالى فيها قتال المشركين كافة، مع البدء بالأقربين داراً، وهكذا لم يعد الجهاد دفاعاً فقط، بل صار يعني الابتداء والطلب، وقتال جميع الكفار؛ ليكون الدين كله لله، ودليل ذلك قوله =

ويرد في كتب التفسير سبب آخر للنزول، وذلك أنه لما قصد الرسول ـ عليه السلام ـ مكة سنة ست للهجرة صده المشركون، وهو ما يعرف بـ(عام الحديبية)، وصالحوه على أن يرجع ذلك العام، ويعود إليهم من قابل، فيخلوا له مكة ثلاثة أيام، فرجع في العام السابع للهجرة لعمرة القضاء، وخاف المسلمون ألا تفي قريش، وأن يقاتلوهم في الحرم،وفي الشهر الحرام، فبيَّن لهم كيفية المقاتلة إن احتاجوا إليها[1]، فهذه الآية متصلة بما سبق من ذكر الحج[2]، فكان ـ عليه السلام ـ يقاتل من قاتله، ويكفُّ عمن كَفَّ عنه، حتى نزل ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[3]، وأُرجِّح ـ والله أعلم ـ أن الوجهين المذكورين يكملان بعضهما، ويوضحان لنا المراد بشكل كبير، فرغم أن الحكم في الآية، وهو قتال من قاتل دون من لم يقاتل، نزل بسبب حادثة معينة، وهي كيفية الرد على اعتداء محتمل الوقوع في الحرم، وفي الشهر الحرام، إلا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يجعل هذه الحكم خاصاً بأهل مكة فحسب، بل جعل هذا الحكم يحدد طبيعة العلاقة بين المسلمين والمشركين في فترة معينة من فترات الدعوة، حتى نزلت

= تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ...﴾ التوبة/ ٣٦.

ـ حسن باجودة ـ تأملات في سورة محمد ـ ٢٧٣ ومابعدها.

ـ سيد قطب ـ الجهاد في سبيل الله ١٠٩، ١١٠.

ـ محمد بن ناصر الجعوان ـ القتال في الإسلام ـ أحكامه وتشريعاته (دراسة مقارنة)، ط٢، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، مطابع المدينة، الرياض.

ـ صالح اللحيدان ـ الجهاد في الإسلام بين الطلب والدفاع.

دار اللواء، الرياض، ط٣ ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(١) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ ١/ ٣٤٢.

الزمخشري ـ الكشاف ـ ١/ ٣٤١.

ابن العربي ـ أحكام القرآن ـ ١/ ١٠٢.

الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد ٣/ ج٥/ ١٣٩.

القرطبي ـ الجامع ـ ١/ ٣٢٣.

(٢) القرطبي ـ المصدر نفسه ـ ١/ ٣٢٣.

(٣) سورة التوبة ـ ٥.

المرحلة النهائية من مراحل الجهاد.

وقد تعددت آراء المفسرين حول المراد بقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾[1]، ويمكن أن نقسم آراءهم حول هذه النقطة إلى قسمين أساسين:

القسم الأول: من يفسّر قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ أي: الذين يناجزونكم القتال دون المحاجزين، أي: الفاعل للقتال حقيقة، البادىء به، ووفق هذا التفسير يرون أن الآية منسوخة بآية السيف: ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ﴾[2].

القسم الثاني: يرى أن الآية محكمة غير منسوخة، وذلك لأن المراد بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ كل من له قدرة وأهلية على القتال، وقال الفخر الرازي: «كل من له قدرة على القتال وأهلية كذلك،سوى من جنح للسلم»[3]، ولكنَّ الفخر الرازي يرجح أن المراد هو الفاعل للقتال، وليس المستعد له؛ لأن المستعد للقتال المتأهب له قبل إقدامه عليه لا يوصف بكونه مقاتلاً إلا على سبيل المجاز[4]، وقيل: المراد الكفرة كلهم؛ لأنهم جميعاً مضادون للمسلمين؛ قاصدون لمقاتلتهم، فهم في حكم المقاتلة قاتلوا أو لم يقاتلوا، وقيل: الذين يناصبونكم القتال دون أهل المناصبة من الشيوخ والصبيان والرهبان والنساء[5]، وممن يرى أن هذه الآية غير منسوخة (ابن

---

(١) سورة البقرة ـ ١٩٠.

(٢) الزمخشري ـ الكشاف ـ ١/ ٣٤٢.
ـ ابن كثير ـ ١/ ٣٤٠.
ـ الفخر الرازي ـ مجلد ٣/ ج٥/ ١٣٩.
ـ ابن العربي ـ أحكام القرآن ـ ١/ ١٠٢.
ـ القرطبي ـ الجامع ـ ١/ ٣٢٣.
ـ الصابوني ـ صفوة التفاسير ـ ١/ ١٢٦.

(٣) الفخر الرازي ـ مجلد ٣/ ج٥/ ١٣٩.

(٤) المصدر نفسه ـ ٣/ ج٥/ ١٣٩.

(٥) الزمخشري ـ ١/ ٣٤٢.

كثير) باعتبار أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله، يدعم رأيه هذا بإنه قد ورد بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾[1]، بينما يرى الفخر الرازي أن لا شيء في ذلك باعتبار أن الله أمر بالجهاد في الآية الأولى بشرط إقدام الكفار على المقاتلة، وفي هذه ـ أي في قوله سبحانه: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ زاد التكليف، فأمر بالجهاد معهم سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا، واستثنى منه المقاتلة عند المسجد الحرام[2]، ويرجّح القرطبي كذلك أن الآية محكمة،وذلك لقول ابن عباس وعمر بن عبدالعزيز ومجاهد: «هي محكمة، أي قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلوكم، ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان، والرهبان وشبههم، وعلّق على ذلك أبوجعفر النحاس بقوله: وهذا أصح القولين في السنة والنظر»[3]، وكذلك قال ابن العربي: «قال جماعة إن هذه الآية منسوخة بآية براءة، وهذا لا يصح»[4] ورجّح الفخر الرازي كذلك أنها غير منسوخة[5]، ونظراً لما سبق عرضه من آراء المفسرين حول هذه الآية، وأن أكثرهم قد رجح أنها غير منسوخة، فقد رجحت كذلك أنها غير منسوخة؛ لأن النسخ يعني إزالة الحكم، والحكم الذي نحن بصدده ربما احتاجته الأمة في مرحلة من مراحل صراعها مع طواغيت الأرض، ولو قلنا بالنسخ في هذه الآية لكان معنى ذلك أنه لا يجوز العمل بهذا الحكم أبداً، مع أن الظروف ربما اقتضت العمل به، وقد لمح ذلك سيد قطب ـ رحمه الله ـ في معرض حديثه عن الجهاد في سورة براءة، حيث قال: «إن تلك الأحكام المرحلية ليست منسوخة بحيث لا يجوز العمل بها في أي ظرف من ظروف الأمة المسلمة بعد نزول

---

(١) تفسير القرآن العظيم ـ ١/ ٣٤٠.

(٢) مفاتيح الغيب ـ ٣/ ج٥/ ١٤١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ـ ١/ ٣٢٣.

(٤) أحكام القرآن ـ ١/ ١٠٢.

(٥) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ ٣/ ج٥/ ١٣٩.

الأحكام الأخيرة في سورة التوبة، ذلك أن الحركة والواقع الذي تواجهه في شتى الظروف هي التي تحدد ـ عن طريق الاجتهاد المطلق ـ أي الأحكام هو أنسب للأخذ به في ظرف من الظروف، مع عدم نسيان الأحكام الأخيرة التي يُصار إليها متى أصبحت الأمة المسلمة في الحال التي تمكنها من تنفيذ تلك الأحكام»[1] ثم يؤكد ذلك بقوله في موطن آخر: «وحقيقة إن هذه الأحكام ـ ويعني بها الأحكام المرحلية في الجهاد ـ ليست منسوخة، بمعنى أنه لا يجوز الأخذ بها مهما تكن الأحوال بعد نزول الأحكام الأخيرة، فهي باقية لمواجهة الحالات التي تكون من نوع الحالات التي واجهتها»[2] ولكنه يحذر في الوقت نفسه من الوقوف عند الأحكام المرحلية فقط وبشكل نهائي، ويعني بهم أولئك الذين يروّجون عن الدين أن الجهاد فيه للدفاع فقط، فيقول «من سمات المنهج الحركي لهذا الدين: «الواقعية الحركية» أي أن الدين حركة ذات مراحل، لكل مرحلة وسائلها.. والذين يسوقون النصوص ولا يراعون هذه السمة يخلطون خلطاً شديداً، ويقولون وهم مهزومون روحياً وعقلياً تحت ضغط الواقع البائس لذراري المسلمين: إن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع، مع أن منهج هذا الدين هو إزالة الطواغيت جميعاً، من الأرض جميعاً، وتعبيد الناس لله وحده»[3] نخلص مما سبق إلى ترجيح أن الآية غير منسوخة، وربما كانت من المنسأ؛ وذلك لأن السيوطي قد ذكر من أقسام النسخ: «ما أمر به لسبب ثم يزول السبب» حيث يقول: «وهذا في الحقيقة ليس نسخاً، بل هو من قسم المنسأ، فكل أمر ورد امتثاله في وقت ما العلة تقتضي ذلك الحكم بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر ليس بنسخ، إنما النسخ الإزالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله»، وَمَثَّلَ لذلك بالأمر حين الضعف والقلة بالصبر

---

(١) الظلال ـ ٣/ ١٥٨٠.

(٢) المصدر نفسه ـ ٣/ ١٥٩٢.

(٣) المصدر نفسه ـ ٣/ ١٥٧٩.

والصفح، ثم نُسِخَ بإيجاب القتال»[1]، وهذا في الحقيقة ليس نسخاً، بل هو من قسم المنسأ، وبذلك يضعف ما لهج به كثيرون من أن الآية في ذلك منسوخة بآية السيف، وليس كذلك، بل هي من المنسأ .

وبناء على تعدد الآراء في قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾ تعددت الآراء فيما تلاها من قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾[2] وهذا الجزء من الآية ذو ارتباط كبير بما نحن بصدده من حديث عن نهي القرآن عن الإسراف في العلاقة مع الآخرين في مبحث «أحكام القتال»، ومن الملاحظ أن للقتال في الأسلام آداباً يجب على المجاهد مراعاتها والأخذ بها، وعُرِفَ ذلك عن الفاتحين المسلمين عبر العصور، بخلاف ما نراه لدى سواهم من الأمم التي ما إن تتمكن من عدوها حتى تنزل به أبشع أنواع الجرائم من قتل للنساء والأطفال والشيوخ، وإجهاز على الجرحى، وتمثيل بالقتلى وبالأسرى وغيرها مما يعجز القلم عن وصفه، وقد عرف هذا في الحروب قديمها وحديثها، ويقف المسلم المجاهد الفاتح شامخاً بدينه، الذي يأمره بالرحمة حتى مع عدوه، فلا يقتل الأطفال، ولا النساء، ولا الرهبان، ولا المرضى العاجزين، بل ولا الأجراء والفلاحين،[3] وشهد له بذلك حتى أعداؤه فقالوا: «لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب»[4] وما كان له أن يتحلى بهذا الخلق السامي إلا طاعة لأمر الله في هذه الآية وأمثالها، والتي جاء النهي الإلهي فيها عن الاعتداء قوياً وصريحاً وحاسما، وقد ذكر المفسرون أن المراد بقوله سبحانه: ﴿ولا تعتدوا﴾ متعلق بما سبقه، فإن كان الحكم السابق المراد به قتال الباديء بالقتال، فإن المراد بالنهي عن الاعتداء هنا: لا تبدءوا بقتالهم، أي: لا

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ـ ٢/ ٢١ .

(٢) سورة البقرة ـ ١٩٠ .

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي ـ ١/ ٣٢٥، ٣٢٦ .

(٤) جوستاف لوبون ـ حضارة العرب ـ ص٨٣ .

تقاتلوا من لم يقاتل، ووفق هذا التفسير فإن الآية منسوخة بآية براءة،[1] وقد سبق أن ذكرنا ترجيح عدم نسخ الآية،وبذلك فإن المراد بقوله سبحانه: ﴿ولا تعتدوا﴾ نهي عن العدوان بتجاوز المحاربين إلى النساء، والأطفال، والشيوخ، وتجاوز آداب القتال التي شرعها الإسلام،[2] فالمراد: لا تعتدوا بارتكاب المناهي، من قتل النساء، والصبيان، والشيوخ، والرهبان الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم، أو بالمثلة، والغلول، أو بالمفاجأة من غير دعوة، أو بقتال من عاهدتم، أو بتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة[3]، وذكر وجه آخر لعدم الاعتداء، وقيل المراد به: «لا تقاتلوا على غير الدين، أي قاتلوا لوجه الله لا للحمية وكسب الذكر»[4] ولكن الراجح هو الرأي الثاني، مع ملاحظة أن النهي عن الاعتداء يمكن أن يشمل كل ما ذكر في الوجهين الأخيرين؛ لأن الاعتداء هو مجاوزة الحد، فالله سبحانه ينهى عن مجاوزة ما حُدَّ لهذه الأمة من حدود سواء فيما يتعلق بما يفعلون أو بما ينوون، فالنية يجب أن تكون خالصة لله، والفعل يجب أن يكون في ضوء ما أمر الله دون تجاوز. ونمضي مع السياق القرآني الذي يوضح لرسوله عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين كيف يواجهون

---

(١) انظر الزمخشري ـ الكشاف ـ ١/ ٢٤٢.
ابن العربي ـ أحكام القرآن ـ ١/ ١٠٤.
القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ـ ١/ ٣٢٦.
الصابوني ـ صفوة التفاسير ـ ١/ ١٢٦.
الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ ٣/ ج٥/ ١٣٥.

(٢) سيد قطب ـ الظلال ـ ١/ ١٨٨.

(٣) الفخر الرازي ـ المجلد ٣/ ج٥/ ١٣٩.
ابن كثير ـ ١/ ٣٤٠.
ابن العربي ـ أحكام القرآن ـ ١/ ١٠٤.
القرطبي ـ الجامع لإحكام القرآن المجلد ١/ ج٢/ ٣٢٦.
الزمخشري ـ ١/ ٣٤٢.

(٤) ذكر ذلك ابن العربي ـ ١/ ١٠٤، القرطبي ـ الجامع، ١/ ج٢/ ٣٢٦.

التهديد بالقتال في البلد الحرام في الشهر الحرام، إلى أن يصل إلى تلك الآية التي قال عنها المفسرون: «إنها عموم متفق عليه في جميع الأشياء كلها»[1] وهي قوله سبحانه: ﴿ . . فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[2] فالمراد الأمر بما يقابل الاعتداء من الجزاء»[3] ونظر بعض المفسرين إلى الحالة المخصوصة التي نزلت فيها الآيات، فقال بأنها منسوخة، قال ابن عباس: «نزل هذا قبل أن يقوى الإسلام، فأمر من أُوذي من المسلمين أن يجازي بمثل ما أوذي به، أو يصبر، أو يعفو، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً ﴾[4] ولكن هناك تساؤلاً يثور في النفس على هذا الرأي، فهل المراد بذلك أن المسلمين حين قويت شوكتهم صار من الجائز لهم أن يجازوا بأكثر مما أوذوا به؟! لا أظن أن ذلك هو المراد، فهذه الآية أصل في المماثلة، وقاعدة راسخة في السلوك الإسلامي، لذلك قال العلماء: «هذه الآية عموم متفق عليه في جميع الأشياء كلها» ولا خلاف بين العلماء أن هذه الآية أصل في المماثلة في القصاص، فمن قتل بشيء قتل بمثل ما قتل به، ما لم يقتله بفسق»[5]، فالله سبحانه وتعالى يأمر بالمماثلة دون جنوح إلى الإسراف والعدوان، وقد ورد ذلك أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾[6]، ويعضده كذلك ما رواه الأئمة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن جارية وجد رأسها قد رض بين حجرين، فسألوها: من صنع هذا بك! أفلان، أفلان؟ حتى ذكروا يهوديًّا، فأومأت برأسها، فأخذ اليهودي، فأقر، فأمر

---

(١) القرطبي المصدر السابق ـ المجلد ١/ج٢/ ٣٣٢، ابن العربي ـ أحكام القرآن ١/ ١١٢.

(٢) سورة البقرة ـ ١٩٤.

(٣) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد ٣/ج٥/ ١٤٧.

(٤) سورة براءة ـ ٣٦ـ القرطبي ـ المصدر السابق ـ المجلد ١/ج٢/ ٣٣٢.

(٥) القرطبي ـ المصدر السابق ـ المجلد ١/ج٢/ ٣٣٢، ٣٣٣.

(٦) سورة النحل ـ ١٢٦.

به رسول الله ﷺ أن ترض رأسه بالحجارة[1].

وقد ورد ذكر الاعتداء مرتين في الآية، والاعتداء هو التجاوز، والتعبير عن رد الاعتداء بـ(الاعتداء) «إما أن يعتبر مجازاً أو لا يعتبر، فمن قال إن في القرآن مجازاً سمى هذا عدواناً على طريق المجاز، ومقابلة الكلام بمثله، وأما من قال: ليس في القرآن مجاز، فيرى أن العدوان الثاني عدوان مباح[2]، وأرجح أنها من قبيل المشاكلة، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾[3] وقوله سبحانه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[4]، فسمى الثانية (سيئة) على طريق المشاكلة، وكذلك سمى جزاء العدوان عدواناً من قبيل المشاكلة[5]. وهكذا يتضح المنهج الرباني المتوازن الذي رسمه الله لعباده المؤمنين فيما يختص بالقتال في ساحات الوغى، أو فيما يختص بالقصاص، فلا سرف، ولا شطط، ولكن مجازاة بالمثل، يلي ذلك حث على تقوى الله؛ لأن الإنسان في مثل هذه المواقف التي تثور فيها مشاعر الغضب، والحقد، والرغبة في الانتقام، يصبح من المتعذر عليه ضبط انفعالاته وسلوكياته، فيندفع نحو الثأر من عدوه، إذا تمكن منه، بكل وحشية ودموية، ولا يرده عن ذلك إلا ما يكون مكنوزاً داخله من تقوى الله وخشيته، التي تحول دونه ودون الانحدار في هاوية الحقد الأعمى المسرف، الذي قد يجر عليه ـ إن انساق وراءه ـ غضب الله، فيصبح ظالماً بعد أن كان مظلوما[6].

---

(١) القرطبي ـ الجامع لإحكام القرآن ـ المجلد ٢/ ٣٣٤. وقد رواه مسلم، ورواه أبوداود في الديات (٤٥٣٥)، باب (١٤) القود بغير حديدة، وورد في شرح صحيح البخاري لابن حجر ـ ١٤/١٧٩.

(٢) القرطبي ـ المصدر نفسه ١/ج٢/ ٣٣٢.

(٣) سورة النحل ـ ١٢٦.

(٤) سورة الشورى ـ ٤٠.

(٥) المشاكلة هي: ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقًا أو تقديرا، انظر: عبد المتعال الصعيدي ـ بغية الإيضاح المطبعة النموذجية/ الحلمية الجديدة ج٤/ ص٢٢ ب ط ب ت.

(٦) قال رسول الله «إن قومًا كانوا أهل ضعف ومسكنة قاتلهم أهل تجبر وعدوان، فأظهر الله أهل الضعف =

الآية الثالثة:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾[1].

تأتي هذه الآيات الكريمات مرسخة لنهج الإسلام العادل في العلاقة مع الآخرين، في وجوب عدم الإفراط في رد الاعتداء بصورة تجعل المظلوم ظالما، وتنبه إلى أن مقتضى العدالة يقف عند المجازاة بالمثل، ونجد هذا القصاص محصوراً من كل جهة بالحث على العفو والصفح، ففي السياق القرآني السابق لهذه الآية نجد قوله تعالى: ﴿ .. وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[2]، وفي مقابل هذه الصفة يذكر ـ سبحانه وتعالى ـ صفة أخرى تحقق التوازن المطلوب، حيث قال عز من قائل: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[3]، ويلاحظ هنا التناسق البديع بين. (هم يغفرون) و(هم ينتصرون)، فقد قَدَّم المحدث عنه: (هم)، ويقع مبتدأ، في

= عليهم فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم القيامة» ذكره ابن كثير في تفسيره ـ ١/ ٣٤٠، وورد في مجمع الزوايد ٥/ ٢٣٢.

(١) سورة الشورى ـ الآيات من ٣٩ـ ٤٣.

(٢) سورة الشورى ـ ٣٧.

(٣) سورة الشورى ـ ٣٩، وفي الآية ملمح لطيف أشار إليه سيد قطب ـ رحمه الله ـ حيث قال: «مع أن الآيات مكية، نزلت قبل قيام الدولة المسلمة في المدينة، فإننا نجد من صفات هذه الجماعة المسلمة" والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون "مع أن الأمر الذي كان صادرًا للمسلمين في مكة هو أن يصبروا، وألا يردوا العدان بالعدوان، وذكر هذه الصفة هنا في آيات مكية يوحي بأن صفة الانتصار من البغي صفة أساسية ثابتة، وأن الأمر الأول بالكف والصبر كان أمر استثنائيًا لظروف معينة».

الظلال ـ ٥/ ٣١٦٠.

الجملتين؛ وذلك للدلالة على اختصاصهم، هم دون سواهم، بهاتين الصفتين، وقد ذكر الشيخ عبدالقاهر الجرجاني هذا الملمح البلاغي اللطيف بقوله: «إذا عمدت إلى الذي أردت أن تحدث عنه بفعل فقدمت ذكره، ثم بَنَيْتَ الفعل عليه فقلت: أنا فعلت، وأنت فعلت، اقتضى ذلك أن يكون القصد إلى الفاعل» ثم بَيَّنَ الشيخ أن لذلك قسمين، الأول: التقديم للاختصاص، والثاني: التقديم للتأكيد[1]، وشاهدنا ينطوي تحت القسم الأول الذي قال عنه الشيخ عبدالقاهر: «أن يكون الفعل فعلاً قد أردت أن تنص فيه على واحد، فتجعله له، وتزعم أنه فاعله دون واحد آخر، أو دون كل أحد، مثل أن تقول: أنا كتبت في معنى فلان.. تريد أن تدعى الانفراد بذلك والاستبداد به، وتزيل الاشتباه فيه، وترد على من زعم أن ذلك كان من غيرك»[2] وقد بنينا ترجيح دلالة الاختصاص في الايتين السابقتين؛ لأن الزمخشري قد أومأ إلى ذلك في معرض شرحه للآيتين، حيث قال: «هم يغفرون، أي: هم الأخصاء بالغفران في حال الغضب، لا يغول الغضب أحلامهم كما يغول حلوم الناس، والمجيء بـ(هم) وإيقاعه مبتدأ، وإسناد (يغفرون) إليه لهذه الفائدة، ومثله (هم ينتصرون)[3] «وكذلك ما قاله البقاعي عن هذين الموضعين، والذي يفهم منه ترجيح دلالة الاختصاص، حيث قال عن: «هم يغفرون» أي: «الأخصاء بالغفران، فكلما تجدد لهم غضب جددوا غفرانا، مع القدرة على الانتقام، ولكن سجاياهم تقتضي الصفح دون الانتقام»[4] وقال عن: «هم ينتصرون» أي بأنفسهم خاصة»[5] وكذلك فإن مجيء

---

(١) دلائل الإعجاز ـ ص ٩٤، تعليق. محمد رشيد رضا، المكتبة التجارية، مكة المكرمة.

(٢) المصدر السابق ـ ٩٤.

(٣) الكشاف ـ ٣/ ٤٧٢.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ـ ج١٧/ ٣٣٠.

(٥) المصدر نفسه ـ ج١٧/ ٣٣٤.

المسند إليه «هم» اسماً[1] يكسب الصفة الثبات والدوام؛ لأن الاسم يفيد الدوام والثبوت، والاستمرار المتصل، ومجيء الخبر جملة يزيد في تقوية الحكم، وهذا ما ذكره العلماء حين قرروا أن كل ما خبره جملة، فإن هذا يفيد التقوي[2]. نخلص مما سبق إلى استجلاء معالم صورة هؤلاء المؤمنين، فهم قد هدوا إلى الصراط المستقيم المتوازن، الذي لا حيف فيه، ولا سرف، ولا بغي، وهم يعاملون كل موقف بما يناسبه، وكل قوم بما يلائمهم، فمن كان العفو عنه سبباً في رجوعه عن بغيه، عندها يكون العفو سجية لهم وخلقاً، وأما من كان العفو عنه ذريعة له ليتمادى في الظلم والطغيان، فإن رد الباغي عن بغيه أولى وأقرب؛ وذلك «لأن العفو على قسمين: الأول، أن يكون العفو سبباً لتسكين الفتنة وجناية الجاني، ورجوعه عن جنايته، والثاني: أن يصير العفو سبباً لمزيد جراءة الجاني ولقوة غيظه وغضبه، والله تعالى لم يرغب في الانتصار، بل بَيَّنَ أنه مشروع فقط برعاية المماثلة، ثم بَيَّنَ أن العفو أولى»[3]، فالباغي المعلن للفجور، يكون الانتقام منه أفضل، ولذا قال إبراهيم النخعي: يكره للمؤمنين أن يذلوا أنفسهم، فيجتريء عليهم الفساق، وأما من يعترف بالزلة، ويسأل المغفرة، فالعفو هاهنا أفضل»[4] وهكذا يتبين أن «الله شرع العدل، وهو القصاص، وندب إلى الفضل، وهو العفو»[5]، فقال عز وجل: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾[6] فالآية هنا تبين حد

---

(١) هم: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ.
انظر: معجم أعراب ألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فهيم أبو عبية ـ ص٦٤٤.

(٢) محمد أبوموسى ـ خصائص التراكيب ـ ٢٣٦.

(٣) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد ١٤ ـ ج ٢٧/ ١٧٩.

(٤) ابن العربي ـ أحكام القرآن ـ ٤/ ١٦٦٩، وانظر كذلك في القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ـ المجلد الثامن /ج١٦/ ٣٧.

(٥) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ ٤/ ١٧٩.

(٦) سورة الشورى ـ ٤٠.

الانتصار، حيث ينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدي.

وهذه الآية أصل كبير في علم الفقه، فإن مقتضاها أن تقابل كل جناية بمثلها؛ وذلك لأن الإهدار يوجب فتح باب الشر والعدوان؛ لأن في طبع كل أحد الظلم، والبغي، والعدوان، فإذا لم يزجر عنه أقدم عليه ولم يتركه، وأما الزيادة على قدر الذنب، فهو ظلم، والشرع منزه عنه، فلم يبق إلا أن يقابل بالمثل»[1].

ويلاحظ أنه لما كان الإذن في الانتصار في هذا السياق المادح مرغباً فيه، مع ما للنفس من الداعية إليه، زجر عنه لمن كان له قلب، أولاً بكفها عن الاسترسال فيه، وردها على حد المماثلة، وثانيا تسميته سيئة، وإن كان على طريق المشاكلة، وثالثاً بالندب إلى العفو، فصار المحمود منه إنما هو ما كان لإعلاء كلمة الله، لا شائبة فيه للنفس أصلاً، وربما تشعر النفس إزاء ذلك بأن هذا سد لباب الانتصار، جاء نفي ذلك بقوله سبحانه: «ولمن انتصر»[2] وقد قال السدي ـ رحمه الله ـ: «إنما مدح الله من انتصر ممن بغى عليه من غير اعتداء بالزيادة على مقدار ما فعل به، يعني كما كانت العرب تفعله»[3] وهذا النص يشير إلى جانب بارز من جوانب الإسراف عند العرب قبل الإسلام، ألا وهو الإسراف في الثأر، والانتقام، والقصاص، أي الإسراف في رد الاعتداء بشكل عام، وقد سبق أن عرضنا في الباب الثاني لمحات من إسرافهم في ذلك المجال، ذلك الإسراف الذي صار السمة الغالبة في علاقاتهم بأعدائهم، وهكذا جاءت تعاليم الدين الحنيف لتردهم إلى جادة الصواب، وتنهاهم عن تجاوز الحد في رد الاعتداء، بل ها هي ذي النفحات الربانية تدعو المؤمن إلى السمو، وإلى العفو.

---

(١) الفخر الرازي ـ المصدر السابق ـ المجلد ١٤/ ٢٧/ ١٧٩.

(٢) البقاعي ـ نظم الدرر ـ ١٧/ ٣٣٥.

(٣) القرطبي ـ المصدر السابق ـ المجلد ٨/ ج١٦/ ٣٨.

ابن العربي ـ المصدر السابق ـ ٤/ ١٦٦٩.

فما أروع أن تعفو عن ظلمك وبغى عليك حين يمكنك الله منه، وقليل من يستطيع ذلك؛ لما فيه من مغالبة النفس الراغبة في الانتقام والتشفي، ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾[1] «حيث إن ما رغب الله تعالى فيه عبده من الصبر على ما آلم قلبه من جناية جان عليه حتى يغفر لمن ظلمه ويهب له من القصاص حقه، ترغيب فيما يشق على الإنسان فعله، إلا أن حَسَّنَهُ بما وعد من عفا بما يجب له من الأجر الذي ضَمِنَه، ففيه مع جزيل الثواب إصلاح ما بين عشيرته وعشيرة الجاني عليه بإطفاء الثائرة عنهما، وإذا كان هذا من أصعب ما يتحمله الإنسان، وجب من توكيد الكلام فيه ما لايجب في غيره، فأدخلت (اللام) على «من عزم الأمور»، على معنى أنه من الأمور التي تحتاج إلى توطين النفس عليها، وتخير أرفعها وأعلاها، أي إن الموضع الذي أبيح فيه الانتصاف فالصبر فيه أحق، وكظم الغيظ معه أشد، والكلام فيه إلى التوكيد أحوج، ألا ترى أن صبر من قتل بعض أعزته رغبة فيما وعده الله من مثوبته ليس كصبر من مات له بعض أحبته!»[2].

وأما قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[3] فدلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة والاعتداء، خصوصاً في حال الحرد والتهاب الحمية، فربما كان المجازي من الظالمين وهو لا يشعر[4]، فالمراد: أن الله لا يحب من يتعدى في الاقتصاص ويجاوز الحد[5].

---

(١) سورة الشورى ـ ٤٣.

(٢) الإسكافي ـ درة التنزيل وغرة التأويل ـ ٤٢٧، وقد ذكر الكرماني (محمود بن حمزة الكرماني) الرأي نفسه، انظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن (أسرار التكرار في القرآن ـ ١٩٠ تحقيق عبد القادر أحمد عطا ـ دار الاعتصام، د ط، دت.

(٣) سورة الشورى ـ ٤٠.

(٤) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٣/ ٤٧٣.

(٥) القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ـ المجلد ٨/ ١٦/ ٣٩.
وذكر هذا الوجه الفخر الرازي ـ المجلد ١٤/ ٢٧/ ٨٢.

وحين نظر إلى هذه الآيات نظرة عامة، نجدها تضيء لنا ملامح النفوس المؤمنة، من توكل على الله، واجتناب للفواحش، ومغفرة عند الغضب، وانتصار عند البغي، وعفو عند المقدرة، والإنفاق، والشورى ونحوها. والآيات موضع الدراسة في مجموعها «تصور الاعتدال والتوازن بين الاتجاهين، وتحرص على صيانة النفس من الحقد والغيظ، ومن الضعف والذل، ومن الجور والبغي، وتعلقها بالله ورضاه في كل حال، وتجعل الصبر زاد الرحلة الأصيل»[1].

الآية الرابعة:

قال تعالى: ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾[2]

تأتي هذه الآية الكريمة لتقرر وتؤكد المنهج الرباني العادل الذي رسمه الله لعباده المؤمنين في تعاملهم مع الأعداء في ساحات القتال، وفي حالة القصاص والجراحات، ذلك المنهج القائم على لزوم الصراط المستقيم، دون حيف أو سرف، ودون ضعف وذلة، وتندب المسلمين إلى الدفاع القوي عن عقيدتهم، بل إن جو السورة بعامة تشيع فيه «ظلال القوة والشدة والعنف والرهبة، تبدو هذه الظلال في المشاهد والأمثال: مشهد البعث، مشهد العذاب، مشهد القرى المدمرة بظلمها، تجتمع هذه المشاهد العنيفة المرهوبة إلى قوة الأوامر والتكاليف، وتبرير الدفع بالقوة، وتأكيد الوعد بالنصر والتمكين»[3]، والآية التي نحن بصددها ذكر في سبب نزولها «أن سرية من الصحابة لقوا جمعاً من المشركين في الشهر المحرم، فناشدهم المسلمون ألا يقاتلوهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم، وبغوا عليهم،

---

(١) سيد قطب ـ الظلال ـ ٥/ ٣١٦٧.

(٢) سورة الحج ـ ٦٠.

(٣) سيد قطب ـ المصدر السابق ـ ٤/ ٢٤٠٦.

فقاتلهم المسلمون، فنصرهم الله عليهم»[1]، ومن خلال ذلك تتضح لنا دلالة السياق في الآيات الكريمات في السورة بشكل عام، فالذين كفروا يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، وبهذه المناسبة يذكر طرفاً من قصة بناء البيت، وتكليف إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يقيمه على التوحيد، مع ذكر بعض شعائر الحج، وهذا فيه استجاشة لمشاعر التقوى في القلوب، وينتهي هذا الشوط بالإذن للمؤمنين بالقتال لحماية الشعائر والعبادات من العدوان الواقع بهم، ولا جريرة لهم إلا أن يقولوا: ربنا الله، ويأتي بعد ذلك وعد الله بنصرة من يقع عليه البغي، وهو يدفع عنه العدوان، ويتبع هذا الوعد بعرض دلائل قدرة الله ـ سبحانه ـ في الكون من حولنا[2]. بعد هذا العرض العام للسياق، نعود فنلقي الضوء على الآية موضع الدراسة، فهي تتحدث عن إنسان وقع عليه عدوان، فرد عن نفسه هذا العدوان، وعاقب المعتدي بالمثل، دون أن يظلمه، أو يجازيه بأكثر من عدوانه، أي: «جازى الظالم بمثل ظلمه»[3] و «قاتل من كان يقاتله»[4]، ورغم ذلك لم يرتدع هذا المعتدي، بل لَجَّ في عدوانه وأسرف، ولذا جاء التعبير عن عدوانه بـ(بغى)، والبغي هو: كل مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء[5]. وهنا يأتي وعد الله الأكيد المؤكد بالنصر لمن وقع عليه هذا البغي، بقوله سبحانه: ﴿لينصرنه الله﴾ فيؤكد نزول النصر بلام القسم، وبالفعل المضارع، ثم بنون التوكيد[6]، ثم بمجيء الفاعل اسماً ظاهراً (الله) عوضاً عن مجيئه مضمراً مثل: (لننصرنه)، تلا ذلك إعادة لفظ الجلالة مرة ثانية في قوله سبحانه: ﴿«إن الله لعفو غفور﴾ دون أن يكون: ﴿إنه لعفو غفور﴾ والتصريح بلفظ الجلالة أنسب في

---

(١) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ ٣/ ٣٧٢.

(٢) سيد قطب ـ المصدر السابق ـ ٤/ ٢٤٠٧.

(٣) القرطبي ـ الجامع ـ المجلد ٦/ ج١٢/ ٨٤.

(٤) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد ١٢/ ج٢٣/ ٦٠.

(٥) اللسان ـ مادة (بغا).

(٦) معجم أعراب ألفاظ القرآن الكريم ـ ص٤٤٢.

مقام التأكيد؛ لما فيه من استحضار لذكر الله، وثقة بنصره لعباده المؤمنين، وبهذا تتبدد كل سحائب الشك التي كان من الممكن أن تخيم على قلوب المؤمنين، ويزداد إيمانهم بالله رسوخاً، ويشمخون على البغاة المسرفين دون هيبة؛ ثقة بنصر الله.

الآية الخامسة:

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾[1] وتستمر الآيات الكريمات لتذكر المعاصي التي لام هود قومه على ارتكابها، إلى أن يصل إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾[2] وهذه الآية هي موضع الشاهد في دراستنا، فهي تكشف طريقة تعامل قوم عاد مع الآخرين، وهي طريقة تقوم على البطش والجبروت، والدلالة اللغوية للبطش هي: التناول بشدة عند الصولة، والأخذ العنيف القوي الشديد في كل شيء، والقتل عند الغضب ظلما[3]، أما الدلالة اللغوية للجبار فهي: المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقا، المتمرد العاتي، الذي يقتل على الغضب، القَتّال في غير حق، وهو كذلك المسلط القاهر[4]. فهم يبطشون بجبروت، والجبروت صفة يمتزج فيها العتو بالظلم، والقهر بمجاوزة الحد في العدوان، ولذلك عاب عليهم نبيهم هود ـ عليه السلام ـ هذه الصفة الملازمة الثابتة فيهم، والتي جاء التعبير عنها بالاسم: (جبارين)، وحين نبحث عن الباعث لهذا البطش والجبروت، نكتشف أنه الاغترار بالقوة، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟

---

(١) سورة الشعراء ـ الآيات ١٢٣ ـ ١٢٧.

(٢) سورة الشعراء ـ ١٣٠.

(٣) اللسان ـ مادة(بطش).

(٤) اللسان ـ مادة(جبر).

بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾[1] فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يذكر سبب استكبارهم، وهو أنهم كانوا مخصوصين بكبر الأجسام وشدة القوة، فنبه ـ عز وجل ـ إلى أنه لا يجوز الاغترار بذلك[2]، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في موضع آخر في قوله سبحانه: ﴿.. وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾[3] وكان شعورهم بقوتهم تلك سبباً في عتوهم وجبروتهم، وقد حاول نبي الله هود ـ عليه السلام ـ أن ينفذ من هذا المدخل؛ لإقناعهم بقبول دعوة التوحيد، قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[4] ويرى الفخر الرازي أنهم كانوا مخصوصين في الدنيا بنوعين من الكمال: أحدهما أن بساتينهم ومزارعهم كانت في غاية الطيب والبهجة، والدليل: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾[5]، الثاني: أنهم كانوا في غاية القوة والبطش والدليل: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾[6]، ولما كان القوم مفتخرين على سائر الخلق بهذين الأمرين، وعدهم هود ـ عليه السلام ـ أنهم لو تركوا عبادة الأصنام، واشتغلوا بالاستغفار والتوبة، فإن الله تعالى يقوي حالهم في هذين المطلوبين، ويزيدهم فيه درجات كثيرة[7] ولكن القوم الطغاة أبوا دعوة الرسول، وسلكوا طريق الجبابرة، قال سبحانه: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾﴾[8] «والجبار هو المرتفع المتمرد، العنيد العنود

---

(١) سورة فصلت ـ ١٥.

(٢) الفخر الرازي ـ المصدر السابق ـ ١٤/ ج٢٧/ ١١٣.

(٣) سورة الأعراف ـ ٦٩.

(٤) سورة هود ـ ٥٢.

(٥) سورة الفجر ـ الآيات من ٧ ـ ٨.

(٦) سورة فصلت ـ ١٥.

(٧) مفاتيح الغيب ـ المجلد ٩/ ١٨/ ١٢.

(٨) سورة هود ـ ٥٩.

والمعاند، وهو المنازع المعارض»[1] وهو كذلك «الطاغي الذي لا يقبل الحق»[2]، وكانوا يعاملون من سواهم بتجبر حين يبطشون به، وهذا يعني «السطوة والأخذ بالعنف، والعسف قتلاً بالسيف، وضرباً بالسوط، ويفعلون ذلك ظلما، ويقتلون على الغضب من غير تثبت، والآية نزلت خبراً عمن تقدم من الأمم، ووعظاً من الله لنا في مجانبة ذلك الفعل الذي ذمهم به، وأنكره عليهم»[3] فهم يعاملون غيرهم معاملة الجبارين، وهذا وصف ذم للعباد لأن فيه حب التفرد بالعلو[4]، فهم يبطشون بمن سواهم ظلماً وعلوا[5] وعتوهم هذا كان سبباً في هلاكهم، والحق ـ عز وجل ـ حين يعرض علينا مصارع الغابرين، ويصف ما كان من قوتهم التي غرتهم، ودفعتهم إلى ظلم الآخرين، والبطش بهم في تجبر وعتو، ينبّه هذه الأمة إلى البعد عن هذا المسلك الخطير لتنجو من ملاقاة مصير مماثل لذلك المصير الذي انتهى إليه قوم عاد، وكم في عصرنا هذا من القوى الباطشة المتجبرة، التي يشعر المسلم وكأن صفات قوم عاد إنما تصفهم هم؛ لما لديهم من البلاد الطيبة الخيرة، ولما حباهم به الله من البسطة في الخلق، ولما يتمتعون به من القوة الجبارة، ولما هم عليهم من طغيان في تعاملهم مع سواهم، فهم ممن يحق عليهم قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ فهل يكون مصيرهم كمصير قوم عاد؟ ربما، فالله على كل شيء قدير.

٢ ـ الإنفاق:

الآية الأولى:

قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ

---

(١) الفخر الرازي ـ المصدر السابق ـ المجلد ٩/ ١٨/ ١٧.

(٢) القرطبي ـ الجامع ـ المجلد ٥/ ٩/ ٤٨.

(٣) القرطبي ـ المصدر نفسه ـ المجلد ٧/ ١٣/ ١١٥ـ١١٦.

(٤) الفخر الرازي ـ المصدر السابق ـ مجلد ١٢/ ٢٤/ ١٥٨.

(٥) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٣/ ١٢٢.

ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾[1].

هذه الآيات وما جاء قبلها وبعدها بدأت بترسيخ قاعدة التوحيد في قوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[2] ليقيم على هذه القاعدة البناء الاجتماعي كله وآداب السلوك والعمل فيه[3]، وهذا البناء له آداب وقواعد سمتها الأساسية: (التوازن)؛ لكي تتحقق الاستقامة على الصراط المستقيم، ونقف هنا عند سلوك (الإنفاق)، فالله سبحانه وتعالى يأمر به، «وقد سبق أن خَصَّ الإحسان في البداية للوالدين، ثم عَمَّ الأمر به لكل ذي رحم وغيره، ثم لما رغب في البذل، وكانت النفس قلما يكون فعلها قواماً بين الإفراط والتفريط، أتبع ذلك بقوله: (ولا تبذر)، بتفريق المال سرفاً، وهو بذله فيما لا ينبغي، (تبذيرا): بسط اليد في المال على حسب الهوى جزافاً»[4]، وتدور أقوال المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿ولا تبذر﴾ بأن المراد بها: (الإنفاق في غير حق)[5] ثم اتبع ذلك بالمفعول المطلق: ﴿تبذيرا﴾ تأكيداً للنهي عن هذا المسلك؛ ولكي يحقق غاية التنفير من التبذير والإسراف، وينبه

---

(١) سورة الإسراء ـ الآيات من ٢٦ـ ٣٠.

(٢) سورة الإسراء ـ ٢٣.

(٣) سيد قطب ـ الظلال ـ ٤/ ٢٢٠٩.

(٤) البقاعي ـ نظم الدرر في تناسب السور ـ ١١/ ٤٠٦.

(٥) انظر: الزمخشري ـ الكشاف ـ ٢/ ٤٤٦.
ابن العربي: أحكام القرآن ـ ٣/ ١٢٠٣.
القرطبي ـ الجامع ـ المجلد ٥/ ١٠/ ٢٢٦.
الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد ١٠/ ٢٠/ ١٩٦.
الألوسي ـ روح المعاني المجلد ٨/ ١٥/ ٦٣.
سيد قطب والظلال ـ ٤/ ٢٢٢٢.

إلى قبح التبذير، أضافه إلى إخوان الشياطين، أي: قرناؤهم في الدنيا والآخرة[1]، فقال سبحانه: ﴿إن المبذرين﴾ جبلة وطبعا، ﴿كانوا﴾ أي: كوناً هم راسخون فيه، ﴿إخوان الشياطين﴾[2]، ثم بين صفة الشيطان، وأنه كفور لربه، يستعمل بدنه في المعاصي والإفساد في الأرض، «فالمبذر موافق للشيطان في الصفة والفعل، وخرجت هذه الآية على وفق عادة العرب؛ وذلك لأنهم كانوا يجمعون الأموال بالنهب والإغارة، ثم ينفقونها في طلب الخيلاء والتفاخر»[3]، «وكذلك فقد كانت الجاهلية تنحر إبلها، وتتياسر عليها، وتبذر أموالها في الفخر والسمعة، وتذكر ذلك في أشعارها، فأمر الله بالنفقة في وجوهها، مما يقرب منه ـ عز وجل ـ وعن مجاهد: لو أنفق مداً في باطل كان تبذيرا»[4]، وذكر شأن الجاهلية وإنفاقها وكرمها هنا، له دلالته العميقة، فقد اشتهر عن العرب كرمهم وإنفاقهم وبذلهم، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن يهذب هذا الخلق مما لابسه من حب الذكر، وحسن الأحدوثة، فعمل الإسلام على الارتقاء بدوافع الإنفاق إلى آفاق رحبة تتصل برب العباد، لا بالعباد.

ومن جهة ثانية فإن أدب الإنفاق في الإسلام «لا يتعلق بالكثرة والقلة، وإنما هو موضع الإنفاق»[5]، فالواجب الذي حث الدين عليه هو الإنفاق في الحق، وهذا يحدده الموقف، فبعض المواقف تستدعي الإنفاق الكثير دون أن يكون ذلك سرفاً، حين تشتد الحاجة مثلاً، وبعضها يستدعي التوسط، والمرجع في ذلك للحال.

وأما حين لا يجد المرء ما ينفقه، فيعرض حياء لا لإرادة المنع، بل طلب

---

(١) الفخر الرازي ـ المجلد ١٠/ ٢٠/ ١٩٦.

(٢) البقاعي ـ نظم الدرر ـ ١١/ ٤٠٦.

(٣) الفخر الرازي ـ المصدر السابق ـ المجلد ١٠/ ٢٠/ ١٩٦.

(٤) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٢/ ٤٤٦.

(٥) سيد قطب ـ الظلال ـ ٤/ ٢٢٢٢.

الإكرام والسعة من الله، فليقل لهم قولاً يشرح صدورهم نحو: «يرزقنا الله وإياكم من فضله»[1].

وبعد كل ما سبق يأتي الحث على التوازن، وهو القاعدة الكبرى في النهج الإسلامي، والغلو كالتفريط يخل بالتوازن[2]، وليس المراد هنا بالتوازن التوسط الرياضي، بل مراعاة الحال[3]، وهذا ما قصده القرطبي حين قال عن هذه الآية: «هذه من آيات فقه الحال، لا يبين حكمها إلا باعتبار شخص من الناس»[4].

ويأتي ذلك الحث على التوازن في صورة الاستعارة التمثيلية، حيث مَثَّل للبخيل بالذي حبست يده عن الإعطاء، وشدت إلى عنقه بحيث لا يقدر على مدها، ومثل السرف ببسط الكف بحيث لا تحفظ شيئاً[5]، والتمثيل ببسط اليد مثلاً لذهاب المال، لأن بسط اليد يذهب ما فيها[6]، وهذه الآية تدل علي أدب الإنفاق؛ لأن لكل خلق طرفي إفراط وتفريط، وهما مذمومان، فالبخل إفراط في الإمساك، والتبذير إفراط في الإنفاق، وهما مذمومان، والخلق الفاضل هو العدل والوسط[7]، ويلاحظ التعبير القرآني عن الإسراف في الإنفاق بقوله سبحانه: ﴿كل البسط﴾ فلم يأت بالمفعول المطلق من الفعل مباشرة «يبسط بسطاً» بل جاء بنائب عن المصدر، وهو (كل)[8]،

---

(١) البقاعي ـ نظم الدرر ـ ١١/ ٤٠٧.

(٢) سيد قطب ـ الظلال ـ ٤/ ٢٢٢٢.

(٣) غادة الحوطي ـ التوازن معيار جمالي ـ ٤٦.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ـ ٥/ ١٠/ ٢٢٦.

(٥) الصابوني ـ صفوة التفاسير ـ ٢/ ١٥٨، الألوسي ـ روح المعاني ـ المجلد ٨/ ج١٥/ ٦٥.

(٦) القرطبي ـ مجلد ٥/ ١٠/ ٢٢٦.

(٧) الفخر الرازي ـ مجلد ١٠/ ٢٠/ ١٩٦.

(٨) معجم أعراب القرآن ـ ٣٦٨، انظر شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ١/ ٥٦١ وينوب عن المصدر ما يدل عليه، مثل (كل) المضافة إلى المصدر «شرح محي الدين عبد الحميد» المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط٢، ب ت.

وربما كان السبب في ذلك ـ والله أعلم ـ أن بسط اليد بالإنفاق أمر محمود، وأما المذموم فهو (كل البسط)، والآية في مجملها «أمر بالاقتصاد في العيش، ونهي عن السرف والبخل»[1]، «ثم يرسم بعد ذلك نهاية البخل ونهاية الإسراف، وهي قعدة الملوم المحسور، والحسير في اللغة: الدابة التي تعجز عن السير هزلاً وإعياء وكلالا[2]، "والبخيل يحسره بخله فيقف، والمسرف ينتهي به سرفه إلى وقفة الحسير، ملوماً في الحالتين على البخل وعلى السرف»[3]، وكل من الحالتين مجاوز لحد الاعتدال»[4]، وهكذا جاء النهي بعد النهي في هذه الآية الكريمة ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ للتعبير عن فكرة واحدة هي الدعوة إلى التوازن والتوسط[5].

ثم يعقب على الأمر بالتوسط، بأنه ـ سبحانه ـ هو الرازق، وأن مشيئته ـ عز وجل ـ في بسط الأرزاق وقدرها تابعة للحكمة والمصلحة[6]، وهو الخبير البصير بالأقوم في كل الأحوال.

الآية الثانية:

قال تعالي: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾[7].

---

(١) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ ٣/ ٦١.

(٢) اللسان ـ مادة (حسر).

(٣) سيد قطب ـ المصدر السابق ـ ٤/ ٢٢٢٣.

(٤) البقاعي ـ نظم الدرر ـ ١١/ ٤٠٧.

(٥) يوسف الأنصاري ـ أساليب الأمر والنهي في القرآن ص ٤٣٥.

(٦) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٢/ ٤٤٧.

(٧) سورة الأنعام ـ ١٤١.

تبدأ الآية الكريمة بإقامة الدلائل على تقرير التوحيد، ومن تلك الدلائل خلق الله ـ عز وجل ـ للجنات، سواء منها ما يتخذ له عريش يحمل عليه فيمسكه، أو غير ذلك، وهو القائم من الشجر، المستغني باستوائه وذهابه علواً لقوة ساقه عن التعريش»[1]، وعطف على ذلك بذكر النخل، والزرع، وقد جعل لكل شيء منها ما يمتاز به عن سواه في الطعم، واللون، والرائحة، ثم أذن بعد ذلك في الانتفاع بها، فقال عز وجل: ﴿كلوا﴾ وهذا الأمر مقتضاه الإباحة، وتلا ذلك قوله سبحانه: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ وهذا الأمر الثاني للوجوب، وقد بدأ بذكر نعمة الأكل قبل الأمر بإيتاء الحق؛ ليبين أن الابتداء بالنعمة كان من فضله قبل التكليف»[2]، وقد تعددت آراء العلماء حول المراد بقوله سبحانه ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ﴾ ففسروا المراد بالحق عدة تفسيرات، وقد يرجع تعدد الآراء في ذلك إلى الاختلاف حول كون الآية مكية أو مدنية، وتلك الآراء[3] هي كما يلي:

الرأي الأول: الآية محكمة مدينة، والمراد بالحق فيها (الزكاة المفروضة).

الرأي الثاني: الآية منسوخة؛ لأنها نزلت في مكة قبل فرض الزكاة، والمراد بالحق في الآية ما كان واجباً قبل فرض الزكاة[4]، ثم نسخ بالعُشْر فيما سقت السماء،

---

(١) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد ٧/ ج١٣/ ٢٢٣.

(٢) ابن العربي ـ أحكام القرآن ـ ٢/ ٧٥٧.

(٣) للاطلاع علي تلك الآراء بتفصيل وتوسع. انظر: القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ـ ٤/ ٧/ ١٠٠.
ابن العربي ـ أحكام القرآن ـ ٢/ ٧٥٧.
الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ مجلد ٧/ ١٣/ ٢٢٥.
الزمخشري ـ الكشاف ـ ٢/ ٥٦.

(٤) ذكر السيوطي في أسباب النزول ص ٣٨٧ أسباب نزول الآية ١٤١ من الأنعام. أخرج ابن جرير عن أبي العالية قال: «كانوا يعطون شيئًا سوى الزكاة، ثم تسارفوا فنزلت هذه الآية وأخرج ابن جرير أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس جَذَّ نخله، فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة» انظر حاشية القرطبي ـ ٤/ ٧/ ٩٩.

ونصف العُشْر فيما سُقِيَ بالسّواني.

الرأي الثالث: الآية محمولة على الندب، فهو حق في المال سوى الزكاة، أمر الله به ندباً.

الرأي الرابع: اللفظ مجمل، ولم يخلص أصحاب هذا الرأي إلى قول نهائي فيه.

وبعد عرض تلك الآراء رَجَّح العديد من هؤلاء المفسرين أن المراد بالحق: (الزكاة المفروضة) وبنوا هذا الترجيح على قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «ليس في المال حق سوى الزكاة»[1] ورغم ما ورد في الأثر عن نزول سورة الأنعام بمكة[2]، فهذا لا يرد ـ حسب قولهم ـ أن المراد بالحق الزكاة المفروضة، ويروي ابن العربي عن مالك ـ رحمه الله ـ رده على من سأل عن ذلك بقوله: «وهبكم أنها مكية، فإن الله أوجب الزكاة بها إيجاباً مجملاً، فتعين فرض اعتقادها، ووقف العمل بها على بيان الجنس والقدر والوقت، فلم تكن بمكة حتى تمهد الإسلام بالمدينة، فوقع البيان، فتعين الامتثال، وهذا لا يفقهه إلا العلماء بالأصول»[3].

وبعد الأمر بالأكل وبالإيتاء جاء النهي عنه الإسراف في قوله سبحانه: ﴿وَلَا

---

(١) ممن رجح هذا الرأي: الفخر الرازي ـ مجلد ٧/ ١٣/ ٢٢٥.
القرطبي ـ الجامع ـ ٤/ ٧/ ١٠٠.
ابن العربي ـ أحكام القرآن ـ ٢/ ٧٥٨.

(٢) وذلك ما أخرجه الطبراني وأبوعبيد في فضائله عن ابن عباس قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة، حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح «انظر السيوطي» ـ الإتقان ـ ١/ ٢٢، وفي أثر آخر قال ابن عباس عن سورة الأنعام، نزلت بمكة جملة واحدة. فهي مكية إلا ثلاث منها نزلت بالمدينة من قوله تعالىٰ: ﴿۞قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ من ١٥١ إلى ١٥٣. انظر «مناع القطان ـ مباحث في علوم القرآن ـ ص٥٤».

(٣) أحكام القرآن ـ ٢/ ٧٦١.

تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ وقد ذهب الزمخشري إلى أن المراد به (لا تسرفوا في الصدقة)، كما روي عن ثابت بن قيس بن شماس أنه صرم خمسمائة نخلة ففرق ثمرها كله، ولم يدخل منه شيئاً إلى منزله[1]، وذكر الفخر الرازي عدة أقوال في المراد بالإسراف هنا، بعضها يذهب إلى أن المراد ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ﴾، لا تعطوا كله، كما حدث مع ثابت بن قيس، ورأي لسعيد بن المسيب يذهب إلى أن المراد بـ ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ﴾ لا تمنعوا الصدقة، ويعلق الفخر الرازي عليهما بقوله: «وهذان القولان يشتركان في أن المراد بالإسراف (مجاوزة الحد) إلا أن الأول مجاوزة في الإعطاء، والثاني مجاوزة في المنع»[2]، ورأى سيد قطب ـ رحمه الله ـ أن الإسراف هنا ينصرف إلى العطاء كما ينصرف إلى الأكل[3]، وذكر ابن العربي كذلك أن المراد لا تسرفوا في الأكل بزيادة الحرام إلى ما أحله الله لكم، ولا تسرفوا في أخذ زيادة على حقكم، وأدوا ما يتعين عليكم[4]، وناقش القرطبي المراد بالإسراف، وأورد رأياً لمجاهد يقول فيه: «لو كان أبوقبيس ذهباً لرجل فأنفقه في طاعة الله لم يكن مسرفاً، ولو أنفق درهماً أو مداً في معصية الله كان مسرفاً» وفي هذا المعنى قيل لحاتم: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير» وعلق القرطبي على هذا الرأي بقوله: وهذا ضعيف، يرده ما روى ابن عباس عن ثابت بن قيس وتصدقه بكل ثمره، ولم يترك لأهله شيئاً، فنزلت ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ﴾ أي: لا تعطوا كله، قال السدي: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ﴾ أي: لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء، فعلى هذا تكون الصدقة بجميع المال، وكذلك منع إخراج حق المساكين داخلين في حكم السرف، والعدل خلاف هذا، فيتصدق ويُبْقِي،كما قال عليه السلام: «خير الصدقة ما كان عن ظهر

---

(١) الكشاف ـ ٢/ ٥٦،

(٢) مفاتيح الغيب ـ ٧/ ١٣/ ٢٢٦.

(٣) الظلال ـ ٣/ ١٢٢٣.

(٤) أحكام القرآن ـ ٢/ ٧٦٤.

غنى»[1].

نخلص من كل ما سبق إلى أن الله سبحانه وتعالى قد دَلَّ عباده إلى أدب الإنفاق، ذلك الإنفاق القائم على التوازن، وعلى إخلاص النية لله سبحانه وتعالى حتى لا تشوبه شائبة من رياء أو نفاق، وحتى حين تكون النية صادقة الإخلاص لله، فينبغي عدم الإفراط في بذل كل ما يملك المرء، خاصة حين يكون من ورائه أسرة يعولها ويقوم بشأنها، وكذلك فالمنع والشح إسراف، ويدعم هذا الرأي ما ورد في القرآن عن (أصحاب الجنة) الذين أضمروا نية منع العطاء، فدمر الله جنتهم تلك، وحين رأوها قالوا كما ورد في كتاب الله العزيز ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١﴾[2]، والطغيان: تجاوز الحد، فهم طغوا في منع حق الفقراء[3] وطغوا في حب المال والضن بالصدقة على من يستحقها، ويلاحظ أن التركيز على أدب الإنفاق كان يلامس موضعاً مهماً في نفوس عرب الجاهلية، فها هو ذا الوليد بن المغيرة يطعم أهل منى حيساً ثلاثة أيام، وينادي: ألا من أراد الحيس فليأت الوليد بن المغيرة، وينفق في الحجة الواحدة عشرين ألفاً وأكثر، ولا يعطي المساكين درهماً واحداً، فنزلت: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾[4]، فالارتقاء بدوافع الانفاق، وربطها بالله عز وجل كان هدفاً أساسياً في العقيدة الإسلامية، وملحوظة أخيرة نوردها بالنسبة لقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١﴾ من مجيء إن وضمير الشأن، تقوية للمعنى وتثبيتاً له، فإن تؤكد معنى الجملة، وتربط ما بعدها بما قبلها، وضمير الشأن فيه لمسة من الغموض الذي يثير في النفس التشوق لمعرفة ما يأتي بعده، فحين يأتي يكون إيضاحاً لما

---

(١) الجامع ـ ٤/ ٧/ ١٠٠ وقد ورد الحديث في فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ـ ٤/ ٤٦ .

(٢) سورة القلم ـ ٣١.

(٣) القرطبي ـ المصدر السابق ـ ٩/ج١٨/ ٢٢٦، وذكر مثل ذلك الصابوني في صفوة التفاسير ـ ٣/ ٤٢٨.

(٤) القرطبي ـ المصدر السابق ـ ٩/ ج١٨/ ٢١٨.

أبهم[1]، وهو بهذا يرفع التأكيد الإلهي الصارم في وجه كل المسرفين في أي شأن من شؤون الحياة.

الآية الثالثة:

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾[2]

بهذه الآية الرائعة نختم هذا الجزء المتعلق بالإنفاق؛ لأن السلوك الذي ترشد إليه الآية الكريمة هو أقوم سلوك يسير عليه المؤمن عندما ينفق، ذلك السلوك المتزن المتوسط بين الإسراف والتقتير، اللذين يحدثان الاختلال في أي مجال يكونان فيه، أما الاعتدال فهو سمة إيمان، فهم بين ذلك قواما، أي: العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالهما «وذكر ابن عطية أن ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن المراد بالإسراف: الإنفاق في معصية الله، رأى غير مرتبط بالآية، فالتأديب في هذه الآية هو في (نفقة الطاعات في المباحات) فأدب الشرع فيه ألاّ يفرط الإنسان حتى يضيع حقاً آخر أو عيالاً ونحو ذلك، وألا يضيق ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط في الشح، والحسن في ذلك هو القوام، أي العدل، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله، وخير الأمور أوساطها»[3]

«والآية التي بصددها تصور لنا سلوك عباد الرحمن في الحياة من الناحية الاقتصادية، وإذا كانت الآية الكريمة قد نهت عن الإسراف في الإنفاق الممثل لأقصى غاية الإنفاق، فقد كان من الضروري أن تنهى عن الإقتار الممثل لأقصى غاية الاقتصاد في الإنفاق؛ لأن الإقتار، وهو أحد الجانبين المتطرفين، من الجائز أن يكون رد فعل للنهي عن الإسراف الممثل لأول الجانبين، ثم تنص الآية صراحة على المذهب

---

(١) انظر: عبد القاهر الجرجاني ـ دلائل الإعجاز ـ ص٢٠٦ (فصل في إن ومواقعها).

(٢) سورة الفرقان ـ ٦٧.

(٣) القرطبي ـ الجامع ـ ٧/ ١٣/ ٧٠.

المعتدل الذي يتوسط بطبعه بين الإسراف والإقتار: ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[1]

٣ ـ الجرائم الأخلاقية:

الآية الأولى:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[2] «الفحش في اللغة: الزيادة والكثرة، وكل شيء جاوز قدره وحده، فهو فاحش، والفحش: التعدي في القول والجواب، وكل ما يشتد قبحه من المعاصي والذنوب فهو فحش»[3].

هذه هي الدلالة اللغوية للفحش، وحين نتجه إلى القرآن الكريم نجد أن التعبير يأخذ تحديداً أدق، والفحش: المعصية الشديدة القبح، بل «الزائدة على حد القبح»[4] فيما يخص الجرائم الأخلاقية، مثل الزنا، واللواط. واستقراء آيات القرآن الكريم يرجح هذا الرأي، خاصة حين يكون التعبير بـ«فاحشة» مفردة، مثل قوله سبحانه: ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً ﴾[5] ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ ﴾[6] ﴿ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾[7] ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾[8]. ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ

---

(١) د. حسن باجودة ـ تأملات في سورة الفرقان ـ ٢١٤، ٢١٥، مؤسسة (مكة) للطباعة والإعلام، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

(٢) سورة الإسراء ـ ٣٢.

(٣) اللسان ـ مادة فحش.

(٤) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٢/ ٤٤٨.

(٥) سورة النساء ـ ١٥.

(٦) سورة النساء ـ ٢٥.

(٧) سورة الأحزاب ـ ٣٠.

(٨) سورة النساء ـ ٢٢.

لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾[1] ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾[2].

والآية التي نحن بصددها تناقش (فاحشة الزنا)، والزنا معصية مغرقة في الإسراف، وقد أشار لذلك البقاعي ـ رحمه الله ـ حيث قال في شرح هذه الآية: «في فعل الزنا داع من الإسراف»[3]، واعتبار الزنا إسرافاً لعدة وجوه، "فهو إراقة لمادة الحياة في غير موضعها، ويتبعه ـ غالباً ـ الرغبة في التخلص من آثاره بقتل الجنين، قبل مولده، أو بعد مولده، فإذا ترك الجنين للحياة، ترك في الغالب لحياة شريرة مهينة، وهو قتل للجماعة التي يفشو فيها، فتضيع الأنساب، وتختلط الدماء، وتذهب الثقة في العرض والولد، وتنتهي إلي ما يشبه الموت بين الجماعة، وقتل للجماعة من جانب آخر، إذ إن سهولة قضاء الشهوة يجعل الحياة الزوجية نافلة لا ضرورة لها، وما من أمة تفشت فيها فاحشة الزنا إلا صارت إلى انحلال منذ التاريخ القديم إلى العصر الحديث»[4]، ودرءاً لهذه المفاسد وغيرها، مما لا يعلم مداها إلا الله، جاء النهي عن الزنى قوياً شديداً صارماً، حيث لم يأت النهي عن الزنى مباشرة، كأن يقول: «لا تزنوا»، بل جاء النهي عن مجرد مقاربة الزنا، فقال عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾، "وإذا قيل لا تقربوا هذا، فهو آكد من أن يقول: لا تفعله»[5]، فالمراد: «لا تدنوا من الزنى»، "وهذا يفيد النهي عن مقدمات الزنى، كالنظرة، والغمزة، وغير ذلك مما يجر إلى الزنى، فالنهي عن القرب أبلغ من النهي عن الفعل»[6]، لأنه «نهي عن أدنى قرب

---

(١) سورة النمل ـ ٥٤.

(٢) سورة الأعراف ـ ٨٠.

(٣) نظم الدرر في تناسب السور ـ ١١/ ٤٠٩.

(٤) سيد قطب ـ الظلال ـ ٤/ ٢٢٢٤.

(٥) الفخر الرازي ـ ١٠/ ٢٠/ ١٩٩.

(٦) الألوسي ـ روح المعاني ـ المجلد٨/ ج١٥/ ٦٧.

بفعل شيء من مقدماته، فعبر بالقربان تعظيماً لما فيه من المفاسد، ثم علل ذلك النهي له بقوله: ﴿إنه كان﴾ أي كوناً لا ينفك عنه، ﴿فاحشة﴾ أي: زائد القبح ﴿وساء سبيلا﴾ أي: ما أسوأه من طريق»[1]، وجاءت (إن) لتأكيد معنى الجملة، وربط ما بعدها بما قبلها، ولحق بها ضمير الشأن، فأسهم أيضاً في التوكيد؛ لأن في الضمير لوناً من الغموض، ثم تأتي الجملة بعد بالإيضاح، فيكون المعنى أوقع في النفس[2].

الآية الثانية:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾[3].

هذه الآيات من سورة النور، وهي سورة مدنية ركزت على الآداب الاجتماعية التي يجب أن يتحلى بها المؤمنون في حياتهم العامة والخاصة، ومن تلك الآداب «حفظ الفروج حماية للمجتمع من الانحلال الخلقي، وذكرت السورة تبعاً لذلك بعض الحدود الشرعية المتعلقة بمنتهكي حدود تلك الآداب، كحد الزنى، والقذف، واللعان»[4]؛ تطهيراً للمجتمع من الرذائل، وحفظاً له من الانحلال، واختلاط الأنساب، والإباحة، والفساد.

وتأتي الآيات موضع الدراسة بعد قصة حادثة الإفك، «وما عاناه الرسول الكريم

---

(١) البقاعي ـ نظم الدرر ـ ١١/ ٤٠٩.

(٢) انظر: عبد القاهر الجرجاني ـ دلائل الإعجاز ـ ٢٠٦ ـ ٢٠٨ «فصل إن ومواقعها».

(٣) سورة النور ـ الآيات من ١٩ ـ ٢١.

(٤) الصابوني ـ صفوة التفاسير ـ ٢/ ٣٢٤.

وآل بيته في هذه المحنة من شك، وقلق، وتلويث للسمعة، حتى أنزل الله البرهان على براءة عائشة الصديقة، وهنا تأتي الآيات الكريمات لتحذر أولئك الذين يعملون على زعزعة ثقة الجماعة المؤمنة بالعفة والطهارة، ويعملون على إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة، عن طريق الإيحاء بأن الفاحشة شائعة فيها، وبذلك تشيع الفاحشة في النفوس، لتشيع بعد ذلك في الواقع»[1]. ويتضح من السياق القرآني أن لفظة (الفاحشة) تدل على ما سبق أن أشرنا إليه من الجرائم الأخلاقية، ونعني بذلك هنا «جريمة الزنى» والحديث عن تلك الجريمة، وإشاعة ذلك بين المؤمنين، ويأتي التحذير الإلهي شديد الوقع لقوله سبحانه ﴿يحبون﴾ أي أن من أحب ذلك فقد شارك في هذا الإثم، كما شارك فيه من فعله، ومن لم ينكره، وهذا يدل على وجوب سلامة القلب، كوجوب كف الجوارح والقول عما يضر بالمؤمنين[2]، وفسر العلماء الفاحشة هنا بأنها: «الفعل القبيح المفرط القبح»[3]، وفسرها الفخر الرازي بأنها: «الزنى»[4]، وذكر ابن كثير أن المراد بها: «الكلام السيء»[5]، وذكر الألوسي أنها «الرمي بالزنى أو الزنى نفسه»[6]، ولا تعارض بين هذه الآراء، فهي في مجموعها تدل على: (الحديث عن الفعلة الكبيرة القبح)، ويعضد ذلك ما ذكر أبوحنيفة ـ رحمه الله ـ حين قال: «المصابة بالفجور لا تستنطق؛ لأن استنطاقها إشاعة للفاحشة، وذلك ممنو

---

(١) سيد قطب ـ المصدر السابق ـ ٤/ ٢٥٠٣.

(٢) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المجلد ١٢/ ٢٣/ ١٨٣.

(٣) البقاعي ـ نظم الدرر ـ ١٣/ ٢٣٣.

القرطبي ـ الجامع ـ المجلد ٦/ ١٢/ ٢٣/ ١٨٤.

الصابوني ـ المرجع السابق ـ ٢/ ٢٣٨.

(٤) المصدر السابق ـ المجلد ١٢/ ٢٣/ ١٨٤.

(٥) تفسير القرآن العظيم ـ ٣/ ٤٤٠.

(٦) روح المعاني ـ المجلد ٩/ ج١٨/ ١٢٢.

منه»[1]. ومعنى شيوعها «أن تنتشر بالقول أو بالفعل، ويصير لها شيعة يحامون عليها»[2]، فمن أحب وقوع ذلك في الجماعة المسلمة فقد توعده الله بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، وعقب على ذلك بما ترتجف له القلوب، وهو الإشارة إلى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يخفى عليه شيء مما تجن الضمائر، وذكر ذلك نهاية في الزجر؛ لأن من أحب إشاعة الفاحشة، وإن بالغ في إخفاء تلك المحبة، فالله عالم بذلك، ويدل كذلك على أن إرادة الفسق فسق؛ لأنه تعالى علق الوعيد بمحبة إشاعة الفاحشة[3] ثم تأتي بعد ذلك الصورة المؤثرة للضلال، تلك الصورة التي ينفر منها طبع المؤمن، ويرتجف لها وجدانه، ويقشعر لها خياله، أن يخطو الشيطان فيتبع المؤمنون خطاه، ويسلكون طريقه المشؤوم، ومواجهة المؤمنين بهذه الصورة يثير في نفوسهم اليقظة، والحذر، والحساسية[4]؛ لأن نهاية الطريق مريعة، إنه يأمر بالفحشاء والمنكر، أي يأمر بما اشتد قبحه وأفرط، وبما ينكره الشرع وتنفر منه النفوس السوية، وهو يقصد أولاً أعلى الضرر (الفحشاء) فإن لم يصل تنزل إلى أدناه[5]، ولكن رحمة الله قريب من المحسنين، فالله سبحانه وتعالى يفتح لهم أبواب فضله ورحمته. ويطهّر التائبين بقبول توبتهم إذا محضوها، ولولا تفضله بالتوبة الممحضة لما طَهُرَ منكم أحدٌ آخر الدهر، وهو فوق كل ذلك سميع لقولهم، عليهم بضمائرهم وإخلاصهم»[6].

---

(١) الفخر الرازي ـ المصدر السابق ـ المجلد ١٢/ ٢٣/ ١٨٥.

(٢) البقاعي ـ نظم الدرر ـ ١٣/ ٢٣٣.

(٣) الفخر الرازي ـ المصدرالسابق ـ المجلد ٣٢/ ج٢٣/ ١٨٥.

(٤) سيد قطب ـ الظلال ـ ٤/ ٢٥٠٤.

(٥) البقاعي ـ نظم الدرر ـ ١٣/ ٢٣٦.

(٦) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٣/ ٥٦.

الآية الثالثة:

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ ﴾[1] الآيات الكريمات وردت ضمن سياق يحدد صفات المؤمنين، من تلك الصفات (حفظ الفروج)، ويأتي التعبير بـ(حافظون) ليدل على ثبوت هذه الصفة فيهم، «فهم حافظون في كل الأحوال، ويستثنى من ذلك حال تزوجهم أو تسريهم، فمن أحدث ابتغاء وراء هذا الحد، مع فسحته واتساعه، وهو إباحة أربع من الحرائر، ومن الإماء ماشئت، فأولئك هم الكاملون في العدوان، المتناهون فيه»[2]، والمراد بأن يبتغي وراء ذلك، أي ينكح مالا يحل له عادياً، من زنا، أو لواط، أو استمناء بيد أو بهيمة[3]، فقوله: (وراء ذلك) شامل للجهات كلها[4]، والآيات دليل على تحريم الزنى، ونكاح المتعة، والاستمناء، واللواط، ومن فعل ذلك وجب عليه الحد لعدوانه[5]، ووصفهم بأنهم: (هم العادون) وصف لائق بالمسرفين؛ لأن الله وسع له في دائرة المباح غاية التوسيع، فلم يقنعه ذلك، وأبى إلاّ العدوان بالإسراف في طاعة الشهوات، وانتهاك الحرمات والأعراض، وتجاوز الحلال إلى الحرام، ومن كان هذا شأنه «فهو مبالغ في تعدي الحدود»[6] «وهو كامل في العدوان، متناه فيه»[7].

---

(١) سورة المؤمنون ـ الآيات من ٥ـ٧.

(٢) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٣/ ٢٦.

(٣) البقاعي ـ نظم الدرر ـ ١٣/ ١٠٨.

(٤) الإسكافي ـ درة التنزيل ـ ٤٩٩.

(٥) القرطبي ـ الجامع ٦/ ١٢/ ٩٩، ابن العربي ـ أحكام القرآن ـ ٣/ ١٣١١.

(٦) البقاعي ـ نظم الدرر ـ ١٣/ ١٠٩.

(٧) الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ ١٢/ ٢٣/ ٨٢.

الآية الرابعة:

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾[1] شهد نبيهم عليهم بالإسراف. وقال عز وجل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾[2]. وقال سبحانه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾[3]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾[4]. شهدت عليهم الملائكة بالإسراف: «للمسرفين» أي: «المتجاوزين للحدود غير قانعين بما أبيح لهم»[5]، والفاحشة التي ارتكبها قوم لوط من أبشع الجرائم الأخلاقية وأقبحها على الإطلاق، وهي ارتكاس للفطرة السوية، وفيها من التردي الأخلاقي ما لا تجد له نظيراً حتى في عالم الحيوان، ونظراً لفداحة هذه الجريمة وفظاعتها استحق مرتكبوها اجتماع أنواع متعددة من العذاب عليهم، قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾[6] وهكذا جاء الجزاء من جنس العمل: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ انقلاب وارتكاس مماثل لنفوسهم المرتكسة المشوهة الممسوخة.

وأبلغ ما يوصف به قوم لوط هو أنهم (مسرفون) و(عادون) لارتكابهم

---

(١) سورة الأعراف ـ ٨٠، ٨١.

(٢) سورة النمل ـ ٥٤، ٥٥.

(٣) سورة الشعراء ـ ١٦٥، ١٦٦.

(٤) سورة الذاريات ـ الآيات من ٣٢ـ ٣٤.

(٥) البقاعي ـ نظم الدرر ـ ١٨/ ٤٦٦.

(٦) سورة الحجر ـ الآيات ٧٢ ـ ٧٥.

(الفاحشة)، وهذه الصيغ ـ كما سبق أن أشرنا ـ صيغ تعبر عن معنى الإسراف، فالعدوان، والفحش، والإسراف، تشترك في معنى (تجاوز الحد). ومن خلال الآيات القرآنية السابقة نلاحظ أن هؤلاء القوم وصفوا بإتيان الفاحشة، «يعني إتيان الذكور» ذكرها الله باسم الفاحشة ليبين أنها زنى، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[1]، ثم بَيَّنَ هذه الفاحشة:﴿ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً ﴾ وفي النهاية تأتي صيغة الإسراف، وذلك باستخدام صيغة الاسم نحو: (للمسرفين)، (قوم مسرفون)؛ للدلالة على ثبوت تلك الصفة الخبيثة وتجذرها في نفوسهم ودوامهم عليها، وفي الآية الأولى نجد نبيهم لوطاً ـ عليه السلام ـ ينكر فعلهم للفاحشة، وهي: «السيئة المتمادية في القبح» ويأتي بذلك الاستفهام للإنكار والتوبيخ (أتأتون)، ثم أتبع ذلك بتوبيخهم عليها؛ لأنهم أول من عملها، في قوله: ﴿ مِّنَ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾«و(من) الأولى زائدة لتوكيد النفي، وإفادة معنى الاستغراق، والثانية للتبعيض»[2]، ثم بَيَّنَ المراد بتلك الفاحشة، وَبَيَّنَ أن الدافع لذلك هو (الشهوة)، أي مجرد الشهوة من غير داع آخر، «والاشتغال بمحض الشهوة تشبه بالبهيمية، وخروج عن الغريزة الإنسانية، فكان في غاية القبح»[3]، ثم أضرب عن الإنكار إلى الإخبار، فالحال التي توجب ارتكاب القبائح، واتباع الشهوات، وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف، وتجاوز الحدود في كل شيء، فمن ثم أسرفوا في قضاء الشهوة حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد[4]، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾[5] ويلاحظ أن الآيات المتعلقة بقوم لوط في سورة الأعراف ختمت

---

(١) القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ـ المجلد ٤/ ٧/ ٢١٩.

(٢) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٢/ ٩٢.

(٣) الفخر الرازي ـ المجلد ٧/ ج١٤/ ١٧٧.

(٤) الزمخشري ـ المصدر السابق ـ ٢/ ٩٢.

(٥) سورة الشعراء ـ ١٦٦.

بقوله سبحانه: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾، وفي سورة النمل ترد كذلك قصة قوم لوط بألفاظ تشبه ما ورد في سورة الأعراف، وتختم بقوله سبحانه: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾، وقد قارن الإسكافي بين تلك الآيات، وانتهى إلى أن مجيء (مسرفون) في الأعراف، و(تجهلون) في النمل لمراعاة تناسب الفواصل، «ففي الأعراف، الآيات التي قبلها فواصل أسماء جمعت هذا الجمع: (مفسدين، كافرين، مرسلين، جاثمين، ناصحين) فكان الاسم أحق بالوضع في هذا المكان لتساوي الفواصل، أما في النمل ففواصل الآيات جاءت أفعالاً: (يتقون، تبصرون، تجهلون) فلما تناسبت هذه الأفعال في هذه الفواصل التي قبل هذه الفاصلة كان بناؤها على ما قبلها على لفظ الفعل أولى بها»[1] ويمكن أن نضيف إلى ذلك ملحوظة أخرى، وهي أنه حين يراد وصف هؤلاء القوم بصفة الإسراف، فالأبلغ أن يكون ذلك بصيغة الاسم، للتدليل على رسوخ تلك الصفة ودوامها فيهم، وكذلك فإن من معاني السرف: (الجهل)، «يقال: السرف: الجهل، والسَّرِفُ: الجاهل، قال ابن الأعرابي: أسرف الرجل إذا تجاوز الحد، وأسرف إذا أخطأ، وأسرف إذا جهل»[2] وكأنما تجاوز الحد يستتبع الجهل والخطأ، حتى يصيرا كالوجهين للعملة الواحدة، وقد عبر عن ذلك الإسكافي في معرض مقارنته بين آيات الأعراف والنمل، حيث قال: المسرف يجهل بإسرافه، والجاهل مسرف في أفعاله، إذ الإسراف مجاوزة الحد الواجب إلى الفساد، فيجوز أن يكون لوط لما كانت له مع قومه مقامات، قال في بعضها هذا اللفظ:(مسرفون)، وقال في المقام الآخر اللفظ الثاني:(تجهلون)[3] وقد وصفوا كذلك بصفة العدوان: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾، «والعادي هو المتعدي في

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ـ ١٦٢.

(٢) لسان العرب ـ مادة (سرف).

(٣) المصدر السابق ـ ١٦٢.

الإنسان يحدث ويزداد ولا يتوقف، ولو قال: «كلا إن الإنسان لطاغ»، لكان المعنى أنه ثابت ـ أي الإنسان ـ عند مستوى معين من الطغيان يقف عنده؛ لأن الإخبار بالاسم يفيد الثبوت، بينما المراد ـ والله أعلم ـ أنه يتمادى في طغيانه، ويزداد فيه، كقولك: (زيد يطول)، أي: يزيد وينمو ويتجدد[1].

وعموماً فالآية تقرر رسوخ تلك الطبيعة الميالة إلى الطغيان في النفس البشرية، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾[2] إن الميل للإسراف ـ المعبر عنه بالفجور[3] ـ كامن في نفس الإنسان في صورة استعداد، والإنسان يمتلك القدرة على توجيه تلك الاستعدادات، من خلال التزامه بنهج الله ـ سبحانه وتعالى ـ فالإنسان كائن مزدوج الطبيعة؛ لأنه بطبيعة تكوينه قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله، مزود باستعدادات متساوية للخير والشر[4]، جعل الله فيه الفجور والتقوى[5]، وهنا ينبغي على العبد أن يلجأ إلى الله ويسأله كما سأله نبيه محمد عليه الصلاة والسلام كلما قرأ هذه الآية: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»[6].

ومن الآيات التي تكشف لنا ميلنا البشري الكامن فينا نحو البغي والطغيان قوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٧﴾[7].

---

(١) د. عبدالحكيم راضي ـ القواعد المذكور عن محاضرات ألقيت في مباحث علم المعاني.

(٢) سورة الشمس ـ الآيات ٧، ٨.

(٣) الفجور: الميل عن الصدق والقصد والحق (لسان العرب ـ مادة فجر) وانظر ما سبق أن ذكرنا عن هذه الصيغة.

(٤) سيد قطب ـ الظلال ـ ٦/ ٣٩١٧.

(٥) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ ٤/ ١١٥.

(٦) نفس المصدر والجزء والصفحة، والحديث في مسند الإمام أحمد ـ ٦/ ٥١٩.

(٧) سورة الشورى ـ ٢٧.

ظلمة المتجاوز فيه الحد، فهم عادون في جميع المعاصي»[1] وهكذا طوت يد القدرة الإلهية صفحة هؤلاء الخبثاء، وبقيت العظة والعبرة من صفتهم لينهى العباد عن الوقوع في الإسراف الذي وقعوا فيه، فساقهم إلى الهلاك، «وإسراف قوم لوط هو الإسراف في تجاوز منهج الله الممثل في الفطرة السوية، والالتزام بمنهج الله في تلك الفطرة يرتبط بطبيعة التصور الاعتقادي، ونظام الحياة الذي يقوم عليه، فهاهي ذي الجاهلية الحديثة في أوربا وفي أمريكا ينتشر فيها هذا الانحراف الجنسي انتشاراً ذريعاً بغيرما مبرر إلاالانحراف عن الاعتقاد الصحيح، وعن منهج الحياة الذي يقوم عليه»[2]

٤ ـ الإسراف في معناه العام الشامل:

لقد ورد في القرآن الكريم بعض الآيات الكريمة التي أشارت إلى الإسراف بمفهومه العام الذي يمكن أن يشمل شتى الجوانب، والجامع بين هذه الآيات جميعاً، أن السياق في مجمله يدل على أن الإسراف غريزة مركبة في أصل النفس الإنسانية، ويأتي التعبير عن ذلك، مرة بـ(الفجور) وأخرى (بالطغيان)، وثالثة (بالبغي)، ونحو ذلك، وحين يكتشف المؤمن هذا الضعف المركب فيه، فهو ـ ولاشك ـ سيضاعف حذره ويقظته، حتى لا يحيد، ويتحرف إلى مهاوي الإسراف، ونتفيأ الآن ظلال الآيات الكريمات.

قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾[3]

الطغيان: مجاوزة القدر والارتفاع والغلو، يقال: طغى الماء، ارتفع وعلا على كل شيء[4].

---

(١) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٣/ ١٢٤.

(٢) سيد قطب ـ الظلال ـ ٣/ ١٣١٦.

(٣) سورة العلق ـ الآيات ٦، ٧.

(٤) اللسان ـ طغا.

طبع مركوز في الإنسان أن تطغيه النعماء، فلا يشكر حين يسبغ الله عليه نعمه، بل يطغى ويفجر، ويبغي ويتكبر، وينسيه البطر كل شيء، «ويطغى بمجاوزة الحد في العصيان»[1]، فالله سبحانه وتعالى يبين أنه إذا أغنى عبده، وزاد في النعمة عليه، فإنه يطغى، ويتجاوز الحد في المعاصي، واتباع هوى النفس؛ لأن الإنسان ذو فرح، وأشر، وبطر، وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله[2]، وتأتي (كَلَّا) لردعه وزجره عن الكفر بنعمة الله، وقيل إنها بمعنى: (حقا)»[3] ثم يهدده ويتوعده ـ سبحانه وتعالى ـ مبيناً عاقبة الطغيان: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾[4].

ويلاحظ في الآية ذلك الحشد من المؤكدات ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾، حيث أكد أولاً بـ(كلا)، ثم بـ(أن)، ثم بـ(اللام)، ثم بالفعل (يطغى)، أما إن، فهي تؤكد مضمون الخبر؛ لأنها تنوب عن تكرير الجملة مرتين، فمجيء (إن) أوجز من تكرار الجملة، مع حصول الغرض من التأكيد، وحين دخلت (اللام) زاد معنى التأكيد، وصار بمنزلة تكرير الجملة ثلاث مرات، وهذا الإيجاز والاقتصاد في ألفاظ الجملة مع حصول الغرض من التوكيد هو الذي يعطي الجملة غلالتها الجميلة، وفوق كل ذلك فقد دخلت اللام على المضارع الواقع خبراً لإن، وهو الفعل (يطغى)، ومن المعلوم أن الخبر كلما توغل في ميدان الشك، زادت ألوان المؤكدات؛ تثبيتاً وتقريراً لذلك المعنى، وقد جاء الخبر جملة فعلية، والفعل يقتضي تجدد المعنى شيئاً بعد شيء، أي الحدوث والتجدد حالاً فحالا، فربما كان مجيء الفعل: (يطغى)، لأن الطغيان يحدث ويتجدد من الإنسان كلما تجدد من الله إنعام وفضل، وربما لأن طغيان

---

(١) القرطبي ـ الجامع ـ المجلد ١٠/ ٢٠/ ١١٠.

(٢) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ ٤/ ٨٣٧.

(٣) الفخر الرازي ـ ١٦/ ٣٢/ ١٩.

(٤) سورة العلق ـ ٨.

الآية الكريمة تشير إلى أن فضل الله في الآخرة بلا حساب، وبلا حدود، وبلا قيود، وأما رزقه لعباده في الأرض، فهو مقيد محدود؛ لما يعلمه ـ سبحانه ـ من أنهم لا يطيقون، وهم في الأرض، أن يتفتح عليهم فيض الله غير المحدود[1].

«والمراد بالبغي هنا: الظلم، أي: لبغى هذا على ذاك، وذاك على هذا؛ لأن الغنى مبطرة، مأشرة، وكفى بحال قارون عبرة، ومنه قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «أخوف ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وكثرتها»، أو أن البغي هو البذخ والكبر، أي: لتكبروا في الأرض، وفعلوا ما يتبع الكبر من العلو في الأرض والفساد»[2]. «وهذه الآية تبين أن حصول الغنى سبب لحصول الطغيان، فوجدان المال يوجب الطغيان؛ لأن الإنسان متكبر بالطبع، فإذا وجد الغنى والقدرة عاد إلى متقضى خلقته الأصلية، وهو التكبر، وإذا وقع في شدة، أو بلية، أو مكروه، انكسر فعاد إلى الطاعة والتواضع»[3] وأصل البغي: مجاوزة الحد، وكل مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء فهو (بغي)، وهو التعدي والظلم والاستطالة[4]، «فقيل إن المراد بالبغي طلبهم منزلة بعد منزلة، ودابة بعد دابة ومركباً بعد مركب، وملبساً بعد ملبس[5]، وقيل: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشرا وبطرا»[6]، وكل ماسبق يدل بوضوح على ميل البشر إلى الطغيان والإسراف في أصل خلقتهم، وذلك حال حصول الغنى،

---

(١) سيد قطب ـ الظلال ـ ٥/ ٣١٥٧.

(٢) الزمخشري ـ الكشاف ـ ٣/ ٤٦٩.

(٣) الفخر الرازي ـ مفتاح الغيب ـ المجلد ١٤/ ٢٧/ ١٧١.

(٤) اللسان مادة بغا وفي حديث ابن عمر أنه قال لرجل: أنا أبغضك. قال: لم؟ قال: لأنك تبغي في أذانك، أراد التمديد في الأذان، وتجاوز الحد في إطالة الصوت.

(٥) القرطبي ـ الجامع ـ المجلد ٨/ ج١٦/ ٢٧.

(٦) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ ٤/ ١٧٤.

والثروة، والقوة وفعل البغي الحاصل منهم لم يحدد في مجال معين، وإنما هو بغي عام في الأرض، يشمل جميع المجالات، وينطوي على كل الاحتمالات الممكنة للبغي، فيبغي بجحود نعمة خالقه، ويبغي على نفسه فيرسلها في شهواتها التي لا تنقطع، ويبغي على من سواه بالظلم والتعدي والاستطالة.

الخلاصة:

في نهاية هذا المبحث نخلص إلى القول بأن الله عز وجل لم يترك عباده يضلون في مهامه الإسراف دون اهتداء، وإنما بعث لهم نوراً من لدنه هو (القرآن الكريم)، وقد جاءت آيات النهي عن الإسراف في القرآن الكريم شاملة في موضوعاتها لكل جوانب حياة الفرد، الدينية، والاجتماعية، والأخلاقية.

فآيات النهي عن الإسراف في العلاقة مع الله كان لها النصيب الأكبر من الذكر والأهمية، فنهى الله عباده عن الكفر به، والإعراض عن ذكره ـ عز وجل ـ ونهاهم عن الإسراف المتمثل في إنكار الكتب، والرسل، والبعث، والمغالاة في هذا التكذيب، وبدا من استقراء الآيات القرآنية أن أبرز من وصم بالإسراف في العلاقة مع الله في غير موضع من كتاب الله العزيز كان فرعون وقومه، فهو لا يكتفي بالكفر بالله، بل يدعي الألوهية من دونه، وزاد فادعى إمكانية محاربة إله موسى، ثم مطاردة المؤمنين المستضعفين، والبغي في الأرض، فإسرافه في مجال العلاقة مع الله طبع كل حياته بطابع الإسراف، فاستحق أن يوصف بهذا الحشد الهائل من صيغ الإسراف.

أما في مجال العلاقة مع النفس، فقد شمل النهي عن الإسراف ما يتعلق بالمشاعر الإنسانية من فرح وحزن، وخوف وغفلة ونحوها، وما يتعلق بالسلوك، مثل الطعام والشراب، واللباس والزينة، وطريقة المشي والكلام، وكان من أعجب ما ظهر في هذا المبحث أن النهي عن الإسراف في (البناء) لا يقل في حدته، وصرامته،

ووضوحه عما سواه من نهي عن الإسراف في الطعام، والشراب، والزينة، قال تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾[1].

وفي مجال العلاقة مع الآخرين شمل النهي عن الإسراف جوانب متعددة تتعلق بأحكام القتال، والقصاص، ورد الاعتداء، والثأر، وفيما يتعلق بهذه النقاط فقد ظهر أن علاقة المسلم إما أن تكون مع مسلم مثله، أو تكون مع غير المسلم، ففي مجال العلاقة مع المسلم يحث الشارع الكريم على الوقوف عند حد القصاص العادل دون تجاوز وإسراف، ويحيط السياق هذا الحكم بتلميحات حانية رحيمة إلى فضل العفو والتسامح، ووعد إلهي كريم بجزيل الثواب، قال تعالي: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾[2].

وفي مجال العلاقة مع غير المسلم تبرز فريضة (الجهاد)، التي أمر الله بها لتعلو عقيدة التوحيد على كل ما سواها، وقد مرت هذه الفريضة بمراحل متعددة، حتى انتهت إلى مرحلة أخيرة، وصورة نهائية مقررة إلى قيام الساعة، وهي إن الجهاد ليس فقط للدفاع، بل صار يعني الابتداء والطلب، وقتال جميع الكفار؛ ليكون الدين كله لله، وذلك في ضوء آداب القتال التي أَدَّبَ الدين أتباعه بها، وأمرهم بالتزامها، وقوامها الرحمة وعدم الظلم، فلا يقتلون الأطفال، ولا النساء، ولا الرهبان، ولا المرضى العاجزين، بل ولا الأجراء والفلاحين، ولا يمثلون، ولا يغلون، ولا يقاتلون من أعطوه العهد والميثاق، ولا يحرقون الأشجار، ولا يقتلون الحيوان لغير مصلحة[3]،

---

(١) سورة الشعراء ـ ١٢٨، ١٢٩.

(٢) سورة الشورى ـ الآيات من ٣٩ـ ٤٣.

(٣) القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ـ ١/ ٣٢٥، ٣٢٦، وانظر كذلك الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ =

فالمراد بـ(عدم الاعتداء) هنا ليس تعطيل فريضة الجهاد، بل الالتزام بآداب القتال التي سبقت الإشارة إليها.

تلا هذا القسم الآيات الناهية عن الإسراف في الإنفاق، وأدب الإنفاق في الإسلام قائم على إخلاص النية لله ـ عز وجل ـ في كل حال، والإنفاق إما أن يكون في مجال الصدقات ونحوها، أي في مجال (الطاعات) وإما أن يراد به النفقة على المعيشة والأهل، أي في مجال (المباحات) ففي الحالة الأولى يحدد الموقف ما هو مطلوب، فبعض المواقف تستدعي التوسط، وبعضها تستدعي الإنفاق الكثير دون أن يكون ذلك سرفاً، والمرجع في كل ذلك للحال، وأما في المعيشة اليومية والتمتع بالمباحات فالوسط هو ما يحث عليه الشارع الكريم، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾[1].

وفي القسم الثالث من مبحث العلاقة مع الآخرين، تمت دراسة الآيات التي تنهى عن الإسراف فيما يتعلق بالفروج، وتحث على التحصن، والطهارة، والبعد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبرز التعبير عن الانحرافات الأخلاقية بصيغة (الفاحشة) في غير موضع من القرآن الكريم.

وفي النهاية ختم هذا الباب بالآيات التي تنهى عن الإسراف بصورة شاملة، ويلاحظ أن هذه الآيات الكريمة تشترك في أنها تنبه العباد إلى أن الإسراف غريزة مركبة في النفس البشرية، قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾[2].

نسأل الله أن ينفعنا بما علمنا، وأن يجعله حجة لنا، لا حجة علينا، إنه على كل شيء قدير.

= المجلد ٣/ج٥/ ١٣٩.

(١) سورة الفرقان ـ ٦٧.

(٢) سورة الشمس ـ ٧، ٨.

الباب الرابع

دراسة فنية بيانية:

١ـ من الشعر الجاهلي .

٢ـ من القـرآن الكـــريم .

١ ـ من الشعر الجاهلي:

من المعروف أن شعر العصر الجاهلي كان مرآة صادقة لحياة قائليه، وديواناً لمفاخرهم ومآثرهم، وقد سجلوا فيه وقائعهم وأيامهم. والمتصفح للقصائد الجاهلية يلحظ براعتهم في (فن الوصف) في شتى المجالات، ومن تلك المجالات: (وصف الحرب) وقد سبق أن عرضنا في الباب الثاني ما كان عليه عرب الجاهلية من إسراف شديد في الحياة الحربية، فمن الطبيعي أن يبدو ذلك على أشعارهم، فوصفوا الحرب، فأجادوا، وعبروا عنها فأبدعوا، فترى في قصائدهم قطعاً فنية رائعة في تصوير الحرب، حين يرسم الشاعر منهم لوحات كاملة لساحات الوغى، ويحشد للوحته كل عناصر الصورة المؤثرة الموحية، من صوت، ولون، وحركة، مع توفر عنصري الزمان والمكان، أضف إلى ذلك الحرص الفني الرائع على استقصاء جوانب الصورة، والذي يستوقفنا من هذا كله ما يتعلق بجانب الإسراف، فإن انعكاس إسرافهم في الحرب على الشعر يظهر فيما سميناه: (الصور الدموية في الحرب)، ونحن لا نعني بالصورة هنا تلك التشبيهات والاستعارات ونحوها من الاستعمالات المجازية فقط، بل نعني بها اللوحة التي يقدمها لنا الشاعر، وما في تلك اللوحة من كائنات وأشياء، وما بينها من علاقات، تثير فينا إحساسات عميقة ومؤثرة، وهذا ما عبر عنه د. محمد غنيمي هلال بقوله: «إن الصورة لا تلتزم ضرورة أن تكون الألفاظ أو العبارات مجازية، فقد تكون العبارات حقيقية الاستعمال، وتكون مع ذلك دقيقة التصوير، دالة على خيال خصب»[١] ويمكن أن نسمي ذلك: (الصورة الشاملة)، «أي تلك الصورة التي لا تعتمد على شكل من أشكال المجاز، وتحقق مع ذلك شرط الاستحضار الحسي البارز؛ لثراء تفاصيلها، ودقة تركيبها، ولما فيها من استحضار للعناصر الواقعية، وإعادة تركيبها في مشهد لا يتكيء على المجاز، بل يجسد

---

(١) النقد الأدبي الحديث ـ ٤٣٢، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، د ط د ت.

الموقف بمجموعة ثرية من التفاصيل الحسية الصادقة»[1] وقد يرد في ثنايا هذه الصورة الشاملة (اللوحة) صور تقوم على التشبيهات والاستعارات، وهكذا ينسج الشاعر الصور الحقيقية مع الصور المجازية بفن وبراعة يحققان له دقة التصوير في لوحاته الشعرية، مع ما تحمله تلك الصور من إيحاءات تدل على عاطفة الشاعر وإحساسه بكل صدق وعفوية.

فالشاعر الجاهلي بارع في تصوير جثث القتلى المتناثرة، وضواري الصحراء تمزق ما بقي من أشلائهم، قال عنترة بن شداد:

وَكَمْ فَارِسٍ يَا عَبْلَ غَادَرْتُ ثَاوِياً ... يَعَضُّ عَلَى كَفَّيْهِ عَضَّةَ نَادِمِ
تُقَلِّبُهُ وَحْشُ الفَلَا وَتَنُوشُهُ ... مِنَ الجَوِّ أَسْرَابُ النُّسُورِ القَشَاعِمِ[2]

وقال المُفَضَّلُ النُّكْرِيُّ - وهي من المنصفات[3] -

كَأَنَّ هَزِيزَنَا[4] يَوْمَ التَقَيْنَا ... هَزِيزُ أَبَاءَةٍ[5] فِيهَا حَرِيقُ
بِكُلِّ قَرَارَةٍ[6] وَبِكُلِّ رِيعٍ[7] ... بَنَانُ فَتَى، وَجُمْجُمَةٌ فَلِيقُ
وَكَمْ مِنْ سَيِّدٍ مِنَّا وَمِنْهُمْ ... بِذِي الطَّرْفَاءِ[8] مَنْطِقُهُ شَهِيقُ

---

(١) صلاح فضل - علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته - ٣٦٢، ط٣، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، مطبوعات النادي الثقافي بجدة.

(٢) ديوانه - ص ١٩٠، القشعم: النسر المسن.

(٣) الأصمعيات - ص٢٠٢.

(٤) هزيزنا: الهزيز الصوت، وأصله صوت دوران الرحى، أو صوت حركة الريح.

(٥) الأباءة: أجمة القصب.

(٦) القرارة: المطمئن من الأرض.

(٧) الريع: المكان المرتفع.

(٨) ذو الطرفاء: موضع.

فَأَشْبَعْنَا السِّبَاعَ، وَأَشْبَعُوهَا فَرَاحَتْ كُلُّهَا تَئِقٌ[1] يَفُوقُ[2]
تَرَكْنَا العُرْجَ[3] عَاكِفَةً عَلَيْهِمْ وَلِلْغِرْبَانِ مِنْ شَبَعٍ نَغِيقُ[4]

صورة الحرب هنا هي صورة الحريق، وصورة الحريق تعطي اللون، والحركة، والصوت، فغبار المعركة القاتم مثل دخان الحريق القاتم، وأصوات المتحاربين المتداخلة والأجساد المتهاوية، وضربات السيوف المتلاحقة، والغبار الذي تثيره سنابك الخيل، فيجلل المشهد كله بالقتامة والرهبة، كل ذلك يذكر بالحريق، وأصوات ما تحطمه ألسنة اللهب المشتعلة، والألوان في كلتا الصورتين بينها تقارب، ففي الحرب وفي الحريق، هناك اللون الأسود، والأحمر، والأغبر، وفي النهاية ينجلي القتام عن الميدان، فماذا نرى؟ إنها الأشلاء، تملأ الوهاد والنجاد، تتناثر بكل قرارة وبكل ريع، فهنا بنان، وهناك جمجمة، وبين هذا وذاك يتناهى إلى السمع أنين الجرحى، وهم يعالجون سكرات الموت في رمقهم الأخير، وهاهي ذي ضواري الصحراء، من سباع، وضباع، وغربان، تتداعى إلى الوليمة الرهيبة، فتصيب منها ما تشاء، وتشبع حتى التخمة، وعندها ترتفع أصوات الغربان بنعيقها المشؤوم.

ومن ذلك أيضاً قول مالك بن نويرة[5]:

فَأَقْرَرْتُ عَيني حِينَ ظَلُّوا كَأَنَّهُمْ بِبَطْنِ الإِيَادِ[6] خُشْبُ أَثْلٍ[7] مُسَنَّدُ

---

(١) التَّئِقُ: الممتلىء.
(٢) يفوق: أخذه البهر.
(٣) العرج: الضباع.
(٤) نعيق: صوت صياح الغراب «اللسان ـ مادة نعق».
(٥) الأصمعيات ـ ١٩٤.
(٦) بطن الإياد: موضع بين الكوفة وفيد.
(٧) أثل: شجر الطرفاء له أصول غليظة.

صَرِيعٌ عَلَيْهِ الطَّيْرُ تَنْتِخُ[1] عَيْنَهُ وَآخَرُ مَكْبُولٌ[2] يَمِيلُ مُقَيَّدُ

الشاعر يذكر مصارع أعدائه بفخر ونشوة، والمشهد هنا يركز على نهاية المعركة، التي انجلت عن قتلى وأسرى، وصورة القتلى وجثثهم المتناثرة عُبِّرَ عنها بصورة أخشاب الأثل ذات الأصول الغليظة، يلي ذلك صورة دموية، ورغم عدم استعمال أي مجازات، فإن الصورة كانت دقيقة التصوير، بارعة في نقل الإحساس لنا، تلك هي صورة الطير وهي تنزع أعين القتلى، وما يضفي ذلك على المشهد من ظلال التشفي والشماتة. ومثل ذلك قول المُرَقِّش الأكبر[3]:

وَآخَرَ شَاصٍ تَرَى جِلْدَهُ كَقِشْرِ القَتَادَةِ[4] غِبَّ المَطَرْ
وَكَائِنْ بِجُمْرَانَ مِنْ مُزْعَفٍ[5] وَمِنْ رَجُلٍ وَجْهُهُ قَدْ عُفِرْ

الصورة هنا صورة القتلى الذين خلفتهم المعركة، فهذا شلو، وهذا قتيل قد انتفخ جلده كأنه قشر القتاد الذي ينتفخ بعد المطر، وهذا آخر معفر الوجه في التراب.

ويكثر في الشعر الجاهلي ذكر الأشلاء، والأوصال، والجماجم، ويقترن كل ذلك بذكر السباع، والضباع، والغربان، وما ذلك إلا صدى لإسرافهم الشديد في الحرب، قال المهلهل بن ربيعة[6]:

قَتَلُوا كُلَيْباً، ثُمَّ قَالُوا: أَرْتِعُوا كَذَبُوا، لَقَدْ مَنَعُوا الجِيَادَ رُتُوعَا[7]

---

(١) تنتخ: تنزع وتقلع.
(٢) مكبول: المقيد بالكبل وهو القيد.
(٣) المفضليات ـ ٢٣٦.
(٤) يشبه قتيلاً قد انتفخ جلده بشجر القتاد الذي إذا أصابه المطر انتفخت قشوره.
(٥) مزعف: الذي رمى أو ضرب فمات مكانه سريعًا (اللسان ـ مادة زعف).
(٦) ديوان ـ ص ٤٨.
(٧) الرتوع: أن ترعى كما تشاء.

حَتَّى نَرَى أَوْصَالَهُمْ[1] وَجَمَاجِماً مِنْهُمْ عَلَيْهَا الخَامِعَاتُ[2] وُقُوْعَا
وَنَرَى سِبَاعَ الطَّيْرِ[3] تَنْقُرُ أَعْيُناً وَتَجُرُّ أَعْضَاءً لَهُمْ وَضُلُوعَا

ويتلذذ عَامِرُ بن الطُّفَيْل بذكر برك الدماء، وتمزيق الأجساد، بل وبقربطون الحبالى، يتخلل ذلك النواح والعويل، حيث قال:

تَرَكْنَا دُورَهُمْ فِيْهَا دِمَاءٌ وَأَجْسَادٌ فَقَدْ ظَهَرَ العَوِيْلُ[4]

وقوله[5]:

بَقَرْنَا الحَبَالَى مِنْ شَنُوْءَةَ بَعْدَمَا خَبَطْنَ بِفَيْفِ الرِّيْحِ[6] نَهْداً وَخَثْعَمَا[7]

ومن أقسى المشاهد التي وردت في الشعر الجاهلي، مشهد القتيل وهو يعالج سكرات الموت، وبراعتهم في تصوير اختلاج جسده بالألم، وحركته وهو يقاوم الموت، وتند عنه أنات مكبوتة، وزفرات الرمق الأخير، وقد تخضبت يداه بدمائه المتدفقه من جراحه، والرمح ما يزال مغروساً في الجسد المختلج المسجى في بركة من الدماء، قال عَنْترة بن شَدَّاد[8]:

وَكَمْ مِنْ فَارِسٍ خَلَّيْتُ مُلْقَى خَضِيْبَ الرَّاحَتَيْنِ بِلَا خِضَابِ
يُحَرِّكُ رِجْلَهُ رُعْباً وَفِيْهِ سِنَانُ الرُّمْحِ يَلْمَعُ كَالشِّهَابِ
قَتَلْنَا مِنْهُمُ مِئَتَيْنِ حُرّاً وَأَلْفاً فِي الشِّعَابِ وَفِي الهِضَابِ

---

(١) الأوصال: جمع الوصل، وهو المفصل، أو كل عظم على حده.
(٢) الخامعات: الضباع.
(٣) سباع الطير: السبع من الطير كل ما له مخلب.
(٤) ديوانه ـ ص ٦٤.
(٥) المصدر نفسه ـ ص ٧٦.
(٦) فَيْف الريح: يوم من أيام العرب.
(٧) نَهْد وخَثْعَم وشَنُوءة: أسماء لقبائل عربية.
(٨) ديوانه ـ ص ٣٥.

وكما قال المهلهل بن ربيعة[1]:

وَأَنِّي قَدْ تَرَكْتُ بِوَارِدَاتٍ[2] بُجَيْراً[3] فِي دَمٍ مِثْلِ العَبِيْرِ
يَنُوْءُ بِصَدْرِهِ وَالرُّمْحُ فِيْهِ وَيَخْلُجُهُ[4] خِدَبٌ[5] كَالبَعِيْرِ

ولابد للعجب أن يزول حين نعرف أن ترك الرمح مغروساً في جسد القتيل من مفاخرهم، وهو ما يسمونه (الإِجْرَار)، وهو أن يطعن الرجلُ الرجلَ،ثم يترك الرمح فيه، فيمشي به وهو يجره؛ ليكون ذلك أعنت له[6] ويفاخرون بذلك في أشعارهم، ومنه قول الحادرة يفخر[7]:

وَنَقِي بِآمِنِ مَالِنَا أَحْسَابَنَا وَنَجُرُّ فِي الهَيْجَا الرِّمَاحَ وَنَدَّعِي

فالشاعر يفخر ويقول: نحن نجود بأفاضل أموالنا، ونقي بها أعراضنا، وفي ميادين الوغي نغرس رماحنا في أجساد الأعداء، ونتركها مغروسة فيهم، ثم ننتسب، فنقول: خذها وأنا ابن فلان، أو نحو ذلك.

ونلاحظ بعد القراءة المتأنية للأبيات السابقة، أن الحديث عن الحرب وأهوالها ومشاهدها يخلو من الخوف، ومن مشاعر الإحساس بالألم أو الذنب، بل تجد الجاهلي يفخر بهذه القسوة وبهذه الوحشية العنيفة، وقد لاحظ ذلك أحد الباحثين المعاصرين حيث قال: «كانت فكرة الحرب غريبة، كانت في نظر الجاهلي خالية من

---

(١) ديوانه ـ ص ٣٩، وانظر أمالي القالي ٢/ ٣١٦.
(٢) وَارِدَات: موضع بعينه عن يسار طريق مكة، وفيه جرت معركة بين تغلب وبكر، ويعد من أيام حرب البَسُوْس.
(٣) بُجَير: هو بُجَير بن الحَارِثِ بن عُبَاد فارس بَكْر.
(٤) يخلجه: يشغله ويتعبه.
(٥) خِدَبٌ: الشق العظيم من جراء ضربة سيف.
(٦) اللسان ـ مادة جرر.
(٧) المفضليات ـ ص ٤٥.

الدنس أو الإثم، هي الماء الذي يطهر الإنسان، تلك هي فلسفة الحرب، ليست معاكسة للإنسان مفروضة عليه، وإنما هي صدام من أجل الإنضاج لا من أجل الاحتراق، لقد استطاع الشاعر الجاهلي أن ينقي فكرة الحرب من الخوف والفزع والموت والشيطان. . لقد كان الشعار الروحي في العصر الجاهلي أن الحرب هي مفتاح الطهارة»[1] ولقد أثرت حياتهم الحربية بعمق في فنهم الشعري، «فالشعر الجاهلي لا ينفصل عن فكرة الحرب مهما يكن الموضوع الظاهر الذي يعرض له، ففي الأطلال هناك حرب غامضة أدت إلى العفاء على بعض آثار الديار، وسير الناقة يوحي بالخصومة والصراع، والوصف الطبيعي للإنسان في نظر الشاعر الجاهلي هو أنه حيوان محارب، ويوصف حمار الوحش حين يأوى للمبيت مثل اضطجاع الأسير الموثق في القيود[2]، وحتى المطر يبدو في مراحل عنفوانه حرباً أو كالحرب، فهو يفزع الحيوان من الجبال، فتنزل منه هاربة فزعة، ويقلب الأشجار العظيمة، ويكاد يقتلعها من جذورها[3].

---

(١) مصطفى ناصف ـ قراءة ثانية لشعرنا القديم ـ ١١٠، ١١٣، دار الأندلس، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(٢) من ذلك قول امرىء القيس يصف حمار الوحش:

فَبَاتَ عَلَى خَدٍّ أَحَمَّ وَمَنْكِبٍ ... وَضَجْعَتُهُ مِثْلُ الأَسِيْرِ المُكَرْدَسِ

المكردس: الموثق، ديوان ـ ص ٦٥.

(٣) من ذلك قول امرىء القيس:

وَمَرَّ عَلَى القَنَانِ مِنْ نَفْيَانِهِ ... فَأَنْزَلَ مِنْهُ العُصْمَ مِنْ كُلِّ مَنْزِلِ

وَتَيْمَاءَ لَمْ يَتْرُكْ بِهَا جِذْعَ نَخْلَةٍ ... وَلَا أُطُمًا إِلاَّ مَشِيْدًا بِجَنْدَلِ

ديوانه ـ ١١٨.

وقول لبيد بن ربيعة في المطر:

وَحَطَّ وُحُوْشَ صَاحَةً مِنْ ذُرَاهَا ... كَأَنَّ وُعُوْلَهَا رُمْكُ الجِمَالِ

فَبَاتَ السَّرْوُ يَرْكَبُ جَانِبَيْهِ ... مِنَ البَقَّارِ كَالعَمَدِ الثِّقَالِ

صَاحَة: اسم جبل، رُمْكُ الجِمَال: الجمال السود، السَّرو: نوع من الشجر، البقار: اسم موضع، العَمد الثِّقَال: العمد الثقيلة. انظر، ديوان لبيد بن ربيعة ـ ١٦٦، ١٦٧.

وكذلك نجد روح الحرب حتى في وصف الخمر، فهي حين تندفع من الإبريق تشبه باندفاع الدم من عرق مقطوع[1]، فالحرب في كل مكان في الشعر الجاهلي[2].

وهنا يحق لنا أن نتسأل: لماذا هذا العنف وهذه القسوة؟ إن عنف الجاهليين وحدتهم ليس إلا استجابة طبيعية لقسوة الحياة عليهم، في صحرائهم ذات الطبيعة القاسية، وفي مجتمعهم الذي لا يدين إلا للأقوياء، وما يسود ذلك من تنافس حاد على ما تجود به الصحراء القاسية من ماء ومرعى، «فهي حياة متطرفة لا تعرف التوسط، مندفعة تحتقر الاتزان، تأبي الهدوء وتظنه ضعفاً وقلة رجولة، وتلك كانت مُثُل أكثرهم، مُثُلٌ متطرفة جامحة»[3].

ومن الغرابة والطرافة في هذا الشاعر الجاهلي ما نلمس لديه من تقابل بين ذلك التطرف الحاد العنيف في الحرب، والتطرف الحاد العنيف في طلب الملذات، وكأن الحياة القاسية حين تجود بشيء من المتع القليلة، فإنه يبادر إلى تلك المتع، ويقبض عليها بعنف، ويندفع في التلذذ بها إلى أن يبلغ المرحلة القصوى التي تقترب فيها نشوة اللذة من لذعة الألم، بل إنهم ليجدون لذة قوية في تحمل ذلك الألم، وكأنهم بذلك ينتقمون من الألم ويقهرونه، ويثبتون انتصارهم عليه، بأن تقبلوه إلى نهايته، ثم كان لهم انتقام آخر، هو أن يقسوا في التشفي من أعدائهم، فيعاملوهم بلا رحمة، كما عاملتهم ظروف البيئة بلا رحمة، بل نستطيع أن نقول إن الحدة المسرفة كانت طابع

---

(١) من ذلك قول الأعشى:

وَإِذَا غَاضَتْ رَفَعْنَا زِقَّنَا ... طُلُقَ الأَوْدَاجِ فِيهَا فَانْفَسَحْ

أي: إذا انتهى زق، رفعنا إلينا زقًا جديدًا، نحل رباطه، فتندفع منه الخمر، كما يندفع الدم من الأوداج، ديوانه ص ٩٣.

(٢) مصطفى ناصف ـ المرجع السابق ـ ١١٣.

(٣) محمد النويهي ـ الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه ـ ١/ ٢٩٥.
الدار القومية للصباعة والنشر، القاهرة، ب ط و ب ت.

حياتهم بعامة، ولا يمكن تفسير ذلك إلا في ضوء فهمنا لمعتقداتهم عن الموت، فالشاعر الجاهلي كان يسكنه إحساس حاد عنيف بقصر الحياة، وحتمية الموت، وكان إحساساً زائد الحدة، يبلغ درجة العنف، وكانت طبيعتهم القاسية، ونظامهم الاقتصادي المضطرب، والصراع القبلي الدموي فيما بينهم، كل ما سبق عزز من ذلك الإحساس، فما كان أحدهم يأمن الموت في يوم من أيام حياته، بل ظل خطره ماثلاً نصب أعينهم دائماً، «فهم في مواجهة مستمرة مع الفناء، فكان رد الشاعر الجاهلي على ذلك» أن تطرف في تأكيد حياته الحاضرة، وتحدى ـ بقوته المفردة ـ صروف الدهر، وبذل كل ما في وسعه لاستنزاف كل قطرة من الحياة قبل أن تنتهي انتهاءها الأبدي»[1] وانعكس كل ذلك على الشعر، «فتجد الشاعر الجاهلي ينتقل فجاءة من وصف اللذة والبهجة، إلى وصف الموت والفناء، أو العكس، أو تجده يمزج في الأبيات القليلة بين البهجة والتشاؤم، والفرح والحزن، ويقنعنا ألا تناقض، فنفس الحقيقة التي تثير حزنهم وتشاؤمهم هي الحقيقة التي تدفعهم إلى تلذذهم العنيف بكل ملذات الحياة»[2]، ومن الأبيات التي تستوقف القاريء؛ لما فيها من تشبيه غريب، قول الحادرة يصف ندماء، واجتماعهم في مجلس تكتنفه الأشجار، وقد نالوا من الشراب غاية ما يتمنون، فتمددوا على الأرض، حيث يشبههم تشبيهاً غريباً، بقوله:

مُتَبَطِّحِيْـنَ عَلَـى الكَنِيْـفِ كَـأَنَّهُـمْ يَبْكُـوْنَ حَـوْلَ جِنَـازَةٍ لَـمْ تُـرْفَـعِ[3]

«فنحن أمام حالتين عظيمتي الاختلاف حتى التناقض، حالة الشاربين الذين استولت عليهم نشوة الخمر والملذات، وحالة الذين ثكلوا عزيزاً فاستولى عليهم

---

(١) محمد النويهي ـ المرجع نفسه ١/ ٤٢٦.

(٢) محمد النويهي ـ المرجع نفسه ١/ ٤٣٨.

(٣) المفضليات ـ ٤٦.

الألم الشديد، والعلاقة في ذلك أن الأضداد كثيراً ما تتلاقى، وأن اللذة والألم إذا وصل كلاهما إلى نهايته فما أشد شبهه بالآخر، حتى ليصعب علينا أن نميز، ألذة هو أم ألم؟! ففي كلتا الحالتين نجد أن أصحابه قد بلغوا قمة الشحذ والتوتر سواء من عنف اللذة أو من عنف الألم فبدا عليهم الشرود، والذهول، والانصعاق، والخدر، والجمود»[1]. وكذلك فالبيت يشير إلى أن فكرة الموت الرهيبة لا تزال كامنة في أعماقهم، والمتأمل في أشعارهم يلمح ذلك، ومن أوضح الأمثلة على ما ذكر قول متمم بن نويرة[2] في أبيات رائعة تتقابل فيها ذكريات الملذات الممتعة ومرارة الخوف من الموت والفناء، بل إنه ليفاجيء القاريء بهذا الانتقال الغريب من حديث الذكريات والملذات إلى حديث الموت الأليم، حيث يقول[3]:

وَلَقَدْ غَدوتُ عَلَى القَنيصِ[4] وَصَاحِبِي[5] نَهْدٌ[6] مَرَاكِلُهُ[7]، مِسَحٌّ[8]، جُرْشُعٌ[9]

وَلَقَدْ سَبقتُ العَاذِلاتِ بِشَرْبَةٍ رَيَّا[10]، وَرَاوُوقي[11] عَظِيمٌ مُتْرَعُ

---

(١) محمد النويهي ـ المرجع السابق ـ ص ٢٧٠ وانظر بتوسع شرح هذا البيت وما سبقه وما تلاه في هذا المرجع في فصل: «اللذه العنيفة، والألم العنيف».

الحادرة: لقب وأصله الحادر الضخم، واسمه: قطبة بن محصن بن جرول الغطفاني وهو شاعر جاهلي مقل.

المفضليات ـ ص ٤٣.

(٢) متمم بن نويرة بن جمرة بن شداد من مضر، أسلم، وقتل أخوه مالك في حروب الردة فرثاه بقصائد رائعة من غرر الشعر.

(٣) المفضليات ـ من ص ٤٨، ٥٣.

(٤) القنيص: الصيد.

(٥) صاحبي: يريد فرسه.

(٦) نهد: تام.

(٧) مراكله: جمع مركل، موضع رجل الفارس من جنب الفرس.

(٨) مسح: سريع العدو.

(٩) جرشع: غليظ منتفخ.

(١٠) شربة ريا: شربة خمر تروي صاحبها.

(١١) راووقي: باطية الخمر.

أَلْهُو بِهَا يَوْماً، وَأُلْهِي فِتْيَةً عَنْ بَثِّهِم[1] إِذْ أُلْبِسُوا وَتَقَنَّعُوا

يَالَهْفَ مِنْ عَرْفَاءَ[2]، ذَاتِ فَلِيْلَةٍ[3] جَاءَتْ إِلَيَّ عَلَى ثَلَاثٍ تَخْمَعُ[4]

ظَلَّتْ تُرَاصِدُنِي[5]، وَتَنْظُرُ حَوْلَهَا وَيُرِيْبُهَا رَمَقٌ، وَأَنِّي مُطْمِعُ[6]

وَتَظَلُّ تَنْشِطُنِي[7]، وَتُلْحِمُ أَجْرِياً[8] وَسْطَ العَرِيْنِ[9]، وَلَيْسَ حَيٌّ يَدْفَعُ

لَوْ كَانَ سَيْفِي بِاليَمِيْنِ ضَرِبْتُهَا عَنِّي، وَلَمْ أُوْكَلْ، وَجَنْبِي الأَضْيَعُ[10]

بعد ذكريات الصيد على ظهر ذلك الجواد الأصيل، وبعد ذكريات مجالس خمره، وأنسه وندمانه، يبدو الشاعر وكأنه يطلق صرخة رعب وخوف: (يالهف) صرخة يندب فيها نفسه من ذلك الموقف الرهيب الذي يتوقعه بعد موته، حين تبدأ الضباع في الاقتراب منه رغم أنه مايزال به رمق، وتظل ترصده وتراقبه، تنتظر لحظة موته، بل تنتظر أن يفقد قدرته على المقاومة نهائياً، عندها تشرع في نهش لحمه وهو مايزال حياً، وتطعم جراءها، هذه هي النهاية المريعة التي يتوقعها الجاهلي، ويحاول جاهداً أن يتناساها بالإغراق في ملذاته الحياتية، لعلها تخفف بعضاً مما يثور في نفسه من خوف وقلق وتوجس. ومن ذلك أيضاً قوله طرفة بن العبد في معلقته المشهورة:

أَلَا أَيُّهَذَا اللائِمِي أَحْضُرَ الوَغَى وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي؟

---

(١) بثهم: حزنهم.

(٢) عرفاء: لها عرف من الشعر في قفاها.

(٣) فليلة: قطعة من الشعر.

(٤) تخمع: تظلع، لأن الضبع عرجاء في خلقتها.

(٥) تراصدني: ترصده ليموت فتأكله.

(٦) أني مطمع: مرجو موتي.

(٧) تنشطني: تجذب لحمي.

(٨) تلحم أجريا: تطعم جراءها اللحم.

(٩) العرين: الأجمة.

(١٠) الأضيع: الضائع، لأنه لم يجد من يدافع عنه.

فَـإِنْ كُنْـتَ لاَ تَسْطِيْـعُ دَفْـعَ مَنِيَّتِـي فَـدَعْنِـي أُبَـادِرْهَـا بِمَـا مَلَكَـتْ يَـدِي
وَلَـوْلاَ ثَـلاَثٌ هُـنَّ مِـنْ عِيْشَـةِ الفَتَـى وجـــــدك... الأبيـــــات[1]

وقوله الذي يظهر فيه تقابل اللذة والموت:

كـريـمٌ يُـرَوِّي نَفْسَـهُ فِـي حَيَـاتِـهِ ستعلـمُ إِنْ متنـاغـداً أَيُّنَـا الصَّـدِي
أَرى قَبْـرَ نَحَّـامٍ بَخِيْـلٍ بِمَـالِـهِ كَقَبْـرِ غَـوِيٍّ فِـي البَطَـالَـةِ مُفْسِـدِ
أَرَى العَيْشَ كَنْزاً نَـاقِصـاً كُـلَّ لَيْلَـةٍ وَمَـا تُنْقِـصُ الأَيَـامُ وَالـدَّهْـرُ يَنْفَـدِ
لعمـرُكَ إِنَّ المـوتَ مَـا أَخْطَـأَ الفَتَـى لَكا لطُّوَلِ المُرْخَى، وَثِنْيَاهُ بِالْيَدِ[2]

ويأتي عَلْقَمَةُ بن عَبَدَة ليبدأ بالموت أولاً، فيرتاع قلبه من ذكراه، فيسارع إلى اغتراف الملذات، حيث قال:

بَـلْ كُـلُّ قَـوْمٍ وَإِنْ عَـزُّوا وَإِنْ كثـرُوا عَـرِيْفُهُـمْ بِـأَثَـا فِـي الشَّـرِّ مَـرْجُـوْمُ
وَكُـلُّ حِصْـنٍ وَإِنْ طَـالَـتْ سَـلاَمَتُـهُ عَلَـى دَعَـائِمِـهِ لاَبُـدَّ مَهْـدُوْمُ
قَدْ أَشْهَدُ الشَّرْبَ فِيْهِمْ مِزْهَرٌ رَنِمٌ وَالقومُ تَصْرَعُهُمْ صَهْبَاءُ خُرْطُوْمُ[3]

وهكذا انتقموا من الموت بالإقبال النهم على ملذات الحياة، بالشواء، والغناء، والنساء، وبالندامى، والخمور، والزهور، باللذة في كافة صورها، واستغرقوا في كل ذلك، وكأن هذا هو ردهم على شبح الموت المريع الماثل أمام أعينهم دائما.

---

(١) ديوانه ـ ص ٣١.

(٢) المصدر نفسه ـ ص ٣٥، ٣٦.

(٣) المفضليات ـ ص ٤٠٢.

عريفهم: رئيسهم، الشرب: جمع شارب.

مزهر: العود. رنم: مترنم.

صهباء: خمر من عصير عنب أبيض. خرطوم: أول ما ينزل منها صافية.

ومن أبرز الملذات التي انكبوا عليها بنهم وإسراف: (شرب الخمر)، وقد بدا ذلك جلياً في أشعارهم، ويظهر ذلك في الملامح الآتية:

١ـ البراعة في وصف الخمر، ووصف مجالسها:

وهي براعة تدل على شغف بها، واستغراق فيها، ولا أدل على ذلك من تعدد أسمائها، فهي المُعَتَّقة[١]، والخَنْدَريس[٢]، والمُدَام[٣]، والقَهْوة[٤]، والرَّاح[٥]، والرَّحِيق[٦]، والسُّلاف[٧] والقَرْقَفُ[٨]، والشَّمُول[٩]، والصَّهْباء[١٠]، والكميت[١١]، والسِّبَاء[١٢]، والمُشَعْشَعَة[١٣]. ويكثر في شعرهم كذلك ذكر آنيتها من دنان، وزقاق، وأباريق، وأقداح، وكؤوس[١٤]. وقد يأتي ذكرهم لهذه الأواني

---

(١) المعتقة: التي قد طال مكثها.

(٢) الخندريس: الخمر القديمة.

(٣) المدام: الخمر؛ لأنها داومت الظرف الذي انتبذت فيه.

(٤) القهوة: الخمر؛ لأنها تقهي عن الطعام والشراب أي: تذهب بشهوة المرء لهما، وتزهده فيهما. «اللسان ـ مادة قها».

(٥) الراح: الخمر؛ لأنها تكسب صاحبها الأريحية، أي: خفة العطاء.

(٦) الرحيق: الخمر الخالصة من الغش، الصافية، العتيقة.

(٧) السلاف: أصله من السلف، وهو المتقدم من كل شيء، وتطلق على أول ما يعصر من الخمر، وقيل هو ما سال من غير عصر، وسلافة كل شيء عصرته: أوله.

(٨) القرقف: الخمر؛ لأنها شاربها يقرقف إذا شربها، أي: يرعد.

(٩) الشمول: الخمر؛ لأن لها عصفة كعصفة الشمال، وقيل لأنها تشمل القوم بريحها.

(١٠) الصهباء: الخمر التي تعصر من العنب الأبيض.

(١١) الكميت: الخمر التي تضرب إلى السواد.

(١٢) السباء: المشتراة.

(١٣) المشعشة: الممزوجة.

انظر عن كل ما سبق: ابن الأجدابي ـ كفاية المتحفظ في اللغة ـ ٢٢١، النويري ـ نهاية الأرب في فنون الأدب ـ ٤/ ٨٦، ٨٧، ابن منظور ـ لسان العرب.

(١٤) النويري ـ نهاية الأرب في فنون الأدب ـ ٤/ ١٢١.

في صور شعرية لطيفة نابضة بالحياة، ومن أشهر الأمثلة على ذلك قول عَلْقَمة بن عَبَدَة في وصف الإبريق الذي شرب منه مع ندمائه:

كَأَنَّ إِبْرِيقَهُمْ ظَبْيٌ عَلَى شَرَفٍ مُفَدَّمٌ بِسَبَا الكَتَّانِ مَرْثُومُ[1]

وهو تشبيه بديع، وقد لمح القدماء ما فيه من جمال، مثل: المبرد، حيث قال: «ومن التشبيه المستحسن قول علقمة بن عبدة: كأن إبريقهم.. البيت فهذا حسن جداً[2]»، وامتد الإعجاب بهذا التشبيه إلى الشعراء في العصور التالية، بل لقد تأثروا به في تشبيههم لأباريقهم، من ذلك قول ابن المعتز:

وَكَأَنَّ إِبْرِيقَ المُدَامِ لَدَيْهِمُ ظَبْيٌ عَلَى شَرَفٍ أَنَافَ مُدَلَّهَا

وقال إسحاق الموصلي:

كَأَنَّ إِبْرِيقَ المُدَامِ لَدَيْهِمُ ظِبَاءٌ بِأَعْلَى الرَّقْمَتَيْنِ قِيَامُ[3]

وحين نعود إلى بيت علقمة السابق الذكر نجد أن الشاعر قد بث الحياة في الإبريق، فلم يعد مجرد إناء جامد مصنوع من معدن، بل كاد يصير مخلوقاً حياً بالغ الرشاقة والظرف، حيث قرن التشبيه الرائع بين صورة الإبريق وصورة الظبي، فلكليهما الجسم الأبيض نفسه الذي يلمع تحت أشعة الشمس، وتداعبه الريح المنطلقة، والانتصابة الفاتنة المليئة بالظرف والخفة والرشاقة، والتقويس البديع لفوهة الإبريق الممتدة نراها في جيد الظبي الممتد الرشيق، ويد الإبريق المعقوفة اللطيفة تراها في الذيل القصير المنحني الذي ينتهي به جسم الظبي، والتشبيه لا يقتصر على نقل أوجه الشبه بين الصورتين، بل إنه ليحمل لنا ما هو أهم، ألا وهي عاطفة

---

(١) المفضليات ـ ٤٠٢ شرف: المكان المرتفع، مفدم: خرقة يشدها الغلام على فيه إذا أراد أن يسقي القوم، سباالكتان: قطعة من الكتان، مرثوم: الذي رثم أنفه، أي كسر.

(٢) الكامل في اللغة والأدب ـ ٢/ ٤٧.

(٣) النويري ـ المصدر السابق ـ ٤/ ١٢٣، ١٢٤.

الشاعر الشغوفة بالإبريق، وبما في الإبريق، فالتشبيه حمل لنا إحساس الشاعر بالحب والافتنان بهذا الإبريق حتى خيل للشاعر أن الإبريق قد صار مخلوقاً حياً يقف على رابية تحت ضوء الشمس الساطع، ونسمات الهواء الطلقة، طرباً جذلاً منتشياً، يمد جيده الطويل الرشيق في تشوف وفضول[1]، لقد بث الشاعر الحياة في إبريقه الظريف.

٢ـ لقد وردت في أشعار الجاهليين تراكيب لفظية تدل على ما أسلفنا من إسرافهم في الخمر، أي أن اللفظ ينطق بما كانوا عليه من انكباب نهم على الخمور.

من ذلك قول الأعشى[2]:

وَصَهْبَاءَ طَافَ يَهُودِيُّهَا ... وَأَبْرَزَهَا وَعَلَيْهَا خُتُمْ
تَمَزَّزْتُهَا غَيْرَ مُسْتَدْبِرٍ ... عَنِ الشَّرْبِ أَوْ مُنْكِرٍ مَا عُلِمْ

فكلمة: (تمززتها) تدل على الشرب المتأني الحريص على التلذذ بكل رشفة؛ لأن التمزز هو: تمصص الشراب قليلاً قليلاً[3].

ومن الألفاظ الدالة كذلك على ذلك الإسراف، قول طرفة:

وَمَازَالَ تَشْرَابِي الخُمورَ وَلَذَّتِي ... وَبَيْعِي وَإِنْفَاقِي طَرِيفِي وَمُتْلَدِي

«فكلمة: (تَشْراب) تفعال من الشرب، ويكون للشرب الكثير، أي أنه تكثير للمصدر، كقولك في الهدر: التهدار، واللعب: التلعاب، وفي الصفق: التصفاق، وفي الرد: الترداد»[4].

---

(١) محمد النويهي ـ الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه ـ ١/ ١١٣، ١٢٠.

(٢) ديوانه ـ ٣١٢ صهباء: الخمر، تمززتها: تمصصتها قليلاً قليلا.

(٣) لسان العرب ـ مزز، ابن فارس ـ معجم مقاييس اللغة ـ ٩٦٤.

(٤) أبو زكريا، يحيى بن علي التبريزي(ت٥٠٢هـ) شرح القصائد العشر ـ ١٠١ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢ ـ ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

ويلحق بذلك أيضاً الألفاظ التي تدل على طلب الاستزادة، من ذلك ما يرد في أشعارهم من أمثال: (اسقني، هات) قال عنترة[1]:

أَلَا إِنَّهَا نِعْمَ الدَّوَاءُ لِشَارِبٍ ... أَلَا فَاسْقِنِيهَا قَبْلَ مَا أَنْتَ تَخْرُجُ

وقول الأعشى يصف ندماءه[2]:

لَا يَسْتَفِيقُونَ مِنْهَا ـ وَهْيَ رَاهِنَةٌ ـ ... إِلَّا بِـ(هَاتِ) وَإِنْ عَلُّوا وَإِنْ نَهِلُوا

٣ـ شغفهم الشديد بمذاق الخمر انعكس على الصور الذوقية[3] في أشعارهم، فحين يشبه مذاقاً ما فإن خيال الشاعر يستدعي كثيراً مذاق الخمر، من ذلك قول امريء القيس الكندي يتغزل[4]:

فَتُورُ القِيَامِ، قَطِيعُ الكَلَامِ ... تَفْتَرُّ عَنْ ذِي غُرُوبٍ خَصِرْ

كَأَنَّ المُدَامَ، وَصَوْبَ الغَمَامِ ... وَرِيحَ الخُزَامَى، وَنَشْرَ القُطُرْ

يُعَلُّ بِهِ بَرْدُ أَنْيَابِهَا ... إِذَا طَرَّبَ الطَّائِرُ المُسْتَحِرْ

وقول مَالِك بن حَرِيم[5]:

كَأَنَّ جَنَا الكَافُورِ والمسكِ خالصاً ... وَبَرْدَ النَّدَى والأُقْحُوانَ المُنَزَّعَا

وَقَلْتاً قَرَتْ فِيهِ السَّحَابَةُ مَاءَهَا ... بِأَنْيَابِهَا، وَالفَارِسِيَّ المُشَعْشَعَا

---

(١) ديوانه ـ ص٤٢.

(٢) ديوانه ـ ٢٨٤ راهنة: معدة، النهل: الشرب الأول، العلل: الشرب الثاني.

(٣) الصورة عند الشاعر الجاهلي على أنواع: بصرية، سمعية، ذوقية، لمسية، شمية، انظر: د. نصرت عبدالرحمن ـ الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث ـ ١٩٠، ١٩٣.

(٤) ديوانه ـ ٥٩ تفتر عن ذي غروب: تبتسم عن ثغر جميل حسن الأسنان.
خصر: عذب بارد، المدام: الخمر، صوب الغمام: ماء السحاب، نشر القطر: ريح عود البخور.
يعل: يسقى مرة بعد أخرى، طرّب الطائر: صاح، المستحر: الذي يصيح بالسحر وهو الديك.

(٥) الأصمعيات ـ ٦٣، الأقحوان: نبت له نور أبيض.
القلت: النقرة في الجبل تمسك الماء، قرت: جمعت.
الفارسي المشعشعا: الخمر المنسوب إلى فارس، الممزوج بالماء.

وقول الأسود بن يعفر النهشلي[1]:

كَـأَنَّ رِيقَتَهَـا بَعْـدَ الكَـرى اغتَبَقَـتْ صِرْفاً تَخَيَّرَهَا الحانُون خُرْطُوما
سُـلَافَـةَ الـدَّنِّ مَـرْفُـوعـاً نَصَـائِبُـهُ مُقَلَّـدَ الفَغْـوِ والـرَّيْحَـانِ مَلْثُـوَمَـا

وخلاصة القول بعد كل ما سبق أن الجاهليين بقدر تطرفهم وإسرافهم في الحرب كان تطرفهم وإسرافهم في الملذات، وأبرزها: (الخمر)، أي أنهم تطرفوا في الألم وفي اللذة، والألم في حياتهم كان قدراً يعايشونه كل يوم، فتحدوا هذا الألم المتطرف المسرف باللذة المتطرفة المسرفة، ولذا نراهم في أشعارهم ينتقلون فجأة من حديث الحرب والألم، إلى حديث الملذات واللهو، بل قد يجمعون النقيضين في بيت واحد:

قُوْمِي اصْبِحِيْنِي فَمَا صِيْغَ الفَتَى حَجَراً لَكِـنْ رهينـة أحجـارٍ وَأَرْمَـاسِ[2]

وقول طرفة[3]:

أَلَا أيُّهَـذا الـلائِمـي أحضُـرُ الـوَغَـى وَأَنْ أَشْهَدَ اللذاتِ، هَلْ أَنْتَ مُخلدي؟
فـإنْ كنـتَ لا تسطيـعُ دَفْـعَ مَنِيَّتِـي فـدعْنِـي أُبَـادِرْهَـا بِمَـا مَلَكَـتْ يَـدِي

كانت هذه هي فلسفتهم، فلسفة حزينة متشائمة، وإحساس رهيب غامض بقصر الحياة، ولا عجب أن تكون تلك فلسفتهم في بيئة يحكمها قانون الحرب، ويسود عقلية أهلها إنكار البعث بعد الموت، فقد كانوا يرون أن الموت نهايتهم الأبدية، وهذا مادل عليه صريح القرآن في غير موضع، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ

---

(١) المفضليات ـ ٤١٨، صرفًا: مالم يمزج، الحانون، جمع حان، وهو الخمار.
خرطوم: أول ما ينزل من الدن، نصائبه: ماينصب عليه الدن، الفغو: نبات طيب الرائحة، ملثوم: شد عليه اللثام.

(٢) أحمد الحوفي ـ الحياة العربية من الشعر الجاهلي ـ ٤٣٨، الصبوح: شرب الخمر صباحًا.

(٣) ديوانه ـ ٣١، ٣٢.

إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1] وقوله عز وجل: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾[2]

وقوله ـ عز من قائل: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾[3].

هذه الآيات، وسواها تدل على عقيدتهم في إنكار البعث والجزاء، وبناء على هذا الاعتقاد رأوا أن الاغتراف النهم من الملذات هو سبيلهم الوحيد للتمتع بالحياة، فأقبلوا إقبالاً عنيفاً على ملذات الحياة العاجلة، من خمر خالصة، ونساء نواعم، وركوب على الجياد الأصيلة، والنوق النجيبة تقطع بهم الأودية والقفار، وتجوب بهم مهامه الصحراء، وفيافيها طلباً للنجعة، أو للصيد، أو سوى ذلك من الأسباب، ورغم كل ذلك يظل هاتف قوي يرن في آذانهم:

فَإِذَا النَّعِيمُ وَكُلُّ مَا يُلْهَى بِهِ ... يَوْماً يَصِيرُ إِلَى بِلَى وَنَفَادِ[4]

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

---

(١) سورة الأنعام ـ ٢٩.

(٢) سورة النحل ـ ٣٨. ومن الجدير بالذكر أنه رغم وجود أقلية يظهر من أشعارها الإيمان بالبعث، مثل زهير بن أبي سلمى، والأعشى، وأمية بن إبي الصلت، إلا أن الأغلبية كانوا ينكرون البعث. انظر: جواد علي ـ تاريخ العرب قبل الإسلام ـ ٦/ ١٢٣، ١٣٥.

(٣) سورة الدخان ـ الآيات من ٣٤ـ ٣٦.

(٤) المفضليات ـ من أبيات للأسود بن يعفر النهشلي ـ ٢١٧.

دراسة فنية بيانية للنهي عن الإسراف في القرآن الكريم:

١ـ مفهوم النهي لغة واصطلاحاً.

٢ـ الأنواع الأسلوبية للنهي عن الإسراف في القرآن:

أـ النهي الصريح:

وهو قسمان: نحوي، ومعجمي.

ب ـ النهي الضمني.

وأظهر أساليبه: ـ أسلوب الوعيد والتهديد.

ـ أسلوب الحث على التوازن.

ـ أسلوب عرض المناذج المسرفة.

ـ قصص الأمم المسرفة.

٣ـ تنوع أساليب النهي عن الإسراف في السياق القرآني.

من خلال دراستنا للآيات القرآنية الكريمة التي تناولت ظاهرة الإسراف، وجدنا أنها ترسخ المرة تلو المرة تنفير المؤمن من هذا السلوك الذي لا يرضاه الله عز وجل لعباده المؤمنين، فهي تنهى عن الإسراف، وتتنوع الأساليب القرآنية في استخدام أسلوب النهي عن الإسراف، فتارة يأتي صريحاً مباشراً في نهيه، ويقترن ذلك باستخدام الصيغة المباشرة للإسراف: «لا تسرفوا» وتارة يأتي النهي صريحاً مباشراً كذلك ولكن باستخدام صيغة غير مباشرة للإسراف. مثل: «لا تغلوا»، «لاتطغوا»، «لا تعتدوا». وتارة يأتي النهي ضمنياً، أي أنه يفهم بواسطة المضمون الأسلوبي للتركيب. وقبل أن نسترسل في شرح هذه النقاط. نقف قليلاً عند المراد بأسلوب النهي.

أولاً ـ مفهوم النهي لغة واصطلاحاً:

النهي في اللغة مصدر نهى، إذا زجره وكفه.

وفي اصطلاح البلاغيين هو: المنع من الفعل بقول مخصوص مع علو الرتبة، وصيغته: «لاتفعل»، وهي حقيقة في التحريم، أي أنه طلب الكف عن الفعل استعلاء، وقد يخرج النهي عن دلالته الأصلية، فيفيد معاني بلاغية متنوعة تفهم من السياق، وقد أشار العلماء إلى تلك المعاني البلاغية التي يخرج إليها أسلوب النهي[1].

---

(١) ينظر بتوسع عن دلالة النهي وما يخرج إليه من معان بلاغية إلى:
ـ يوسف الأنصاري ـ أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم ـ من ٢٧٣إلى ٣٣٤.
ـ ابن الشجري ـ الأمالي ـ ١/ ٤١٤، ٤١٥.
ـ القزويني «جلال الدين بن سعدالدين بن محمد القزويني» ـ الإيضاح ـ ١٤٣، دار إحياء العلوم بيروت، لبنان ط٢ ١٤١٢هـ/ ١٩٩٣م.
ـ جلال الدين السيوطي، ٨٤٩هـ ـ ٩١١هـ، الإتقان ـ ٢/ ٨٢، دار الفكر للطباعة والنشر د ط، د ت.
ـ لسان العرب ـ مادة نهى.

=

ثانياً ـ الأنواع الأسلوبية للنهي عن الإسراف في القرآن الكريم:

إن مجال بحثنا يتعلق بـ(النهي عن الإسراف في القرآن الكريم)، وقد جاء هذا النهي عن الإسراف إما صريحاً، وإما ضمنياً دلالياً، وينقسم النهي الصريح عن الإسراف إلى قسمين، هما:

١ـ نهي نحوي عن الإسراف.

٢ـ نهي معجمي عن الإسراف.

والمقصود بالنهي النحوي عن الإسراف: أن يكون بواسطة (لا) الناهية الداخلة على الفعل المضارع.

والمراد بالنهي المعجمي عن الإسراف: أن يكون بواسطة المعنى المفرد، وذلك يرجع إلى ظاهرة معجمية تأخذ مصطلح: (الحقول المعجمية)، حيث تقسم المعاجم إلى حقول من المعاني المتقاربة الدلالة. فنجد مثلاً طوائف من المعاني المتنوعة عن الإسراف وإن جرى التعبير عنها بلفظ آخر، مثل: فحش، فجر، طغى، بغى، عدا... إلخ.

ويعرف ذلك بـ(نظرية الحقول الدلالية)، حيث يعرف الحقل المعجمي أو الدلالي بأنه مجموعة من الكلمات التي ترتبط دلالالتها، وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها[١].

ويلاحظ أن كلمات كل حقل دلالي يجمعها (التقارب الدلالي)، ويتحقق ذلك

= ـ عبدالعزيز عتيق ـ علم المعاني ـ ٨٣، دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
بيروت، لبنان ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ب ط.

(١) أحمد مختار عمر ـ علم الدلالة ـ ٧٩، ط٣، ١٩٩٢م.
عالم الكتب، القاهرة.

حين تتقارب معاني تلك الكلمات، ولكن يختلف كل لفظ عن الآخر بملمح واحد على الأقل[1].

وبين كلمات كل حقل دلالي أنواع من العلاقات، وتنضوي هذه العلاقات في أي حقل معجمي تحت الترادف، أو الاشتمال، أو التضمين أو التضاد، ونحو ذلك من العلاقات[2].

وأما القسيم المقابل للنهي الصريح عن الإسراف، فهو:

النهي الأسلوبي الضمني عن الإسراف:

وهو أوسع دلالة من سابقيه، فهذا النوع لا يعتمد على الصيغة النحوية الصريحة للنهي وهي: (لا تفعل). ولا يعتمد كذلك على المعنى المعجمي المفرد للنهي عن الإسراف، بل إنه يفهم بواسطة المضمون الأسلوبي للتركيب[3]

ويمكن توضيح هذا التقسيم للنهي عن الإسراف بالشكل التالي:

---

(١) أحمد مختار عمر ـ المرجع نفسه ـ ٢٢١.

(٢) أحمد مختار عمر ـ المرجع نفسه ـ ٦٨.

(٣) هذا التقسيم الآنف الذكر لأسلوب النهى ورد عند د. تمام حسان مطبقًا على أسلوب النفي، ومن خلال مقارنتي بين التقسيمات التي أوردها د. تمام للنفي بين صريح وضمني والصريح إلى نحوي ومعجمي، وبين الآيات القرآنية الكريمة التي قمت بجمعها ودراستها، وجدت أنه من الممكن تطبيق التقسيم نفسه على أسلوب النهي عن الإسراف، انظر: تمام حسان ـ البيان في روائع القرآن «دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني» ص ٥٣٩ـ ٤٤٥. عالم الكتب، القاهرة ١٤١٣هـ، ٣٩٩١م، ط١.

النهي عن الإسراف في القرآن الكريم

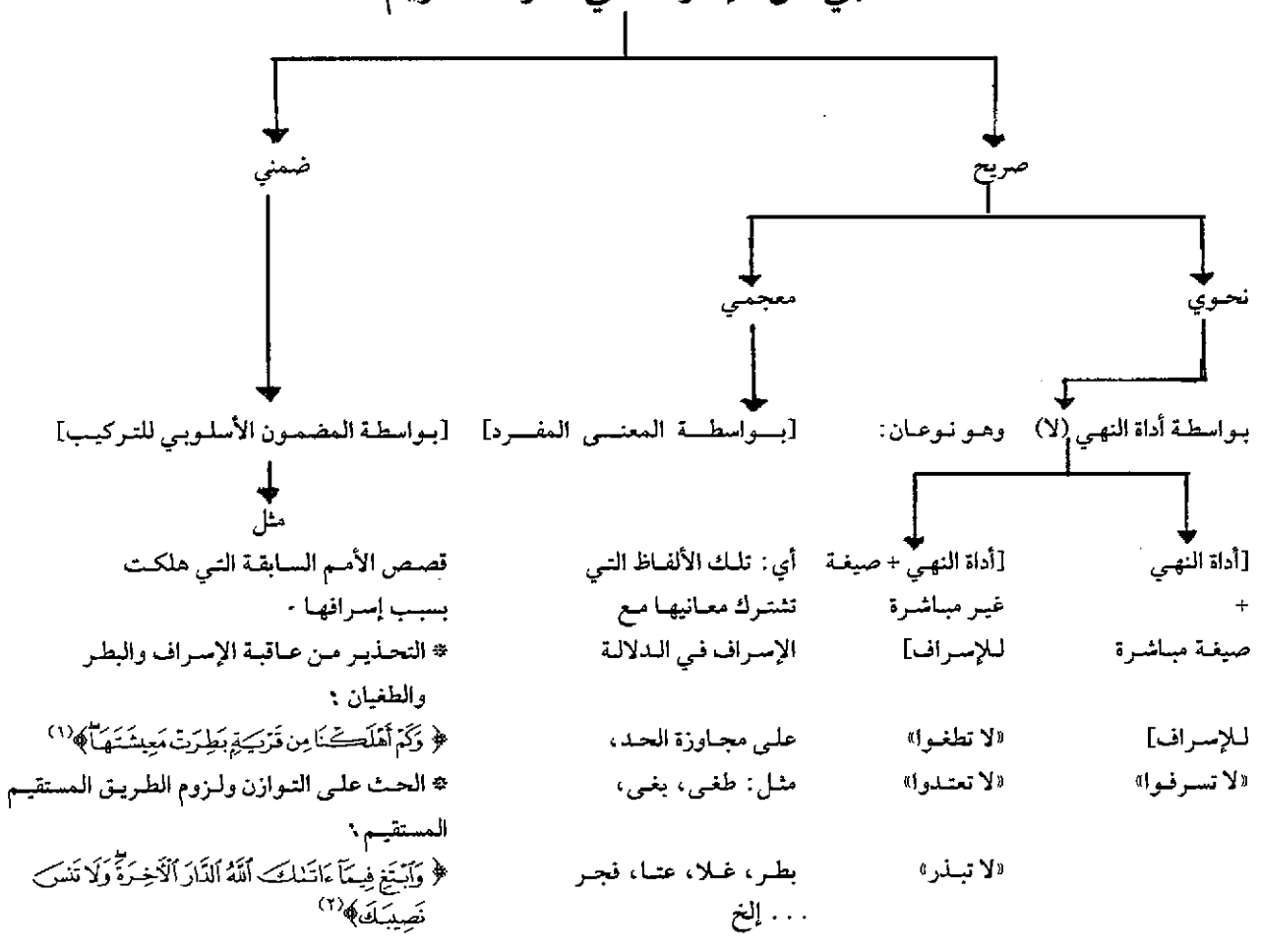

ومما يدعم هذا الرأي الذي ذهبنا إليه فيما يتعلق بصيغة النهي عن الإسراف في القرآن الكريم، وخاصة الجزء المتعلق بـ(النهي الضمني الأسلوبي عن الإسراف) ما ذكره ابن الشجري(٣) من أن النهي قد يأتي بلفظ الوعيد، أي أن السياق لم ترد فيه صيغة صريحة للنهي، وإنما فهم النهي من خلال الوعيد المذكور في الآية، ودَلَّلَ على ذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾(٤)، وذكر ابن الشجري أيضاً أن النهي يأتي بلفظ النفي، ومثل لذلك بقوله تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾(٥) أي لا تكرهوا في الدين، وقوله عز وجل: ﴿ ذَٰلِكَ

---

(١) سورة القصص ـ ٥٨.

(٢) سورة القصص ـ ٧٧.

(٣) أمالي ابن الشجري ـ ١/ ٤١٥.

(٤) سورة النساء ـ ١٠.

(٥) سورة البقرة ـ ٢٥٦.

﴿ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[1] أي: لا ترتابوا فيه، وأضاف إلى ذلك أن النهي يأتي بلفظ الخبر، مثل قوله سبحانه: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾[2] ومعناه: لا يلهكم التكاثر، وقوله عز من قائل: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[3] أي: لا تغلوا[4]، ومن الأمثلة التي ذكرها ابن الشجري على مجيء الخبر بمعنى النهي كذلك قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾[5] أي: لا تعودوا[6]. وقد ذكر العلماء أن السر في التعبير بالخبر عن النهي يكون في المقام الذي يقتضي مزيد اعتناء بالمنهي عنه، فهو أبلغ من صريح النهي[7]؛ لأنه ـ كما يقول الزمخشري ـ كأنه سورع إلى الامتثال، فهو يخبر عنه[8]، وقد ذكر ذلك السيوطي، وبَيَّنَ أن إطلاق الخبر على النهي يكون للمبالغة في الحث على المسارعة فيه والامتثال كأنه سورع فيه إلى الامتثال فأخبر عنه[9].

ويتبع ما سبق مجيء النهي بصيغة الاستفهام[10]، مثل قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾[11] أي: لا تغتر، وقوله سبحانه: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾[12] أي: لا تخشوهم، وقد ذكر ابن الشجري[13] هذا النوع، ومثّل له

---

(١) سورة البقرة ـ ٢.
(٢) سورة التكاثر ـ ١.
(٣) سورة آل عمران ـ ١٦١.
(٤) ابن الشجري ـ المصدر السابق ـ ١/ ٤١٦.
(٥) سورة النور ـ ١٧.
(٦) أمالي ابن الشجري ـ ١/ ٣٩٣.
(٧) يوسف الأنصاري ـ أساليب الأمر والنهي في القرآن وأسرارها البلاغية ـ ٣٩٧.
(٨) الكشاف ـ ٢/ ٢٩٣.
(٩) الإتقان ـ ٢/ ٣٩٩.
(١٠) يوسف الأنصاري ـ المرجع السابق ـ ٣٩٩.
(١١) سورة الانفطار ـ ٦.
(١٢) سورة التوبة ـ ١٣.
(١٣) أمالي ابن الشجري ـ ١/ ٤٠٣.

ببعض الأبيات الشعرية، ومنها قول امريء القيس:

قُـــوْلا لِـــدُوْدَانَ عَبِيْـــدِ العَصَـــا مَـــا غَـــرَّكُـــمْ بِـــالأَسَـــدِ البَـــاسِـــلِ[1]

أي: لاتغتروا.

بل لقد ذكر ابن الشجري أن هناك من العلماء من يرى أن النهي داخل في حيز الأمر، أي: مجيء النهي بصيغة الأمر، «لأنك إذا أمرته بشيء فكأنك نهيته عن نقيضه، فإذا قلت: ارحل، فكأنك قلت: لا تقم، وإذا قلت: صم فكأنك قلت: لا تفطر»[2].

كل هذه الأساليب السابقة وهي: مجيء النهي بلفظ الوعيد.

ومجيء النهي بلفظ النفي.

ومجيء النهي بلفظ الخبر.

ومجيء النهي بلفظ الاستفهام.

ومجيء النهي بلفظ الأمر.

كلها يمكن أن تدخل ضمن ما سبق أن أشرنا إليه بـ«النهي الأسلوبي الضمني» وهذا لا يعني أنه ـ أي النهي الضمني ـ مقتصر على هذه الفروع فقط، بل إنه أوسع وأشمل من ذلك. أما بالنسبة للفرع الثاني من النهي الصريح، وهو النهي المعجمي بواسطة المعنى المفرد، فقد نبه ابن الشجري إليه[3]، ومثل له بقوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ

---

(١) ديوانه ـ ١٣١ «شرح وتقديم: عمر فاروق الطباع».

دودان: من بطون بني أسد الذين قتلوا أباه، عبيد العصا: قوم أذلاء يساقون بالعصا، وقد كان هذا اللقب ملازمًا لهم.

الأسد الباسل: يريد نفسه.

(٢) أمالي ابن الشجري ـ ١/ ٤٢٤.

(٣) المصدر السابق ـ ١/ ٤١٥.

عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾[1] و ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾[2]، فهناك أساليب خبرية في اللفظ، إنشائية في المعنى، أي تفيد النهي، مثل: نَهَى، حَرَّمَ، لا يحل لكم[3].

بعد هذا العرض السابق لأسلوب النهي بصورة عامة، سنحاول أن نطبق ذلك على نماذج من الآيات موضع الدراسة، وبالله التوفيق.

ونبدأ بالآيات الخاصة بالقسم الأول:

النهي الصريح عن الإسراف في القرآن الكريم:

أولاً: النهي النحوي: وهو القسم الذي يتميز بوجود أداة النهي (لا) في الآية، ويتفرع منه نوعان:

الأول: هو النوع الذي تقترن فيه أداة النهي بالصيغة المباشرة (سرف)، ومن أمثلة هذا النوع الآيات التالية:

قال تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾[4].

وقال عز وجل: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١﴾[5].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا

---

(١) سورة النساء ـ ٢٣.

(٢) سورة المائدة ـ ٣.

(٣) يوسف الأنصاري ـ أساليب الأمر والنهي في القرآن وأسرارها البلاغية ـ ٣٩٨.

(٤) سورة الأعراف ـ ٣١.

(٥) سورة الأنعام ـ ١٤١.

لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾﴾[1].

الثاني: هو النوع الذي تقترن فيه أداة النهي بالصيغة غير المباشرة للإسراف، من أمثلة هذا النوع الآيات التالية:

قال تعالي: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾[2]

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾[3].

وقوله سبحانه: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾[4].

وقوله عز وجل: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾[5]

وقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾﴾[6].

وقال عز وجل: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾[7].

ويمكن أن يلحق بهذا النوع «النهي عن طاعة المسرفين» مثل: قول الله تعالى:

---

(١) سورة الإسراء ـ ٣٣.

(٢) سورة هود ـ ١١٢.

(٣) سورة المائدة ـ ٨٧.

(٤) سورة البقرة ـ ١٩٠.

(٥) سورة الإسراء ـ ٢٦.

(٦) سورة النساء ـ ١٧١.

(٧) سورة الرحمن ـ ٧، ٨.

﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾[1].

وقوله عز وجل: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾[2]. ومثله (النهي عن القرب) وهو أبلغ من النهي عن الفعل المرغوب عنه؛ لأنه ينهاه عن مجرد القرب، وهذا أبلغ وأشد تحذيراً وتنبيها، من ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾[3].

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[4] ومن ذلك أيضاً (النهي عن الفرح)؛ لأن المتأمل في الآيات القرآنية التي وردت فيها هذه الصيغة، يجد أنها في معرض الذم أو النهي، ولم ترد في سياق يدل على الاستحسان إلا حين تكون متعلقة بالفرح الحقيقي الدائم المرتبط بدين الله ونصرته، والثواب على ذلك[5]، وهذا لايعني أن الدين ينهى عن الشعور بالسرور والغبطة للنعماء، وإنما

---

(١) سورة الشعراء ـ ١٥١.

(٢) سورة الكهف ـ ٢٨.

(٣) سورة الأنعام ـ ١٥١.

(٤) سورة الإسراء ـ ٣٢.

(٥) من ذلك قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ سورة الروم ـ الآيات من ١ ـ ٥، فرح المؤمنون بنصر الروم أهل الكتاب؛ لأن فيه بشارة لهم بالنصر، انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ـ ٣/ ٦٧٩، ومن ذلك قوله عزوجل: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ آل عمران ـ ١٧٠ وهذه الآية تتحدث عن الشهداء وعطاء الله العظيم =

النهي منصرف إلى ذلك الفرح الذي يملك على النفس أقطارها، ويُخْرِجُ المرءَ إلى البطر، والأشر، وجحود نعمة الله تعالى، وقارون أبرز مثال على ذلك، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾[1]. وقال عز وجل: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾[2].

ومن الآيات القرآنية التي اشتملت على النواهي الصريحة عن سلوكيات مسرفة، قوله تعالى:

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[3].

وقوله عز وجل: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾[4] وبنظرة عامة على آيات هذا النوع ـ بفرعيه ـ نجد أن هذه النواهي الصريحة قد جاءت بكثرة في مقامات التشريع والآداب والأخلاق[5].

ثانياً: النهي المعجمي عن الإسراف:

وهو ذلك النوع الذي لا ترد فيه أداة النهي (لا)، ولا الصيغة المباشرة

= لهم، ومن قوله سبحانه: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ سورة يونس ـ ٥٨، وهي ترشد العباد إلى أن الفرح الحقيقي لايكون بحطام الدنيا الفانية، بل يكون بالهدى ودين الحق المرسل من الله، انظر: ابن كثير ٢٥/ ٦٥.

(١) سورة القصص ـ ٧٦.

(٢) سورة الحديد ـ ٢٣ «من معاني الفرح: البطر، انظر: لسان العرب ـ مادة فرح».

(٣) سورة لقمان ـ ١٨، والمرح: شدة الفرح والنشاط، حتى يتجاوز قدره، وهو كذلك الأشر والبطر. اللسان ـ مادة مرح.

(٤) سورة الإسراء ـ ٢٩.

(٥) يوسف الأنصاري ـ أساليب الأمر والنهي في القرآن وأسرارها البلاغية «رسالة ماجستير» ـ ص ٤٠٩.

للإسراف، بل يقوم على المعنى المفرد لعدد من الألفاظ التي تشترك مع الإسراف في دلالة مجاوزة الحد، والمتأمل في تلك الألفاظ يلمح أن لكل لفظ منها غلالة تميزه عن بقية الألفاظ، رغم أنها تشترك في الدلالة على مجاوزة الحد، وقد حاولت جهدي أن أتلمس تلك الملامح الدقيقة التي تميز كل لفظ عما عداه من ألفاظ حقله المعجمي، وكان خير معين لي في ذلك هو استقراء الآيات القرآنية، وخاصة تلك الآيات التي ترد فيها صيغتان تشتركان في الدلالة على مجاوزة الحد؛ لأن وجودهما في السياق نفسه يكشف عن الدلالة التي تضيفها كل صيغة منهما للمعنى، أي أن الفروق الدقيقة في الدلالة بين تلك الصيغ تظهر بوضوح حين تقعان في سياق واحد. وعموماً فإن استقراء الآيات القرآنية قد قَدَّمَ لي فهماً أعمق لتلك الصيغ، وانتهيت إلى أن عدداً من تلك الصيغ يشير إلى درجة الإسراف، أو بعبارة أخرى مدى الانحراف عن الاستقامة، وأن صيغاً أخرى تشير إلى نوع الإسراف، أو المجال الذي وقع فيه هذا الإسراف.

ومن الأمثلة على تلك الصيغ التي وردت في سياق واحد: صيغة (بغى) وصيغة (عدا)، وقد وردتا في سياق واحد في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، أولها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾[2].

---

(١) سورة البقرة ـ ١٧٣.

(٢) سورة الأنعام ـ ١٤٥.

وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾[1].

ومن خلال العودة إلى أقوال المفسرين يلاحظ أنهم يسهبون القول في شرح الآية الواردة في سورة البقرة، ويوجزون في الموضعين الآخرين. هذا فيما يتعلق بالآيات السابقة بصورة عامة، فإذا نظرنا إلى تفسيرهم لصيغتي (عدا) و (بغى) الواردتين في الآيات الثلاث أمكننا أن نتلمس الفرق في الدلالة بينهما، حيث قالوا بأن قوله تعالى: (باغ) أي: باغ على مضطر آخر بالاستيثار عليه[2]، طالب ما ليس له طلبه بأن يأخذ ذلك من مضطر آخر مثله[3].

عاد: متجاوز قدر الضرورة، وسد الجوعة، أي: متجاوز قدر حاجته من تناوله[4].

في ضوء هذا التفسير يتضح أن البغي يكون في العلاقة مع الآخرين أظهر، وأن العدوان يكون في تجاوز حدود الله، ويعضد هذا القول استقراء الآيات القرآنية للصيغتين، فصيغة (البغي) وردت في آيات عديدة تشترك في الحديث عن ظلم الآخرين، من ذلك قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[5].

﴿ ۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾[6].

---

(١) سورة النحل ـ ١١٥.

(٢) الزمخشري ـ الكشاف ـ ١/ ٣٢٩.

(٣) الألوسي ـ روح المعاني ـ المجلد ٤/ ج٨/ ٤٣.

(٤) الزمخشري ـ المصدر السابق ـ ١/ ٣٢٩، وانظر الألوسي ـ المصدر السابق ـ ٤/ ج٨/ ٤٣.

(٥) سورة الشورى ـ ٣٩.

(٦) سورة القصص ـ ٧٦.

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[1] .

﴿ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى ﴾[2] .

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[3] .

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[4] .

وأما العدوان فيبرز عند الحديث عن تجاوز حدود الله، وذلك يشمل مجالات شتى مثل:

المواريث[5]، القصاص، الحدود[6]، العلاقة الزوجية من معاملة وحقوق وطلاق وعلاقة جنسية[7]، والحرب[8]، وآداب الطعام والشراب[9].

---

(١) سورة ص ـ ٢٤.

(٢) سورة الحجرات ـ ٩.

(٣) سورة الأنعام ـ ١٤٦، والمراد ببغيهم: قتلهم الأنبياء واستحلال أموال الناس بالباطل، انظر: القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ـ مجلد ٤/ ج٧/ ١١٦.
الألوسي ـ روح المعاني ـ مجلد ٤/ ج٨/ ٤٩.

(٤) سورة الأعراف ـ ٣٣، البغي هنا هو الاستطالة على الناس، وأفرد بالذكر للمبالغة في الزجر عنه، انظر: الألوسي ـ روح المعاني ـ مجلد ٤/ ج٨/ ١١٢.

(٥) وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ سورة النساء ـ ١٤.

(٦) في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ سورة البقرة ـ ١٧٨.

(٧) قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ﴾ سورة البقرة ـ ٢٣١.
﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾ سورة المؤمنون ـ ٧.
وذلك عن حفظ الفروج.
﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾ سورة البقرة ـ ٢٢٩.
وذلك عن الطلاق وما يتعلق به.

(٨) من مثل قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ سورة البقرة ـ ١٩٤.

(٩) في قوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ﴾ سورة المائدة ـ ٨٧.

علا قاهراً، وهو مبالغة في عظم الحال[1].

ومن الصيغ التي تدل على درجة الإسراف كذلك (العتو)، والعتو أصل صحيح يدل على الاستكبار[2]، والعاتي: الشديد الدخول في الفساد، المتمرد الذي لا يقبل موعظة، المستكبر المجاوز للحد[3]، وفي قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾[4] ما يدل على ما ذهبنا إليه؛ لأن عاتية حقيقتها: شديدة، والعتو أبلغ؛ لأن العتو شدة فيها تمرد[5]، وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ۝٢١﴾[6] إشارة إلى إيغال العتو في الانحراف عن الاستقامة، فهم تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان تجاوزاً كبيراً بالغاً أقصى غايته[7]. ويلاحظ أن صيغة (العتو) ترد في القرآن الكريم عند الحديث عن انحراف جماعي عن النهج الرباني، فهي لم ترد في الحديث عن عصيان فرد وإسرافه، وإنما جاءت عن عصيان أقوام وإسرافهم، في مثل قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾[8] وهم ثمود قوم صالح، ويشير كذلك في آية أخرى إلى عتو ثمود بقوله سبحانه: ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٤٤﴾[9] وعتو اليهود في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً

---

(١) أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت٣٨٦هـ) ـ النكت في إعجاز القرآن ـ ٨٧، رسالة ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني، تحقيق محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، ط٣، د ت، دار المعارف، القاهرة.

(٢) ابن فارس ـ معجم مقاييس اللغة ـ مادة (عتا) ـ ٧٣٦.

(٣) لسان العرب ـ مادة (عتا).

(٤) سورة الحاقة ـ ٦.

(٥) الرماني ـ النكت في إعجاز القرآن ـ ٨٧.

(٦) سورة الفرقان ـ ٢١.

(٧) الألوسي ـ روح المعاني ـ المجلد ١٠/ج١٩/ ٣.

(٨) سورة الأعراف ـ ٧٧.

(٩) سورة الذاريات ـ ٤٤.

فكل ما حده الله لعباده في هذه المجالات، ثم ارتكب الإنسان تجاوزاً ما في حد منها فهو معتد، وما حصل منه هو العدوان. وبناء على ذلك فالعدوان صيغة أعم من البغي وأشمل منها، والبغي صيغة تدل على مجال معين للإسراف، وهو الإسراف في العلاقة مع الآخرين[1].

ومن صيغ الإسراف التي اقترنت في سياق واحد، صيغتا: طغى، وأفرط، وذلك في قوله تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام، ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾[2].

فقد ذكر الفخر الرازي أن من يريد دفع أمر ما بالأعذار فإنه يختم كلامه بالأقوى، فطغيان فرعون في حق الله تعالى أعظم من إفراطه في حق موسى[3]، وقيل: إن إفراطه ألا يسمع لهما، وطغيانه أن يقتلهما[4]. وفي ضوء ما سبق من تفسيرات نلاحظ أن الإفراط دون الطغيان في مدارج الإسراف، فالطغيان درجة موغلة جداً في الإسراف؛ لأن الطغيان علو بقهر، يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾[5] فحقيقته: علا الماء، ولكن جاء (طغى) من باب الاستعارة؛ لأن طغى

---

(١) ويؤيد ذلك تفسير الألوسي لقوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ سورة النحل ـ ٩٠ حيث أشار إلى القوى النفسية التي أودعها الله في الإنسان، وحاجة الإنسان إلي تهذيبها وتقويمها عن الانحراف، وهي: القوة الشهوانية، والقوة الغضبية السبعية، والقوة الوهمية الشيطانية، وذكر أن القوة الوهمية الشيطانية تسعى أبدًا إلى الاستعلاء على الناس والتطاول عليهم، وأشار سبحانه إلى أن تهذيبها بالنهي عن البغي، إذ لا معنى له إلا التطاول على الناس، انظر: روح المعاني / مجلد٧/ ج١٤/ ٢١٩.

(٢) سورة طه ـ ٤٥.

(٣) مفاتيح الغيب ـ المجلد ١١/ ج٢٢/ ٦١.

(٤) الألوسي ـ روح المعاني ـ المجلد ٨/ ج١٦/ ١٩٧.

(٥) سورة الحاقة ـ ١١.

خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾[1] وعتو كفار قريش في قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾[2].

ويتبع ما سبق من الصيغ الدالة على درجة الإسراف صيغة (فَجَر)، والفجر: هو التفتح في الشيء، من ذلك الفَجْر: انفجار الظلمة عن الصبح، ومنه انفجر الماء انفجاراً: تفتح، والفجرة: موضع الماء، ومفاجر الوادي مرافضه لانفجار الماء فيها، ثم كثر هذا حتى صار الابتعاث والتفتح في المعاصي فجورا، ثم كثر هذا حتى سمي كل مائل عن الحق فاجرا[3].

وقد جاءت هذه الصيغة في القرآن في مجالين:

١ـ الحديث عن ما هو مركوز في الطبيعة الإنسانية من ميل إلى الفجور، وذلك في قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾[4].

وقوله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾[5].

٢ـ الحديث عن الكفرة من أهل النار في الآخرة، في مثل قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾[6] وقوله سبحانه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾[7].

في ضوء ما سبق نرجح ـ والله أعلم ـ أن هذه الصيغة تأتي للدلالة على الإسراف المندفع في شتى المجالات، مثل انفجار الصبح في شتى الآفاق، ومثل

---

(١) سورة الأعراف ـ ١٦٦.

(٢) سورة الفرقان ـ ٢١.

(٣) ابن فارس ـ معجم مقاييس اللغة ـ ٨٢٦.

(٤) سورة القيامة ـ ٥.

(٥) سورة الشمس ـ ٧، ٨.

(٦) سورة المطففين ـ ٧.

(٧) سورة عبس ـ ٤٢.

انفجار الماء في شتى المسايل.

وبعد هذا الاستعراض للصيغ الدالة على درجة الإسراف، نأتي على ذكر الصيغ الدالة على مجال الإسراف، ومن أوضح الصيغ على ذلك ما سبق وأشرنا إليه صيغة: (البغي) فهي تدل على الإسراف في مجال العلاقة مع الآخرين ظلماً وتطاولاً.

وهناك أيضاً صيغة: (الفحش) فهي تدل على الإسراف في المجال المتعلق بالفروج، أو ما سبق أن سميناه بـ(الجرائم الأخلاقية) ففي قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾[1] ذكر أن الفواحش: ما يتعلق بالفروج، قال ابن عباس: (ما ظهر) الزنا علانية، (وما بطن) الزنا سراً، وكانوا يكرهون الأول ويفعلون الثاني، فنهوا عن ذلك مطلقاً»[2]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[3]. وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾[4]، وقال عز وجل: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[5] وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ ﴾[6].

وهذه كلها مقامات مرتبطة بما أشرنا إليه من التجاوزات الأخلاقية، مثل الزنا، ونكاح زوجات الآباء، واللواط، ونحو ذلك من الفواحش. وفي مجال

---

(١) سورة الأعراف ـ ٣٣.

(٢) الألوسي ـ روح المعاني ـ المجلد ٤/ ج٨/ ١١٢.

(٣) سورة الإسراء ـ ٣٢.

(٤) سورة النساء ـ ٢٢.

(٥) سورة النمل ـ ٥٤.

(٦) سورة النساء ـ ١٥.

الإنفاق تبرز صيغة (بذر)، فهي صيغة تختص بالإنفاق المسرف للمال، قال تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾[1].

وأما صيغة (سرف) فقد يتبادر إلى ذهن البعض أنها تختص بمجال الإنفاق دون سواه، وحين نعود للقرآن الكريم نجد أن هذه الصيغة ومشتقاتها قد وردت في بضع وعشرين موضعاً من القرآن الكريم، ولم تكن مرتبطة بالإنفاق إلا في موضعين من كتاب الله العزيز، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ .. ﴾[3] وهذا الاستقراء للآيات القرآنية يقودنا إلى القول بأن صيغة (سرف) من الصيغ الشاملة في الدلالة على تجاوز الحد، سواء في العلاقة مع الله، أو مع النفس، أو مع الآخرين. ومن الصيغ الدالة على مجال الإسراف صيغة (بطر)، والبطر: تجاوز الحد في المرح[4]. ووردت في قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ ﴾[5] وقوله عز وجل: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾[6] فالبطر: الأشر، وغمط النعمة، وعدم شكرها[7]؛ لما المرء عليه من شدة المرح والفرح بالنعم التي يتقلب فيها. فالصيغة، وفق ما سبق، ترتبط بحالة نفسية قوامها الأشر، وشدة المرح المفضي إلى كفران النعم وجحودها.

---

(١) سورة الإسراء ـ ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة الفرقان ـ ٦٧.

(٣) سورة الأنعام ـ ١٤١.

(٤) ابن فارس ـ معجم مقاييس اللغة ـ ١٤٠.

(٥) سورة القصص ـ ٥٨.

(٦) سورة الأنفال ـ ٤٧.

(٧) لسان العرب ـ مادة «بطر».

القسم الثاني:

النهي الأسلوبي الضمني عن الإسراف

ونعني به ذلك النوع الذي لا يعتمد على الأداة، ولا على الصيغة المباشرة، ولا على المعنى المفرد، بل يفهم من السياق ككل، أي: بواسطة المضمون الأسلوبي للتركيب.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا النوع مجال واسع رحيب، ولكن له بعض الأساليب البارزة التي تكرر ذكرها في عدة مواطن من كتاب الله العزيز، وهي ـ رغم تنوع أساليبها ـ تنهى عن الإسراف.

وينبغي أن ننبه إلى أنه قد يرد ضمن هذا النوع صيغة من الصيغ الدالة على الإسراف وتجاوز الحد، ولكن الاعتماد في النهي عن الإسراف لا يكون على هذه الصيغة وحدها، وإنما يقوم على السياق بكامله.

وأبرز أساليب هذا النوع ما يلي:

١ـ أسلوب الوعيد.

٢ـ أسلوب عرض النماذج المسرفة.

٣ـ أسلوب الحث على التوازن.

٤ـ قصص الأمم السالفة من المسرفين.

وفيما يلي توضيح لكل قسم مما ذكر.

١ ـ أسلوب الوعيد[١]: من ذلك الآيات التالية التي تتوعد المسرفين في الدنيا، وتبين حكم الله فيهم:

قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾[٢].

وقال عز وجل: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾[٣].

وقول عز من قائل: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[٤] ومن آيات الوعيد كذلك تلك الآيات التي تبين مآل المسرفين في الآخرة. وما ينزل بهم من عذاب الله وسخطه يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴾[٥].

وقال عز وجل: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[٦] وقال عز من قائل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[٧] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا

---

(١) يمكن أن نتذكر هنا ما سبق أن أشار إليه ابن الشجري من أن النهي يأتي أحيانًا بلفظ الوعيد. انظر: أمالي ابن الشجري ـ ١/ ٤١٥.

(٢) سورة القصص ـ ٥٨.

(٣) سورة الإسراء ـ ١٦.

(٤) سورة المؤمنون ـ ٦٤.

(٥) سورة غافر ـ ٤٣.

(٦) سورة السجدة ـ ٢٠. فسق: الخروج عن الاستقامة والميل عنها «اللسان، مادة فسق».

(٧) سورة النور ـ ١٩، فحش: كل ماجاوز قدره وحده فهو فاحش «اللسان، مادة فحش».

أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾[1]. وقال عز وجل: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿۞ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾[3] إلى قوله سبحانه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾[4]

ومن البديهي أن من يعي هذه الآيات الكريمات، لابد وأن يرتدع وينتهي ـ بإذن الله تعالى ـ عن السير في سبل الإسراف التي تودي به الهلاك، وهذه هي سنة الله تعالى في المسرفين.

٢ ـ أسلوب عرض النماذج الإنسانية المسرفة:

فمن أمثلة النماذج المسرفة التي يدل السياق على إسرافها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾[5].

وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾[6].

---

(١) سورة ق ـ الآيات من ٢٤ـ ٢٧.

(٢) سورة النبأ ـ الآيات من ٢١ـ ٢٦.

(٣) سورة الصافات ـ ٢٢، ٢٣.

(٤) سورة الصافات ـ الآيات من ٢٧ـ ٣٠.

(٥) سورة يونس ـ ١٢.

(٦) سورة طه ـ الآيات من ١٢٤ـ ١٢٧.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾[1].

وقال رب العزة والجلال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٩﴾[3] إلى قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾[4].

٣ ـ أسلوب الحث على التوازن:

التوازن نقيض الإسراف، والحث على التوازن يستلزم النهي عن الإسراف، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾[5].

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩﴾[6].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ

---

(١) سورة هود ـ ٩، ١٠.

(٢) سورة فصلت ـ ٥١.

(٣) سورة الزمر ـ ٤٩.

(٤) سورة الزمر ـ ٥٣.

(٥) سورة القصص ـ ٧٧.

(٦) سورة الإسراء ـ ٢٩.

قَوَامًا﴾[1].

ويمكن أن يلحق بالحث على التوازن قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَاۖ﴾[2].

٤ ـ قصص الأمم المسرفة من الغابرين:

عندما تأتي الآيات القرآنية الكريمة بقصص الأمم الغابرة التي أسرفت، وبغت بغير الحق، فاستحقت عقاب الله؛ فإن في ذلك عظة وعبرة لأمتنا، لاجتناب طريق الإسراف، وقد أشار القرطبي إلى ذلك في معرض تفسيره للآيات القرآنية عن قوم هود، حيث قال: «الآية نزلت خبراً عمن تقدم من الأمم، ووعظاً من الله عز وجل لنا في مجانبة ذلك الفعل الذي ذمهم به وأنكره عليهم»[3] والدعوة إلى مجانبة فعل ما بمثابة نهي عنه، ونمثل لذلك بالآيات التالية:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٢٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٢٦ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٧ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾[4]

وقال عز وجل: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٤١ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٤٢ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٤٣ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٤٤ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٥ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١﴾[5].

---

(١) سورة الفرقان ـ ٦٧.

(٢) سورة الشورى ـ ٤٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ـ المجلد ٧/ ج١٣/ ١١٦، وذلك عن آيات سورة الشعراء التالية.

(٤) سورة الشعراء ـ الآيات من ١٢٣ـ ١٣٠.

(٥) سورة الشعراء ـ الآيات من ١٤١ـ ١٥١.

وقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[1].

ثالثاً ـ تنوع أساليب النهي عن الإسراف في السياق القرآني:

إن التقسيمات والتفريعات التي ذكرناها فيما سبق جاءت في القرآن الكريم بشكل متداخل يكسب السياق تنوعاً بديعاً وتناسقاً فريدا، فيصرح تارة، ويضمن أخرى، ويواجه مرة، ويلمح أخرى، بصورة توقظ الحس، وتلامس الوجدان، من ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾[2] فالنهي عن الإسراف في هذه الآيات جاء أسلوبياً ضمنياً بواسطة عرض قصة ثمود قوم صالح، ولكن في نهاية هذا الآيات نلاحظ أن النهي عن الأسراف يصبح أكثر وضوحاً وشدة في قوله: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾ ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾[3] فالآيات في بدايتها تستخدم أسلوب الوعيد للنهي عن الإسراف بشكل ضمني ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا

---

(١) سورة الأعراف ـ ٨٠، ٨١.

(٢) سورة الشعراء ـ الآيات من ١٤١ ـ ١٥٢.

(٣) سورة النور ـ الآيات ١٩ ـ ٢١.

وَٱلْأَخِرَةِۚ ﴾، وفي نهاية هذا المقطع من الآيات الكريمات نجد النهي عن الفحشاء، وهي نوع من الإسراف، يصبح أكثر بروزاً ووضوحاً، ﴿ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ ﴾ نهي صريح عن اتباع خطوات الشيطان؛ لأن خطوات الشيطان تحيد بالمؤمن عن الصراط، وتقوده للإسراف والفحشاء، وهكذا نوّع السياق القرآني باستخدام الأسلوب الضمني الذي يتدرج فيكاد يكون صريحاً في النهاية مورداً خلال ذلك إحدى الصيغ المعجمية الدالة على الإسراف، والملائمة للسياق، وهي صيغة (فحش)، فجاءت الآيات في الذروة من الإبداع والبلاغة.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾[1] وبعد ثلاث آيات من هذه الآية يأتي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾[2] هذه الآيات الكريمة ترشد المؤمنين إلى كيفية التعامل مع من تحت وصايتهم من الأيتام، وفي قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ﴾ نهي صريح واضح عن أكل مال اليتيم مسرفين مبادرين كبرهم، بأن يفرط في إنفاقها، ويقول: أنفق كما اشتهى قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من يدي[3]، والمبادرة: المسارعة، أي: يسارع في أكل أموال اليتامى قبل بلوغهم[4]، ونظراً لضعف اليتيم وعجزه عن حماية ماله عاد السياق القرآني فتوعد من لم يتوقف عند الأكل بالمعروف، بل تجاوزه إلى الإسراف فيما لا حق له فيه، وذلك بتقديم تلك الصورة المريعة للعذاب

---

(١) سورة النساء ـ ٦.

(٢) سورة النساء ـ ١٠.

(٣) الألوسي ـ روح المعاني ـ المجلد ٢/ج٤/٢٠٨.

(٤) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ ٦٨٢.

الذي ينتظر مرتكب هذه الموبقة، ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ وهذا نهي أسلوبي ضمني عن الإسراف في أكل مال اليتيم، وقد أشار ابن الشجري إلى أن النهي هنا قد جاء بلفظ الوعيد[1]، وهكذا تنوع الأسلوب بين نهي صريح، ونهي ضمني، حتى يصل إلى الهدف المنشود وهو حفظ حق اليتيم وماله من أي اعتداء.

ومن الآيات العظيمة التي تتجلى فيها روعة التنويع في الأساليب، قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾[2].

فقد اقترنت أداة النهي بإحدى الصيغ غير المباشرة للإسراف، وهي (بذر)، وهذا النوع ينطوي تحت النهي النحوي الصريح عن الإسراف، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾، تلا ذلك إرشاد إلى خلق التوازن والقصد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ وهذا نهي ضمني عن الإسراف في الإنفاق، تقتيراً أو تبذيرا، وإرشاد إلى الأدب الأمثل، ألا وهو التوسط والاعتدال، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[3].

---

(١) أمالي ابن الشجري ـ ١/ ٤١٥.

(٢) سورة الإسراء ـ ٢٦، ٣٠.

(٣) سورة البقرة ـ ١٤٣.

الخاتمة

الحمدلله خالق الأكوان، والصلاة والسلام على سيد الأنام، وبعد..

فها نحن أولاءنا نلقي عصا الترحال، ونقف فنفتح مزادتنا، لنرى ثمار العلم المجنية من تلك القمم الشاهقة التي كنا نتسلقها، وأهم ما نراه بين أيدينا يمكن أن نجمله في النقاط الآتية:

أولاً: أن بيئة شبه جزيزة العرب أثرت تأثيراً كبيراً في المحافظة على جذوة التوحيد، والبعد عن الوثنية المسرفة، وفي تشكيل تقاليد اجتماعية تتخذ طابع الإسراف، وخاصة في مجالي: الحرب، والكرم، ولكلتا الناحيتين دور فعال مهم في دعم مباديء الدين الجديد وإرسائها.

ثانياً: أن أبرز مظاهر الإسراف عند عرب الجاهلية، كما بدأ في ضوء نصوصهم الشعرية، هو الإسراف في مجال العلاقة مع الآخرين، ويشمل ذلك: الإسراف في الحرب، وما أدى إليه من احتقار للمهن، باعتبار أن الغزو أشرف أبواب الرزق، ومجالات الإسراف الأخرى المرتبطة بالحرب، مثل: الثأر، والتمثيل، ومعاملة الأسرى والسبايا. وهناك أيضاً الإسراف في الإنفاق، والإسراف في قيم هذين المجالين، وهما: الحرب، والكرم كان مما يحتاجه الدين الجديد، بعد الارتقاء بالدوافع. والمجال الثاني الذي ظهر فيه الإسراف هو مجال العلاقة مع النفس، وما يتعلق بذلك من الإسراف في الخمر، وطلب الملذات، والحياة المترفة، ويمكننا أن نقول باختصار، إن أبرز نواحي الإسراف عند عرب الجاهلية الإسراف في الألم، والإسراف في اللذة، وقد اقترنا كثيراً في أشعارهم؛ لما كانوا يعانون من

فراغ روحي قائم على إنكار البعث، وإحساس قوي مخيف بقرب الأجل، في ضوء الإيقاع الحربي لحياتهم.

ثالثاً: توقفنا عند العديد من النصوص الشعرية التي تناقض النظرة الشائعة عن العصر الجاهلي، وما يطلق عليه من أحكام شائعة عامة، تصف أهله أجمعين بالفقر، وسوء الحال، وشظف العيش، وذلك من خلال ما عرضته الأشعار الجاهلية عن أسلوب حياة مترفي الجزيرة في (البيئات المترفة) عند الغساسنة، والمناذرة، وأقيال اليمن وحضرموت، وأثرياء مكة والطائف ونجران.

رابعاً: من الأحكام المتسرعة على العصر الجاهلي ما قد يظن من شيوع المساواة بين عرب الجزيرة في ذلك العهد، بناء على النظرة إليهم كمجتمع بدوي بسيط، ولكن ظهر من خلال الدراسة أن هناك لوناً من الطبقية المسرفة التي تقسم الناس إلى: رؤوس، وأذناب، ووفق هذه النظرة الطبقية قام العديد من الأحكام المتعارف عليها في الجاهلية، فيما يتعلق بالفداء، والديات، والتكافؤ في الزواج، بل حتى في طريقة التحية.

خامساً: أن إسراف عربي الجاهلية في الحرب قد انعكس على الشعر، فيما سميناه (الصور الدموية في الحرب)، حيث يكثر في هذه الصور وصف الأشلاء، والدماء، وجثث القتلى، يتخلل ذلك الصراخ والعويل، وقد جاءت تلك الصور على نوعين، هما:

١ـ الصورة الشاملة: وهي الصورة (اللوحة) التي لا تلتزم ضرورة أن تكون الألفاظ أو العبارات مجازية، فقد تكون العبارات حقيقية الاستعمال، وهي مع ذلك دقيقة التصوير، دالة على خيال خصب، وذلك بما يتوفر لتلك الصورة

من العناصر المؤثرة الموحية، من صوت، ولون، وحركة، وفي أحيان عديدة بروز عنصري الزمان والمكان، أي: مجموعة ثرية من التفاصيل الحسية الصادقة.

٢ـ وقد يرد في ثنايا هذه الصورة الشاملة (اللوحة) صور فنية بديعة، تقوم على التشبيهات والاستعارات، وهذه الصور الفنية لا تقتصر على نقل أوجه الشبه بين شيء وآخر، وإنما تنقل لنا ما هو أهم، ألا وهو عاطفة الشاعر وإحساسه تجاه هذا الشيء.

والغريب في كل ما سبق أن النص الشعري عن الحرب في الجاهلية يكاد يخلو من الخوف، ومن مشاعر الألم والإحساس بالذنب، بل لقد شاعت في تلك الأشعار روح التشفي والشماتة.

ومن جهة ثانية فقد أثر الإسراف الحربي في صورهم الفنية التي تتناول موضوعات أخرى، فالشعر الجاهلي لا يكاد ينفصل عن الحرب مهما كان الموضوع الذي يعرض له، ففي الأطلال هناك حرب غامضة أدت إلى العفاء على آثار الديار، وسير الناقة يوحي بالخصومة والصراع، والمطر يبدو حرباً أو كالحرب، فهو يفزع الحيوان من الجبال، ويقلب الأشجار العظيمة، وحتى في الخمر يشبهون اندفاع الخمر باندفاع الدم من عرق مقطوع، وفي وصف حيوانات الصحراء، وخاصة معارك الثور مع الكلاب تبدو روح الصراع العنيفة، بل نراهم يصفون حمار الوحش حين يأوى للمبيت مثل اضطجاع الأسير، فالحرب في كل مكان في الشعر الجاهلي.

سادساً: القرآن الكريم كان فيه الدواء الناجح لكافة مناحي الإسراف التي شاعت في الجاهلية، وذلك بالقضاء على الفاسد منها، واستثمار النافع في

مجالاته الصحيحة، وكان أسلوب القرآن في المعالجة يعتمد على:
الشمول لجميع جوانب حياة الفرد، الدينية، والاجتماعية، والأخلاقية، وتقويم كل إخلال بالتوازن، وكل انحراف عن الاستقامة.

سابعاً: بدا من خلال الدراسة القرآنية للنهي عن الإسراف في القرآن الكريم أن النصيب الأكبر من هذا النهي كان موجهاً لمن يسرف في العلاقة مع الله، وربما يعود ذلك إلى أهمية هذه العلاقة، وشمولها، فالعلاقة مع الله محور لكل ما سواها، واستقامة المرء في هذا المجال تسهل استقامته في كل مناحي حياته الأخرى، والصيغ المستخدمة في هذا المجال متنوعة، أبرزها صيغة (سرف)، ثم صيغة (طغى)، وصيغة (عدا) و(فرط).
وفي مجال الآيات المتعلقة بالإسراف مع النفس جاءت الآيات على نوعين:

١ـ آيات تنهى عن الإسراف في بعض السلوكيات، وتحث على الاستقامة فيها، وهي:

ـ آداب الطعام، والشراب، واللباس.
ـ آداب المشي والكلام.
ـ آداب البناء.

ولقد جاء النهي عن الإسراف في البناء بصورة لا تقل حدة وصرامة عن النهي في بقية السلوكيات.

٢ـ آيات النهي عن الإسراف في بعض المشاعر الإنسانية: مثل: الفرح، والحزن، والغفلة، وحب الدين، وحب المال، والخوف، ونحوها.

أما في مجال النهي عن الإسراف في العلاقة مع الآخرين فقد برز النهي عن

الإسراف في رد الاعتداء، ومن خلال دراسة الآيات في هذا المبحث، وجدت أن الاعتداء إن وقع على المسلم من مسلم مثله، فإن الشارع الحكيم يبيح للمجني عليه القصاص ممن ظلمه، ولكنه يحيط هذا الحكم بنفحات ربانية حانية تدعوه إلى السمو، والعفو، والتسامح، وتعده بعظيم الأجر والثواب.

وأما في علاقة المسلم بغير المسلمين فقد التبس الأمر على البعض، فظن أن مفهوم العدل في رد الاعتداء في الدين الإسلامي يعني تعطيل فريضة الجهاد، وأن الجهاد يقتصر على الدفاع فقط، دون الابتداء والطلب. وهذا فهم خاطىء، فالمراد بالنهي عن الإسراف في رد الاعتداء لا يعني ـ بحال من الأحوال ـ تعطيل فريضة الجهاد، بل المراد به عدم قتل الأطفال، والنساء، والشيوخ العاجزين، والأجراء والفلاحين، وعدم حرق الأشجار، أو قتل الحيوان لغير مصلحة، أما في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[1] ونحوها من الآيات فقد انتهينا إلى أنها تتعلق بمرحلة من مراحل الجهاد، وليست الصورة النهائية التي انتهى إليها الجهاد، وهي: الابتداء والطلب، وهذا لا يعني أن الآية منسوخة، بل إنها ـ والله أعلم ـ من المنسأ، أي أن الحكم فيها يمكن أن يعمل به إذا كان المسلمون في وضع مماثل لوضع المسلمين عند نزول الآية.

أما ما يتعلق بـ(الإنفاق) فقد انتهينا إلى أن الإنفاق إما أن يكون في الطاعات، وإما في المباحات، وإما في المعاصي.

فالإنفاق في الطاعات لا إسراف فيه، وخاصة حين يستدعي الموقف إنفاق الكثير، مثل إنفاق الصحابة عند تجهيز جيش العسرة في غزوة تبوك.

وأما الإنفاق في المباحات فالوسط هو ما يحث عليه الشارع الحكيم، قال

---

(١) سورة البقرة ـ ١٩٤.

تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾[1].

وأما الإنفاق في المعاصي فهو إسراف، ولو لم ينفق إلا درهماً واحداً.

وقد ركزت الآيات القرآنية في مجال الإنفاق على الارتقاء بدوافع هذا الإنفاق، فقد عرف عن عرب الجاهلية كرمهم وبذلهم، فكانوا ينحرون إبلهم، ويتياسرون للفخر والسمعة، ويذكرون ذلك في أشعارهم، فجاء الحث على الإنفاق النابع من إيمان بالله وفي سبيل الله.

وفي مجال النهي عن الإسراف فيما يتعلق بالفروج، جاءت الدعوة الإلهية للطهارة، وحفظ الفرج، وبرز التعبير عن الإسراف في هذا المجال بصيغة (الفاحشة)، وذلك لأن هذه الصيغة تلقي ظلالاً من القبح الموغل في الشناعة، وتضفي إحساساً بكبر هذه الجرائم الإخلاقية وعظم خطرها.

وفي النهاية جاءت الآيات الناهية عن الإسراف بمعناه الشامل، والآيات في هذا المبحث تشير إلى أن الإسراف غريزة مركبة في أصل النفس الإنسانية، ويأتي التعبير عن ذلك بصيغة: (الفجور)، (البغي)، (الطغيان) والمؤمن حين يكتشف هذا الضعف المركب فيه فإنه سيضاعف حذره، ويقظته، حتى لا يقع في هاوية الإسراف.

ثامناً: أما من حيث الأسلوب، فقد ظهر من خلال آيات النهي عن الإسراف في القرآن الكريم أنها جاءت على نوعين:

أ- النهي الصريح عن الإسراف.

ب - النهي الضمني عن الإسراف.

---

(١) سورة الفرقان - ٦٧.

ويتفرع من النهي الصريح عن الإسراف قسمان، هما:

* نهى نحوي عن الإسراف: وهو الذي يعتمد على وجود أداة النهي (لا)، ويغلب أن يأتي فيما يتعلق بآداب الطعام والشراب، والمشي، واللباس، والإنفاق والقصاص.

* نهي معجمي عن الإسراف: وهو الذي يعتمد على طائفة من الصيغ التي تشترك مع الإسراف في دلالة مجاوزة الحد، وقد كان الفيصل في محاولة تحديد الفروق الدلالية بين هذه الصيغ هو القرآن الكريم، وقد حاولت ـ جاهدة ـ تلمس تلك الفروق في الدلالة بينها حين تجتمع صيغتان من الصيغ الدالة على مجاوزة الحد في سياق واحد؛ وذلك لأن ذكرهما في سياق واحد يشير ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ بأن هناك دلالة خاصة تميز كل صيغة عن الأخرى، وانتهيت إلى أن هناك صيغاً تدل على درجة الإسراف، وصيغاً تدل على مجال الإسراف،

فمن الصيغ الدالة على درجة الإسراف: فرط، طغى، عتا، فجر.

ومن الصيغ الدالة على مجال الإسراف:

فحش: وهي تدل على الإسراف في مجال الجرائم الأخلاقية.

بذر: وهي تدل على الإسراف في مجال الإنفاق.

بغى: وهي تدل على الإسراف في مجال العلاقة مع الناس.

عدا: وهي تدل على الإسراف فيما يتعلق بالحدود الشرعية التي وضعها الله لعباده.

تاسعاً: أن صيغة (الإسراف) هي أعم صيغة دالة على مجاوزة الحد، وقد يتبادر

إلى ذهن البعض لأول وهلة أن هذه الصيغة ترتبط بمجال الإنفاق، ولكن استقراء الآيات القرآنية أظهر أنها من أوسع الصيغ وأشملها، حيث لم ترد في مجال الإنفاق إلا في موضعين اثنين من بين بضع وعشرين موضعاً في كتاب الله العزيز. وجاء القسم الأكبر من مواطن ورود هذه الصيغة في مجال العلاقة مع الله عز وجل، يلي ذلك مجال العلاقة مع الآخرين، ومع النفس، ولم يتحقق ذلك لأي صيغة أخرى من صيغ الحقل المعجمي نفسه.

عاشراً: أن الأسلوب الضمني في النهي عن الإسراف من أكثر أساليب النهي عن الإسراف تنوعاً، فتارة يأتي هذا النهي بأسلوب الوعيد والتهديد، وتارة بأسلوب الحث على التوازن، وثالثة بذكر قصص الأمم الغابرة من المسرفين، ونهاياتهم المروعة، وأخرى بعرض النماذج الإنسانية المسرفة بأسلوب ينفر المرء من ذلك السلوك، كل ذلك يعرض في سياق يثير مشاعر النفس، ويوقظها، ويرشدها إلى الاستقامة.

حادي عشر: أن كافة ما ذكر من أساليب النهي عن الإسراف في القرآن قد جاءت بشكل متداخل بديع، يكسب السياق تنوعاً رائقاً، وتناسقاً فريداً، فيصرح هنا، ويضمن هناك، ويواجه مرة، ويلمح أخرى.

وآخر دعوانا أن الحمد رب العالمين،

الفهارس

أولاً : فهرس الآيات القرنية .

ثانياً : فهرس الأحاديث النبوية .

ثالثاً : فهرس الأبيات الشعرية .

رابعاً : فهرس الأعلام .

خامساً : فهرس القبائل والطوائف .

سادساً : فهرس البلدان والمواضع .

سابعاً : فهرس المعارك والأيام .

١ ـ فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآية	الصفحة
سورة البقرة		
﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾	٢	٢٨٦
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾	١٤٣	٣٠٧
﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ . .﴾	١٧٣	٢٩٢
﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾	١٧٨	٢٩٤
﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا . .﴾	١٩٠	٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٣، ٢٨٩، ٢٩٢
﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾	١٩٤	(ن)، ٢١٨، ٣١٣، ٢٢٩
﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ . . .﴾	٢١٩	١٠٢
﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾	٢٢٩	٢٩٤
﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾	٢٣١	٢٩٤
﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾	٢٤٥	٧٩
﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾	٢٥٦	٢٨٥
سورة آل عمران		
﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ . .﴾	١٣٩	١٧٥
﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾	١٤٧	٦
﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾	١٦١	٢٨٦
﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾	١٧٠	٢٩٠
سورة النساء		
﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ . .﴾	٦	٣٠٦
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا . .﴾	١٠	٢٨٥، ٣٠٦
﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا﴾	١٤	٢٩٤

السورة	الآية	الصفحة
﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾	١٥	٢٤٦، ٢٩٨
﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ..﴾	٢٢	٢٤٦، ٢٩٨
﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾	٢٣	٢٨٨
﴿فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ..﴾	٢٥	٢٤٦
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ..﴾	٤٣	١٠٢
﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ..﴾	١٠٠	٤٦
﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾	١٧١	١٩٢، ٢٨٩
سورة المائدة		
﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾	٣	٢٨٨
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ..﴾	٨٧، ٨٨	٢٠٣، ٢٨٩، ٢٩٤
﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ..﴾	٩٠	١٠٢
﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾	٩١	١٠٢
سورة الأنعام		
﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾	٢٩	٢٨٠
﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ..﴾	٤٤-٤٥	٧
﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ..﴾	١٠٠	٧٢
﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ..﴾	١٤١	٣، ٤، ٢٤٠، ٢٨٨، ٢٩٠
﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ..﴾	١٤٥	٢٩٣
﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾	١٤٦	٢٩٤
﴿۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ..﴾	١٥١	٣٤، ٢٤٣، ٢٩٠
سورة الأعراف		
﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ..﴾	٢٧	١٩٨
﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ..﴾	٣١	٤، ٥، ١٩٧، ٢٨٨
﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ..﴾	٣٣	٢٩٤، ٢٩٨
﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ..﴾	٦٩	٢٣٥
﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ..﴾	٧٤	٢٠٩

السورة	الآية	الصفحة
﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾	٧٧	٢٩٦
﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ . . ﴾	٨٠	(ع)، ٢٤٧، ٢٥٣، ٣٠٥
﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ . . ﴾	١٢٧	١٧٨
﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ . . ﴾	١٣٠	١٧٧
﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ . . ﴾	١٣٢	١٧٧
﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ . . ﴾	١٣٣	١٧٧
﴿ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً . . ﴾	١٦٦	٢٩٦
سورة الأنفال		
﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا . . ﴾	٤٧	٢٩٩
سورة التوبة		
﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً . . ﴾	٣٦	٢١٨، ٢١٩، ٢٢٥
﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ ﴾	١٣	٢٨٦
﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾	٣٧	٥٢
سورة يونس		
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا . . ﴾	٧ـ٨	١٦٨
﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾	١٢	١٦٨، ٣٠٤
﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾	٥٨	٢٠٩١
﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا . . ﴾	٧٨	١٧٧
﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ . . ﴾	٨٣	٣٠، ١٧٩
﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ . . ﴾	٩٠	١٧٩
سورة هود		
﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ . . ﴾	٩ـ١٠	٣٠٣
﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ . . ﴾	٥٢	٢٣٥
﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ . . ﴾	٥٩	٢٣٥

السورة	الآية	الصفحة
﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ . . ﴾	١١٢	١٨١ . ٢٨٩
سورة الحجر		
﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ . . ﴾	٧٢ـ ٧٥	٢٥٢
﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾	٨٢	٢٠٩
سورة النحل		
﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾	٣٨	٢٨٠
﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾	٥٧	٣٣
﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا . . ﴾	٥٨، ٥٩	٣٥
﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ . . ﴾	٦٢	١٩٠
﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾	٩٠	٢٩٥
﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ ﴾	١١٥	٢٩٣
﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾	١٢٦، ١٢٧	١٣٦، ٢٢٥، ٢٢٦
سورة الإسراء		
﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا . . ﴾	١٦	١٦٥، ٣٠١
﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ . . ﴾	٢٣	٢٣٧
﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ . . ﴾	٢٦ـ٣٠	٢٣٧، ٢٨٩، ٢٩٩، ٣٠٧
﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ . . ﴾	٢٩	١٦٥، ٢٣٧، ٢٩١، ٣٠٣
﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ . . ﴾	٣١	٣٤
﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً . . ﴾	٣٢	(ع)، ٢٤٦، ٢٥٣، ٢٩٠، ٢٩٨
﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ . . ﴾	٣٣	(ن)، ٤٠، ٢١٦، ٢٨٨
﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ . . ﴾	٣٧	٢٠١
سورة الكهف		
﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾	٢٨	١٨٩، ٢٩٠

السورة	الآية	الصفحة
سورة طه		
﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾	٢٤	١٧٥
﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾	٤٣	١٧٦
﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾	٤٥	١٨٩، ١٩١، ٢٩٥
﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا . . ﴾	١٢٤ـ١٢٧	١٦٧، ٣٠٢
سورة الأنبياء		
﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ . . ﴾	١ـ٣	١٧٣
﴿ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴾	٥	١٧٣
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ . . ﴾	٧ـ٩	١٧٣
﴿ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾	٩	٤، ١٧٢
﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾	٣٥	٢١٤
سورة الحج		
﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ . . ﴾	٣٩	٢١٨
﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ . . ﴾	٦٠	٢٣٣
سورة المؤمنون		
﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ . . ﴾	٥ـ٧	٢٥١
﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾	٧	(ع)، ٢٥٠، ٢٩٤
﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا . . ﴾	٤٥ـ٤٦	١٧٦
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ . . ﴾	٦٤	١٦٥، ٣٠١
سورة النور		
﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا ﴾	١٧	٢٨٦
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ . . ﴾	١٩ـ٢١	٢٤٨، ٣٠١، ٣٠٥

السورة	الآية	الصفحة
سورة الفرقان		
﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا . . ﴾	٢١	٢٩٤ ، ٢٩٧
﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ . . ﴾	٦٧	(ع)، ١٦٦، ٢٤٥، ٢٦١، ٢٩٩، ٣٠٣، ٣١٣
سورة الشعراء		
﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ . . ﴾	١٢٣، ١٢٤	٢٠٥، ٢٣٤، ٣٠٤
﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ . . ﴾	١٢٨، ١٢٩	٢٦٠
﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾	١٣٠	٢٣٤، ٢٣٦
﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ . . ﴾	١٤١ـ١٥٢	٢٠٧، ٢٠٩، ٣٠٤، ٣٠٥
﴿ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ . . ﴾	١٥١، ١٥٢	٤، ٢١٠، ٢٩٠
﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم . . ﴾	١٦٥، ١٦٦	٢٥٣، ٢٥٣
سورة النمل		
﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ . . ﴾	١٣، ١٤	١٧٧
﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ . . ﴾	٥٢	٢١٠
﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ . . ﴾	٥٤	٢٤٦، ٢٥٣، ٢٩٨
سورة القصص		
﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ . . ﴾	٤	٣٠، ١٧٥
﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم . . ﴾	٣٨، ٣٩	١٧٦
﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ . . ﴾	٥٧	١٩٣
﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا . . ﴾	٥٨	١٦٥، ١٩٣، ٢٨٥، ٢٩٩، ٣٠١
﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ . . ﴾	٧٦	٢١١، ٢٩١، ٢٩٣
﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ . . ﴾	٧٧	١٦٦، ٢١١، ٢٨٥، ٣٠٣
﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ . . ﴾	٨١	٢١٢
﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ . . ﴾	٨٣	١٧٥

السورة	الآية	الصفحة
سورة العنكبوت		
﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ . . ﴾	٦١	٢٩
﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ . . ﴾	٦٣	٢٩
سورة الروم		
﴿ الٓمٓ ۝١ . . ﴾	١ـ٥	٢٩٠
سورة لقمان		
﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ . . ﴾	١٨، ١٩	١٩٨، ٢٩١
السجدة		
﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾	٢٠	٣٠١
سورة الأحزاب		
﴿ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ . . ﴾	٣٠	٢٤٦
سورة سبأ		
﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ . . ﴾	٤١	٧٢
سورة يس		
﴿ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ ﴾	١٤	١٧٤
﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ ﴾	١٦	١٧٤
﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ . . ﴾	١٨	١٧٤
﴿ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ . . ﴾	١٩	١٧٣
سورة الصافات		
﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ ﴾	١٥	١٨٧
﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا . . ﴾	١٦	١٨٨
﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ . . ﴾	٢٢	٣٠٢

السورة	الآية	الصفحة
﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ . . ﴾	٢٧-٣٠	١٨٧، ١٨٨، ٣٠٢
﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾	٣٥	١٨٨
﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾	٣٦	١٨٨
سورة ص		
﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ . . ﴾	٢٤	٢٩٤
سورة الزمر		
﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا . . ﴾	٣	٢٩
﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا . . ﴾	٤٩	٣٠٣
﴿ ۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ . . ﴾	٥٣	١٦٩، ٣٠٣
سورة غافر		
﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا . . ﴾	٢٥	١٧٨
﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ . . ﴾	٢٦، ٢٧	١٧٨
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ . . ﴾	٢٨	٥، ١٧٨
﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾	٣٤	١٧٩
﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ . . ﴾	٤٣	١٧٩
﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴾	٤٣	٤، ١٨٠، ٣٠٢
سورة فصلت		
﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ . . ﴾	١٥	٢٣٥
﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ . . ﴾	٥١	٣٠٣
سورة الشورى		
﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا . . ﴾	٢٧	٢٥٧
﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾	٣٧	٢٢٧

السورة	الآية	الصفحة
﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ . . ﴾	٣٩ـ٤٣	٢٢٧، ٢٣١، ٢٦٠، ٢٩٣
﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾	٤٠	(ن)، ٢٢٦، ٢٢٩، ٣٠٤
سورة الزخرف		
﴿ حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا . . ﴾	١ـ٥	(أ)، ١٧١
سورة الدخان		
﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ . . ﴾	٣٠	١٨٠
﴿ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾	٣١	٣٠، ١٨٠
﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا . . ﴾	٣٤ـ٣٦	٢٨٠
سورة الأحقاف		
﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ . . ﴾	٢٩ـ٣١	٧٣
سورة الحجرات		
﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ . . ﴾	٩	٢٩٤
سورة ق		
﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ ﴾	٢٤ـ٢٧	١٨٤، ٣٠١
سورة الذاريات		
﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ . . ﴾	٣٢ـ٣٤	٢٥٢
﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ . . ﴾	٤٤	٢٩٦
﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ . . ﴾	٥١ـ٥٣	١٨٣، ١٨٨
سورة الطور		
﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ . . ﴾	٢٩ـ٣٣	١٨٣، ١٨٨

السورة	الآية	الصفحة
﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ..﴾	٤٤	١٨٤
﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾	٤٥	١٨٤
سورة الرحمن		
﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧..﴾	٧، ٨	٢٨٩
سورة الحديد		
﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ..﴾	٢٢، ٢٣	٢١٢، ٢٩١
سورة القلم		
﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ۝٣١﴾	٣١	٢٤٤
سورة الحاقة		
﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥﴾	٥	١٨١، ٢١٠
﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾	٦	٢٩٦
﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۝١١﴾	١١	١٨١، ٢٩٥
سورة الجن		
﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ﴾	٦	٧٣
سورة القيامة		
﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣..﴾	٣ـ٦	١٩٤، ٢٩٧
سورة الإنسان		
﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾	٨	١٤٩
سورة النبأ		
﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١﴾	٢١ـ٢٨	١٨٦، ١٨٨، ٣٠٣

السورة	الآية	الصفحة
سورة النازعات		
﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾	١٧	١٧٦
﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾	٢٤	٣٠، ١٧٧
سورة عبس		
﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾	٤٢	٢٩٧
سورة الانفطار		
﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾	٦	٢٨٦
سورة المطففين		
﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ ﴾	٧	٧، ٢٩
سورة الفجر		
﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ ﴾	٧، ٨	٢٣٥
﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ . . ﴾	١٥، ١٦	٢١٤
﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ . . ﴾	١٩، ٢٠	٢١٤
سورة الشمس		
﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾	٧، ٨	(ى)، ٢٥٧، ٢٦١، ٢٩٧
سورة العلق		
﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ . . ﴾	٦ـ٨	٢٠٤، ٢٥٥
سورة التكاثر		
﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ﴾	١	٢٨٦

ثانياً : فهرس الأحاديث النبوية.

الموضوع	الصفحة
- أ -	
" أخوف ما أخاف أمتي زهرة الدنيا وكثرتها "	٢٥٨
" استوصوا بالأساري خيراً "	١٥٠
"إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة ..."	٢٢٦
" اللهم آت نفسي تقواها "	٢٥٧
" إياكم والغلو في الدين "	١٩٢
- خ -	
" خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى"	٢٤٣
- ق -	
" القصد القصد تبلغوا "	٦
- ك -	
" كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب "	١٥١
" كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة"	٦
- ل -	
" لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم "	١٩٣
" لو أمرت أن أعاقب أحد بما فعل في الجاهلية لعاقبتك .."	٣٥
" ليس في المال حق سوى الزكاة"	٢٤٢
- م -	
" ما بال أقوام يقول أحدهم ... "	٢٠٢
" ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه "	٥٤

ثالثاً : فهرس الأبيات الشعرية

المطلع	القافية	الشاعر	الصفحة
حنانيك إن الجن..	ورجائيا	أمية بن أبي الصلت	٧٣
ونشربها فتتركنا...	اللقاءُ	حسان بن ثابت	٩٧
— ب —			
لحا الله..	أبَا	عمر بن كلثوم	٣٨
حتى إذا ذَرَّ ...	كلابَا	الأعشى	٤٢
أرب يبول..	الثعالبُ	العباس بن مرداس	٦٦
وما أنا ممن ..	ثعلبُ	ضابيء البرجمي	٧٠
ونحن أناس ..	غالبُ	الأخنس بن شهاب	٨٦،٥٦
أقفر من ..	فالذنوبُ	عبيد بن الأبرص	٩٠
غضبنا للذي ..	الغضوبُ	لبيد بن ربيعة	١٢١
على عهد كسرى ..	يتلهبُ	شاعر من كندة	١٥٨،١٢٣
فلا تأخذوا عقلاً..	تذهبُ	مُرَّة الفقعسي	١٣١
إلى الحارث الوهاب..	وجيبُ	علقمة بن عبدة	١٤١
عذارى يسحبن ...	ربربُ	النابغة الذبياني	١٥٢
فلا والله...	مشوبُ	حسان بن ثابت	١٦٢
فكلنا لهم ..	يحاربوا	عمرو بن معد يكرب	١١٩
بنى عامر إنا ..	عجوبُها	بشر بن أبي خازم	١٥١
إذا ابتدر ...	الأرانبِ	—	٤٢
أبني زياد ...	طيبِ	عمرو بن معد يكرب	٤٤
لولا السفار ...	العرقوبِ	حفص بن الأحنف	٩٦
لا تنفري ...	لحروبِ	حفص بن الأحنف	٩٧

المطلع	القافية	الشاعر	الصفحة
قاصد وجهها...	الشروبِ	الأعشى	١١٢،١٠٤
رقاق النعال ..	السباسبِ	النابغة الذبياني	١١١
مبتلة كأن ..	متربِ	علقمة بن عبدة	١١٤
ضازت بنو أسد..	بالذنبِ	امرؤ القيس الكندي	١٥٧،١٢٠
إننا إنما خلقنا ..	بالأذنابِ	عبيد بن الأبرص	١٥٦،١٢١
لم يبق غير طريد..	مسلوبِ	النابغة الذبياني	١٥١
وكم من فارس ..	بلاخضابِ	عنترة بن شداد	٢٦٧
وكعبة نجران ..	بأبوابها	الأعشى	١١٢
- ب -			
سميتها إذ ...	زميتُ	-	٣٤
تخيرني الجن ..	اصطفيتُ	امرؤ القيس الكندي	٧٢
فلا وا لله ..	ما حييت ُ	عفيف بن معد يكرب	١٠٣
وإني قد شربت ..	وما رويتُ	عنترة بن شداد	١٣٣
ومنا الذي ...	هباتُها	الأعشى	١٤٤، ١٥٣
دعوني في القتال ..	من حياةِ	عنترة بن شداد	٥٨
- ج -			
ألا إنها نعم ..	تخرجُ	عنترة العبسي	٢٧٨،١٠٠
إذ لا ترجي..	ونساجِ	عمرو بن كلثوم	٣٨
- ح -			
تشتري الحمد ..	للربحْ	الأعشى	٨٣
وإذا غاضت ..	فانفسحْ	الأعشى	٢٧٠
فسار بنا ...	الصباحِ	-	٦٣

المطلع	القافية	الشاعر	الصفحة
نحل مخوف ..	بمستباحِ	بشر بن أبي خازم	٨٨
مصافين أصهاراً..	جانحِ	عمرو بن معد يكرب	١٣٢
جعل الإله ..	ينفدا	الأعشى	٣٦
خربت بيوت ..	متعهدا	الأعشى	٣٧
يقولون لي ..	سيدا	حاتم الطائي	٧٧
أريني جواداً ..	مخلداً	حاتم الطائي	٨٧
لما رأيت نساءنا ..	شدا	عمرو بن معد يكرب	١٥٠
فلا الجود ..	يزيدُ	حاتم الطائي	٨٠
ألا فاعلم..	نريدُ	عمرو بن كلثوم	٨٧
أكثرت قتل ..	أحدُ	المهلهل بن ربيعة	١٢٦
فأقررت عيني ..	مسندُ	مالك بن نويرة	٢٦٥
لا يصلح الناس ..	سادوا	الأفوة الأودي	٨٠
وقائلة أهلكت..	جودُها	حاتم الطائي	٧٦
ياصاحبي ألا ..	أذوادِ	السليك بن السلكة	٤٧
أتينا إلى سعد ..	سعدِ	–	٦٦
قد بت ضيفاً..	الأعادي	–	٧٤
أعوذ من ..	مجيدِ	–	٧٤
أرى قبر ..	مفسدِ	طرفة بن العبد	٢٧٤،٧٨
إذا ما صنعت..	وحدي	حاتم الطائي	٨٣
نعمان إنك..	تبدي	يزيد بن الحذاق	٨٩
الا أيهذا الزاجري..	مخلدي	طرفة بن العبد	٢٧٣،٩٧
ومازال تشرابي ..	ومتلدي	طرفة بن العبد	٢٧٧،١٠٠

المطلع	القافية	الشاعر	الصفحة
تراه خميص..	المقددِ	دريد بن الصمة	١٠٧
له داع بمكة ..	ينادي	أمية بن أبي الصلت	١١٣
في الحي أحوى ..	زبرجدِ	طرفة بن العبد	١١٥
أعاذل إنما..	المنادي	عمرو بن معد يكرب	١١٨
فكان فداؤه..	وتلدِ	عمرو بن معد يكرب	١٤٠
هلا سقيتم..	صادي	أخت عمرو بن عاصية	١٤٩
مها جنة إذا ..	الزنادِ	حسان بن ثابت	١٥٩
فإذا النعيم ..	ونفادِ	الأسود بن يعفر	٢٨٠
تنخلها من ..	إكسادِها	الأعشى	٩٤
	- و -		
فإذا ما شربوها..	وطمرْ	طرفة بن العبد	٩٩
وآخر شاص ..	المطر ْ	المرقش الأكبر	٢٦٦
فتور القيام ..	خصرْ	امرؤ القيس	٢٧٨
أحنظل إذ..	المعاصرا	امرؤ القيس	٤٠
لو كنت ..	الموتورا	امرؤ القيس	٦٦
نؤم البلاد..	طارا	عوف بن عطية	٦٩
ونشرب حتى..	أشقرا	امرؤ القيس	٩٩
ترى الخز ..	الحريرا	الأعشى	١١٥
عجبت لهم ..	أجدرا	عروة بن الورد	١٣٥
أصاخ من نبأة..	مستورُ	النابغة الذبياني	٤٣
ألهى قصياً..	السفاسيرُ	-	٤٥
تعلم أنه ..	الثبورُ	النابغة الذبياني	٦٨

المطلع	القافية	الشاعر	الصفحة
ومستنبح..	أصورُ	الأفوه الأودي	٨١
أماوي إن ..	الذكرُ	حاتم الطائي	٨٤
لا يتأرى لما..	يقتفرُ	أعشى باهلة	١٠٨
خذ العهد ..	الديارُ	المهلهل بن ربيعة	١٢٥
يالبكرا نشروا ..	الفرارُ	المهلهل بن ربيعة	١٢٨
ألم ترني..	ياعمرو	عمرو بن معد يكرب	١٤٦
تظل مقاليت ..	مئزرُ	بشر بن أبي خارم	١٥٦
أولاد حام ..	الشعرُ	حسان بن ثابت	١٦٠
فأصبحت أني ..	شاجرُ	لبيد بن ربيعة	١٩٤
الامت سليم ..	إسارُها	—	١٥٢
أقلي علي اللوم ..	فاسهري	عروة بن الورد	٧٦
ولقد شربت..	وبالكثيرِ	المنخل اليشكري	٩٨
يغار علينا ..	وترِ	دريد بن الصمة	١١٧
فيوماً على نجد	وعرعرِ	عروة بن الورد	١١٨
جلبنا الخيل ..	يعرِ	عمرو بن كلثوم	١٣٢
ومنا رئيس القوم ..	النحرِ	شاعر من تميم	١٤٠
كن كالسموءل ..	جرارِ	الأعشى	١٤٥
أطعت الآمرين ..	اليستعورِ	عروة بن الورد	١٥٤
وأني قد تركت ..	العبيرِ	المهلهل بن ربيعة	٢٦٧
— ز —			
قل لأطفال ..	البرازِ	المهلهل بن ربيعة	١٣٨

المطلع	القافية	الشاعر	الصفحة
	- س -		
فإن يقتلوا..	المعاطسا	العباس بن مرداس	١٢٢
فهذا أوان العرض..	المتلمسُ	المتلمس	٩٠
فلا تقبلن ضيماً..	أملس ُ	المتلمس	٩٠
فتقول : قواد الجياد..	الباسِ	امرؤ القيس	٥٠
إذا اشتغلت..	وشماسِ	عنترة بن شداد	١٣٣
فبات على خد ..	المكردسِ	امرؤ القيس	٢٦٩
قومي اصبحيني..	وأرماس ِ	-	٢٧٩
	- ش -		
يريش ا لله ..	ولا يريشُ	مالك بن نمط الهمداني	٦٧
	- ض -		
سأمنح مالي ..	والقرضِ	حاتم الطائي	٨٤
	- ظ -		
ألامن مبلغ ..	عكاظ	أمية بن خلف	١٦١
	- ع -		
وأتاني صاحب ..	القرعْ	سويد بن أبي كاهل اليشكري	٧٢
أبيت خميص البطن ..	أتضلعا	حاتم الطائي	١٠٧
من يلق هوذة..	أو وضعا	الأعشى	١١٠
قتلوا كليباً ..	رتوعا	المهلهل بن ربيعة	٢٦٦
كأن جنا الكافور..	المنزعا	مالك بن حريم	٢٧٨
لعمرك ما تدري ..	صانع	لبيد بن ربيعة	٦٨

المطلع	القافية	الشاعر	الصفحة
تمتع يامشعث..	المتاعُ	مشعت بن عامر	١٠٥
وعشت وقد ..	أصرعُ	بشر بن أبي خازم	١٠٦
تقول : ألا أقصر..	دامعُ	عروة بن الورد	١١٩
أين الذين..	المسترضعُ	جرير بن عطية	١٤٥
ألا سقيتم ..	وقد يسعُ	–	١٤٨
ولقد غدوت..	جرشعُ	متمم بن نويرة	٢٧٢
منعنا حمانا ..	مراتعه	حجر بن خالد	٨٨
الحزم والقوة ..	والهاعِ	أبو قيس بن الأسلت	٦٠
قد حصت ..	تهجاعِ	أبو قيس بن الأسلت	١١٨
بين القين هلا..	ابن جندع	حسان بن ثابت	١٦١
ونقي بآمن ..	وندعي	الحادرة	٢٦٨
متبطحين على..	لم ترفعِ	الحادرة	٢٧١
– ف –			
يارب عاذلة..	الخلفا	حاتم الطائي	٨٠
قلنا : الصلاح ..	الخصفُ	الأعشى	٣٧
صد، غائر العينين..	شاسفُ	أوس بن حجر	٤٤
وما العيش، إلا ..	لا يتخوفُ	عبيد بن عبد العزى	١٠٥
إنا ولو قدموا..	تجفُ	قيس بن الخطيم	١٣١
إن بني عمنا ..	سرفُ	قيس بن الخطيم	١٣٢
فقد، تراني ..	والرغفِ	بشر أبي خازم	١٠٤،٦٩
وصحبنا من آل ..	الرفيفِ	الأعشى	١١٠
خاشعات يظهرن ..	بشفوفِ	الأعشى	١١٥

المطلع	القافية	الشاعر	الصفحة
	- ق -		
ساهم الوجه	الإطلاقُ	الأعشى	٤٣
وكل كريم ..	طريقُ	عمرو بن الأهتم	٨٢
واضعاً في سراة ..	مشتاقُ	الأعشى	١١١
كأن هزيزنا..	حريقُ	المفضل النكري	٢٦٤
ومن يلتمس ..	موبقِ	زهير بن أبي سلمى	٨٣
هل للفتى ..	من راقِ	يزيد بن الحذاق	٨٩
فكم ملك ..	في الوثاقِ	كلبب وائل	٩٠
ليلة صاحوا ..	ابن براقِ	تأبط شراً	١٢٧
إن إنتم ..	بالأبرقِ	أم عمرو بنت وقدان	١٢٩
	- ك -		
هيا صاحب..	بفنائكا	-	٧٤
	- ل -		
أطلس طلاع ..	أزلْ	الأعشى	٤٣
ولقد شربت..	كابلْ	الأعشى	١٠٤
الواهب القينات..	الخمايلْ	الأعشى	١١٣
إن البخيل ..	الإبلا	حاتم الطائي	٧٩
نقاتل أقواماً ..	حجلا	الأفوه الأودي	٨٧
كرام إذا ..	واغلا	لبيد بن ربيعة	٩٩
فاشرب هنيئاً..	محلالا	أمية بن أبي الصلت	١١٤
سائل بني أسد ..	قتيلا	امرؤ القيس	١٢٤
ذهب الصلح ..	ثكلا	المهلهل بن ربيعة	١٢٨

المطلع	القافية	الشاعر	الصفحة
وعان فككناه..	جاذلا	لبيد بن ربيعة	١٤٢
قضينا الحزن ..	هزالا	عامر بن الطفيل	١٤٨
ولست براعي ..	مرسل	تأبط شرا	٤٩
وبلدة مثل ..	زجلُ	الأعشى	٧١
إذا تقوم ..	شملُ	الأعشى	١١٥
هلا سقيتم ..	غللُ	عبد الله بن ثور	١٤٨
تركنا دورهم..	العويلُ	عامر بن الطفيل	٢٦٧
لا يستفيقون ..	نهلوا	الأعشى	٢٧٨
وألقى بصحراء ..	المحملِ	امرؤ القيس	٤١
فعن لنا سرب ..	مذيلِ	امرؤ القيس	٤٢،٦٤
فإننا لم نعد ..	والجاملِ	امرؤ القيس	٤٩
ويوماً على...	وسنبلِ	تابط شراً	٥٢
يخلف المال ..	الحلالِ	عمرو بن كلثوم	٥٢
معاذ الإله ..	القتلِ	عمرو بن كلثوم	٥٨
ترعى فزارة ..	ورمالِ	عامر بن الطفيل	٦١،٨٧
فأنا سريت ..	المنصلِ	عنترة بن شداد	٧١
سأقدح من ..	أهلي	حاتم الطائي	٧٦
آذنت جارتي..	جليلِ	المرقش الأصغر	٧٩
أصون عرضي ..	المالِ	حسان بن ثابت	٨٢
وأجعل عرضي..	فضلِ	حاتم الطائي	٨٢
بكرت تعذلني ..	هلالِ	عمرو بن كلثوم	١٠٠
لعمرك إن ..	عقِلي	قيس بن عاصم	١٠٣

المطلع	القافية	الشاعر	الصفحة
سآلة للفتى ..	والمالِ	عامر بن الظرب	١٠٣
يمشون في ..	البزلِ	حسان بن ثابت	١١١
لا تمل القتال..	سالِ	المهلهل بن ربيعة	١١٨
ألا بلغ بني ..	ذهلِ	المهلهل بن ربيعة	١٢١
رب حي ..	بسجالِ	الأعشى	١٢٣
قربا مربط ..	حيالِ	الحارث بن عباد	١٢٦
صدق الجار ..	الرجالِ	المهلهل بن ربيعة	١٢٦
ونبكي حين ..	لا نبالي	رجل من بني عقيل	١٣١
قد شفيت ..	وخالِ	المهلهل بن ربيعة	١٣٢
قد ذبحنا ..	بالنصالِ	المهلهل بن ربيعة	١٣٨
إنا تركنا ..	السعالي	امرؤ القيس	١٥٢
وليس أبوك ..	الأرذلِ	حسان بن ثابت	١٥٩
ومر على القنان ..	منزلِ	امرؤ القيس	٢٦٩
وحط وحوش..	الجمالِ	لبيد بن ربيعة	٢٦٩
سائل أسيد ..	بلبالها	باعث بن صريم	١٢٣
	- م -		
باتوا نياما ..	لم ينمْ	رشيد بن رميض	٤٩
وأبيض كالسيف ..	عدمْ	الأعشى	٥٢
لا يمنعنك من ..	التمائمْ	مرقش السدوسي	٦٩
أرادت عراراً ..	ظلمْ	عمرو بن شأس	٨١
إذا الثلج ..	الأكمْ	بشر بن أبي خازم	٨١
جعل المال ..	الذممْ	المثقب العبدي	٨٣

المطلع	القافية	الشاعر	الصفحة
وصهباء طاف ..	ختمْ	الأعشى	٢٧٧،٩٤
تمززتها ..	ما علمْ	الأعشى	٢٧٦
وطاوي ثلاث..	رسما	الحطيئة	٤٤
ألسنا الناسئين ..	حراما	عمير بن قيس	٥٢
دعوت ابن ..	كلسما	عمرو بن عدي اللخمي	٧٢
وكنا إذا الجبار..	فتقوما	المتلمس	٩٠
قتلنا القيل ..	دما	الأعشى	٩١
حتى تناولها..	التراجيما	الأسود بن يعفر	٩٤
تخيرها أخو ..	فعاما	الأعشى	٩٦
قتلنا منهم ..	قياما	عامر بن الطفيل	١٢٢
إن يوم الهباءة..	مظلوما	قيس بن زهير	١٢٧
بقرنا الحبالى..	وخثعما	عامر بن الطفيل	٢٦٧،١٣٧
أخذناكم يوم ..	متقسما	عبد الله بن ثور	١٤٩
كأن ريقتها ...	خرطوما	الأسود بن يعفر	٢٧٩
وخرق تعزف ..	السهامُ	بشر بن أبي خازم	٧١
وتقول عاذلتي ..	علمُ	المخبل السعدي	٧٧
علوت بذي الحيات..	الأكارمُ	الحارث بن ظالم	٩١
ظلت ترقرق ..	مفدومُ	علقمة بن عبدة	٩٥
ربذ يداه ..	ملومُ	عنترة بن شداد	١٠١
قتلنا ناجياً ..	الغشومُ	حاجز بن عوف	١٢١
فلا صلح حتى..	الجماجمُ	عمرو بن براقة الهمداني	١٢٨
وتلفى حصان ..	الخودامُ	الأعشى	١٣٢

المطلع	القافية	الشاعر	الصفحة
نخصف بالآذان..	الجماجم	-	١٣٥
فلا تفخر بقوم ..	اللئامُ	حسان بن ثابت	١٦٠
سألت قريشاً ..	عالمُ	حسان بن ثابت	١٦٠
بل كل قوم ..	مرجومُ	علقمة بن عبدة	٢٧٤
كان إبريقهم ..	مرثومُ	علقمة بن عبدة	٢٧٦
كأن إبريق ..	قيامُ	إسحاق الموصلى	٢٧٦
أعاذل إن ..	لومُها	حاتم الطائي	٧٨
أنا العبد ..	فطامي	عنترة بن شداد	٥٠
وفي الغزو ..	وطعامِ	عنترة بن شداد	٥٢
نفرت قلوصي..	يقدمِ	ابن أبي خلاس الكلابي	٦٧
ومن لا يذد ..	يظلمِ	زهير بن أبي سلمى	١١٩،٩٢
فإذا شربت ..	لم يكلمِ	عنترة بن شداد	١٠١
والخمر ليست..	الحلمِ	عبد المسيح بن عسلة	١٠٣
يدعوك عنتر ..	الأدهمِ	عنترة بن شداد	١١٩
جريء متى ..	يظلمِ	زهير بن أبي سلمى	١١٩
قتلنا تسعة ..	بالصميمِ	لبيد بن ربيعة	١٢٢
أرسل عبد الله..	دمي	كبشة أخت عمرو بن معد	١٢٩
ولقد خبطت ..	الأعمامِ	المهلهل بن ربيعة	١٣٢
قومي هم ..	سهمي	الحارث بن وعلة الذهلي	١٣٢
فلا تفخر..	آل حامِ	حسان بن ثابت	١٦٠
فما أنت من..	زمزمِ	الأعشى	١٦٢
وكم فارس ..	نادمِ	عنترة بن شداد	٢٦٤

المطلع	القافية	الشاعر	الصفحة
	- ن -		
وطلاء خسرواني..	وارجحنْ	الأعشى	٩٦
فقد أشرب ..	الظعنْ	الأعشى	١٠٠
وعلال، وظلال..	والشاهسفرنْ	الأعشى	١٠٤
فلا وأبيك ..	سنانا	الأعشى	٤٠
وقد علم ...	بنينا	عمرو بن كلثوم	٨٨
إذا ما الملك ..	فينا	عمرو بن كلثوم	٨٩
كم من رئيس ..	أبينا	عبيد بن الأبرص	٩١
ألا لا يجهلن ..	الجاهلينا	عمرو بن كلثوم	٩٢
بغاة ظالمين ..	ظالمينا	عمرو بن كلثوم	٩٢، ١٢٠
ألا هبي ..	الأندرينا	عمرو بن كلثوم	٩٨
ترى اللحز..	مهينا	عمرو بن كلثوم	٩٩
فلما لم ندع ..	إلينا	عبد الشارق الجهني	١١٨
ملوكاً من بني ..	يقتلونا	امرؤ القيس	١٤٣
وبعض الحلم...	إذعانُ	الفند الزماني	٩٣، ١٢٠
عني إليك ...	بمغبونِ	ذو الأصبع العدواني	٤٨
إني أبي ...	أبيينِ	ذو الأصبع العدواني	٦٠، ٨٩
إذا عينان ...	اللسانِ	تأبط شرا	٧١
والمعطيان ابتغاء ..	بأثمانِ	حاجب بن حبيب	٨٤
شربت الخمر ..	عبد المدانِ	حاجب بن زرارة	٩٩
ولقد رأيت ..	بني الديانِ	أمية بن أبي الصلت	١١٣
لهف نفسي ..	اليدانِ	الحارث بن عباد	١٢٥

المطلع	القافية	الشاعر	الصفحة
شفيت النفس..	شفاني	قيس بن زهير	١٣١
	- ي -		
لا أصلح الله...	راعيها	المهلهل بن ربيعة	١٢٨
كم من أسير ..	مواليها	حسان بن ثابت	١٤٣
أنتم أحابيش ..	طواغيها	حسان بن ثابت	١٥٩
ألا لست في ..	الحوازيا	أفنون التغلبي	٦٨
أقول وقد ..	لسانيا	عبد يغوث الحارثي	١٣٩

رابعاً : فهرس الأعلام

- أ -

آدم ٢٨

إبراهيم عليه السلام ٢٢،٢٧،٢٨،٦٥،٢٣٣.

إبراهيم النخعي ٢٢٨

أحمد بن يحيى (ثعلب) ١٣٨

الأخنس بن شهاب التغلبي ٥٦،٨٦

الأزرق بن عقبة ٣٩٢

ابن إسحاق ١٣٥

أسعد بن عمرو بن هند ١٤٥

الإسكافي ٢٥٤ ، ١٦٩

الإسكندر ٨٥

إسماعيل عليه السلام ٢٢،٢٣،٢٦،٢٨،٤٨

الأسود بن المنذر اللخمي ١٢٢،١٢٣،١٥٨

الأسود بن يعفر النهشلي ٩٤،٢٧٨

الأشعث بن قيس ١٠٢،١٠٩،١٤٠،١٦٣

الأصمعي ٤٣،١٥٨،١٥٩

ابن الأعرابي ١٩٤،٢٥٤

أفتل بن أنمار(جد جاهلي) ١٣٧

أكثم بن صيفي التميمي ٤٥

الألوسي ٢٤٩

امرؤ القيس بن حجر الكندي ٤٠،٤٢،٤٩،٥٠،٥٦،٥٧،٧٢،٨٣،٩٩،١٢٠،١٢٤،
١٤٣،١٤٥،١٥٢،١٥٦،١٦٣،٢٦٩،٢٧٨،٢٨٧

أمية بن أبي الصلت ٧٣،١١٢،١١٣٢،١١٤،٢٨٠

أمية بن خلف ١٦١

أنس الفوارس ١٥٤
أنس بن مالك ٢٢٥
أنس بن مدرك الخثعمي ٤٦،١٣٧
أوس بن حارثة الطائي ٧١،١٣٥
أوس بن حجر التميمي ٤٤،٨٣
إياس بن قبيصة الطائي ٤٥

- ب -

باعث بن صريم ١٢٣
بجير بن الحارث ١٢٥،٢٦٨
البراض بن قيس الكناني ١٢٦،١٢٧
بروكوبيوس ١٤٤
بشامة بن الغدير ٨٣
بشر بن أبي خازم ٧١،٨٨،١٠٤،١٠٦،١٥١،١٥٥
البقاعي ٢٤٧

- ث -

ثابت بن جابر الفهمي (تأبط شرا) ٤٩،٥٢،٧١،١٢١،١٢٧
ثابت بن قيس بن شماس ٢٤١،٢٤٣
ثور بن عفير (جد جاهلي) ١٤٨

- ج -

جاليوس الروماني ٨٥
جذيمة الأبرش ٧٢
جرول بن أوس (الحطيئة) ٤٣،١٤٢
جرير بن عبد الله البجلي ٦٦
جرير بن عبد المسيح (المتلمس) ٩٠،١٣١
جرير بن عطية ١٤٥

جساس بن مرة البكري ٥٦، ١٢٤
جعفر بن أبي خلاس الكلبي ٦٧
جفنة بن عمرو ١٠٩
جفنة بن قتيرة السكوني ١٤٨
الجلاس بن طلحة ١٣٤
جلنداء ١٠٩،١١٠
جواد علي ٨٦
جيفر بن الجلنداء ١٠٩
حاتم الطائي ٧٥،٧٦، ٧٨،٨٠،٨٢،٨٣،١٠٧،١٣٥
حاجب بن حبيب الأسدي ٨٣
حاجب بن زرارة التميمي ٩٩
حاجز بن عوف ١٢١
الحارث بن أبي شمر الغساني ١٤١
الحارث بن جبلة ١٤٤،١٤٥
الحارث الجرمي ١٣٢
الحارث بن حلزة ٧٢
الحارث بن ظالم ٤٨،٩١،١٢٢
الحارث بن عباد البكري ١١٨،١٢٥،١٤٢
الحارث بن وعلة الذهلي ١٣٢
حجر بن خالد ٨٨
حجر الكندي ٤٠،٥٦
حذيفة بن بدر ١٢٧،١٣٠،١٣١،١٣٧
حرثان بن الحارث العدواني(ذو الإصبع) ٤٨،٦٠،٨٩
حسان بن ثابت ٣٨،٨٢،٩٧،١١١،١٤٣،١٥٩،١٦٠،١٦١
١٦٢،

الحصين الحارثي ١٣٧

الحصين بن الحمام المري ١٣١

حفص بن الأحنف الكناني ٩٦

الحكم بن الطفيل ١٣٥

حكيم بن عفر بن طارق ١٠٣

حمل بن بدر ١٢٧،١٣١،١٥٤

حمزة بن عبد المطلب ١٣٦،١٣٧

أبو حنيفة ٢٤٩

— خ —

خالد بن جعفر الكلابي ٤٧،٤٨

خباب بن الأرت التميمي ٣٩

خبيب بن عدي ١٣٤

ابن خلدون ٧،١٨،٥٤،٩١،٩٢،٢٠٤،٢٠٧

الخمس التغلبي ٤٨

— د —

دريد بن الصمة ١٠٧،١١٧

— ر —

الربيع بن أنس ٢١٨

الربيع بن زياد ١٥٤

الربيع بن مالك التميمي (المخبل السعدي) ٧٧

ربيعة بن سفيان (المرقش الأصغر) ٧٩

ربيعة بن مكدم ٩٦

رشيد بن رميض ٤٩

— ز —

الزبرقان بن بدر ٤٣

ابن الزبعرى ١٦٠

الزبير بن العوام ١٣٧

الزمخشري ١٨٦،١٩٠،١٩٢،٢٢٨،٢٤٣

زهير بن أبي سلمى ٤٣،٤٤،٨٣،٩٢،١١٩،٢٨٠

زهير بن جذيمة العبسي ٤٧،٤٨،٥٦،٥٧

زهير بن جناب الكلبي ٥٧

زياد بن سفيان العبسي ١٥٤

زياد بن معاوية (النابغة الذبياني) ٣٩،٤٣،٤٤،٦٨،٨٣،٩٨،١١١،١٥١،١٥٢

زيد الخيل ١٣٥،١٤٢

زيد بن الدثنة ١٣٤

زيد بن صوحان العبدي ٤٥

— س —

السدي ٢٢٩

سعد بن أبي وقاص ٤٤،٤٥،١٣٦

سعيد بن المسيب ٢٤٢

سفانة بنت حاتم الطائي ٧٥

أبو سفيان ١٥٩

أم سلمة ١٨٩

سلمة بن الحارث الكندي ٤٠،٥٧،١٤٤

السليك بن السلكة ٤٦

سمرة بن جندب ١٣٦

السموءل بن عادياء ١٤٥

سنمار ٩٨

سويد بن أبي كاهل اليشكري ٧٢

سويد الدرامي ٥٧

سيد قطب ٢٢١،٢٢٧،٢٤٣

سيف بن ذي يزن ٧٣،١٠٩،١١٤

السيوطي ٢٢٢،٢٤١

-ش -

شأس ١٤١

شرحبيل بن الأسود اللخمي ١٢٢

شرحبيل الكندي ٤٠

شهل بن شيبان الحنفي (الفند الزماني) ٩٢،١٢٠

- ص -

صالح (عليه السلام) ٢٠٧، ٢٠٨،٢٩٦،٣٠٤

صرمة بن أنس ١١٨

صريم بن معشر (أفنون التغلبي) ٦٨

صفية بنت عبد المطلب ١٣٦

صلاءة بن عمرو (الأفوه الأودي) ٨٠،٨٧

صيفي بن الأسلت ٦٠،١١٨

- ض -

ضابئ البرجمي ٧٠

- ط -

طرفة بن العبد ٧٨،٧٩،٩٧،٩٩،١٠٠،١٠٦،١١٥،٢٧٣،٢٧٧،٢٧٩

- ع -

عائذ بن محصن (المثقب العبدي) ٨٢

عائشة بنت أبي بكر الصديق ١٨٩،٢٠٢،٢٤٩

عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ١٣٤

عامر بن الحارث (أعشى باهلة) ١٠٨

عامر بن الطفيل ٦١،٨٧،١٢٢،١٣٥،١٣٧،١٤٢،١٤٨،٢٦٧

عامر بن الظرب العدواني ١٠٢،١٠٣
العباس بن مرداس ٦٥،١٢٢،١٢٨
عبد الشارق الجهني ١١٨
عبد القاهر الجرجاني ٢٢٨
عبد ا لله بن أبي قحافة ١٠٢، ١٠٣
عبد ا لله بن ثور العامري ١٤٨،١٤٩
عبد ا لله بن جحش ١٣٦
عبد ا لله بن جدعان ١١٣
عبد ا لله بن سنان الأسدي ٤٥
عبد ا لله بن عباس ١٣٦،١٩٨،٢١٣،٢٢١،٢٢٤،٢٩٦،٢٤٨.
عبد ا لله بن عبد المطلب ٣٢
عبد ا لله بن عمر بن الخطاب ٩٥،٢١١
عبد ا لله بن كعب ١٣٩
عبد ا لله بن مسعود ٤٧
عبد ا لله بن المعتز ٢٧٦
عبد ا لله بن معد يكرب الزبيدي ١٢٩
عبد المدان عمرو بن يزيد ٩٩،١١٢،١١٣
عبد المسيح بن عسلة ١٠٣،١١٢
عبد المطلب ٣٢
عبد الملك بن مروان ٧٦
عبد يغوث بن صلاءة الحارثي ١٣٩
عبيد بن الأبرص ٧٨،٩٠،١٢١،١٥٦
عبيد بن الجلنداء ١٠٩
عبيد بن عبد العزى السلامي ١٠٥
عثمان بن عفان ٧٠،٧٧،١٠٣،١١٤

أبو عجلان	٤٠
عدي بن حاتم الطائي	٧٥
عرار بن عمرو بن شأس	٨١
ابن العربي	٢٢١،٢٤٣،٢٤٢
عررة بن عاصية السلمي	١٥٢
عروة بن عتبة (عروة الرحال)	١٢٦،١٢٧
عروة بن الورد	٧٦،١١٧،١١٩،١٣٥،١٥٣
أبو عزيز بن عمير	١٤٩
عسلة بنت عامر الغساني	١٠٣
عفيف بن معد يكرب	١٠٢، ١٠٣
عقبة بن أبي قيس	٦٠
علقمة بن عبدة	٧٨،٩٥،١١٤،١٤١،٢٧٤
علقمة بن علاثة	٦١
علي بن أبي طالب	٤٥،٦٧،١٤٠
عمارة بن زياد العبسي (عمارة الوهاب)	١٥٤
عمر بن الخطاب	٤٣،٧٧،٢٠٧
عمر بن عبد العزيز	٢٢١
عمرو بن الأهتم التميمي	٨٢
عمرو بن بحر (الجاحظ)	١٥٧،١٥٨
عمرو بن براقة الهمداني	١٢٧
عمرو بن سعد بن مالك (المرقش الأكبر)	٢٦٦
عمرو بن شأس الأسدي	٨١
عمرو بن عاصية السلمى	١٤٩ ، ١٥٢
عمرو بن عبد الجن التنوخي	٧٢
عمرو بن عدي اللخمي	٧٢

أبو عمرو بن العلاء ٦٣

عمرو بن كلثوم ٣٨،٣٩،٥٢،٥٧،٥٨،٧٢،٨٧،٨٨،٨٩،
٩٢،٩٧،٩٩،١٠٠،١١٩،١٣٢

عمرو بن لحي ٢٥،٢٦،٢٨

عمرو بن معد يكرب الزبيدي ٤٤،١١٨،١١٩،١٢٩،١٣٢،١٤٠،١٤٦،
١٥٠،١٦٣

عمرو ابن هند ٣٨،٥٧،٧٨،٩٠،١٠٩،١٢٣،١٤٥

أم عمرو بنت وقدان ١٢٩

عنترة بن شداد ٣٨،٥٠،٥٢،٥٨،٧١،٧٢،١٠٠،١٠١،
١١٩،١٣٣،١٣٤،٢٦٤،٢٦٧،٢٧٨

عوف بن عطية ٦٩

عيسى (عليه السلام) ١٩٢

- غ -

الغزالي ٦

- ف -

فاطمة بنت الخرشب ١٥٤

الفتح ١٩١

الفخر الرازي ١٨٥،٢٠٨،٢٢٠،٢٢١،٢٣٥،٢٤٣،٢٤٩،
٢٩٥

الفراء ١٩١

فرعون ٢٩،٣٠،١٩٦،٢٥٩،٢٩٥،١٧٥،١٧٦

فروة بن مسيك المرادي ٦٤

فضالة بن كلدة ٤٤

فيليب الثاني ٨٥

- ق -

قارون ٢١١،٢٥٨،٢٩١

قتيبة ١٩١

القرطبي ٢٢١،٢٣٩،٢٤٣،٣٠٤

قطبة بن محصن (الحادرة) ٢٦٨،٢٧١

قورش ٨٥

قيس بن الخطيم ١٣١

قيس بن زهير العبسي ٤٨،١٢٧،١٣٠،١٣١،١٣٧

قيس بن زياد العبسي (قيس الحفاظ) ١٥٤

قيس بن عاصم التميمي ٣٣،١٠٢

قيس بن معد يكرب ١٠٩،١١٠،١١٢

قيصر ٤٠

- ك -

كبشة بنت معد يكرب ١٢٩

ابن كثير ١٨٧ ، ٢٢٠،٢٤٩

الكسائي ١٩١

كسرى ٣٨،٤٥،٤٦،٩١،١٠٩،١١٠،١٢٣،١٥٨

كعب بن زهير ١٤٢

كليب بن وائل ٥٦،٩٠،١٢٤،١٢٥،١٢٨،٢٦٦

- ل -

لبيد بن ربيعة العامري ٦٨،٩٩،١٢١،١٢٢،١٤١،١٩٤،٢٦٩

لقيط بن زرارة ١٤٧

- م -

مارية ذات القرطين ١٤١

مالك بن أدد (جد جاهلي) ٤٦
مالك بن أنس ٢٤٢
مالك بن حريم ٢٧٨
مالك بن زهير العبسي ١٢٧
مالك بن نمط الهمداني ٦٧
مالك بن نويرة ٢٦٥،٢٧١
متمم بن نويرة ٢٧٢
المثنى بن حارثة الشيباني ١٤٦
مجد بن تيم بن مرة ١٦١
مجمع بن هلال بن الحارث ١٠٥
محمد بن السائب الكلبي ١٢٤
محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ١،٥١،٥٣،١٣٦
محمد غنيمي هلال ٢٦٣
محمد النويهي ١٥٥
مخارق بن شهاب المزني ٥١
مرة بن عداء الفقعسي ١٣٠
مسافع بن طلحة ١٣٤
مسروق بن وائل ١١٣
مسلم بن عقبة المري ٢
مسهر بن يزيد الحارثي ١٣٧
المسيب بن علس ١٣١
مشعث بن عامر ١٠٥
مصعب بن عمير ١٤٩
معاوية بن أبي سفيان ٤٥
معبد بن زرارة ١٤٧،١٤٨

المفضل النكري ٢٦٤
المكعبر ٧٨
المنتشر بن وهب الباهلي ١٠٨
المنخل بن مسعود اليشكري ٩٨
المنذر بن ماء السماء ٥٧،٩٠،١٠٩،١٤٣،١٤٤،١٤٥،١٥٣
المهلهل بن ربيعة ٥٦،١١٨،١٢١،١٢٤،١٢٥،١٢٦،١٢٨
،١٣٢،١٣٧،١٤٢،٢٦٦،٢٦٨،
موسى (عليه السلام) ٥١،١٩١،٢٥٩،٢٩٣
ميمون بن قيس (الأعشى) ٣٦،٣٧،٣٩،٥٢،٧١،٨٣،٩١،٩٤،١٠٠،١٠٣،
١٠٩،١١١،١١٢،١١٣،١١٥،١٢٣،١٣٣،١٤٤
،١٤٥،١٥٣،١٦٢،٢٧٠،٢٧٧،٢٧٨

— ن —

نافع ١٩١
نبيه بن الحجاج ٤٦
النعمان بن امرئ القيس ٩٨
النعمان بن قبيصة الطائي ٤٥
النعمان بن مالك بن جساس ١٣٩
النعمان بن المنذر ٣٨،٣٩،٤٨،٥١،٨٨،٨٩،٩١،٩٤،٩٨
،٩٩،١٠٩،١١٠،١٢٦
نوح (عليه السلام) ٢٨

— هـ —

هارون (عليه السلام) ١٩١
هانيء بن مسعود ٩١
هبة الله بن علي (ابن الشجري) ٢٨٤،٢٨٥،٢٨٦،٣٠٧
هبيرة بن أبي وهب المخزومي ١٥٩

هود (عليه السلام) ٢٠٥،٢٣٤،٢٣٥
هوذة بن علي الحنفي ١٠٩،١١٠

- و -

وائل بن صريم ١٢٣
وحشي ١٣٦
الوليد بن المغيرة ١٨٥،١٤٣

- ي -

يزيد بن الخذاق العبدي ٨٩
يزيد بن شرحبيل الكندي ١٤٤
يزيد بن عبد المدان ١١٢،١١٣

خامساً : فهرس القبائل والطوائف .

الموضوع	الصفحة
- أ -	
بنو آكل المرار	١٤٣
الأحابيش	١٥٩
الأحباش	١٠٩
الأزد	٦٦،١٠٩،١٢١ ، ١٣٠
بنو أسد	٤٠،٥٦،٥٧،٧١،١٢٠،١٢٢،١٢٤،١٣٠، ١٥١
بنو إسرائيل	٣٠،٦٤
أشجع	١٦٠
الأشوريون	٢٥،٨٥
الإغريق	٨٥
الأقباط	٤١
الأنباط	٣٧،٨٥،١٦٠
الأنجليز	١٥٥
الأنصار	١٣٠،١٣٤،١٤٩
الأوس	١٦٠،١١٨،١٣٠،١٣١
إياد	٣٧
- ب -	
بجيلة	٦٦،١٢٧
بنو بدر	١٢٧،١٤٨
البراجم	٧٠،١٤٥
البربر	٥٨

الموضوع	الصفحة
بكر	٥٦،٥٧،٩١،٩٢،١٠٥،١٠٩،١٢١، ١٢٤،١٢٥،١٢٦،١٢٨،١٣٠،١٣٢، ١٣٣،١٣٨،١٤٢،١٤٤،١٥٣،١٦٣، ٢٦٨
بلي	١٤١
الترك	٥٨،١٠٤
تغلب	٣٨،٥٦،٥٧،٩٢،١٢٤،١٣٠،١٤٢، ١٤٤،١٤٦،٢٦٨
تيم	٣٣،٤٦،٧٠،٨٢،١٠٢،١٢٣،١٣٨، ١٣٩،١٤٠،١٤١،١٤٤،١٤٥،١٤٦، ١٤٧،١٥٠،١٦٣
تنوخ	١٤١
تيم الرباب	١٣٩،١٤٦
بنو تيم بن عبد مناة	١٥٨
- ث -	
بنو ثعلبة	٨٣
ثعل	٤٢
ثقيف	٣٩
ثمود	٢٩،٢٠٨،٢٩٦،٣٠٤
- ج -	
جديلة	٤٣،١٣٥
جديلة قيس	١٦١
جرم	١٤١

الموضوع	الصفحة
جرهم	٢٣،٢٦،٤٨
آل جفنة	١٠٩،١١٠
- ح -	
بنو الحارث بن كعب	٤٤،٥٥،٦٣،٩٩،١٠٤،١٠٨،١٠٩، ١١٢،١١٣،١٣٧،١٣٩
حام	١٦٠
بنو حجر بن عمرو	١٤٣
بنو الحماس	١٦٠
بنو حنظلة	١٦٠
- خ -	
خثعم	٦٦،١٣٧،٢٦٧
خزاعة	٢٦،٣٣
الخزرج	١٣٠
- د -	
بنو درام	١٤٥،١٤٧
بنو الديان	١١٣
- ذ -	
بنو ذبيان	١٢٢،١٢٧،١٣٠،١٣٧،١٥٨
بنو ذهل	١٢١
- ر -	
ربيعة	٣٣،٨٢،١٤١
الفرس	٦٥
الروم	٦٥،٢٩٠

الموضوع	الصفحة
الرومان	٦٤،٨٥،١٠٩
- ز -	
بنو زبيد	٤٤،٦٤،١٢٩،١٣٧،١٦٣
بنو زياد	١٥٤
- س -	
بنو سلامان	١٠٥،١٢١
بنو سليم	١٥٢
بنو سهم (من هذيل)	١٤٩
- ش -	
شنوءة	١٣٧،٢٦٧
بنو شيبان	١٢٨،١٣٢،١٤٤،١٥٣،١٦٣
- ص -	
بنو الصادر (من سليم)	١٢٣
صداء	١٣٧
- ض -	
بنو ضبة بن أد	٥٥
- ط -	
طي	٤٢،١٣٥
- ع -	
عاد	٢٩،٢٠٦،٢٠٨،٢٣٤، ٢٣٥،٢٣٦
بنو عامر	٤٨،١٣٥،١٣٧،١٣٨،١٤٦،١٤٧ ،١٥١،١٥٨،١٦١
بنو عبد شمس	١٣٦

الموضوع	الصفحة
بنو عبد ا لله بن دارم	١٦٣
بنو عبد المدان	١٠٩،١١٢
عبس	٤٧،٥٠،٥٥٥،١٢٧،١٣٠،١٤٨، ١٥٤،١٥٨
بنو عدس بن زيد	٩٩
بنو عدوان	١٦١
بنو عذرة	١٤١
العرب	٣١،٥٨،٥٩،٦٤،٦٥،٧٠،٧٥،٨٥، ٩١،٩٣،٩٩،١٠٢،١٠٩،١١٢، ١٣٦،١٣٨،١٤١،١٥٣،١٥٥،١٥٧ ١٥٨،١٦١،٢٣٠،٢٣٨
عضل	١٣٤
بنو عقيل	١٣١
بنو عكل بن عبد مناة بن أد	١٥٨
عنزة	٩٧
- غ -	
الغساسنة	٣٩،٤٨،٨٢،٩٠،٩٨،١٠٩،١١١،١١٢، ١٢٢،١٣٠،١٤١،١٤٤،٣٠٩
غطفان	٤٨،٥٧،١٠٧،١٢٢،١٣٠،١٣١، ١٣٥،١٥٤،١٥٨
بنو غني بن أعصر	١٥٨
الغوث	١٣٥
- ف -	
الفراعنة	٢٥

الموضوع	الصفحة
الفرس	٨٥،٩١،١٠٩
فزاة	٨٧،١٢٧،١٤٢،١٤٦،١٦٣
بنو فقعس	١٣٠
فهم	١٢١،١٦١
- ق -	
القارة	١٣٤
قحطان	١٣٠،١٣٧
قريش	٣٢،٤٥،١٢٦،١٢٧،١٣٦،١٦٠، ١٦١،١٦٢،١٩٣،٢١٩.
قضاعة	٦٧،١٣٧،١٤١
بنو قعين بن الحارث	١٥١
بنو قيس	١٦٣
بنو قيس بن ثعلبة	٧٩، ٨٨
قيس عيلان	١٢٢،١٣٠،١٥٢
بنو القين	١٦١
- ك -	
بنو كلاب	٦٨
كلب	١٤١
بنو كنانة	٣٣،٩٦،١٢٦،١٢٧،١٥٣،١٦١
كندة	١٠٢،١٠٩،١٢٣،١٢٤،١٣٩،١٤٣، ١٤٤،١٤٨،١٦٣
كهلان	١٠٩،١٣٠،١٣٧
- ل -	
لحيان	٤٣

الموضوع	الصفحة
لخم	١٠٩
- م -	
بنو مازن	١٢٩
بنو محارب	١٢٢،١٢٣،١٥٨
مذحج	٤٤،٤٦،٦٤،٨٠،١١٣،١٣٧،١٣٩، ١٤٠،١٤٦،١٤٧،١٥٠
مراد	٦٣،٦٤،١٣٧
بنو مرينا	١٤٣
مضر	٣٣،٨٣،١٠٢،١٢٢،١٤١،٢٧٢
معافر	٤١
معد	٥٦
بنو المغيرة	١٦٠
المقدونيون	٨٥
المناذرة	٨٢،١٠٩،١١٠،١١٢،٣٠٩
الميديون	٨٥
- ن -	
النبط	٣٧
نزار بن معد	١٦٣
النصارى	٢٧،٩٣،٩٤،١٩٢
بنو النضير	١٥٣
بنو نفيل بن ربيعة	١٢١
النمر بن قاسط	١٤٤
نهد	١٣٧،١٤١،١٤٨، ٢٦٧

الموضوع	الصفحة
- هـ -	
هذيل	٤٩، ١٣٤، ١٤٩، ١٥٢، ١٦٢
همدان	٤١، ٦٣، ٦٧، ١٠٨، ١٢٧، ١٣٩، ١٥٨
هوازن	٤٧، ٥٦، ١٠٧، ١٢٦، ١٢٧
بنو الهون بن خزيمة	١٣٤
- و -	
بنو وائل	١٣٠
- ي -	
بنو يربوع بن حنظلة	٥٥
بنو يشكر	١٣٢
يهود	٢٧، ٣٨، ٩٣، ٩٤، ١٩٢، ٢٩٦
اليونان	٦٤

سادساً : فهرس البلدان والمواضع .

الموضوع	الصفحة
- أ -	
الأبرق	١٢٩
الأبلق (حصن)	١٤٥
الأحقاف	٢٠٥
الأردن	١٠٩
أريك (جبل)	١٢٣-١٣٢
أستراليا	٢١
أضاخ (صحراء)	١٢٣-١٥٨
أفريقيا	٢١-٨٥
الألب	٢٢
أمريكا	٢١
الأنبار	٦٧
الأندرين	٩٨
أنقرة	٤٠
أوارة (جبل)	١٤٤
إيران	٨٥
إيطاليا	٨٥
- ب -	
بابل	١٠٤
بادية سيناء	١٧
بانيقاء	٩٥،٩٦،١٠٤
البحر الأحمر	١٧
بحر العرب	١٧

الموضوع	الصفحة
البحرين	١٧،٣٧،٧٧،٧٨،٨٢
بطن الإياد	٢٦٥
البقار	٢٦٩
البلقاء	٢٥
البلقان	٨٥
— ت —	
تبالة	٦٦
تكريت	٣٧
تهامة	١٧،٥٧
تيماء	٢٦٩
— ث —	
الثعلبية	٧٤
— ج —	
جدة	٢٨
جزيرة العرب	ب ١٧، ٢١،٢٣،٢٦،٢٧،٦٥،٨٥،١١٧
جيشان (مخلاف باليمن)	٤١
— ح —	
الحبشة	١٣٦، ١٤٩
الحجاز	١٧،٢٢،١١٧،١٣٤،١٣٥،١٥٢
الحجر	٢٠٨
الحريب	١٢٣
حضرموت	١٠٩،١١٠،٢٠٥،٣٠٩
الحيرة	٣٨،٤١،٤٥،٤٨،٥٧،٩٨،١٠٩،١١٠،١١٢

الموضوع	الصفحة
- خ -	
الخزيمية	٧٤
خسروشاه	٩٥،١٠٤
الخليج	١٧
الخورنق	٣٨،٩٨،١١١
خوعى	١٥٢
خيبر	١٤٥
- د -	
دجلة	١٧
دير اللج	١١٠
- ر -	
الرقم (ماء)	١٣٥
الرمة	١٢٣
روما	٨٥
- س -	
سحول (مخلاف باليمن)	٤١
السدير	٩٨،١١١
سويسرا	٢٢
- ش -	
الشام	١٧،١٩،٢٥،٣٩،٤٠،٤١،٨٥، ٩٠،٩٥،٩٨،١٠٩،١١٠،١١٢، ٢٠٨.
الشربة	١٢٣
شرعب (مخلاف باليمن)	٤١

الموضوع	الصفحة
- ص -	
صاحة (جبل)	٢٦٩ ، ١١٤
صنعاء	١١٤
- ط -	
الطائف	٣٠٩،١٤٧،٧٣،٥١،٣٩،٣٧
طيوة	١١٤
- ع -	
عانات	٩٦،٩٥
العراق	١٥٠،١٣٩،٩٥،٤٥،٤٠،٢٥،١٧
عرفات	١٦١
العروض	١٧
عكاظ	١٦١،١٢٦،٤٨،٤٧،٣٩
عمان	١١٠،١٠٩،٧٨
- غ -	
غَمدان (قصر)	١١٤
- ف -	
فارس	٢٧٨،٨٨،٨٥ ،٤١
فدك	٣٩،٣٨
الفرات	٩٥،١٧
فيد	٢٦٥
- ق -	
أبو قبيس (جبل)	٢٤٣

الموضوع	الصفحة
قدة (ماء)	١٥٠
القنعات	١٣٢
القَهْر (جبل باليمن)	٤٤
-ك-	
الكُلاب (ماء)	١٣٩
الكوفة	٣٩، ٧٤،٩٥،١٠٤،٢٠٧،٢٦٥
-ل-	
لبنان	٢٩
لوى زرود	٧٤
-م-	
مآب	٢٥
المدينة المنورة	٤٦،٩٥،١٣١،١٤٩، ١٥٣،٢١٨،٢٢٧، ٢٤٢
المروراة (ماء)	١٣٥
مرو	٩٥
مزدلفة	١٦١
المشقر (حصن)	٤٦،٧٧
مصر	٢٥،٤٠،٤١،٨٥
مكة المكرمة	٢٥،٢٦،٢٨،٣٧،٣٩،٤١،٥١،٦٦، ١١٣،١٩٣،٢١٥،٢١٨،٢١٩،٢٢٧ ٢٤١،٢٤٢،٢٦٨،٣٠٩ .
منى	١٦١،٢٤٤

الموضوع	الصفحة
- ن -	
نجد	١٧،١١٧،١١٨،١٢٨
نجران	١٠٩،١١١،١١٢،١١٣،٣٠٩
النجف	١١٠
النقرة	١٢٣
- هـ -	
هجر	٤٦
الهند	٨٥
- و -	
وادي القرى	٢٠٨
واردات	٢٦٨
- ي -	
يثرب	٣٧،٣٨،٥١،١٥٣
اليستعور	١٥٤
يَعْز	١٣٢
اليمامة	١٧،٣٧،١٠٩،١١٠،١١٧،١٤٠
اليمن	١٧،٣٧،٤٠،٤١،٤٢،٤٤،٥١،٥٧،٦٦،٦٧، ١٠٩،١١٢،١١٣،١١٤،١١٧،١٢٩،١٣٩، ١٤١،١٥٠،١٦٣،٢٠٥،٣٠٩

سابعاً : فهرس المعارك والأيام .

الموضوع	الصفحة
- أ -	
يوم أحد	٩٣،١٣٤،١٣٥،١٣٦،١٤٩
يوم أوارة الأول	٥٧،١٤٤،١٥٣
يوم أوراة الثاني	٥٧
- ب -	
يوم بدر	٦٤،١٣٤،١٣٦،١٤٩
حرب البسوس	٥٦،١٢٤،١٢٥،١٣٠،١٤٢،٢٦٨
- ت -	
يوم تحلاق اللمم (التحالق)	٩٢،١٢٥،١٤٢
- ج -	
يوم جزع ظلال	١٤٦
يوم جفر الهباءة	١٢٧،١٣١،١٣٧
يوم الجمل	٤٥
- ح -	
يوم الحاجز	١٢٣
وقعة الحرة	٢
يوم حنين	٦٥، ١٠٧
- خ -	
يوم خزاز	٥٦
- د -	
حرب داحس والغبراء	١٣٠،١٣٧

الموضوع	الصفحة
- ذ -	
يوم ذي قار	٩١
- ر -	
يوم الرجيع	١٣٤
يوم رحرحان	١٤٧
يوم الردم	٦٣،٦٤
حروب الردة	٢٧١
يوم الرقم	١٣٥
- ش -	
يوم شعب جبلة	٩٩،١٣٨،١٤٦،١٤٧
- ص -	
يوم الصفقة	٤٦،١٠٩
- ف -	
حرب الفجار الثاني	١٢٦،١٢٧
يوم الفرات	١٤٦
حرب الفساد (اليحاميم)	١٣٥
يوم فيف الريح	١٣٧،٢٦٧
- ق -	
يوم القادسية	٤٤،٤٥،٦٠،٨١
- ك -	
يوم الكلاب الثاني	١٣٢،١٣٩،١٥٠
- ن -	
يوم النفراوات	٤٧

الموضوع	الصفحة
يوم نهادة	٦٧
يوم نهاوند	٤٤
- ي -	
يوم اليرموك	٤٤

تاسعاً : قائمة المصادر والمراجع .

١- القرآن الكريم .

٢- ابن الأثير، علي بن محمد الشيباني (٦٣٠هـ) - الكامل في التاريخ . دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ، ط ٤ ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

٣- ابن الأجدابي، إبراهيم بن إسماعيل الطرابلسي، (ت ق ٥هـ) كفاية المتحفظ في اللغة ، تحقيق : السائح علي حسين، دار " قرأ" للطباعة والنشر، ليبيا دط، دت .

٤- الأسد ، ناصر الدين - مصادر الشعر الجاهلي. دار المعارف، القاهرة، ط ٥، ١٩٨٧م .

٥- الأسدي، عبيد بن الأبرص - الديوان، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، د ط ، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م .

٦- الأسدي، عمرو بن شأس - الديوان . تحقيق : يحيى الجبوري، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، دط ، دت .

٧- الإسكافي، محمد بن عبد الله (ت ٤٢٠ هـ) - درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز . دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، ط ٢ ،١٩٧٧م .

٨- الأصفهاني ، أبو الفرج ، علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ) - الأغاني . شرح عبد الله مهنا، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦م .

٩- الأصمعي، عبد الملك بن قريب (ت٢١٦هـ) الأصمعيات . تحقيق : أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون ، دار المعارف، مصر ، ط ٧، ١٩٩٣م .

١٠- الأعشى، ميمون بن قيس - الديوان . تحقيق : حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت ط ١، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م .

١١- الألوسي، السيد محمود البغدادي - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - دار الفكر، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧ م .

١٢- الألوسي، السيد محمود شكري - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب - دار الكتب العلمية، بيروت، دط، د ت .

١٣- أمين، أحمد - فجر الإسلام - دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ، ط ١٠/١٩٦٩م .

١٤- الأنصاري، يوسف - أساليب الأمر والنهي في القرآن وأسرارها البلاغية - رسالة ماجستير مخطوطة .

١٥- الأوسي، صيفي بن عامر بن الأسلت - الديوان - تحقيق : د . حسن محمد باجودة، مكتبة دار التراث، القاهرة ، د ط ، ١٣٩١ هـ .

١٦- الأوسي، قيس بن الخطيم - الديوان تحقيق : ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م .

١٧- باجودة، حسن محمد - تأملات في سورة الفرقان - مؤسسة مكة للطباعة والإعلام ، ط ٢،١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .

١٨- باجودة، حسن محمد - تأملات في سورة محمد - مؤسسة مكة للطباعة والإعلام، ط ٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

١٩- البقاعي ، برهان الدين، إبراهيم بن عمر (ت ٨٨٥هـ) -نظم الدرر - مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، ط ١ ، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .

٢٠- البكري، طرفة بن العبد - الديوان شرح : الأعلم الشنتمري، تحقيق : درية الخطيب، لطفي الصقال، د ط ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥ م.

٢١- البكري، عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ) - معجم ما استعجم - تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، دط ، دت .

٢٢- بيدس، إميل خليل - صحة العائلة - دار الآفاق الجديدة، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

٢٣- التبريزي، أبو زكريا ، يحيى بن علي (ت ٥٠٢هـ) - شرح القصائد العشر- ضبط وتصحيح : عبد السلام الحوفي ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢،

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
٢٤- التغلبي ، عمرو بن كلثوم - الديوان . تحقيق : إميل بديع يعقوب، دار الكتب العربي ، بيروت، ط ١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م .
٢٥- التغلبي، المهلهل بن ربيعة - الديوان. تقديم : طلال حرب، الدار العالمية، بيروت ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م .
٢٦- التميمي، أوس بن حجر بن مالك - الديوان تحقيق : محمد يوسف نجم، دار صادر ، بيروت ، ط ٣ ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .
٢٧- التميمي ، علقمة بن عبدة - الديوان . تحقيق : لطفى الصقال، درية الخطيب، دار الكتاب العربي، سوريا، حلب، ط١، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
٢٨- ثعلب، أبو العباس، أحمد بن يحيى (ت ٢٩١هـ) - مجالس ثعلب - تحقيق : عبد السلام هارون ، دار المعارف ، ط ٥ ، ١٩٨٧م .
٢٩- الجاحظ ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) - الحيوان . تحقيق : عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط٢ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .
٣٠- الجبوري، يحيى - الشعر الجاهلي- خصائصه وفنونه ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٦ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .
٣١- الجبوري ، يحيى - قصائد جاهلية نادرة - مؤسسة الرسالة، ط ٢ ، ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م .
٣٢- الجبوري، يحيى - الملابس العربية في الشعر الجاهلي - دار الغرب الإسلامي، بيروت، د ط ، ١٩٨٩ م .
٣٣- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن - دلائل الإعجاز- تعليق : محمد رشيد رضا، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، د ط ، دت .
٣٤- الجندي، علي - شعر الحرب في العصر الجاهلي - مكتبة الجامعة العربية، بيروت، لبنان، ط ٣ ، ١٩٦٦م .
٣٥- جياووك، مصطفى عبد اللطيف - الحياة والموت في الشعر الجاهلي - منشورات وزارة الأعلام، العراق، دار الحرية للطباعة، بغداد، د ط ، ١٩٧٧م

٣٦- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) - الإصابة في تمييز الصحابة - دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د ط ، دت .

٣٧- ابن حجر ، أحمد بن علي العسقلاني - فتح الباري بشرح صحيح البخاري - دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .

٣٨- حسان، تمام - البيان في روائع القرآن - دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

٣٩- حسين، طه - في الأدب الجاهلي - دار المعارف ، القاهرة ، ط ١٦، ١٩٨٩م.

٤٠- الحطيئة ، جرول بن أوس - الديوان ، شرح : يوسف عيد، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

٤١- الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ) معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، د ط ، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م .

٤٢- الحوطي، غادة - التوازن معيار جمالي، رسالة ماجستير مخطوطة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .

٤٣- الحوفي، أحمد محمد - الحياة العربية من الشعر الجاهلي - دار القلم، بيروت، لبنان ، ط ٤ ، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م .

٤٤- الخزرجي - حسان بن ثابت - الديوان . دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، د ط ، ١٣٨١هـ - ١٩٦١ م .

٤٥- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) - المقدمة - دار الفكر، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

٤٦- دراز، محمد عبد الله - بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان - دار القلم ، الكويت ، ط ٢ ، ١٣٩٠ هـ -١٩٨٠م .

٤٧- الذبياني، زياد بن معاوية - الديوان . - شكر فيصل

٤٨- ابن رشيق ، أبو علي، الحسن بن رشيق الأزدي (ت ٤٥٦ هـ) - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت،

لبنان ، ط ٥ ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
٤٩- الرماني، أبو الحسن ، علي بن عيسى، (ت ٣٨٦هـ) - النكت في إعجاز القرآن - من ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للخطابي ، والرماني، والجرجاني، تحقيق : محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط ٣ ، دت .
٥٠- الزبيدي ، عمرو بن معد يكرب - الديوان. تحقيق : مطاع الطرابيشي، مجمع اللغة العربية، دمشق، د ط ، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .
٥١- الزركلي، خير الدين - الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٩٧٩م.
٥٢- الزمخشري، جار الله ، أبو القاسم، محمود بن عمر(ت ٥٣٨هـ) - أساس البلاغة - دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، د ط ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
٥٣- الزمخشري، جار الله، أبو القاسم، محمود بن عمر - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - دار الفكر، ط ١، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .
٥٤- زيدان، جورجي - تاريخ التمدن الإسلامي - دار الهلال، د ط، دت .
٥٥- سابق، السيد - فقة السنة - مكتبة دار التراث، القاهرة ، د ط ، دت .
٥٦- سالم ، أحمد موسى - لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب ؟ - دار الجيل، بيروت، لبنان ، ط ٣، ١٤١١هـ - ١٩٩١م .
٥٧- ابن سلام، محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣٢هـ) - طبقات الشعراء - دار الباز، بيروت، د ط ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
٥٨- السيوطي، جلال الدين (ت ٨٤٩هـ) - الإتقان في علوم القرآن - دار الفكر للطباعة والنشر ، د ط ، دت .
٥٩- ابن الشجري، هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة (ت ٥٤٢هـ) - أمالي ابن الشجري - تحقيق : محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

٦٠- الصابوني، محمد علي – صفوة التفاسير– دار القرآن الكريم، بيروت ، د ط ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

٦١- الصعيدي ، عبد المتعال – بغية الإيضاح – المطبعة النموذجية، الحلمية الجديدة، دط ، دت .

٦٢- الضبي ، المفضل بن محمد (ت على الأرجح ١٧٨هـ) المفضليات – تحقيق : أحمد شاكر، عبد السلام هارون، دار المعارف ، ط ١٠، ١٩٩٢م

٦٣- الطائي، حاتم بن عبد الله – الديوان . تحقيق : عادل سليمان جمال ، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ط ٢، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م .

٦٤- الطائي، حبيب بن أوس (ت ٢٣١هـ) – شرح ديوان الحماسة المنسوب لأبي العلاء المعري – تحقيق: حسين محمد نقشة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د ط، ١٤١١هـ – ١٩٩١م .

٦٥- طاهر، ميسرة، وآخرون – مدخل إلى الإرشاد التربوي والنفسي– دار الهدى للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م .

٦٦- الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠) – تاريخ الأمم والملوك – تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار سويدان، بيروت، ط ٢ ، ١٩٦٧م .

٦٧- الطنطاوي، علي – صور وخواطر– دار المنارة جدة، السعودية، ط ٢ ، ١٤١٢هـ – ١٩٩١م .

٦٨- العامري، عامر بن الطفيل – الديوان، شرح : يوسف عيد ، دار الجبل، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م .

٦٩- العامري، لبيد بن ربيعة– الديوان، بشرح الطوسي قدم له : حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م .

٧٠- عبد الرحمن، محمد – البركة في فضل السعي والحركة – دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د ط، ١٣٩٨هـ – ١٩٨٧م .

٧١- العبسي، عروة بن الورد– الديوان – تحقيق : أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط ، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م .

٧٢- العبسي، عنترة بن شداد -الديوان بشرح الخطيب التبريزي - قدم له : مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .
٧٣- أبو عبيدة، معمر بن المثنى (ت ٢٠٩هـ) -أيام العرب قبل الإسلام - تحقيق : عادل جاسم البياتي ، عالم الكتب بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧هـ .
٧٤- أبوعبية، محمد فهيم - معجم إعراب ألفاظ القرآن الكريم - مكتبة لبنان، ط ١، ١٩٩٥م .
٧٥- عتيق، عبد العزيز- علم المعاني- دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
٧٦- عجلان، عباس بيومي - الهجاء الجاهلي ، صوره وأساليبه الفنية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، د ط، ١٩٨٥م .
٧٧- ابن العربي، محمد بن عبد الله (ت ٥٤٣هـ) أحكام القرآن - تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار الفكر، د ط ، دت .
٧٨- العسكري، أبو هلال، الحسن عبد الله (ت ٣٩٥هـ) - الفروق اللغوية - تحقيق : حسام الدين القدسي ، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، دت .
٧٩- علي ، جواد - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - دار العلم للملايين، بيروت، ط ٣، ١٩٨٠ م .
٨٠- عمر، أحمد مختار- علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط ٣، ١٩٩٢م .
٨١- الغزالي، أبو حامد ، محمد بن محمد (٥٠٥هـ) - إحياء علوم الدين - دار إحياء الكتب العربية ، دط ، دت .
٨٢- غضبان، منير محمد- فقه السيرة النبوية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط ١ ، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩م .
٨٣- ابن فارس، أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ) - معجم مقاييس اللغة . تحقيق : شهاب الدين أبو عمرو،دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ -١٩٩٤م .
٨٤- الفخر الرازي، أبو عبد الله ، محمد بن عمر بن الحسين (ت ٦٠٤هـ) - مفاتيح الغيب - دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، د ط ، ١٤١٤هـ-

١٩٩٣م .
٨٥- فضل، صلاح - علم الأسلوب ، مبادئه وإجراءاته- مطبوعات النادي الأدبي الثقافي - جدة ، ط ٣، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م .
٨٦- الفهمي، ثابت بن جابر (تأبط شراً) - الديوان . تحقيق : علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .
٨٧- الفيروز أبادي - محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ) - القاموس المحيط - دار الفكر، بيروت، د ط ، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م .
٨٨- القالي، أبو علي، إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ) - الأمالي - دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، دط ، د ت .
٨٩- القباني ، صبري - طبيبك معك- دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٤، ١٩٧٩م .
٩٠- القرطبي، أبو عبد الله، محمد بن أحمد - الجامع لأحكام القرآن - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، د ط ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .
٩١- القزويني، جلال الدين بن سعد الدين محمد - الإيضاح - دار إحياء العلوم، بيروت، ط ٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩٣م .
٩٢- القطان، مناع - مباحث في علوم القرآن - مكتبة وهبة، القاهرة، ط٧، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .
٩٣- قطب، سيد - في ظلال القرآن - دار الشروق، بيروت، ط ١١، ١٩٨٥م.
٩٤- قطب، محمد - منهج الفن الإسلامي - دار الشروق، القاهرة ، ط ٨، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .
٩٥- القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ) - نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب- دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ط، د ت .
٩٦- ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ) - البداية والنهاية - مكتبة المعارف، بيروت، ط ٢، ١٩٧٤م .
٩٧- ابن كثير ، إسماعيل بن عمر - تفسير القرآن العظيم - دار الفكر، بيروت، د

ط، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .
٩٨- كارليل، توماس - الأبطال - دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان، دط، دت.
٩٩- الكرماني ، محمود بن حمزة - البرهان في توجيه متشابه القرآن - (أسرار التكرار في القرآن) تحقيق : عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، د ط ، دت
١٠٠- ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤هـ) - الأصنام - تحقيق : محمد عبد القادر أحمد، أحمد محمد عبية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د ط، دت .
١٠١- ابن الكلبي - جمهرة النسب - تحقيق : محمود فردوس، دار اليقظة العربية، دمشق، د ط ، دت .
١٠٢- ابن الكلبي- نسب معد واليمن الكبير- تحقيق : ناجي حسن، عالم الكتب، بيروت ، ط ١، دت .
١٠٣- الكندي، امرؤ القيس بن حجر - الديوان- تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم.
١٠٤- الكندي، امرؤ القيس بن حجر - الديوان . تحقيق : عمر فاروق الطباع، دار العلم للملايين، لبنان، د ط ، دت .
١٠٥- لوبون، جوستاف - حضارة العرب - ترجمة : عادل زعيتر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٩م .
١٠٦- المبرد، أبو العباس ، محمد بن يزيد(ت ٢٨٥ هـ) - الكامل في اللغة والأدب - مكتبة المعارف، بيروت، د ط ، دت .
١٠٧- مرجليوث، ديفيد صمويل - أصول الشعر العربي - ترجمه: يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .
١٠٨- المرزباني، محمد بن عمران (ت ٣٨٤هـ) - معجم الشعراء- دار الجيل، بيروت ، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م .
١٠٩- المزني، زهير بن أبي سلمى - الديوان - تحقيق : حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط ١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .
١١٠- أبو موسى، محمد حسنين - من أسرار التعبير القرآني - دراسة تحليلية لسورة

الأحزاب، دار الفكر العربي ، د ط، دت .
١١١ـ ابن منظور، محمد بن مكرم المصري (ت ٧١١هـ) – لسان العرب – دار صادر، بيروت، ط١ ، دت .
١١٢ـ ناصف، مصطفى – قراءة ثانية لشعرنا القديم، دار الأندلس، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م .
١١٣ـ النحلاوي، عبد الرحمن – أصول التربية الإسلامية وأساليبها – دار الفكر، دمشق ، ط ٢ ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .
١١٤ـ النويري، شهاب الدين، أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ) – نهاية الأرب في فنون الأدب . دار الكتب، د ط، دت .
١١٥ـ النويهي، محمد – الشعر الجاهلي ، منهج في دراسته وتقويمه، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د ط، دت .
١١٦ـ ابن هشام، أبو محمد، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت تقريباً ٢١٨هـ) – السيرة النبوية – تحقيق : مصطفى السقا ، إبراهيم الإبياري – عبد الحفيظ شلبي . دار المعرفة، بيروت ، لبنان ، د ط ، دت .
١١٧ـ الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت تقريباً ٣٤٥هـ) – صفة جزيرة العرب – تحقيق : محمد بن علي الأكوع، دار اليمامة، الرياض ، د ط ، ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧م .
١١٨ـ ويلز ، هـ . ج – معالم تاريخ الإنسانية – ترجمة عبد العزيز توفيق، القاهرة، ط٣ ، دت .

عاشراً : الدوريات العملية والأبحاث

١- الأنصاري، عبد القدوس - الكعبة قبل الإسلام - (بحث منشور في مجلة: دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني: الجزيرة العربية قبل الإسلام. ط ١، ١٤٠٤هت - ١٩٨٤م .

٢- الحربي، محمد - نظرة العرب القدامى إلى النبط - (بحث منشور في مجلة (الدارة) العدد الرابع، السنة ١٨ ١٤١٣هـ) .

٣- الحوفي، أحمد محمد - شاعرية العرب ، وأثر البيئة فيها - (بحث منشور في مجلة (الدارة) ، العدد الرابع، محرم، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٨م) الرياض، السعودية.

٤- الرشيد، ناصر بن سعد - تعامل العرب التجاري وكيفيته في العصر الجاهلي- (بحث منشور في مجلة : دراسات في تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثاني: الجزيرة العربية قبل الإسلام ، ط ١ ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م) .

٥- راضي، عبد الحكيم - محاضرات في علم المعاني .

٦- عز الدين، يوسف - التعبير عن النفس في الأمثال العربية -(بحث منشور في مجلة : دراسات في تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثاني : الجزيرة قبل الإسلام ، ط ١ ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

٧- فياض، محمود عبد ربه - دراسات أدبية للبيان النبوي- محاضرات للسنة المنهجية ١٤١٠هـ .

٨- مختار، محمد علي - الحنفية والحنفاء - (بحث منشور في مجلة : دراسات في تاريخ الجزيرة العربية للكتاب الثاني : الجزيرة العربية قبل الإسلام ، ط ١ ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

حادي عشر : فهرس موضوعات الرسالة

الموضوع **الصحفة**

المقدمة .....

التمهيد ١

أولاً : الإسراف ودلالته اللغوية

١- في المعاجم ٢

٢- في القرآن الكريم..... ٣-٥

ثانياً : الإسراف ودلالته الاجتماعية ٥-١٢

ثالثاً : الإنسان بين التوازن والإسراف ١٢-١٣

الدراسات السابقة لموضوع الإسراف ١٣-١٥

الباب الأول

المجتمع الجاهلي ، وأثر البيئة في تشكيل تقاليده وإسرافه..... ١٦-٦١

١- أثر البيئة على المعتقدات الدينية لدى عرب الجاهلية ٢٢-٣١

٢ - أثر البيئة على علاقاتهم الاجتماعية ٣١-٥٨

أ- العلاقات الأسرية

ب - العلاقات القبلية

٣- أثر البيئة على أخلاقهم ٥٨-٦١

الباب الثاني

أصداء الإسراف في الشعر الجاهلي ٦٢-١٦٣

أولاً : الإسراف في القيم المرتبطة بعلاقة الإنسان مع الله ٦٣-٧٥

ثانياً : الإسراف في القيم المرتبطة بعلاقة الإنسان مع نفسه ٧٥-١١٦

(الكرم ، الحرية والإباء، طلب الملذات، مظاهر الترف)

ثالثاً : الإسراف في القيم المرتبطة بعلاقة الإنسان مع الآخرين ١١٧

- الحرب :

- الثأر ١٢٠-١٣٣
- التمثيل ١٣٣-١٣٨
- الأسري ، والسبايا ١٣٨-١٥٤
٢- الطبقية في المجتمع الجاهلي ١٥٥-١٦٣

الباب الثالث :

النهي عن الإسراف في القرآن الكريم ١٦٤-٢٦١
١- الإسراف في القيم المرتبطة بالعلاقة مع الله ١٦٧-١٩٦
٢- الإسراف في القيم المرتبطة بالعلاقة مع النفس :
- القيم المتعلقة بالسلوك ١٩٧-٢١٠
- القيم المتعلقة بالمشاعر الإنسانية ٢١١-٢١٦
٣- الإسراف في القيم المرتبطة بالعلاقة مع الآخرين
١- القصاص، وأحكام القتال ٢١٦-٢٣٦
٢- الإنفاق ٢٣٦-٢٤٦
٣- الجرائم الأخلاقية ٢٤٦-٢٥٥
٤- الإسراف في معناه الشامل ٢٥٥-٢٥٩
خلاصة ٢٥٩-٢٦١

الباب الرابع

دراسة فنية بيانية
١- من الشعر الجاهلي ٢٦٣-٢٨٠
٢- من القرآن الكريم ٢٨١-٣٠٧
الخاتمة ٣٠٨-٣١٥
الفهارس ٣١٦-٣٧٢
قائمة المصادر والمراجع ٣٧٣-٣٨٣
متن الرسالة ٣٨٤